
غرباء مألوفون
المسلمون في شمال غرب الصين
FAMILIAR STRANGERS



الإهداء

إلى الأبرياء من ضحايا التميز العنصري
والإسلاموفوبيا حول العالم!

المترجم

مقدمة المترجم

يفتح الكتاب نافذة على تاريخ ما يقارب ٤٠ مليون مواطن صيني مسلم وثقافتهم، ويقع في مقدمة وستة فصول إضافة للمراجع والتعليقات. يقول المؤلف إن الغرض منه هو إثارة الاهتمام من أجل القيام بدراسات أعمق وأشمل للمسلمين الصينيين وتناول الخلافات والصراعات التي وردت في قصصهم. ويضيف أنه أعده ليكون مصدرا لطلبة التاريخ في المرحلة الجامعية أو الدراسات العليا. ولذلك فإن الكتاب جاء زاخرا بالمصادر التوثيقية والخرائط والملاحظات التوضيحية حول القضايا التي يتناولها بالتفصيل ليمكن أولئك الطلبة من قراءة تاريخ الصين قراءة متمعنة، وليتلمسوا طريقهم في معرفة ما أنزلته الدولة من الجرائم بالمسلمين، وما أوقعوه المسلمون، الصوفيون خاصة، في بعضهم البعض من الجرائم المماثلة الرذيلة والتسبب في بشاعات يومية بتشجيع من الدولة أو بدونه. ورغم بعد المسافة والزمن، فإني وجدت في جانب من الكتاب استشرافا للزمن العربي الحالي الرديء في ربيعه المدمر المتقلب، حيث شهدت عدة مزارات ومقامات صوفية وقبور الأولياء والصحابة منذ قرابة السنتين اعتداءات تراوحت بين تخريب هذه الأماكن وحرقها ونبشها، والتي يُشتبه بقيام السلفيين بتنفيذها. ناهيك عن حملات التصفية الدموية الرهيبة والمذابح التي يوقعها التكفيريون والجهاديون في ضحاياهم من المواطنين الأبرياء، المسلمين وغير المسلمين، مما شهدتها وتشهدها كل من ليبيا وتونس واليمن والعراق وسوريا والجزائر ومصر، ولربما دول عربية أخرى في المستقبل القريب.

يغطي الكتاب فترة تمتد منذ لحظة وصول الإسلام إلى الصين في القرن السابع، عن طريق التجار والدعاة، حتى قيام جمهورية الصين في القرن العشرين. تتابعت خلال هذه الحقبة الزمنية الطويلة على حكم البلاد سلالات متعددة شملت **التانگ**

ثم سلالة **السونگ**، التي تلتها فترة حكم سلالة **اليوآن** المنغول. سقطت سلطة **اليوآن** على يد سلالة **المنگ** التي سقطت هي الأخرى بدورها على يد المنشوريين الذين أسسوا سلالة **التشينگ**. ذاق المسلمون الأمرين خلال فترة حكم هذه السلالة بالذات. فقد سُفكت دماء الآلاف منهم وأحرقت بيوتهم وممتلكاتهم وأجبروا على النزوح إلى مناطق أخرى، ولعبت سلطة الإمبراطورية دورا قذرا في ضرب بعضهم البعض لأنهم أبدوا مقاومة لإجراءاتها الغاشمة وحملوا السلاح دفاعا عن وجودهم. بقيت هذه السلالة في الحكم حتى بداية الحرب العالمية الأولى حين قام **الحكم الوطني**. لم يتغير واقع المسلمين في المجتمع الصيني كثيرا خلال حكم تلك السلالات وبقيت صورتهم أسيرة للأفكار العنصرية النمطية الظالمة والمعتقدات الراسخة في أذهان سكان البلاد من جميع الأجناس. وفي اعتقادي إن استعراض تاريخ المسلمين الذي يطرحه الكتاب يظهر قدرا كبيرا من التحيز الثقافي والتمييز العنصري، مما يجعل الصين حقا نموذجا صارخا للإسلاموفوبيا.

فخلال فترة سلالة **التانگ** (٦١٨ – ٩١٦)، وفي مدينتي **تشانگئان** **وگوانگجو** وغيرهما من المدن الكبرى، كان يتعين على الأجانب المسلمين السكن في مناطق معينة خاضعة لمراقبة السلطة، وأن ينحصر نشاطهم الاقتصادي على أسواق بعينها بغية الحدّ من احتكاكهم بالصينيين. كما اتخذت حكومة **التانگ** إجراء يقضي بمنع زواج الرجال الأجانب من الصينيات، وحتى ارتداء الزي الصيني. وهكذا بقي المسلمون تحت الإقامة المؤقتة وفق تعليمات الحكومة السرية منها والعلنية، وكذلك تصرفات المجتمع الصيني من حولهم. لقد مُنحوا قدرا من الحقوق المدنية والاستقلال الإداري ضمن مناطق تجمعهم، ولكن حُظر عليهم الاختلاط بالسكان المحليين. غير أن إجراءات من هذا القبيل لم تمنع بعض المسلمين من تعلم اللغة الصينية والزواج من الصينيات والبقاء لفترة طويلة في الصين. ورغم أنه يمكن للشخص الحدس بمدى علاقتهم بالسكان المحليين، فليس هناك شك بأن البعض منهم قد استقروا واستطاعوا أن يجدوا زوجات مسلمات أو تحولن إلى الإسلام من

بين الجماعات المهاجرة الأخرى والسكان المحليين، وخلقوا مجتمعا خليطا يوحده الإسلام، وكونهم "أجانب" وربما استخدامهم اللغة الفارسية كلغة للتعامل بينهم.

في فترة حكم سلالة **السونگ** (٩٦٠-١٢٧٩) كان تجار الاستيراد والتصدير ذوو الشأن مسلمين، وكانوا يتمتعون بالإقامة الدائمة ولهم ممثلوهم في مدن **تشانگئان وتشانجو وخانگجو** وكايفنگ **ويانگجو وگوانگجو** وربما غيرها من المدن الأخرى. كانت تجارتهم تشمل سلعا مختلفة وكان عددهم غير قليل. فمثلا قتل جنود **تيان شنگونگ** الآلاف من المسلمين العرب **الجاشى** والفرس **البوسي** في مدينة **تسانگجو** خلال معركة **التانگ** ضد الثوار المحليين. ويقول المؤلف إن المصادر العربية تشير إلى أنه عندما سيطر جيش المتمردين بقيادة **تشاو خوانگ** على مدينة **گوانگجو** عام ٨٧٩ فإنه قام بإهراق دم عشرات الآلاف من التجار الأجانب، أغلبهم من المسلمين.

كانت الحارات التي يسكنها المسلمون تُسمى "حارات الأجانب" (بالصينية **فانگ فانگ**)، وكان ذلك يمثل نوعا من المساومة التي فُرضت عليهم. كان على المسلمين في تلك المناطق أن يخضعوا لسلطة محاكم اسلامية إذا ما اقترفوا ذنبا ضد المسلمين الآخرين، وكان القاضي مُعترفا به من قبل الدولة. أصبح القليل من المسلمين قبل نهاية فترة **السونگ** مواطنين عاديين. ولكن حسب رأي المؤلف فإنهم من جهة والحكومة من جهة أخرى لم يكونوا راغبين حقا في هذا التبادل الثقافي والتكيف.

سمحت سلطة **السونگ** للمقيمين بأن يلبسوا ويأكلوا ويؤدوا صلواتهم كما يحبون. كما تركت لهم أن يحافظوا على لغتهم، شرط أن يتعلموا الصينية ويستخدموها في ميداني العمل والتجارة. كما تُرك لهم أن يمارسوا طقوسهم وشعائرهم شرط ألا يقوموا بالتبشير لدينهم. وتمكن عدد قليل من هؤلاء المقيمين ممن حصل على ثقافة كلاسيكية من الحصول على وظائف لتدوين تاريخ الإمبراطورية، وحصل واحد منهم فقط على شهادة قانونية امبراطورية! وحتى

منتصف حكم سلالة **السونگ** اعتبر جميع المسلمين انفسهم في نظر الصينيين مقيمين بشكل مؤقت ولا يتمتعون بحق الإقامة الدائمة.

في أواخر القرن الثاني عشر تقريبا، كان بعض المسلمين يعيشون في الصين لعدة أجيال واستطاعوا أن يشغلوا مواقع هامة. كان من بين المولودين لعائلات أجنبية، أو ما يسمى **ووشي فانكي** (الجيل الخامس لوالدين أجانب) ممن سُمح لهم بالزواج من الصينيات وأن يشتروا أراضي لغرض بناء المساجد أو استخدامها كمقابر في مدن الثغور. سمحت سلالة **السونگ** في جنوب البلاد (١١٢٧- ١٢٧٩) للتجار الأجانب تولي مناصب رسمية، إذا كانت عائلاتهم قد عاشت في البلاد لثلاثة أجيال. كما سُمح للأجنبي أن يتزوج احدى أميرات القصر الإمبراطوري إذا كان هو أو أحد أفراد عائلته قد حصل على منصب حكومي عالٍ!

يضيف المؤلف أن التجار العرب والفرس هم الذين أدخلوا التكنولوجيا إلى الصين مثل تصنيع الأقطان وصناعة الزجاج، وأنهم أخذوا عنها مهارات صناعة الخزف والورق ونقلوها إلى الشرق الأوسط. كما تمت عمليات أكثر تعقيدا ولم تحظ بالتغطية خصوصا ما كان يتعلق منها بالطب. فقد جلب الفرس والعرب العقاقير الطبية إلى البلاد وساهموا في تطوير أساليب الشفاء والصيدلة.

جلبت قوة التحول الحضاري في القرن الثالث عشر تحت ظروف الحكم المغولي (١٢٧٩ – ١٣٦٨) إلى الصين مدّا من المسلمين ذوي المهن المختلفة والثقافات المتعددة، ليس فقط كتجار ورجال أعمال بل كقضاة ومعماريين وعلماء وحرفيين ومزارعين. ولكي يبسطوا نفوذهم على المناطق المفتوحة قام **أوگدي ومونگي وقُبلاي** بتأسيس ادارات ثانوية جديدة واستثنوا الصينيين منها. كما أسسوا اتحادات للتجار سموها **السيمو گوان**. ومن الجدير بالذكر أن **ماركو پولو** الكاثوليكي القادم من **فينا** أصبح واحدا من المسؤولين، لكن أغلبهم كانوا مسلمين من وسط آسيا وغربها.

لقد أنيطت بهم مهام حفظ السلام وجمع الضرائب وتوزيع البضائع، الأمر الذي جلب على هؤلاء الأجانب شهرة بغيضة اخلاقيا بين صفوف الصينيين. غير أنهم

استطاعوا من تثبيت أقدامهم كمقيمين دائميين. ولكي يضمنوا لأنفسهم وللسيمو المناصب العليا قام أمراء **اليوآن** بتولي مناصب الحكام المحليين. وكذلك حظي عدد من المسلمين بإشغال وظائف بدرجة وزير خلال فترة حكم **اليوآن** المبكرة، تميز منهم **السيد آجال شمس الدين** (بالصينية **سي ديانتشي**) الذي سمح له منصبه كحاكم لمقاطعة **يوننان** بعد أن شغل مناصب عليا قبلها، أن يُثبّت وجود المسلمين الدائم في جنوب غربي الصين.

استطاع المسلمون أن يبسطوا نفوذهم على الميدانين الأكاديمي والاقتصادي داخل بيروقراطية **اليوآن**. فالدوائر المسؤولة عن اختصاصات الفلك والطب وصناعة الأسلحة، خاصة المنجنيق وأسلحة الحصار الأخرى، واللغات الأجنبية، كان على رأسها عدد من العلماء والتقنيين المسلمين. فالفارسي جمال الدين مثلا قد أحضر التصاميم لأحدث أدوات علم الفلك من بلاد فارس، وقام في العاصمة بكين بتأسيس أول مرصد فلكي لمراقبة الأجرام السماوية. فأصبح بذلك العالم المفضل لدى **القُبلاي** لما يتعلق بأمور التقويم السنوي. أضحى علماء الفلك المسلمين، خاصة الفرس، جزءاً من حياة البلاط منذ أواخر القرن الثالث عشر حتى أفول نجمهم بوصول المبشرين اليسوعيين بعد ثلاثة قرون. حين جاء هؤلاء كان فكرهم محملا بذكريات هزائم الحروب الصليبية، فعززوا الصور النمطية الكريهة عن المسلمين. كما يتوجب القول، ثمة تلك الأمثولة القديمة، المتكررة والمكرورة، عن الكيل بمكيالين. فالكنيسة اعتذرت، في مناسبات شتى، عن مواقف الصمت أو التواطؤ أو المباركة الضمنية، التي اتخذتها بعض المؤسسات إزاء بعض الجرائم. ولكنها ما تزال تلتزم الصمت المطبق إزاء عمليات الإبادة الجماعية التي مارسها الفاتحون الإسبان ضدّ الأقوام المختلفة الأصلية الأمريكية وسط لامبالاة الكنيسة، ولكن أيضاً وسط مباركتها للمذابح في أمثلة عديدة. والتاريخ يسجّل أنّ المبشّر ورجل الدين كان العمود الرابع في تنفيذ الفتح، بعد الملاّح، والكاتب المؤرّخ، والفاتح العسكري. في كتابه الشهير "دموع الهندي"، يشرح الأب الدومينيكاني بارتولوميو لاس كاساس الفظائع الرهيبة التي سكت عنها الآباء والمبشّرون، بل

شجّعوها تحت دعوى التنصير الإجباري لهذه "الأقوام الهمجية". وفي موازاة دفاع الأب لاس كاساس عن المساواة بين البشر، توفّر الفقيه الإسباني خوان دي سيبولفيدا، الذي دافع عن التمييز الصريح بين البشر، وتساءل بوقاحة: "كيف يمكن لأحد أن يعتبر غزوهم، وإبادتهم في حالة الضرورة، أمراً غير مبرر وهم على ما هم عليه من همجية وبربرية ووثنية وكفر ودعارة؟"(١).

خلال الغزو الناجح لشمال الصين على يد جيش قوامه من المغول **والسيمو** الصينيين، استطاع رجلان مسلمان بناء منجنيق، الأمر الذي مكّن المغول من السيطرة على **شيانگيانگ** ثم **خينان**، التي تُسمى الآن **خوبي**. وفي عاصمة سلالة **اليوآن** تمّ تأسيس كليات لتدريس اللغة الفارسية وغيرها من لغات آسيا الوسطى. وكغيرهم من الأجانب المقيمين بشكل مؤقت خلال فترات حكم السلالات السابقة، فإن **السيمو والأورتاق** من المسلمين في عهد **اليوآن** كانوا يرومون البقاء في الصين. وبعد مرور جيلين أو ثلاثة تعلموا اللغة الصينية وأصبحوا معروفين بجودة أسلوبهم عند الكتابة بها. وبرز من بينهم عدد من الشعراء والرسامين والموظفين المدنيين الذين أجادوا اتباع تعاليم كونفوشيوس واحتلوا مكانتهم في النشاط الثقافي منذ منتصف فترة **اليوآن** حتى نهايتها. وحتى الحرفيين الذين تمّ جلبهم من وسط آسيا استقروا في مناطق قريبة من سكنى الصينيين ولكن على شكل مدن أو مستوطنات "مختلفة". وبغض النظر عمّا إذا كانوا قد درسوا تعاليم كونفوشيوس بشكل كلاسيكي أم لا، فإن عددا كبيرا من المسلمين الذين عاشوا في الصين كان لهم من التصميم ما دفعهم لخدمة السلالة المغولية من خلال المهن والوظائف المتنوعة، وهي التي مهدت الأجيال القادمة منهم لاستيعاب الثقافة الصينية والتشرب بها.

ومن الغريب قول المؤلف إن كل من أرخ لفترة **اليوآن**، وصف المسلمين بأنهم يفتقدون إلى النواميس الأخلاقية وآداب السلوك ويتصفون بالقذارة. فاستنادا إلى ما صرح به **تسانگ** "إن **للخيويخيوي** رائحة كريهة جدا حتى لو استحم." هذا وكان **تاو** قد أشار إلى قصيدة هجاء جاء فيها "إن انوف فيالهم أصبحت مفلطحة وعيون

قططهم توحي بالغباء وكل آمالهم بحياة طويلة قد ذهبت أدراج الرياح .... يااللأسف! عندما تسقط الأشجار تتبعثر القردة،" لكي يوضح مصير مسلمي **السيمو** الهمج عند اندحار أسيادهم المغول الذي ما كان منه مفرّ. وهنا نجد مرة أخرى أن المسلمين يشار اليهم بأنهم **الآخرون** الذين لا رجاء في إصلاحهم، ليس وفق نزعة الخير الكونفوشية نحو الكائنات الأقلّ درجة، بل تعبيرا عن نفس من العنصرية الواضحة. كما نجد اقوالا تدل على السخرية من قبيل أنهم لا يمكن أن يكونوا أندادا لنا لأنهم غير قادرين على استيعاب **ونخوا** (الثقافة الأدبية الصينية)! ومن الجدير بالذكر أن مثل هذه الأحكام قد ازدادت قسوة بتزايد أعداد المسلمين الذين تشبعوا بالثقافة الصينية.

إن وجود المسلمين- رغم قلة عددهم تحت قيادة عسكريين غير مسلمين- في الجيوش الصينية التي دحرت المغول ودفعت بهم شمالا كان نذيرا بتغير تدريجي ملحوظ في ظروف المسلمين في أواخر فترة **اليوآن** وبعدها **المنگ** في الصين. فالأجانب الذين كانوا يُسمّون **فنكه** ثم **سيمو** أصبحوا الآن **خيويخيوي**، غرباء مألوفين جاءوا اليوم ومكثوا للغد ثم أصبحوا مواطنين عاديين ولكنهم مختلفون. ساور القادة الجدد بعض القلق حول العلاقة بالناس والولايات التي تمتد على طول الحدود الشمالية والغربية. حاول حكام **المنگ** (١٣٦٨ – ١٦٤٤) أن يؤثروا على تثقيف المقيمين "الأجانب" نتيجة خوفهم من **الآخرين** وثقتهم بقوة الحضارة الصينية وقدرتها على التأثير. فالجنرال **جو يوانجانگ** قد ضمّ إلى قيادة جيشه عددا من الضباط المسلمين وربما قد تكون له زوجة مسلمة. غير أن السلالة التي أنشأها لم تؤثر أولا على مواطنيها من المسلمين ثقافيا، وثانيا لم تقض على التمييز ضد المسلمين في الصين.

وظف أباطرة **المنگ** بعض المسلمين في مواقع عالية منها عدد كبير من العلماء في مختلف المؤسسات الحكومية التي تعنى بشؤون التنجيم والتقويم السنوي وتفسير الشواهد. ونظرا لنجاح جمال الدين مثلا وخدمته تحت عدد من امراء **اليوآن** فإن **مكتب الفلك** كان فيه قسم خاص لدراسة التقويم العلمي الإسلامي

وكتاب علم النجوم الإسلامي اللذين حافظا على وجودهما. وإضافة إلى تعيين وحدات عمل علمية "إسلامية"، فإن العلماء من مسلمي الصين قد اشاروا إلى الأصول الإسلامية لعدد من مسؤولي **المنگ** الكبار والمفكرين المشهورين من أمثال **خاي روي وما ونشنگ وما تشيانگ** والأديب الكبير **لي جي** الذي يعود اصله إلى محافظة **تشوانجو**. إن ذكر مثل هذه المنجزات يمكن أن يثير في انفسنا الشك بأن نعد مثل هؤلاء مسلمين أو تعتبر القضية برمتها **مسألة دينية** لأن الحكم بحد ذاته راجع إلى أسماء الأشخاص أو أصولهم التي انحدروا منها، أو في الحقيقة اعتبار **الخيوي** جزءاً من هيكل **المنتسو**. إن الكثير من هؤلاء الرجال، خاصة **لي جي**، لم يترك اشارة إلى اصولهم كمسلمين ولم يكن الدين موضوعا مذكورا في كتاباتهم ولا في سير حياتهم الشخصية. ولذلك فإن نسبة صفة **الخيوي** قد أظهرت في القرن العشرين ادعاء يشير إلى مفارقة تاريخية تظهر رغبة الطبقة العليا في فترة **المنگ** لربط انفسهم بالمتدينين وبالذين اظهروا تشبعهم بالثقافة الصينية.

لم تضع امبراطورية **المنگ** قيودا على الإسلام، ولكنها كانت تشكّ أن يتحول المسلمون إلى طابور خامس محتمل يعمل لمصلحة الغزاة القادمين من وسط آسيا. كما تمّ اتهام المسلمين بأنهم "يحاولون التحايل على الأنظمة التجارية قصد عدم دفع الضرائب، أو التخطيط لمهاجمة المستوطنات في مناطق الحدود الصينية". ولذلك فهم يمثلون خطرا داخليا. أما المسلمون خارج الصين فإنهم كانوا يسعون إلى توطيد علاقاتهم على جانبي حدود دولة **المنگ** مع آسيا الوسطى.

ومع ذلك فقد تمّ تعيين قائد مسلم للأسطول البحري الصيني. إن قوة السلطة التي تمتعت بها الصين بفعل قيادة **جنگ خي** في بحر الصين الجنوبي والمحيط الهندي وصولا إلى البحر الأحمر قد جلبت للصين والبلاط ثروة طائلة وموارد متنوعة وسلعا نادرة وحيوانات غريبة. وأكثر أهمية من ذلك، فإن الحملات البحرية قد خلقت في داخل الصين شعورا عميقا في شرعية حكم الإمبراطور **يونگل**. أرسل الحكام الأجانب، بما فيهم العرب والفرس على امتداد طرق التجارة، ممثليهم إلى

بلاط الإمبراطور في **نانجينگ** ثم بكين، التي جعلها **يونگل** عاصمة للبلاد عام ١٤٢١، وهم محملين بالهدايا الغالية مقابل استلام "الخمس" من المسلمين. وبالإضافة إلى الثروة والأشياء الغريبة التي عادت بها حملات **جنگ خي**، فقد حملت معها المعرفة والاقتناع بأن أعدادا هائلة من سكان العالم يؤمنون بديانة **الخيويخيوي**. إن الانطباعات الثانوية عن جنوب آسيا وغربها، التي سجلها المسؤولون في فترتي حكم سلالة **التانگ**، قد حلت محلها تقارير اصلية كتبها رجال صينيون ممن سافروا حقا إلى تلك المناطق وتاجروا وتفاوضوا واشتركوا في حروب تبعد عن سواحل الصين. لقد وجدوا أن المسلمين يعيشون في مناطق تمتد من مدينة **تشوانجو** إلى مدينة عدن، بل أبعد من ذلك. وأدى بحارة حملات **جنگ** مناسك الحج في مكة وكتبوا وصفا للكعبة وقبر النبي محمد وبئر زمزم وغيرها من الأماكن المقدسة عند المسلمين.

أما الزواج فكان يعني دائما أن يتزوج الرجال المسلمون من نساء صينيات تحولن إلى الإسلام وأصبحن عضوات في المجتمع المسلم. ونادرا ما كان يُسمح بزواج المرأة المسلمة من رجل غير مسلم لأن الشريعة والضغط الاجتماعي يمنعان "خسارة" امرأة لكي تقترن بشخص "خارجي". كما سُمح للمسلمين بتبني الأطفال وكان للنساء المسلمات الصينيات دور كبير في دفع عملية التشبع الثقافي. وهذا بالضبط ما نوته حكومة **المنگ** بجعل الصينية لغة الحوار في بيوت المسلمين في الصين. وكانت العملية الثالثة متمثلة بتحول الصينيين الراشدين إلى الإسلام الذي زاد من عدد المسلمين كما زاد في التداخل الإثني في مكونات المجتمع الصيني. لا بدّ من الإشارة إلى أن عملية تحول الرجال إلى الإسلام لم تكن بقوة حركتي الزواج والتبني. كان دافع بعض أولئك الرجال هو زيادة فرص نجاحهم في التجارة في بعض المناطق التي تسكنها أغلبية مسلمة، وكذلك الانتفاع عن طريق الانضمام إلى شبكة التجار والقوافل التجارية. وهكذا أصبح الصينيون مسلمين وانضموا إلى طبقة **الخيويخيوي**. وتجدر الإشارة إلى أن آخر عوائل **المنگ** المسلمة قد دونت أن نسبها القبلي يعود إلى **كونفوشيوس** من أجل تكريم أسلافهم على الطريقة الصينية. وبلا

شكّ فإن مثل هذه الوثائق توضح تشبع المسلمين بالثقافة الصينية ووصول علاقتهم بالعالم الإسلامي خارج الصين إلى الحضيض.

رغم أن المسلمين قد عاشوا في الصين منذ أيام **التانگ** وأن الكثير منهم أصبحوا مفكرين مرموقين في الثقافة الصينية، إلا أنه لا أحد منهم قد كتب نصا إسلاميا واحد بلغته الأمّ، الصينية. قد يبدو هذا الأمر مريبا وغريبا في نفس الوقت أنه بعد ثمانية أو تسعة قرون من وجودهم هناك لم يُكتب نصّ واحد على الإطلاق! بقيت الفارسية والعربية دون استثناء اللغتين الفاعلتين في الدين الإسلامي. ولذلك فإن القيام بكتابة نصّ بلغة اخرى كان يتطلب شجاعة شخصية وروحا خلاقة للقيام بتلك المهمة. وخلال الفترة الوسطى من حكم **المنگ** حتى نهايته كان القلق حول امكانية استمرار الإسلام كدين في الصين قد بلغ أوجه، وخلق للنخبة منهم الظروف المواتية لسبر غور تلك المهمة على أن يكون من يقوم بها قد وصل إلى قدر من الكفاءة اللغوية في كلتي اللغتين ليكون بمقدوره ترجمة النصوص والأفكار والحكم. غير أن ذلك لم يكن متوفرا في المدن الشرقية في مقاطعة **يونان**.

منذ بداية تولي السلطة على الصين، حاول حكام سلالة **التشينگ** (١٦٤٤ -١٩١٢) أن يبسطوا نفوذهم على التجار في **طرفان** و**هامي** لكي يتعاملوا مع عدد من التجار الصينيين الذين يتم اختيارهم من قبل المسؤولين في منطقتي **لانجو** أو **بكين**. كما حاول الحكام المنشوريون إعادة العمل بتجارة الخيول مقابل الشاي التي احتكرتها دولة **المنگ** منذ بداية حتى أواسط فترة حكمها. قوبلت مثل هذه التدخلات في شؤون تجارة آسيا الوسطى بسخط التجار في شمال غرب البلاد وزادت من تردي الوضع الاقتصادي ودفعت بعض المسلمين لاستخدام العنف، خاصة في منطقة ممر **گانسو** وهو حلقة طرق المواصلات بين **گانسو** و**تركستان**. لربما كان المسلمون على علم بأن الحكم المنشوري يواجه مقاومة في كل ارجاء الصين، الأمر الذي أدى إلى تبعثر قواته العسكرية، وهو الذي دفعهم ليستغلوا ذلك لصالحهم.

إن تهدئة الوضع كان يجب أن يُخطط لها كي لا تتكرر أعمال العنف، غير أن معالجة مشاكل العامة ومكافأة القوات المؤيدة التي أبدت بسالة في القتال لا يمكن

أن تحلّ مشاكل السيطرة المبالغ فيها على النشاطات التجارية والفقر التي كانت وراء قيام الانتفاضات أصلا. إن جيشي **ميلاين** و**دنگ گودونگ** لم يضما ثوارا مسلمين فقط، بل كان معهم **آخرون** من الصينيين والتبتيين. غير أن عملية التهدئة التي قام بها المسؤولون قد أفردت المسلمين باعتبارهم عنيفين بالفطرة. وكما أن اقتراح **خو بي**، وهو مسؤول مدني، قد جسد سياسة التمييز العنصري ضد المسلمين دون سواهم من **الآخرين**، مما ترك لتلك السياسة أثرا بعيدا لأنهم متوحشون بطبيعتهم ولا بد من "ترويضهم" عن طريق اخضاعهم لعملية "التدجين" السلمية! وافق البلاط على قبول هذا الرأي فأقرّ سياسة توطين المسلمين في ممر **گانسو** بعيدا عن المدن والحاميات العسكرية. وإضافة إلى ذلك قُطعت التجارة مع مدينة **هامي** لمدة خمس سنوات، وحتى اللحظة التي أرسل فيها حاكم المدينة مبعوثا يعتذر عن دورها في التمرد. إن سقوط **المنگ** المنغوليين وانتصار **التشينگ** المنشوريين لم يغير واقع المجتمع المسلم ويجعله خاضعا أو متكيفا. كان للبعض منهم أصدقاء في **هامي** وكانوا على استعداد للقتال إلى جانبهم. ومن المثير للسخرية أنه برغم التعميمات السلبية عنهم، فإن المسلمين قاتلوا **كصينيين** تأييدا **لمنگ** كان يطالب بالحصول على العرش الإمبراطوري في **بكين**.

بحلول منتصف القرن الثامن عشر جاءت من وسط آسيا تشكيلات دينية واجتماعية جديدة متمثلة بالطريقة **الصوفية** التي حركت اهتماما قويا بالنشاطات السياسية والقوانين الإسلامية وتضامن المجتمع مع الإبقاء على روح التنافس التي يسمح بها الدين. وهكذا وعن طريق دمج نفسها بالأفكار الصينية حول التوريث اجتماعيا وفكريا، أصبح **للمينخوان** الصوفية مؤسسات اقتصادية نشطة. إن مجيء **الصوفية** من الغرب قد عزز روابط مسلمي **گانسو** مع مراكز دينهم في مناطق وسط وغرب آسيا، فتوسعوا في بناء المساجد والمقامات والمزارات والزوايا الصوفية. غير أن تكيفهم قد حصل ضمن اطار ثقافي صيني الهوية. وخلال فترة حكم

التشينگ تعرضت المنطقة إلى ضغط قادم من المدن الكبيرة الواقعة شرق البلاد حيث توجد تيارات قوية نامية لشد ارتباط هوية المسلمين بأرضهم الصينية لغويا وفكريا وثقافيا.

كانت هناك محاولات للتوفيق بين الإسلام والكونفوشية بقصد إقناع الصين أن الإسلام ليس خطرا يهددهم. يقول **ليو جي** في مقدمة كتابه **تيانفانگ ديانلي** "إن أساليب **الخوي** (الإسلام) ورو (الكونفوشية) تأتي من نفس المنبع، وإن مبادئ كل منهما تتشابه مع الآخر." ولأنه يعرف جيدا تأكيد الكونفوشية على الناموس الأخلاقي ويعرف أن نصوصه الإسلامية تركز بشكل شديد على اللاهوت والعلاقة بين الإنسان والخالق، فإن **ليو** قسّم **الداوية** إلى قسمين وادعى أن الإسلام قد وضّح **تياندو** (الطريق إلى الجنة) في حين أن **راندو** (طريق الإنسانية) يمكن أن يوجد في كتب الكونفوشية وممارسات اتباعها. ومثله مثل **وانگ دايّو**، قال **ليو جي** إن فروض الإسلام الخمسة موازية للمبادئ الصينية الخمسة، التي تشكل أساس المبادئ الأخلاقية للكونفوشية. وعن طريق خلق هذا التوازي الأخلاقي، وضع **ليو جي** الإسلام والكونفوشية على قدم المساواة، إذ قال، "إن الكتاب المقدس ... هو الكتاب المقدس لدى المسلمين، لكن مبدأ Li هو نفس المبدأ الذي يوجد في كل مكان تحت الشمس. تنتقل الفصول الغنية لكتاب **تيانفانگ ديانلي** من النظري إلى الفلكي ثم إلى الواقعي، وذلك في الأقسام حول التعاليم الأصلية إلى حقيقة **الفروض الخمسة والعلاقات الخمسة** وصلاة الجمعة ودورة الحياة. غالبا ما انتقِد الكتابُ من قبل علماء المسلمين وغير المسلمين واعتبروه متأثرا جدا بالكونفوشية وشديد الاسترضاء لهيمنة الفلسفة الصينية. ويقول المؤلف إن **ليو** نحا منحى وسطا بين الدفاع المستميت عن الإسلام الفريد في طبيعته، وكتابات بعض العلماء المُتشبعين بالثقافة الصينية من العائلات التي كانت مسلمة في السابق، والتي لا يمكن تمييزها عن كتابات غير المسلمين.

عندما وصلت **الصوفية** إلى الصين أول مرة، عارض المسلمون المحليون تلك الموجة الجديدة التي تقوم على التأمل وتنحو نحو طريقة سرية لا يمكن مقارنتها بديانتهم الإسلامية التقليدية التي يسمونها **القديمو**. غير أن البعثات التبشيرية **الصوفية** من وسط آسيا والصين بقيادة شيوخ مثل **هداية الله** وما **لايتشر** وما **منگشين** و**الخوجه عبد الله** كانت لهم امتيازات رمزية وشخصيات قوية وأنهم جاءوا أو درسوا في قلب أرض الإسلام. درس أغلبهم في مكة وادعى اثنان منهما على الأقل بأنهما من سلالة النبي محمد ﷺ، وهما الأمران اللذان ضمنا لهم مكانة خاصة بين المجتمعات الإسلامية في امبراطورية **التشينگ**. كانوا يجيدون العربية والفارسية اللتين لم يجيدهما رجال الدين **القديمو**، لأن ثقافتهم وتحصيلهم انحصرا على المدارس المحلية. إن تملك **الصوفية** لمصادر "نقية" من غرب آسيا، وإن قدرتهم على ترجمة تلك المصادر قد أضافتا إلى تأثيرهم على الذين تحولوا إلى الطرائق **الصوفية**. كما أن البعض منهم كان ميالا إلى الانتقال من مكان إلى آخر مما زاد في تحول الناس إلى طرائقهم عن طريق الاتصال المباشر أو الأصوات العالية "لزخرفة" هذا التيار الديني وانتقاله بين الناس كانتشار الإشاعات!

غيرت **الصوفية** شخصيتها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر على امتداد العالم الإسلامي. امتدت حركات التجديد من غرب افريقيا إلى الصين ودعت إلى تنقية الإسلام مما علق به من الأمور الثقافية نتيجة المفاسد الاجتماعية والاقتصادية والدينية التي يمكن أن تكون قد تمّت في صفوف الحركة **الصوفية**. وعندما يُهيمن الإسلام السياسي، أي التدين الحزبي على اختلاف عناوينه، ليس لديه أكثر من الطائفية يطلقها فهي الأخصب لإيجاد حزب ديني. وفي العديد من الأقطار الآسيوية كانت **النقشبندية** في طليعة هذه الحركة الجديدة. وصلت حركة التجديد **الصوفية** إلى شمال غرب الصين في شخص **عزيز ما منگشين** (١٧١٩ – ١٧٨١) صاحب **الجهرية**، وهو نقشبندي من **گانسو** والذي حاله حال **ما لايتشير** صاحب **الخفية**، درس في مكة واليمن لعدة سنوات.

من أشد الصراعات تقسيما، هي التي دامت مدة طويلة وأدت إلى خسائر فادحة بين صفوف المسلمين في شمال غرب البلاد. لم تكن الصراعات بين الطرائق **الصوفية والقديمو**، بل كانت بين **الخفية والجهرية**، متمثلة في صراع شخصي بين قائديهما اللذين كان كل منهما يدعو مسلمي **كانسو** إلى اتباع خطاه. كان المسلمون هناك يستمعون إلى رسالتين مختلفتين تدعوان لممارسة شعائر مختلفة عن بعضها البعض وتتبنيان مفاهيم اجتماعية وسياسية متغايرة. فأتباع الصوفية **الخفية** ادّعوا أن **الجهرية** تمارس شعائر خرافية على حافة اللاأخلاقية، خاصة في حلقات الذكر وما فيها من الرقص الإيقاعي الصاخب. كما اهتمت **الجهرية** بتثقيف المرأة في وقت كانت فيه المؤسسة الدينية المتشددة اجمالا تناهض حقوق المرأة في مجتمع يتمسك بقيم اجتماعية محافظة جدا. ومن جهة اخرى انتقد **ما منگشين** التبرعات العالية التي كان يطالب بها أتباع **ما لايتشر** مقابل خدماتهم الدينية وتأكيدهم على فرض المهابة والوقار على قبور الأولياء وجعلهم مشيخة **الخفية** قضية وراثية. احتلت هذه القضية موقعا رئيسيا بدأ من **ما لايتشر** نفسه الذي أحلّ **البركة** وأجاز نقلها من الآباء إلى الأبناء، وهي مسألة كانت لها أهميتها الاقتصادية والاجتماعية. قاد موضوع الوراثة إلى ما سُميّ **مينخوان**، وأصبح **ما لا يتشر هواسي** هو أول **مينخوان**.

يقول مؤلف الكتاب "وهكذا أمكننا أن نجد اتجاها نحو نزعة المجابهة العسكرية عند **ما منگشين** وجماعة **الجهرية** من جهة، وإذعان **ما لايتشر** وجماعة **الخفية** من جهة اخرى، في وجه القوة العسكرية الجبارة لحكومة **التشينگ** ونفوذها السياسي." ومن هذا يبدو تقبل **الخفية** للأمر الواقع حين اعترفت بالسيطرة الجلية لسلالة **التشينگ**، ووجدت فيها فرصة للازدهار، في حين طالبت **الجهرية** بالإصلاح وتجديد الإسلام للوقوف في وجه اجتياح تلك السلالة، التي عنت السيطرة الكاملة لغير المسلمين. فبدأت حرب ضروس استمرت مدة قرن ونصف.

يذكرنا المؤلف بقسوة المسلمين على بعضهم البعض ويورد على ذلك مثالا حين وقعت قوات **تانگ يانخي** في الفخ وتمّ دحرها في **شوانگتشنگ**. هرب الضابطان المسلمان الأخوان **ما فولو** و**ما فوشيانگ** جنوبا بصحبة قائدهما، ثم رجعوا جميعا إلى **لانجو**. قام **يانگ تشانگجون** بتكريمهما لإخلاصهما المتفاني للإمبراطور، وتمّ ارسالهما إلى **خيجو** برفقة الجنرال **دونگ فيوشانگ**. حصل الإثنان على المديح من الجنرال لنجاحهما في استعادة المناطق القريبة من مدينتهم ولمساهمتهما في ايقاع المذابح التي حلت بالمسلمين في **مايئگ** و**ميلاگو** ومدن **خيجو** الأخرى، إذ قدما لقادتهما سلالا ملأى بالآلاف من رؤوس ضحاياهم من المسلمين وآذانهم! واستنادا إلى تقرير نُسب إلى مصادر **ما تونگ** أن مسلمي **خيجو** قالوا عن ولدي **تشيانلينگ** إن مركزي **ما فولو** وأخيه **ما فوشيانگ** قد بُنيا بجماجم المسلمين، وإن قبعة **ما أنليانگ** الحمراء قد صُبغت بدماء المسلمين!

كما يورد المؤلف مثالا آخر عندما تمكن **ما يونگلين** من المناورة وعبور **نهر تاو** في مطلع شهر أغسطس. لكن تقدمه أوقف بسهولة على يد فرقة من فرسان جيش **التشينگ** بقيادة المسلم **ما أنليانگ** الذي صمد في الميدان وقاد هجوما معاكسا متوجها إلى **خيجو**. ورغم أن **ما أنليانگ** كان يكن شعورا للتضامن مع المسلمين الآخرين، لكن ذلك لا يشمل قطعا **ما يونگلين** الذي فعل ما فعله في قاعدة **ما أنليانگ** الرئيسية. من الواضح أن دوافعه كانت بقصد الانتقام. قامت كتيبة الفرسان بقيادة **ما أنليانگ** بدحر مقاومة المسلمين عند سفوح جبال **أوشهارت** وكسرت بعد اسبوع من القتال العنيف الحصار المفروض على **خيجو** وحررت المدينة بتاريخ ٤ ديسمبر. تمّ إلقاء القبض على ٤٠٠ من قادة المسلمين وجرى اعدامهم على وجه السرعة. أعدم **ما ويخان** قائد قوات **المفتي** في **ديداو** بصحبة **ما جانئو** المساعد السابق **لجو تيشي**، وابيدت أسرة **ما يونگلين** بكاملها. وهكذا انتهت انتفاضة **خيجو**، التي كلفت عشرات الآلاف من الأرواح وجلبت الخراب والدمار على **بافانگ**،

بانتصار كامل لدولة **التشينگ**. وما دام القائد المسلم **ما أنليانگ** في موقع المسؤولية فإن باستطاعة الإمبراطورية أن تنعم باستتباب سلطتها على جنوب **گانسو** للمدة المتبقية من حكمها والبالغة ١٥ عاما.

من مفارقات القدر أنه تدخلت بعض الأمور الأساسية التي لولاها لكانت حركة **ما وانفو** الأصولية المتمثلة **بالإخوان المسلمين** قد عاشت لوقت قصير في شمال غرب الصين. كان **ما تشي** واحدا من الجنرالات المسلمين الذين تحالفوا لبعض الوقت مع **ما أنليانگ** لغرض تأسيس قاعدة مستقلة له في **شينينگ** التي تقع على حافة التقاء الثقافة الصينية مع ثقافة التبت على الطريق الحيوي الموصل بين منغوليا والتبت. وبعد سقوط امبراطورية **التشينگ**، تمكن **ما تشي** من بسط نفوذه على **شينينگ** وبدأ يبني نفوذ عائلته المتمثل بالقوة والثروة في تلك المنطقة المعزولة المعروفة بغناها النسبي. وبالرغم من نجاحاته، لم يكن **ما تشي** ندّا مساويا لقوة **ما أنليانگ** العسكرية ولا علاقاته الدينية والسياسية. لكن **ما تشي** وجد الفرصة مواتية للاستفادة من نفوذ **الإخوان** والاستعانة بهم لمنافسة **ما أنليانگ** و**مينخوان خواسي** التابع له.

أرسل **ما تشي** قوة عسكرية عبر **ممر بياندو** باتجاه الطريق العام، وتمكن أفرادها من السيطرة على حرس **الإخوان** وجلبوا قائدهم **ما وانفو**الى **شينينگ**، حيث قضى بقية حياته معتمدا على حماية **ما تشي** ومن خلفَهُ. ومن جهته أعلن **ما تشي** أن مبادئ **الإخوان المسلمين** هي مبادؤه. فمثلا أصدر أوامر مشددة ضد الأفيون وأضعف نفوذ **المينخوان** في المنطقة. غير أنه لم يتقبل برنامج **ما وانفو** بأن يعزل المسلمين عن المجتمع الصيني. استمر في المشاركة في النظام العسكري الصيني مما خلق له الحلفاء والأعداء بين الجنرالات المسلمين وغير المسلمين، كما أنه شارك في حركة الصراع الوطني في البلاد خلال الفترة من ١٩١٦ - ١٩٣٠. وهكذا يتبين أن **ما تشي** بدأ عملية تغيير **الإخوان المسلمين** من حركة أصولية راديكالية إلى جماعة لا تتبنى التفريق والعزلة وتركز على أنها حركة إصلاح صينية.

ومع أن حركة **الإخوان** قد استرعت انتباه رجال الدين الراغبين في اعادة النظر في النصوص الدينية، إلا أنها لم تنجح في تغيير مشاعر ولاء المسلمين لمؤسساتهم القائمة. وحتى بين صفوف **القديمو** في **شانشي** حيث أمضى **ما وانفو** السنوات العديدة يعمل بينهم، لم تصبح المنطقة مركزا للحركة الأصولية. لم ينجح **الإخوان** الأصوليون إلى أية درجة تُذكر في المجتمعات التي تعتبر نفسها صينية محترمة، وأن أغلب المجتمعات المسلمة في شمال غرب البلاد لم تكن ترغب أو تريد الظهور بأنها غير صينية. أضف إلى ذلك أن شبكة نشاطات **المينخوان** القائمة لعدد من القرون وفق أفكار **القديمو** كانت تتمتع بالقوة بين صفوف المسلمين الصينيين. إن قيادة رجال مثل **ما أنليانگ** و**ما تشي** قد أرسيَت على قدرتهم على حماية مجتمعاتهم من تسلط دولة **التشينگ** ومن العنف الذي ارتكبه اخوانهم في الدين ضدهم ومن العنف المتولد من عداوات الجماعات الإثنية الأخرى مثل التبتيين والصينيين غير المسلمين. لم يستطع **ما وانفو** ولا مريدوه أن يحلوا محل أولئك القادة المعروفين مما اضطرهم إلى الانخراط تحت راية **ما تشي** ودعوته للسلطة المدنية بدلا من السلطة الدينية من أجل حماية أهدافه ونفوذه. كان لا بدّ لهم من الابتعاد عن الشعارات التي تدعو إلى العزلة، وأن يساندوا برنامجا ذا طبيعة محافظة. وعندما تمّ لهم ما أرادوا، وجد **الإخوان** أن من مصلحتهم أن يدعوا إلى وحدة المسلمين التي أصبحت أكثر وضوحا. وعلى الطرف الآخر وبسبب العداوات المتواجدة بين **المينخوان** ضد بعضهم البعض، فإنهم عجزوا عن تحقيق توحيد المسلمين، وأن مساجد **القديمو** كان ينقصها ارساء العلاقات وتطويرها بين الجماعات المسلمة. وهكذا استطاع **الإخوان** أن يسدّوا الفراغ في حياة مسلمي الصين بعد عام ١٩١٧ ليدعوهم للتوحيد والتضامن. وبفضل ذلك اختفت تدريجيا دعوتهم لعزلة المسلمين عن واقعهم الحياتي. كان نجاح **ما تشي** للاستعانة

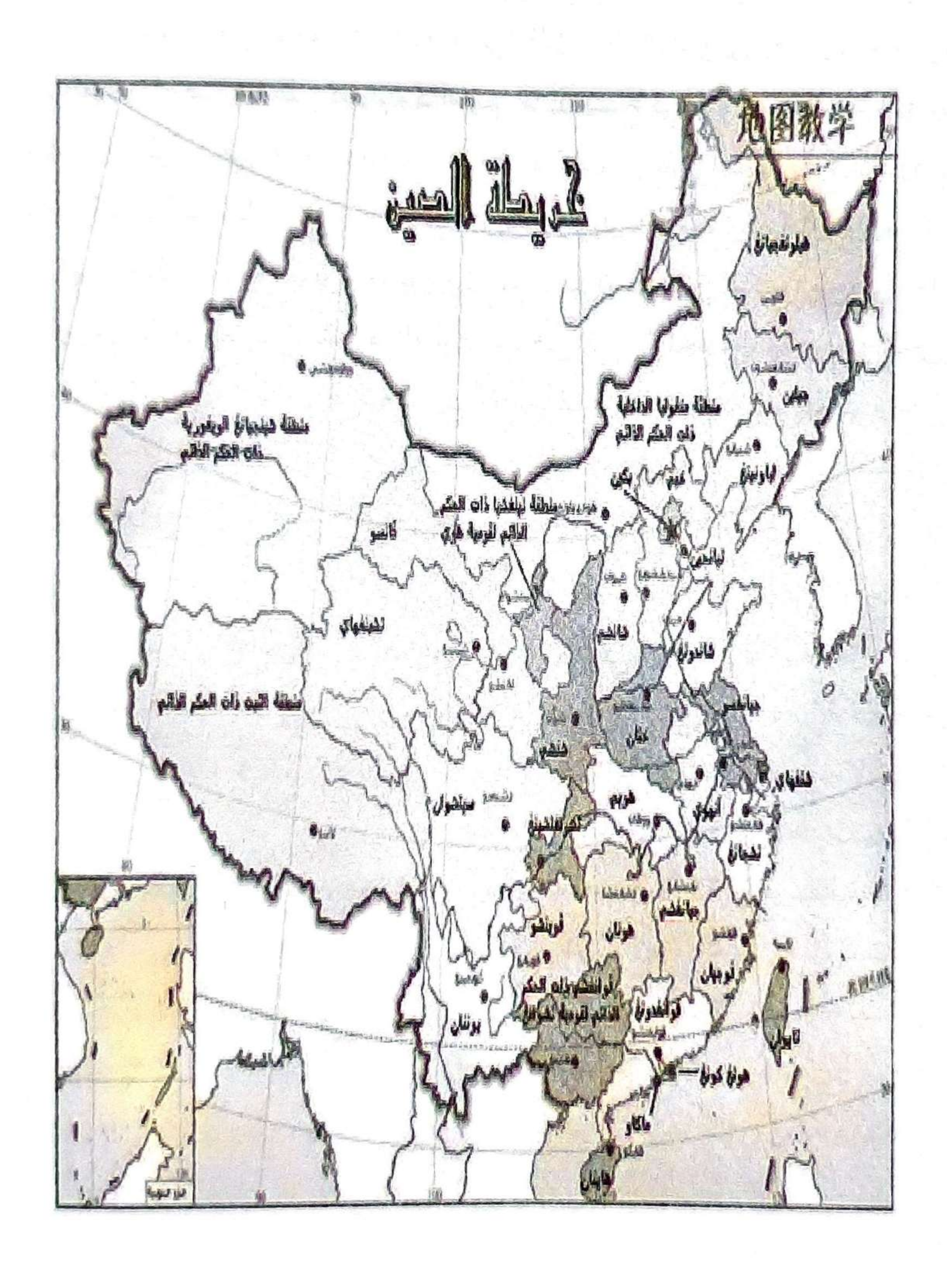
بالإخوان ودفع برنامجهم للتوحيد بدون الانفصال قد اقنع عائلة **ما فوشيانگ** في **نينگشيا** من الانضمام إليه بهدف الإستفادة من الدعوة لوحدة المسلمين. ورغم أنهم استمروا في عضوية **مينخوان** العائلة الأصلي فإن **ما فوشيانگ** وابنه **ما خونگكوي** وإبن أخيه **ما خونگين** قد عملوا على مساعدة انتشار فكر **الإخوان** في مناطقهم التي تمتد من صحراء منغوليا حتى **وادي نهر وي**.

هنالك تعليق للكاتب علاء الأسواني نُشر حديثا فحواه، أن المجموعات الدينية تتأثر بالأوضاع السياسية السائدة في بعض البلدان. ولا يُعتبر الاضطهاد الديني نتيجة للرؤى الدينية المغالية فقط، بل ينتج كذلك عن أنظمة سياسية تصادر الحريات الدينية وتضطهد الأديان المخالفة للتوجه الرسمي.(٢) والصين بتقديري هي النموذج الأمثل لمثل هذا الموقف. عندما تفرغ من قراءة هذا الكتاب ستصل إلى استنتاج يتلخص في أن تكون مسلماً في الصين معناه أن تدرك مبكرا أنك مختلف ومتخلف في آن واحد. أنت قبيح وشرير ولك رائحة مثيرة للاشمئزاز. يعني أن كثيرين لا يحبون ديانتك ولا يعترفون بها، وبالتالي ما إن تنطق باسمك الذي يدل على دينك حتى تصفعك غالبا ردود فعل سلبية تتراوح بين المعاملة الباردة والكراهية الصريحة. أن تكون مسلما معناه أنك إضافي، هامشي، زائد عن الحاجة. أنت مشكوك في أمرك، نادرا ما ينتبه أحد إلى حقوقك وكرامتك، ومعناه أن تتعود على سماع إهانات لدينك في كل مكان. سوف تشاهد رجال دين الأغلبية وهم يؤكدون أن دينك ضلال وكفر ويحذرون أتباعهم من التعامل معك والاختلاط بأسرتك. وبعض رجال دين الأغلبية يعتقدون أنه يجب تحريم تعيينك في المناصب العليا بسبب دينك، كما أن الدولة لا تثق بك أصلا. أنت في نظر الدولة مشروع خائن قد يتصل بالأعداء في أية لحظة لأن الأعداء لهم دينك نفسه. أن تكون مسلما في الصين معناه أن تعاني بشدة من أجل بناء مسجد تمارس فيه دينك. وكما يجري هذه الأيام في الغرب عامة، سوف تمنعك الدولة والمتطرفون من بناء المساجد. الدولة تضع قوانين مقيدة تجعل بناء المساجد مهمة صعبة للغاية تتطلب أخذ

موافقات عديدة من السلطات. أضف إلى ذلك، أن المتطرفين يعتبرون بناء أي مسجد اعتداء صارخا على دينهم وكرامتهم. ما إن تشرع في بناء المسجد حتى يهب مئات المتطرفين ليهاجموه ويحرقوه ويعتدوا عليك وعلى أهلك وأولادك وهم يلعنونكم لأنكم كفار. كل هذا سيحدث لأنك تريد بناء مكان لعبادة الله وسوف يتركهم رجال السلطة يفعلون ما يريدون، ثم يصلون متأخرين ليكتبوا محضرا بعد فرار الجناة! أن تكون مسلما معناه أنك معرض في أية لحظة للتهجير من الحي الذي تسكنه، لأن سكان الحي يعتقدون أنك عنيف بالفطرة وستنقلب عليهم وتنكل بهم، إذا ما أتيحت لك أقرب فرصة. وهذه جميعا مظاهر التمييز العنصري والإسلاموفوبيا في أقبح أشكالهما وصورهما، القديم منها والحديث.

د. محمد جياد الأزرقي

مونتگيو، ماساتشوست، الولايات المتحدة



يتركز المسلمون في المناطق الشمالية ذات الحكم الذاتي وهي منغوليا ونينغشيا وشينجيانغ

مقدمة المؤلف

أغراض تاريخ المسلمين في الصين وأشكاله

يعيش المسلمون في الصين منذ أواخر القرن السابع الميلادي، ولكن لا يوجد تاريخ شامل لهذه الفترة التي تمتد على مدى ١٣٠٠ عام. لم يكتب أحد عن هذا التاريخ في اللغات الأوربية ولا حتى في لغات الشرق الأوسط. ومن الناحية الواقعية بالنسبة للدراسات الصينية أو الإسلامية، فإن الأوربيين والأمريكيين على السواء قد وجدوا أنفسهم أنه لا تتوفر لديهم المصادر الموثوقة لدراسة هذا الموضوع الذي يخص تبادلا حضاريا. وباستثناء القليل فإن جلّ اهتمام مفكري الصين الحديثة قد انصب على مقالات ضيقة المجال أو نظريات عن صور نمطية مبالغ فيها. وانسحب نفس الشيء على مفكري اليابان، وأن آخر كتاب شامل عن الموضوع كان قد صدر في مطلع القرن التاسع عشر.

لو أخذنا بنظر الاعتبار غزارة المصادر الأولية عن المسلمين في الصين، فإن الأمر المتوقع هو توفر الكثير من الدراسات الأكاديمية من قبل المفكرين الأجانب. لكننا للأسف وجدنا أن وجود الأعداد الكبيرة من المسلمين في الصين قد نتج عنه نوع من الاضطرابات بين فترة واخرى، وصاحبه اهتمام دائم من قبل كل المراقبين للوضع في الصين، خصوصا البعثات التبشيرية وكذلك طرفا النزاع اللاعبون في الساحة وهما الإمبراطوريتان الروسية والبريطانية، قدر تعلق الأمور في وسط آسيا وشرقها. غير أن معظم المفكرين المعاصرين من الأمريكيين والأوربيين المهتمين بتاريخ الصين وكذلك طلبتهم قد وجدوا انفسهم في وضع حرج ليذكروا شيئا عن تاريخ مسلمي الصين، باستثناء أنهم عاشوا لفترة طويلة، ويعتبرون من الأقليات الوطنية من وجهة النظر الرسمية لجمهورية الصين الشعبية. إن القصص عن مجيئهم إلى البلاد وكيف عاش اجدادهم وكيف يعيشون الآن وكيف يختلفون عن جيرانهم

من غير المسلمين، وكيف يختلفون عن بعضهم البعض، ربما تكون قد أثرت على تاريخ الصين. كل هذه الأمور لا وجود لها في كتب التاريخ الصينية، ولا تذكر المسلمين الا عندما يلجأ البعض منهم إلى اعمال العنف. حتى الذين يتخصصون في الدراسات الإسلامية يعرفون القليل عن مسلمي الصين. وعندما يُشار اليهم فإن ذلك يكون عادة في الحواشي عند الحديث عن العالم الإسلامي الواسع، وينحصر ذكرهم على القليل من الحكايا الخيالية المنقولة عن مصادر ثانوية.

لم يقتصر هذا الاهتمام المحدود على مجيء المسلمين وكيف تأثروا بالحضارة القائمة ووجودهم بين "أديان العالم الثلاثة" على ساحة الثقافة الصينية. فبالرغم من صعوبة الحصول على المصادر الأساسية ونجاحات واخفاق البوذية والمسيحية واليهودية في الصين، فإن هذه الديانات قد خضعت للتحليل الدقيق الواسع الذي تناول احيانا التقليل من شأنها. وفي احيان اخرى اعتُبرت تلك الديانات حكايا غريبة واقاويل اجنبية، وأن المؤمنين بها غالبا ما اشير اليهم بأنهم برابرة غرباء. غير أنهم أصبحوا تدريجيا اشخاصا طبيعيين وعاديين، أي أصبحوا "صينيين". تشبه الحواجز الفكرية واللغوية، التي تقف في طريق دراسة المسلمين في الصين، في طبيعتها الحواجز التي يواجهها مفكرو الديانات "الأجنبية" الأخرى. غير أن الصعوبة التي تتعلق بدراسة المسلمين تجد جذورها في الاعتقاد السائد بأن المسلمين هم سواء أينما كانوا، وأن الإسلام على خلاف الأديان الأخرى يفرض على أتباعه فكرا محدودا. فمثلا يمكننا أن نصفَ بحريّة الصينيين البوذيين، وأن نتناول بالنقد تعقيدات الثقافة المسيحية هناك. وحتى يمكن أن نعتبر اليهود الصينيين بأنهم يهود من الناحية الدينية ولكنهم صينيون من الناحية الثقافية! الرأي السائد أن ذلك لا ينطبق على المسلمين، إذ لا بد أن يكونوا من الأتباع المتحمسين للنبي محمد، ولذلك لا يمكن أن يكونوا صينيين على الإطلاق، لأنهم لم يتشربوا بالثقافة الصينية بالكامل. هذا الموقف المعقد لا يتفق مع المنطق ولا مع تاريخ الأديان عموما، وتاريخ الإسلام خاصة، ذلك لأن الدين وحده لا يمكن أن يجعل الناس يتصرفون بطريقة دون سواها في وقت معين أو مكان معين. فهناك الكثير من العوامل الأخرى

في شخصية الأفراد تدفعهم باستمرار ليتصرفوا بطريقة معينة أو يتفقوا على أمر ما دون سواه.

إضافة إلى ذلك فإن ارتباط هذه المسألة بتاريخ كل من الإسلام والصين يتطلب دراسة المسلمين في الصين، كما يجب أن تضاف هذه الدراسة كعنصر لدراسة أشمل للحدود بمفهوميها الثقافي والجغرافي الواسعين، وكذلك التواصل الثقافي وترتيبه زمنيا، وانتهاء بالمجتمعات المتعددة الثقافة. فخلال الألف سنة الماضية طفت إلى السطح عدة تغيرات واسعة ذات طبيعة ثقافية متعددة.(١) ولعدة اسباب، من بينها التجارة والإقامة الطويلة المدى والهجرة خوفا من التهديدات العسكرية، أو الهجرة صوب المناطق الغنية بالمصادر الطبيعية، وكذلك اتساع الإمبراطوريات ومن ثم تقلص المناطق التي تحت نفوذها، كل هذه كانت من بين الأسباب التي اضطرت الناس إلى الهجرة وجعلتهم عرضة لثقافات اخرى وناس آخرين وبيئات مختلفة، مما ادى إلى تغير أنماط حياتهم تغيرا جوهريا. استطاع البعض أن يتكيف بعد عدة اجيال (كما في حالة المهاجرين إلى جنوب افريقيا والأمريكيين من اصل انكليزي)، في حين حاول البعض الآخر (أو أُجبروا) على العيش في عزلة لعدة قرون (كما حدث لليهود في أوربا والهوّا في الفيتنام). إن المهاجرين الذين يتعرضون للثقافة الجديدة في لحظة تاريخية معينة، يمرون بتجارب معقدة تتطلب منهم التأقلم للحياة الجديدة والتعايش مع الآخرين.

لعبت سياسة الدول العامل الأساسي للتغيير والتداخل الاجتماعي والثقافي والسياسي خلال القرنين المنصرمين، وأصبحت بالذات السبب الحاسم في دراما التأقلم الثقافي. لقد اشتمل ذلك الدول التي كانت في طريقها إلى التغيير أو الدول الجديدة التي خلقتها الدول الإمبريالية نتيجة سقوط امبراطوريات وبروز اخرى. فالدول الحديثة وضعت حدودها وأخضعت كل من يسكن داخل تلك الحدود لسلطتها الوطنية. وفي الكثيرمن الحالات ضمّت هذه الدول شعوبا وأناسا يختلفون في ثقافتهم عن اولئك الذين أصبحوا سادة عليهم. كما أن هذه الكيانات الوطنية الجديدة اعطت لنفسها فقط الحق الكامل لمنح المواطنة وأصبح بمقدورها أنْ تقوم

بإحصاء السكان وتصنيفهم وتقسيمهم.(٢) بكلمة اخرى أصبحت لها السيطرة الكاملة على العناصر الأساسية في تقرير هويات الأفراد الشخصية.(٣)

ورغم أن هذه الممارسات لم تكن جديدة تماما في طبيعتها فإن الصلاحيات التي اعطتها الدول الوطنية لنفسها تختلف بدرجة كبيرة عما كان سائدا في فترة "ما قبل ظهور مفهوم الدولة الحديثة." فلو أخذنا على سبيل المثال امبراطورية **التشينگ** التي استمرت للفترة ما بين (١٦٤٤-١٩١٢) فقد كانت لها سلطة اثنية (ethnological) تبيح لها حصر مواطنيها وتصنيفهم على اساس اللغة والعوامل الثقافية، لكنها لم تذهب إلا نادرا في أن تطلق عليهم مسميات معينة.(٤) وعندما حاول الأباطرة **التشينگ** أن يضعوا فروقا بين المواطنين ويفرضونها عليهم بالقوة فإنهم فعلوا ذلك قصد الحد من الإختلاط بهم لكي يستمروا هم في المحافظة على بقاء مركز **المانتشو** (Mancho) مسيطرا على مختلف مرافق الدولة وأن يكون قادة مختلف المناطق تابعين له. وعندما اضطرت الصين إلى الإلتحاق بالمنظومة الدولية، فإن الدولة قامت على أسس الثقافة الصينية- أولا باسم جمهورية **التشينگ** والآن جمهورية الصين الشعبية. وهكذا اختلقت الدول الجديدة مجموعات بشرية وفرضتها على الحقيقة الاجتماعية الموجودة وقادتها بدرجات متفاوتة. تستخدم جمهورية الصين الشعبية الآن وسائل تكنولوجية حديثة ذات طبيعة سياسية واجتماعية للتغلغل في المجتمعات المحلية بدرجة فعالة تفوق ما كان يقوم به المستعمرون السابقون. وخلال عملية استمرت ما يقارب مدة قرن بكامله فإن الدولة الوطنية قد ورثت وتفننت في استخدام الوسائل الحديثة من أجل خلق نموذج موحد للمجتمع الصيني يقوم على مبدأ **المنتسو** (Minzu).

المنتسو

تقسم جمهورية الصين سكانها إلى ٥٦ **منتسو**. والكلمة يابانية تعود إلى القرن التاسع عشر وليس لها مقابل بالإنكيزية. ربما يكون اصلها ترجمة للكلمة الألمانية das Volks وتستعمل الآن لتعني "الجماعات الإثنية-القومية" أو "الوطنية" أو "شعب" أو

"أمة". يقول دنرلاين الإنكليزي إن عبارة **تشيان مو** تعني "أصل الجماعة"، وهو يعتقد أن الوجود والقوة يأتيان من النسل الصيني وعاداته وتقاليده.(٦) لقد أصبح مفهوم **المنتسو** في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في الصين قوة غير مرئية عملها عمل الإسمنت في توحيد كل الذين يرجعون بأصولهم إلى **الإمبراطور الأصفر**. وهو تعريف يوضح بصراحة الإرتباط بسلالة اليابانيين **أيدو** (Edo) **وميجي** (Meiji) من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. كما يظهر الإرتباط البعيد بالعنصر الألماني الآري وغيره من النظريات العنصرية الأوربية، إضافة إلى السكان الصينيين الأصليين.(٧) في القرن العشرين أصبح مصطلح **المنتسو** وغيره من الكلمات المركبة يستخدم كلمة (zu) بقصد ايضاح اصول الانتساب لتصبح عناصر أساسية في اعادة خلق مفهوم (الصينية). لقد تأثرت هذه العملية بدرجة عميقة بمذهب **اللاماركية الجديدة** (Neo-Lamarkism). *"مذهب لامارك في التطور العضوي يؤكد على أن التغيرات البيئوية تحدث في الحيوانات والنباتات تغيرات بنيوية تنتقل وراثيا إلى الذرية- المترجم"* كما تأثرت بنظريات علم تحسين النسل التي دافع عنها بالحجة علماء أوربيون وأمريكيون.

ومن الجدير بالذكر أن جمهورية الصين الشعبية قد استعارت نموذج السياسة الوطنية بحسب المفهوم الستاليني القائم في الإتحاد السوفياتي آنذاك، وحولت **المنتسو** إلى آلة بيروقراطية لتصنيف الشعب. لقد أصبح "تحديد" **المنتسو** الصيني منذ الخمسينات جزءاً من مشروع سياسة الدولة لتصنيف الناس وحصرهم داخل حدودها، وبأنهم اعضاء في هذا **المنتسو** أو ذاك. وترتب على ذلك أن تثقيفهم وتقديم الخدمات لهم ووضع السياسات يتم بما يتناسب مع هذا المفهوم. كما قامت الدولة بتأكيد وجعل مفهوم **المنتسو** مجردا، جعلته ماديا بكل ما تعنيه هذه الكلمة. فانسحب ذلك على عملية الانضمام إلى المعاهد الدراسية والمشاركة في وضع السياسات التي تتعلق بأمور القوميات المختلفة ومعاهد البحوث اللغوية التي أصبحت مهمتها جمع القصص والحكايا الفولكلورية عن **المنتسو** لتدرّس في مدارس الأطفال.

ولغرض تبريرهذه العملية الواسعة التي تشمل ما يقارب البليون شخص، فإن الأمر تطلب خلق تاريخ موحد وقصة غرضها التوحيد، ولكي يمكن أن توضح

الحقيقة الصلدة حول استمرارية **المنتسو** وصلتها الوثيقة بالماضي والمستقبل. تعتمد القصة أصلا على **الغائية** التي وضع لويس فورگان أسسها الخمس للانتقال من حالة البدائية إلى الحضارة الإشتراكية. *"تقوم فلسفة الغائية على الفرض بأن كل شيء في الطبيعة مقصود به تحقيق غاية معينة- المترجم"*. وكغيرها من القصص الوطنية فإنها تضم في طياتها ايديولوجية السيطرة والادعاء "بأننا أفضل منهم." وبموجب هذا التعريف يكون بمقدور كل **منتسو** أن يتطور وفق ظروفه التاريخية والبيئوية الخاصة به، ولكن يجب أن يكون هدفه هو تحقيق نموذج **المنتسو** المتقدم. ويُعتبر **منتسو الخان** الذي يفترض بأنه يضم غالبية المواطنين الصينيين هو ذلك النموذج. يجب أن نتذكر بأن غالبية- وليس جميع- الناس يمكن تصنيفهم بأنهم "صينيون ثقافيا". وخضع هذا المفهوم بدوره لمبدأ **بروكرستيس**، ولكن ليس بنفس الطريقة التي يُنظر فيها للشعوب الأقل تقدما. *"كان* Procrustes *هذا لصا اغريقيا خرافيا يمدّ أرجل ضحاياه أو يقطعها لكي يجعل طولها ينسجم مع فراشه. المقصود هنا هو إحداث التناسب والتجانس بوسائل عنيفة أو اعتباطية، من غير الأخذ بالفروق الفردية والظروف الخاصة- المترجم"*.

يرى أتباع قومية **الخان** أن تاريخ الصين يختلف عن تاريخ **المنتسوات** الأخرى ويعتبرون انفسهم اساس تاريخ الحضارة الصينية نفسها. ولذلك فإن تاريخهم يمثل تاريخ الصين، وهو التاريخ المتسلسل المتماسك الذي تخيله الأوربيون المتنورون واعتبروه قدر الجميع آجلا أم عاجلا.(٨)

إن أتباع "الأقليات القومية/الإثنية" التي اطلق عليها سابقا **منتسو شاوشو**، من الذين غالبا ما يدعون **منتسو** قصد تمييزهم عن **الخان**، قد جاءوا بمواقفهم التاريخية "المناسبة" فوضعوا قصصهم وحكاياهم وطبعوها بما سميّ **جيانشي** (Jianshi) "التواريخ المبسطة". تذكر هذه الكتب نفس القصص تقريبا لكنها مزخرفة بتفاصيل عن توصيفات اثنية، بدأ من **الموسو** (Mosuo) أي البشر المتحجرين من العصور السالفة (الذين يرتكبون اعمالا غريبة مثل ممارسة الجنس خارج اطار الحياة الزوجية) في **يونّنان**. وتشمل نصوصا عن المنغول (أكثر تلك القبائل قد مارست

الفلاحة لعدة قرون)، ثم حكايا وقصصا عن بقايا شعب منشوريا (كان يجب إقناع البعض من هؤلاء أنهم منشوريون). وبهذا انتقلت مختلف انواع **المنتسو** من مرحلة البدائية إلى العبودية إلى الإقطاع إلى الرأسمالية إلى الإشتراكية في تطور طرق الانتاج. ثم وصلت أفضل درجاتها عندما تأقلمت للحياة الصينية وتعلمت من طبقة مجتمع **الخان** المتقدم.(٩) إن انتشار هذه القصص على المستوى العالمي، بما فيه العدد الهائل من القصص عن شعب **الخان**، والنماذج التي طُرحت هي التي شكلت تاريخ الصين. وهي قصة يمكن أن تعدل وتزوّق ولكن لا يجوز الشك بها ولا يحق إثارة الأسئلة بشأن دقتها. أصبحت هذه القصص التاريخية العنصر الأساسي "للمشروع الحضاري" لجمهورية الصين الشعبية التي بنت عليها ووسعتها فغيرت "جهود المراكز السياسية المبكرة- **لليوآن** المنغول **والمينگ** الصينيين **والتشينگ** المنشوريين ومن ثم الجمهوريين الصينيين- كما استطاعوا أن يبسطوا نفوذهم على الجماعات الهامشية المتبقية. وبعد أن توحدت الدولة آنذاك قامت جمهورية الصين في القرن العشرين بتهذيب الشكل النهائي والحجم المطلوب لامبراطورية **التشينگ**، مستثنية جزءاً كبيرا من منغوليا وقسما صغيرا من الفيتنام. إن أشخاصا تاريخيين مثل جنكيز خان والدلاي لاما والإمبراطور **كانگشي**، واجزءاً كبيرة من مناطق التبت وتركستان ومنغوليا، ربما يكون الجميع بلا شك جزءاً من الصين.

إن المشكلة التي تكمن في التاريخ الشمولي والدوافع التقسيمية التي تنجم عنه - تموضع/عزل/تفريق الآخرين - هي في صلب هذا الكتاب. تقبل العلماء/ المؤرخون الأوربيون والأمريكيون بشكل عام وصف بعض السكان بأنهم "غير صينيين" رغم أن هؤلاء يعيشون في الصين. وهو أمر قامت به جمهورية الصين دون أية مشكلة، واعتبرتهم اعضاء في ٥٥ **منتسو** يمكن تمييزها بوضوح عن بعضها البعض. ولكن عند اجراء أية مراجعة موضوعية خاطفة يتبين أن جماعات **المنتسو** التي يفترض أن تكون مختلفة ومتميزة عن بعضها البعض تصبح في الحقيقة مختلطة وتستوجب اعادة تصنيفها.(١٠) ولو تأملنا بعض الأسئلة الوثيقة بهذا الكتاب والتي من بينها: كيف يُعرّف "المسلم" في جمهورية الصين الشعبية؟ ما هي

صلة هذه الجماعة الدينية بنموذج **المنتسو**؟ مَن يتحاشى اثارة موضوع الدين في تقرير درجة التمتع بعضوية ومكانة **المنتسو**؟ هل أن المسلمين ناس مسلمون بالوراثة حتى وإن كانوا لا يمارسون الطقوس الإسلامية واقعيا لأنهم يؤمنون بالعقيدة أصلا؟ كم تكون درجة التزاوج خارج **منتسو** الشخص قبل أن تتغير هويته القومية؟ هذا الأسئلة تعبر عن الصعوبة التي تواجهها كل من أوربا والولايات المتحدة فيما يتعلق بمجموعات "السود" و"الهنود"، وغيرهما من المجموعات القومية الأخرى، وهو الأمر الذي يعكس جمود المفاهيم التي تضعها الدول من أجل اعطاء الانطباع عن وحدة الشعب، وليس وصفا بسيطا للحقيقة الإثنية/العنصرية/القومية.

تدّعي حكومة الصين الشعبية أنها تفصل نموذج/مفهوم **المنتسو** عن الدين وتقسم سكانها من المسلمين إلى ١٠ **منتسوات**، ويُفترض أن تكون هذه المجموعات مختلفة باختلاف المناطق التي يسكنونها واللغة والاقتصاد والطبيعة النفسية.(١١) ومن بين هذه **المنتسوات** العشر، يعيش تسعة منها في أرض أجدادهم ويتكلمون لغتهم، رغم أن الغالبية منهم يتكلمون الصينية الآن. أما **المنتسو** العاشر فهو جماعة **الخوي** التي تؤلف نصف المسلمين الصينيين تقريبا (والذين كانوا مسلمين) ويُعتبرون بأنهم الفئة المتخلفة. خلال فترة حكم **المينگ** وفترة حكم **التشينگ** ومن ثم الجمهورية، كانت كلمة **الخوي** تعني "مسلم". وكان يقال عن الإسلام أنه "تعاليم الخوي" اي **الخوي جياو**. كما كانت هناك فروق اضافية وفق معايير اخرى. فالذين يتحدثون التوركية في منطقة **شونخوا** كانوا يُسمون **صلاه خوي**. أما الذين يلبسون العمائم ويسكنون في مدن منطقة واحة شرق تركستان فكانوا يُسمون **تشانتو خوي**. والمسلمون الذين كانوا يتكلمون الصينية فكانوا يُسمون **خان خوي**، وهناك اسماء اخرى. ومنذ فترة الخمسينات أصبح المسلم الذي يسمى **خوي** بأنه الشخص الذي ينحدر من أصل مسلم ويعيش في الصين ولا ينتمي إلى مجموعة **المنتسوات** اللغوية التسع الأخرى أو يسكن مناطق محددة معروف عنها أنها مناطق **المنتسوات** الإسلامية.(١٢) إن أكثر الأشخاص المشار اليهم في

هذا الكتاب هم من الذين ينتمون إلى **منتسو الخوي**. أي أنهم مسلمون يتكلمون الصينية، ويسمون انفسهم بهذا الاسم.

ترجع أغلب المصادر التاريخية عن الأصل القومي **لمنتسو الخوي إلى** أصل **خويتسو جيانشي** مع بعض الاصول الأخرى. وهي تدعي أنه خلال فترة حكم **المينگ** (١٣٦٨-١٦٤٤) أصبح مسلمو الصين **منتسو**، بالرغم من أنهم يفتقرون إلى ثلاثة من الشروط التي تحدد شخصية هذه الفئة.(١٣) ويتصف **منتسو الخوي** بانحداره من اصول عامة من المسلمين الأجانب من بقايا حكم **التانگ** (٦١٨-٩٠٧) والى فترة حكم **اليوآن** خلال الفترة (١٣٦٨- ١٧٧٩)، وانهم أتوا من مناطق جغرافية واسعة ويتكلمون في العادة لهجات عامية خارج نطاق ممارسة الشعائر، ولكن لا تعود دائما إلى اللغة الصينية. لم نجد في مصادر **المينگ** ما يشير إلى وجود هذه القومية- فكلهم جميعا مسلمون ويُطلق عليهم تسمية **خويخوي**. وذلك تعميم خاطئ للاسم السابق **خوي خو**، بمعنى **ويغور** (Ugur).(١٤) إن كلمة **خوي** هي مختصر لنفس الكلمة التي تعني "مسلم" في مصادر كل من **المينگ والتشينگ**. وهو معنى تمّ تغييره بشكل مقصود في القرن العشرين من قبل الحكومة بهدف استحداث مفهوم **منتسو** (مقابل كلمة دين) باعتباره مكافئا للشخصية القومية في الصين الحديثة.(١٥)

لقد نجحت جمهورية الصين نجاحا باهرا في فرض لغة مفهوم **المنتسو** على سكان البلاد جميعا، بمن فيهم المثقفون والعلماء "من الأقليات القومية". وكمؤرخ أجنبي، وضعني هذا في موقف أجد نفسي فيه مخالفا لهم، لأن المعنى الأساسي للكلمة - معنى الكلمات- برأيي يتناقض مع فهم المثقفين والزملاء المؤرخين ومعظم الصينيين الذين يتعاطون مع المصادر الأدبية الثانوية المتعلقة بهذا الموضوع.(١٦) ولا بدّ للقراء أن يكونوا على معرفة بهذه الإختلافات وأن ينظروا للمناقشات التي أطرحها في هذا الكتاب على أنها ليست وفق الكلمات بمعناها البحت، ولكن بموجب وقائع الحالة الموضوعية.

إن الأشخاص الذين قابلتهم لغرض هذا الكتاب كانوا في الغالبية مسلمين يتكلمون الصينية ولكن لن أسميهم **خوي** مالم يكن ذلك في مجال حديثي عن فترة حكومة الصين الشعبية. ونظرا لأن كلمة **خوي** تصنف في **منتسو الخوي** من أجل السرد التاريخي، فإني أفضل شخصيا مصطلح "المسلم الصيني" الذي يمزج ما بين الخلفية اللغوية الصينية وغيرها من العناصر الثقافية التي تعود إلى الدين الإسلامي، دون الاعتماد على المفارقات التاريخية التي عادة ما تخلط اصولها بالتبت **والتاي** (-Tai) والذين يتكلمون لغة **الباي** (Speakers)-Bai. واذا نظرنا إلى أبعد من ذلك، فإني أجد مفهوم **المنتسو** بأصوله التاريخية المزعومة والشعور القومي الذي بُني عليه والأصول المشتركة التي يرجع اليها، أجد كل ذلك موضع شكّ، قدر تعلق الأمر بالمسلمين الصينيين. إن أحد أهداف هذا الكتاب هو النظر فيما حدث على أرض الواقع في بعض المناطق الصينية قبل أن نتفحّص ما أصبح الآن النسخة المقدسة سياسيا لمفهوم **المنتسو** وعلاقته بالصين وتاريخ المسلمين فيها.

ولنفس الغرض سأحاول تطبيق فكرة الأعراق المعاصرة على مصادر بحثي عن المسلمين الذين لا يتكلمون اللغة الصينية. ولذلك فإن **السالار** يظهرون خلال فترة حكم **التشينگ** وإن **دونگ شيانگ** لا يظهر الا في القرن العشرين. ولربما سيكون من أشد الأمور ازعاجا للقراء المعاصرين أنني سأحاول تحاشي استخدام كلمة **خان** مفضلا عليها كلمة "صيني" وأحيانا "صيني غير مسلم". ورغم ثقتي من أن مصطلح **خان** قد ظهر في المصادر التي تعود إلى ما قبل فترة القرن العشرين فإن كلمة **خان** لا تعني ما تعنيه الآن. كما أن الدقة التاريخية توجب علينا ما كانت تعنيه في ذلك الوقت. وكما طرحت ألماز خان في مناقشاتها المقنعة عن المغول، وكما طرحت پاميلا كروسلي رأيها بشكل حذر عن **المانتشو** (Manchus) " *المنشوري هم شعب منشوريا المغولي الذي غزا الصين وأسس فيها سلالة حاكمة عام ١٦٤٤ – المترجم* " وكذلك طروحات فرانك ديكونز عن **الخان** الصينيين، فإنني سأحاول أن أوضح أنه قدر تعلق الأمر بالمسلمين الصينيين، فإن الشعور القومي وقضية النسب التي يقوم عليها مفهوم **المنتسو** ليست إلا مظاهر حديثة ترجع بأصولها لايديولوجية

السيطرة التامة التي قامت عليها الدولة الحديثة وليس إلى فترة "إمبراطوريات ما قبل الحداثة."(١٧)

طرق تصنيف المسلمين

من الواضح أن أهم المشكلات التي يعاني منها تاريخ المسلمين في الصين تعود في الأساس إلى تحديد المقصود بالتصنيف - الحدود التي تبين الثقافة ونظم فرض السيادة عن طريق السيطرة على لغة وقواعد ما يرد في المصادر التاريخية الأصلية والثانوية - في وقت معين. ونظرا لأني اكتب لقارئي بالإنكليزية فإني سأحدد نفسي بدرجة كبيرة بأنظمة التصنيف التي تتوفر في لغتي، والتي يوجد البعض منها في اللغة الصينية أو غيرها من اللغات الأخرى التي كتبت بها تلك المصادر التاريخية. فلو أخذنا كلمة **منتسو** أو كلمة "دين" بالصينية **تسونكجياو** أو كلمة "مسلم" بالصينية **مسلين** (Muslin) أو في الفترات المبكرة (**خويخوي وخويجاوتو**) وكذلك كلمات "البلاد" و"الصين" و"الدولة" بالصينية **گووجيا**، لوجدنا أنه ليس لها معان محايدة أو دقيقة لكنها تمثل قِطعا/اجزاء من البنية التاريخية. والأنظمة التي استنبطت تلك التصنيفات فعلت ذلك من خلال صراع القوى المختلفة.(١٨). لذلك أجد من المناسب أن أوضح أولا ما تعنيه تلك الكلمات.

الدين

إن اختلافات المسلمين مع الصينيين العاديين تعود إلى ما تعنيه كلمة الدين. بدءاً، لا بدّ من القول إن الوصف المثالي لثقافة **الخان** ومجتمعهم لا يتفق في الغالب مع المعايير الستالينية الأربع التي أصبغت على المسلمين لقب **منتسو**. وفي الحقيقة إن نموذج **المنتسو** عندما يُطبق على سكان جمهورية الصين الشعبية فإنه يمثل القليل فقط من مشاكل تاريخ المسلمين في هذه البلاد. ومن جهتي فقد قمت في هذا الكتاب بتصنيف الجماعات المختلفة وفرقت بينها مبدأيا من حيث المذهب والانتماء الديني ومجموعة الشعائر والواجبات الدينية للمسلمين. فالمسلم يمثل

تكاملا قويا لشخصية الفرد ويتطلب منا فهم المعايير التي كتبت بكلمات وارتبطت بتصرفات جاءت أصلا من بلاد بعيدة عن الصين.

ورغم أنه باستطاعة علماء الدين أن يضعوا معايير موضوعية لكي يصبح الفرد عضوا في **الأمة**، بمعنى أمة المسلمين على المستوى العالمي، فحالهم كحال تعريفات **المنتسو**، حيث بدأوا بثني المعايير التي وضعوها تحت ضغط الظروف التاريخية. وفي مجال التصرف الشخصي العام، فإنه في الصين وحتى في قلب أراضي المسلمين، فإن الكثير من الرجال والنساء المسلمين لا يصلون خمس مرات في اليوم ويتهربون من دفع الزكاة ولا يصوم غالبيتهم شهر رمضان، ولكنهم دون أدنى شك يعتبرون أنفسهم مسلمين (يسميهم البعض مسلمين غير جيدين). ولا تتوفر لدينا وسائل لنختبر طبعا ما يكنون في صدورهم فيما يتعلق بإيمانهم فعلا بالله. ومن خلال دراستي للمسلمين في الصين فإني أميل إلى القول بأن قضية "إسلام " الشخص لا تختلف في جوهرها كثيرا عن شخص آخر وكونه "بوذي" أو آخر بأنه "مسيحي". ولا تقتصر القضية على الناحية الدينية فقط بل تتعداها إلى النواحي النفسية والاجتماعية والسياسية والثقافية.(١٩) إن المصادر التي استخدمت في إعداد هذا الكتاب تصنف "المسلم" بطرق مختلفة تتراوح بين الممارسة غير العلنية للعقيدة الدينية إلى العوامل "الوراثية". ولا بدّ للقارىء أن يكون على علم بأنه ليس هناك تعريف غير ما يقوله الشخص عن عضويته في الأمة. ويجب علينا نحن الأوربيون والأمريكيون أن نبتعد عن اطلاق مسميات أو وصف سلوكية الأفراد بأنهم "مسلمون"، لأننا في الواقع متزمتون وأسرى لاعتقاداتنا بالسمو والسيطرة، عندما يتعلق الأمر بالعالم الإسلامي.

الطائفية والطرائق والتعاليم والتضامن

يتوزع مسلمو شمال غرب الصين على مجموعات محيرة أحيانا وفق ولائهم لبعض الزعماء أو الأفكار أو الجماعات الدينية.(٢٠) إن المسميات وهذه التركيبة ضرورية للسرد التاريخي واظهار التضامن الديني ودوره كعنصر اساسي في شخصية الأفراد في شمال غرب الصين. أضف إلى ذلك أن المسلمين يمكن أن يُقسّموا

أيضا وفق ارتباطهم بأماكن معينة أو فئات عمرية أو مهنية وغيرها. غير أن المصادر التاريخية لمنطقة شمال غرب الصين تركز بدرجة كبيرة على مدى الولاء لشخصية قيادية إسلامية، وتعبر عن أسس ذلك التضامن ومميزاته. سأستعمل كلمة "تضامن" للإشارة إلى كل هذه المجموعات ولوصف العناصر التي تشكل شخصية كل منها ومدى تضامنها الطوعي والفردي.

لقد أصبحت كلمة **مذهب** في الدراسات الإسلامية تشير بشكل خاص إلى الجماعات التي تعتبر المسلمين الآخرين غير مؤمنين، بمعنى **كفار أو كفرة**. فالخلاف السني/الشيعي يُشار إليه بأنه خلاف مذهبي، في حين لا يُستعمل مثل هذا التصنيف لوصف الجماعات الأخرى. ونظرا لأن الخلاف السني/الشيعي لا يمت لتاريخ الإسلام في الصين، فإن هذه العبارة لن ترد في سرد هذا التاريخ. وجدير بالذكر أن المتخصصين بدراسة الإسلام يستخدمون كلمة "طريقة" للإشارة إلى **الصوفيين** الذين سيحظى ظهورهم ومن ثم انتشارهم في الصين على قدر من التفصيل. وبطبيعة الحال فإن الصين لها تصنيفاتها ومسمياتها لمثل هذه الجماعات، وإن هناك خلافات اشتدت احيانا بين جماعة **جياوپاي** "التعاليم" وجماعة **المينخوان**، وهي جماعة صوفية لها قيادة وراثية، وكذلك جماعة أو عصبة **پاي** (pai). غالبا ما تشير النصوص التي تعود لفترة **التشينگ إلى لاوجياو** أي أساليب **التعليم القديمة** و**شينجياو** أي أساليب **التعليم الجديدة**، في حين نجد الدراسات المعاصرة تمزج ما بين المفاهيم الإسلامية بسبب تأثرها بتصنيفات **المنتسو**. ومثال على ذلك، نجد **سالاتسو دو جاخاليني** أي جماعة **الجهرية** المنتشرة بين **منتسو السالار**. ونظرا لأن الكثير من الناشطين الذين يعتمد عليهم هذا السرد التاريخي هم جماعات متضامنة تتبع قياديين معينين، فإنني سأقوم بتحديد كل منها بوضوح عندما أتناولها في بحثي هذا.

العنصر أو الإثنية

إن تعقد تحديد المعنى الذي يتصل بالكلمة الإنكليزية (ethnicity) يفتح امام الباحثين مجالا خصبا لوصف الازدراء الذي تكنه كل مجموعة إثنية إزاء

المجموعات الإثنية الأخرى. وبدلا من أن أشغل نفسي بالنقاش فإنني سأتبع التحديد الذي ورد في كتاب صدر حديثا وهو أن افراد قومية معينة لهم شعور من التضامن يقوم على انحدارهم من أصل واحد ولهم نفس العادات ويكنون شعورا من العداء ازاء الجماعات الأخرى التي "تختلف" عنهم في أصولها وعاداتها. وعلى أية حال، قد تظهر قوميات (هناك الكثير من الخلاف حول الموضوع) ويمكن أن تتطور تدريجياً (إن كانت قومية مستجدة أو تحولت بمرور الوقت) في مواقف حين تواجه قوة خارجية تتنافس معها من أجل المصادر الطبيعية أو بفعل افكار معينة.(٢١) وهذا التعريف يتيح للقومية أن تتطور وألاّ تكون في حالة جمود ولها عدد من المواصفات الإنسانية في فترة معينة. وهي تتنكر للصفات البدائية التي غالبا ما يؤمن بها افراد القومية أو أعداؤهم. لا يتفق هذا التعريف مع تعريف **المنتسو** للقومية (**الإثنية**) لأن الأخير يضع لها مؤشرات موضوعية- في الوثائق الرسمية والتي منها العيش في منطقة معينة والتحدث بلغة واحدة ولها اقتصاد متشابه وطبيعة نفسية خاصة بها - بدلا من أن تكون مرهونة بالشعور والخصومات مع القوميات الأخرى. ولذلك فسوف أستعمل المفهومين كلاّ على حدة.

الإمبراطورية والأمة

تلعب الدولة دورا هاما في تاريخ المسلمين في الصين. وهنا تبرز مشكلتان، خاصة ونحن نراقب تحول امبرطورية **التشينگ** إلى دولة وطنية للصين في القرنين التاسع عشر والعشرين. ويلاحظ الكاتب جيمس هيفا بعض الإختلافات الرئيسية مع سيطرة امبراطورية **المانتشو** (Manchu) وما سبقها، خاصة فترة **المينگ**، التي حكمت المحافظات الصينية وكانت تقوم على عدة قوميات ولغات وأعراق. وهذا هو الذي دعا حكام **التشينگ** لخلق قوة مركزية وتوازن فعال بين زعماء المناطق الخاضعة لهم.(٢٢) وفي الحقيقة إنه ليس بإمكاننا أن نضع "المسلمين" في موقع معين في نموذج الدولة المركزية لأنهم عاشوا وسط مختلف الظروف الثقافية والسياسية، وكانت لهم علاقات كثيرة متعددة مع الدولة. فمثلا الذين يتكلمون

التوركية *(أسرة اللغات التي تشمل التركية والأذربيجانية والتركمانية والقرغيزية- المترجم)* كانوا يُعتبرون مواطنين خاضعين فقط. أما الآخرون من المسلمين الذين يتحدثون الصينية في مقاطعة **كانسو** فهم مواطنون عاديون مثلهم مثل الصينيين الآخرين. وبالمقارنة تعرّض افراد المجموعة الأولى إلى الشعور العدائي من قبل المسؤولين ، بينما شغل البعض من المجموعة الثانية مناصب عليا في الدولة. لقد تحولت الإمبراطورية خلال تاريخها الطويل وتأثرت بقوى داخلية واخرى خارجية لم يمكنها السيطرة عليها. إن الإمبراطورية مثلها مثل مواطنيها، ويجب أن يُنظر اليها بأنها كانت متطورة وليست جامدة، وهذا يتطلب وضع تاريخ واضح ومباشر لها.

وحتى سلطة **التشينگ** على المسلمين في مناطق شمال غرب الصين، وهم محور هذا الكتاب، لا يمكن وصفها بأنها كانت متناغمة أو تتصف بالاستمرارية. فالذين لا يتكلمون الصينية، مثل **السالار**، كانوا يُحكمون من قبل **التوسي** (Tusi) وهي عائلات توارثت الحكم في المنطقة وكان لها قدر من الإستقلال في امورها الداخلية بعيدا عن تدخل سلطة امبراطورية **التشينگ**.(٢٣) وعندما استكملت السيطرة على مناطق شرق تركستان عام ١٧٥٠، عينت سلطة **التشينگ** حكاما محليين وأنعمت عليهم بلقب (بك) التركية في جميع المناطق التي يتكلم سكانها التوركية من **شينجيانگ**. غير أن السكان المسلمين الذين يتكلمون اللغة الصينية ويسكنون في منطقتي **شانشي** و**كانسو** فظلوا تحت ادارة السلطة المركزية وعُين عليهم حكام ومسؤولون بشكل منتظم، رغم أن الجيش كان يتمتع بنفوذ رئيسي في السياسة المحلية. لقد أدركت امبراطورية **التشينگ** طبيعة الاختلافات بين اعضاء الجماعات البعيدة عن المركز- من خلال القدرة أو عدمها في استخدامهم اللغة الصينية وكذلك تاريخهم فيما يتعلق بالقدرة على إخضاعهم لسلطة الإمبراطورية- وأسست لهم سلطة محلية مع احتفاظ المركز بالسيطرة على إجراء التغيرات الإدارية إذا ما تطلبت الظروف المحلية أو الإقليمية ذلك.

من خلال دراستنا لتاريخ المناطق، لا يمكننا القول ببساطة إن السياسة أو الأوامر الإمبراطورية كانت تسري على كافة أرجاء الدولة. ومن الأفضل أن نسأل

ونحن نتفحص التاريخ مَن يتمتع بالسيطرة أو بكلمة اخرى "مَن يمثل الدولة؟"(٢٤) إن وجود الجهاز الرسمي وغير الرسمي للدولة في شمال غربي الصين خلال القرون الثلاثة الماضية قد تميز بإشغال عدد جيد من المسلمين للوظائف في ذلك الجهاز. استطاع بعضهم الحصول على الوظائف بعد اجتياز امتحانات عسكرية أو مدنية، ولم يكن واضحا كيف حصل البعض الآخر منهم على مراكزهم في السلطة. لقد حكمت الإمبراطورية العديد من سكانها في المناطق البعيدة عن المركز سياسيا وجغرافيا وأعطتهم قدرا من الإستقلالية. وهذا ما يميزها حقا عن سياسات التدخل والإخضاع التي تمارسها الدولة بمفهومها الحديث، وما تحمله في ذهنها من ضرورة مشاركةَ كل المواطنين وحتمية دمجهم مع بعضهم البعض.

المصادر التاريخية والنظرة إليها

إن مشكلتنا في تفسير التاريخ لا تنتهي في تحديد معاني الكلمات. ولنعد إلى الأذهان حقيقة أن كتابة التاريخ تعتمد إلى درجة كبيرة على ما يتذكره الناس عندما يضعون افكارهم على الورق أو أية وسائل أخرى. وهذا يتعلق أصلا بما يعتبرونه مهما أو غير مهم. بالنسبة لتاريخ المسلمين في شمال غرب الصين، فإن اغلب مصادرنا الأولية تقوم على ما كتبه الموظفون الحكوميون ورجال الأدب والطبقة المتنفذة في المجتمع والناس الآخرون المرتبطون بالدولة بشكل أو بآخر. من الناحية الثقافية، تمتاز منطقة شمال غرب الصين بانتشار الأمية فيها أكثر من أية منطقة في الصين. ولذلك كان هناك القليل من المسلمين الذين بإمكانهم كتابة تاريخهم. وحتى اولئك القلائل من الذين كتبوا شيئا كانوا كغيرهم من معاصريهم من غير المسلمين يستخدمون عبارات تعبر عن وجهة نظر مركز الإمبراطورية. ولم يكونوا في الحقيقة يتفقون مع بعضهم البعض في ذلك السرد. ولأن من كتبوا تاريخ الصين وثقافتها عادة ما كانت كتاباتهم أسيرة صراعات الماضي وتفسيراته، فهم جميعا بقصد أو بدونه، استخدموا أفكارا واسعة الإنتشار وتأثروا بها كبشر. ولم يكتفوا بتفسيراتهم للحوادث التاريخية فقط، بل تجاوز ذلك إلى قراراتهم في انتقاء ما يتناولون منها.

في كتابة الصين لتاريخ المسلمين خلال الـ ٣٠٠ سنة الماضية، كان كل نص يُبطل النصوص الأخرى التي سبقته- خاصة فيما يتعلق منها بالعنف. فخلال فترتي حكم **المينگ** و**التشينگ** كان من البديهي أن يُنظر **للخويخوي** أي المسلمين، أو على الأقل البعض منهم، بأنهم شديدو البأس وبطبيعتهم نهابون سلّابون صعبو المراس(٢٥). وهذه الصفات المجحفة كغيرها من الإنطباعات في سائر مناطق الصين عن الآخرين **الأغيار** من مختلف شعوب العالم لها تاريخها الخاص بها. ويمكننا أن نتابع هذا التاريخ منذ بدايته من خلال حوادث معينة أضيفت لحوادث اخرى من نوعها وأدت إلى انتشار تلك الإنطباعات بأن الآخرين "**المختلفين**" عنا عادة ما يثيرون فينا الخوف والامتعاض (٢٦).

بعد أن استطاعت إمبراطورية **التشينگ** فتح مناطق تركستان والسيطرة عليها في منتصف القرن الثامن عشر، كانت مناطق شمال غرب الصين تتميز بظروف خاصة بها. أصبح الضغط على المسلمين الصينيين يأتي من جانبي أراضيهم جغرافيا ويحاول تغيير هويتهم، مما جلب عليهم واقعا كارثيا يمكن كتابة الكثير من التفاصيل عنه. وما كان يعنيني منها بشكل خاص هو الآراء المقولبة الجاهزة المتحيزة (stereotype) عن المسلمين وبأنهم افراد ميّالون للعنف. لقد فعلت هذه الآراء الظالمة فعلها على سلوكية الدولة وسياستها الاجتماعية والعسكرية منذ منتصف عمر امبراطورية **التشينگ** حتى القرن العشرين. إن كتابة تاريخ العنف لا يعني بالضرورة أن نتقبل الصورة وكأنها الحقيقة الناصعة. وبصفتي كمؤرخ فإنني قمت بنسج القصص التي تخبرنا بها المصادر التاريخية مع تاريخ الأفكار الظالمة عن الآخرين التي تكمن في نقطة عميقة في وعي الذين كتبوا تلك المصادر. فإدراك الحقيقة له فوائده، حتى وإن جاء متأخرا.

توضيح الاضطراب في المجتمع

خلال الفترة التي امتدت ما بين عام ١٩٤٩ وحتى ثمانينات القرن الماضي أصبحت كتابة تاريخ الصين تقع تحت طائلة التحليل المادي والكفاح الطبقي،

اللذين كانا جوهر القوة العاملة على التغيير حسب منظور فلسفة **ماوتسي تونگ**. ففي الصين المعاصرة يخضع تاريخ الصين للسرد الذي يدعو إلى سيطرة **منتسو الخان**، رغم أن الكفاح الطبقي قد حافظ على موقعه في تفسير الاضطرابات في المجتمع (بما فيه العنف). وتعتبر الجماهير عماد التاريخ وعملت الدولة على السيطرة عليها عندما ثارت على الظلم الإقطاعي في لحظات الاضطراب الاجتماعي وحققت بعض النجاح. ومن خلال فرض المفاهيم الجامدة على الدوافع الإنسانية تمكن مؤرخو الصين وبشكل ذكي من دمج بعض المفاهيم من مقولات فترة امبراطورية الصين الكونفوشية.

عندما ركز المؤرخون على حوادث معينة وأفراد بالذات، فإن الفرحة بأخلاقية القول "إمدح أو ذمّ مدوّني التاريخ" التي قدستها **سيما تشيان** مؤرخة سلالة **الخان** للفترة بين ١٤٥-٨٧ ما قبل الميلاد، بدأت بالظهور إلى جانب المادية الدايلكتيكية، فأضيفت كلمات من قبيل "الخير" و"الشر" لتصف الأباطرة والثوار والمسؤولين وزعماءالحرب وغيرهم. إن مفهوم الوطنية الصينية، التي غالبا ما خُلطت بشوفينية **منتسو الخان**، أصبح المعيار والوسيلة لتفسير الأمور السائدة والقرارات وبما يتعلق بالخير والشرير من الأمور. كما اعتمد ذلك على مقدار مساهمتها في بناء المصلحة الوطنية وقواها الثورية وفي بعض الحالات **المنتسو**، كما يراه البعض الآن. وعليه فإن الأمر متروك للمؤرخين ليقولوا كلمتهم فيما إذا كان **ما خوالونگ** ثائرا على حق أم شريرا خارجا على القانون، وإن كان **جيانگ كاي شك** خسيسا رجعيا أم زعيما موحدا، وفيما إذا كان **ما خونگبين** زعيما إصلاحيا أم كان زعيما إقطاعيا. إن أهداف الأحكام التاريخية لا يقتصر على الأفراد بل المجموعات المختلفة، ومن ضمنها المسلمون وسكان بعض المناطق المعينة والأجانب، الذين غالبا ما يُقسمون إلى مجموعات أصغر، اضف إليه **المنتسو** الذي ينتمون اليه. إن أحكاما من هذا القبيل لها تأثير قوي على الطرق التي يقرأ بها مؤرخو الصين مصادرهم.

إن صفة "جيد"، التي تُصبغ على شخص أو حدث معين، تحتل جوهر أحكام من هذا القبيل. فقبل قيام الدولة الحديثة أصبحت مبادىء الكونفوشية هي المعيار -

النزعة إلى عمل الخير واستقامة الأخلاق وتحقيق العدالة وطاعة الوالدين ونقاء شرف المرأة ... الخ. أما بالنسبة للموظفين الحكوميين في المناصب العليا فالمعايير هي الإخلاص والولاء للإمبراطور وعائلته- طالما بقيت سمعة السلالة الحاكمة بعيدة عن الشبهات. إن التبرير المنشوري للثورة على السلطة غير العادلة التي فقدت تفويضها السماوي، قد أدخل عنصرا جديدا في تقييم الحوادث التاريخية، شرط أن يكون ذلك من خلال ادراك طبيعة تلك الحوادث. وكغيري من مؤرخي الصين أجد من المناسب أن أذكّر القارىء بالقول إن "الملك الرابح هو من خرج على القانون خاسرا". فخلال القرنين التاسع عشر والعشرين أصبح استمرار نجاح الدولة وقادتها والمنتسو هي المعايير للأحكام التاريخية منذ تحقق الحكم الشيوعي بجهود "التقدميين" و "المخلصين" من الطبقات الاجتماعية، ونتيجة جهود الحزب الشيوعي نفسه.

وفي ضوء هذه الأحكام أضحى سلوك المسلمين خاضعا للتقييم وفق مبادىء الكونفوشية والوطنية والشيوعية مجتمعة. ولم يعد على المسلمين وحدهم أن يتجاوبوا مع المبادىء النبيلة، لكنهم عانوا الأمرين من النخبة المثقفة التي ادعت أن نصوصها وقيمها فقط هي الخالصة والصحيحة. وبذلك أدينت النصوص الإسلامية (وبالتبعية المسلمون) وألصقت بهم صفات بأنهم برابرة في الماضي والحاضر. إن العلماء المتخصصين بالكونفوشية غالبا ما عرضوا آراء تقول إن البرابرة قابلون للتحول إلى واقع التحضر، واستشهدوا بحالات عديدة لمسلمين وصلوا رتبا عالية ونالوا سمعة جيدة نتيجة ثقافتهم (الصينية) وسلوكياتهم الأخلاقية المتأثرة بتلك الثقافة. أما الأجانب أو البرابرة فهم ببساطة لم يتعرضوا بالشكل الكافي للحضارة والثقافة.

يلاحظ ديكوتر Dikotter جملة اخرى من الإختلافات التصنيفية التي تفرّق ما بين الصينيين وغير الصينيين في فترة ما قبل الدولة الحديثة، وتتناقض مع المعايير الثقافية الكونفوشية. خلاصتها أن غير الصينيين الذين لا يمكن اصلاحهم ليسوا إلا اولئك المتخلفين المتوحشين الهمج. ورغم أن طبقة الأدباء هي التي جاءت بهذا

التقسيم فإنها فعلت ذلك بفعل الضغط من قبل المثقفين الخارجيين (مثل السلالات الحاكمة التي دحرت البلاد) عندما كانت المبادىء نفسها عرضة للتهديد من قبل الفئات غير المتحضرة. كما أنها في ذات الوقت طرحت بديلا للتوازن على فكرة إخضاع الأجانب ودمجهم حضاريا في المجتمع(٢٧). وفي نفس الوقت ساعد هذا التقسيم الطبقة الحاكمة الرسمية، خاصة على المستوى المحلي وفي ساعة الاضطرابات الاجتماعية، أن تلجأ إلى عدد من التعميمات الشائعة عن الآخرين (بما فيهم المسلمين) بأنهم أشرار وبطبيعتهم لا يتقبلون النظام ويمكن قيادتهم فقط بلجوء الدولة إلى استعمال أساليب البطش، بدلا من استخدام الوسائل السلمية بتعريضهم للتأثيرات الحضارية والثقافية. وفي جمهورية الصين الشعبية ومثاليتها في تحقيق العدالة بين مختلف المنتسات، فقد استُبعدت كلمة "برابرة" وحلت محلها كلمات مثل "بدائي" و "رجعي" كصفات تُلحق بالمنتسو من الذين يجب أن يتبعوا المعايير الثقافية السائدة لمنتسو الخان، وذلك عن طريقي الإقناع والتعليم. وفي نفس الوقت، فإن "الوحشية المتأصلة التي تقوى على التغيير وترفضه" فقد أصبحت من صفات الإمبرياليين وأنظمة الإقطاع وبعض الأجانب (خاصة الأفارقة)، وأحيانا اليابانيين.

العلاقة بين السبب والمسبب

في مواجهة السرد التاريخي الشامل للصين، القائم على الأحكام والمعايير الجامدة للإمبراطورية ومن ثم السلطة المركزية للصين، يتطلب الوضع منا ليس فقط تحليل ذلك السرد بل أيضا طرح البدائل التي تتفهم الغموض والأسباب المتعددة للحوادث المتعلقة بتاريخ الشعب. وعند وضع سرد بديل ومواز يمكننا تحاشي الأخطاء الخاصة بالتعميم المتفشي في التصنيفات القائمة. يجب أن نقرأ المصادر لمتابعة القصص المحلية التي تكشف غزارة الدوافع الإنسانية التي نبحث عنها عندما نحاول توضيح الحوادث الجارية في أوقاتنا الحاضرة في مختلف بلاد العالم، أو نحاول فهمها.

وهكذا فإنني أقدّم هذا الكتاب ليس كتاريخ لمسلمي شمال غرب الصين وإنما تاريخ المسلمين في شمال غرب الصين. وسيكون كتابا له جذوره الثابتة بما تسمح به المصادر المتوفرة. لقد قادتني نزعاتي الشخصية وظروفي إلى منطقة محافظة **گانسو** الواقعة على نهر **تشنگ** والتي تشمل الآن محافظتي **گانسو وتشنگي** ، وكذلك المنطقة المستقلة المسماة **نينگشيا**، حيث يظهر التمازج الحضاري الإسلامي الصيني بشكل حاد، لأن سكانها يشغلون الأرضية الوسطى، حسب رأي رتشارد دوايت الذي كتب عن العلاقة التاريخية بين الأوربيين والسكان الأصليين لأمريكا. فهو يقول إن "الأرضية الوسطى" هي مكان للتواصل الحميم والخوف والتكيف، وهي مكان يفرض على الناس أن يتعايشوا عندما يكونون بين حضارتين متنازعتين.(٢٨) ورغم أنها قد تكون تابعة لجهة أو لأخرى، فإن الأرضية الوسطى تبقى دائما غامضة وقابلة لعدد من التفسيرات. فالأرضية الوسطى لمنطقة **گانسو** التي مثلها مثل منطقة البحيرات الوسطى، أنها هيأت الأجواء لعملية طويلة سريعة أحيانا وعنيفة في أحيان أخرى لعدم التفاهم. ورغم أنني أعتقد بأن المسلمين الصينيين الذي سكنوا في مناطق **يوننان** و**سيتشوان** و**تركستان** ومناطق اخرى غيرها في الصين كانت لهم قصصهم على المستوى المحلي، فإن هذه القصص تحتاج إلى البحث والتمحيص.

وكما سأوضح فيما بعد كيف كانت منطقة **گانسو**، منطقة التقت فيها أربع منابع حضارية. فخلال الألف سنة الماضية كانت الثقافة السائدة ومراكز القوى الصينية والتبت ومنغوليا- منشوريا ووسط آسيا بعيدة عن شمال غرب الصين مما جعلها ثغرا لأربع ثقافات. فتحتَ الحكم الإمبريالي من عاصمة تقع شرق الصين، كانت المنطقة عادة تعمل وتُحكم من خلال التفاوض حول شروط العلاقة مع المركز وتحت مراقبة حادة للقوى المستقلة التي يمكن أن تحتل الجانب الآخر من حدود التبت وشرق تركستان أو منغوليا.(٢٩)

التكيف التدريجي

السرد التاريخي لحياة المسلمين في الصين غير معروف للباحثين الغربيين، لذلك فإن تواجد المسلمين في أية منطقة منها يجبُ أن يوضح عند ذكره. وهذه

القصة تبين موقف المجتمع والجماعات المختلفة فيه لوصف المسلمين وفق صور نمطية. وعليه فإنه خلال تفحص التاريخ المحلي، فإني أركز على **وصف** الزمان والمكان، مبتدأ بتاريخ موجز عن وصول الإسلام وانتشاره فيما يسمى الصين، وتقدمه تدريجيا إلى المقاطعات والمناطق، ثم سأتناول قصص الأشخاص الذين آمنوا بهذا الدين. ولأني كنت مدفوعا بمنطق التسلسل الزمني، فإن ما تناولته لا يمكن أن يغطي كل مرافق تاريخ المسلمين، ولا يمكن في نفس الوقت تناول كافة الاستنتاجات الدقيقة المستقاة من القصص الشخصية والمحلية للمسلمين الصينيين كأناس لهم دورهم التاريخي.

سيكون الفصل الأول مقدمة عن جغرافية منطقة شمال غرب الصين والجماعات الإثنية التي تسكن فيها. وسيتناول الفصل الثاني مراجعة تغطي حوالي ألف سنة وتشمل الوضع الثقافي للصين بكاملها، ممهدا بذلك الجو لاعتبار وضع المسلمين كعنصر اعتيادي اعتبارا من حقبة **التانگ** حتى زمن **المنگ**، حيث أصبحت المصادر اكثر عمقا واشد تعقيدا بعد مجيء **التشينگ** عام ١٦٤٠. يحاول الفصلان الثالث والرابع دراسة التضامن بين المسلمين الصينيين وقادتهم، وتغطية كل قرن مع التركيز على شمال غرب الصين. وعندما حلت الحكومة الوطنية الصينية محل امبراطورية **التشينگ** في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، شهدت المنطقة تغيرات جذرية بسبب القوى الداخلية والخارجية بالذات الأوربية - الأمريكية، وكذلك من العالم الإسلامي، المحيطة بالصين. اضطرت هذه القوى الناس أن يُقبلوا على خيارات تحت ظروف غير مألوفة. أما الفصل الخامس فيركز على أربع شخصيات مسلمة من الصين، ممن أخذت سبلا مختلفة وملتوية في مختلف الظروف للتعايش مع الصين الحديثة.

لعب المسلمون خلال فترتي امبراطورية **التشينگ** والجمهورية الصينية دورا هاما في بناء الهوية الصينية- كما يدعي **گو جياگانگ**. لقد فعلوا ذلك في فترة الصين الحديثة - بسبب مقاومتهم لفكرة سيطرة الدولة الكاملة أولا، ورغبتهم في تخريب اهداف السيطرة **الصينية** الشاملة ثانيا. إن إصرارهم على البقاء واحتفاظهم باختلاف

هويتهم هو الذي دعاني لاختيار "**الغرباء المألوفون**" عنوانا لكتابي. إن نتائج هذا التوتر التاريخي الذي غالبا ما اتسم بالعنف والوحشية قد وردت تفاصيله في التقارير الرسمية التي كتبها الموظفون العموميون، من الذين كانوا في نفس الوقت من أشد أنصار التصنيف الطبقي الذي يضعهم عاليا في قمة الهرم، ويضع الأجانب "**غير المتحضرين**" في أسفله. غير أن قسما آخر من التقارير عن تاريخ المسلمين قد تم تدوينه على المستوى المحلي، ولم يستطع المؤرخون الاطّلاع عليه وقت حدث التزاوج بين المسلمين وغير المسلمين، أو أن التفاعل حدث في الأسواق حيث تُعقد الصفقات التجارية بعيدا عن العنف وغالبا ما كانت برضى الأطراف وتكيفهم لبعضهم البعض على مدى قرون من التواصل المنتظم.

أصبح المسلمون خلال الألف سنة أو ما يزيد جزءاً من الصين، وبدأوا يفكرون أنها بلدهم الوحيد الذي يستخدمون لغته ويتصرفون وفق عاداته وتقاليده. ومن الجانب الآخر بدأت الثقافة الصينية بكل أشكالها المتنوعة بتنوع المناطق، خاصة وليس قصرا على منطقتي **گانسو ويوننان**، تُظهر قدرا من "الشعور بالثقة" عن طريق التفاعل المستمر وتقبّل الإنضمام التدريجي للمسلمين الغرباء الذين عاشوا هناك منذ زمن بعيد! إن العدد الهائل من القصص لا يمكن أن تُروى بشكل إجمالي قدر تعلق الأمر بالجماعات الإثنية والمناطق التي عاشت حياتها فيها. وبدلا من ذلك قابلنا أفرادا وتابعنا قراراتهم وترددهم وحاولنا التعرف على مواقفهم ومساهمتهم فيما يبدو كحضارتين لهما ما لهما من صفات الشمولية وعدم تقبل الثقافات الداخلية الأخرى. إن الخيارات المعقدة للتكيّف كانت دائما متوفرة للمسلمين الصينيين، غير أن غنى المصادر المتوفرة لنا في القرن العشرين قد سمح لنا أن ننظر في حياة الأشخاص وهم يواجهون التغيرات الملتوية التي جاء بها العصر.

وجهة نظر من تخوم الإمبراطورية: الغرباء المألوفون

تشمل الأمور التي نحاول أن ننظر فيها التبادل الثقافي والمقاومة والانصهار أو الاندماج والتوحيد. ويجب ألّا يسمح هذا بأن نغضّ الطرف عن اختلافات الزمان

والمكان والأفراد. تجدر الإشارة إلى أن كتابا يغطي فترة تقارب ١٣٠٠ عام، قد فرض عليّ التضحية بالدقة، خصوصا عند كتابة الفصول الأولى. لكنني حاولت أن أتناول الحكايا النادرة حول القيمة العالية للمصادر التي توفرت لنا. إن موهبة أدبية أو شعرية كان يمكن أن تفي تضاريس المنطقة الطبيعية ونسيجها البشري حقهما في الوصف الدقيق، غير أني آمل تقديم وصف عادل لمنطقة شمال غرب الصين من خلال الخرائط والصور والسرد التاريخي. إن الغرض من هذا الكتاب هو إثارة الاهتمام من أجل القيام بدراسات أعمق وأشمل (للمسلمين الصينيين) وتناول الخلافات والصراعات التي وردت في قصصهم. إن أكثر دول العالم الحاضر، إن لم يكن جميعها، قد أصبحت تعترف بالأقليات القومية/الإثنية وأن الناس في أي بلد يمكن أن يكونوا نتاج ثقافات اخرى متعددة، وأنه يوجد هناك أيضا ناس يشغلون "الأرضية الوسطى" وأنهم خلقوا لأنفسهم ثقافة توفيقية. (صدر حديثا كتاب بعنوان "**الغرباء المألوفون**" وهو يتناول حياة الغجر في الولايات المتحدة).

سيكون من غير المجدي أن ندعي أن محافظة **گانسو** منطقة "نموذجية" للصين. فهي تقوم على تخوم الإمبراطورية جغرافيا وتحتل فيها موقعا هامشيا من الناحية الثقافية (رغم أنها ليست كذلك في دولة الصين المعاصرة). وهكذا وبرغم المزيج الحضاري الغريب فيها أمكن أن يتوفر لنا ما يكفي أن يُسمى "وجهة نظر على العتبة". الواقع هو أن مسلمي شمال غرب الصين يعيشون حقيقة حياة التخوم على طرفي عالمين، هما الصين والإسلام. لقد كتبت "**الغرباء المألوفون**" لأوضح كيف أصبح الناس هناك صينيين لديهم شعور بأن الصين وطنهم، وحافظوا في نفس الوقت على هويتهم كمسلمين. فإذا كان فهمنا للصين لا يشمل تاريخ منطقة **گانسو** فيجب أن نعيد النظر فيه. وإذا كانت الصور النمطية عن الإسلام والثقافة وتعايش الثقافات والتمييز الاجتماعي الثقافي لا تساعدنا في شرح وتفسير ما جرى لمجتمع غرب الصين، فإن الوقت قد حان لتغيير تلك المفاهيم والأنماط المقولبة الظالمة.

الفصل الأول

أراضي تخوم الإمبراطورية وسكان شمال غرب الصين



الجامع الكبير في شيآن

<http:/www.Google Couretsy>

حسنا، إني أجد نفسي أفكر في هذا الموضوع. إن أية منطقة جغرافية ستحتفظ بنوع من "النكهة" التي تبدو جلية في كل ما يجري فيها من الأحداث. وأحيانا أتساءل إن كانت هذه الفكرة قد تكون غير ذات فائدة للأطفال حين يبدأون "دراسة الجغرافية"، وهل يمكن للفرد أن يسميها تاريخا بدلا من ذلك؟

دوريس لسنگ، شيكاستا

يعيش المسلمون فى كل أنحاء الصين تقريبا. فهناك تجمعات سكانية صغيرة منهم في جنوب البلاد وأكثر منها في الشمال. كما يوجد مئات الآلاف منهم في سهول الصين الشمالية، ويتركزون خاصة في العاصمة بكين و**تيانجين**، رغم أنهم يمثلون أقلية فقط وسط السكان من غير المسلمين.(١) يعيش عشرات الآلاف من المسلمين في مدن مقاطعة **يوننان**، وخاصة في المناطق التجارية. كما توجد أعداد صغيرة منهم على امتداد طرق التجارة التي تقود إلى بورما والتبت باتجاه الجنوب الغربي. لكن المسلمين في الصين المعاصرة ما زالوا يعيشون بكثافة ظاهرة على طول طريق تجارة الحرير القديم الذي يربط وسط آسيا بشمال الصين. فمنطقة شرق تركستان (التي تسمى الآن منطقة **شينجيانگ، الويغور** المستقلة) يسكنها ناس من قديم الزمان (أصليون) يدينون بالإسلام كلهم تقريبا، ولا وجود للمسيحيين بينهم على مدى قرون، ولكن انضم اليهم خلال الأربعين سنة الماضية الملايين من غير المسلمين.

تقع بين شمال الصين وتركستان منطقتان لهما كثافة سكانية مسلمة ، الأولى حوض وادي النهر الأصفر (وتسمى الآن منطقة **نينگشيا** المستقلة) والأخرى منطقة ذات شكل هلالي في جنوب غربي محافظة **گانسو** وشمال شرق محافظة **تشينخاي**. وهاتان المنطقتان اللتان تقعان على أحد جانبي مدينة **لانجو** هما منطقة تلاقي أربع ثقافات لا يُعرف الكثير عنها في بقية ارجاء الصين ما عدا فقرها وهامشيتها وغناها بالمواقع الأثرية وولع سكانها بالقتال. لا بدّ لي أن أبدأ بعرض تاريخي عام عن وصول الإسلام إلى الصين وانتشاره فيها، لأنه لا يوجد سرد تاريخي باللغة

الإنكليزية عن الموضوع. إن قسما كبيرا من الكتاب سيركز على منطقة شمال غرب الصين.

وعليه فإن هذا الكتاب ليس عن الصين ولكن عن قسم خاص منها، وهو منطقة الحدود البعيدة عن مركز الثقافة الصينية، والتي يعتبرها سكان هذا المركز منطقة غريبة للكثير من الصينيين. وهذا لا يعني طبعا التقليل من أهميتها في تاريخ الصين. إن بعد منطقة حدود شمال غرب الصين عن "الصين بالمعنى الضيق للكلمة" (ويسميها سكان شمال غرب الصين **نيدي**، بمعنى الداخل) تبرز قيمة المنطقة كعدسة تظهر مدى سعة الصين واختلاف الحياة فيها. فالتاريخ المحلي عند دراسة منطقة معينة ليس الغرض منه التعميم، ولكن لفهم خصوصية تلك المنطقة وتعميق فهمنا لما هو صيني والإسهاب فيه. وفي رأينا أن التعميمات عن تجانس المجتمع الصيني التي يطرحها المتخصصون بالموضوع، سواء كانوا صينيين أم أجانب، تشوه الواقع الحقيقي المختلف باختلاف البيئات والمتنوع بتنوع تاريخ الجماعات والإثنيات المتعددة في البلاد.

وصفت الحوادث التي تمّ تسجيلها من قبل المؤرخين حسب تسلسلها الزمني لمنطقة شمال غرب الصين، بأنها عنيفة ومعادية لمصلحة المجتمع وغير اخلاقية أصلا حسب احكام القضاة الكونفوشيين للتاريخ. إن سردا للماضي الدموي العنيف يدفعنا للسؤال لماذا قام أولئك الناس، وهم عادة جيران لسنوات أو لأجيال، بحمل اسلحتهم وقتلوا بعضهم البعض في لحظة تاريخية معينة؟ الجواب يكمن بما سمته **باربرا تكمان** "مسيرة الحماقة"، فهي التي قادت إلى تلك المجازر الصغيرة والأخرى الكبرى الأفظع منها. لا يمكنني القول، كما تعود الآخرون، بأن المسلمين عنيفون بطبعهم ومتطرفون بما يتعلق بمبادىء دينهم. كما لا يمكننا الجزم بأن الصينيين لا يعيرون اهتماما للحياة البشرية لأنه يوجد الكثير منهم. كما لا يصحّ القول إن مناطق الحدود كانت دائما مشوبة بالعنف. على المؤرخين خاصة، ألّا يتجاهلوا أو يقللوا من قيمة غالبية المسلمين المسالمة، ولا الصينيين الذين يحبون الحياة ويقدرونها. كما يجب أن يتذكروا أن مناطق الحدود غالبا ما عمّها الهدوء والسلام. ولكي

نتوصل إلى نماذج أو مؤشرات لأية فترة زمنية أو مكان معين، يجب علينا أن نحاول بصبر أن نكشف عمّا حدث فعلا.

إن الصين التي نطمح أن يكون الحكم فيها مدنيا بعيدا عن نفوذ العسكر ومتشابها من الناحية الثقافية، تتعارض مع الأسطورة السائدة وهي أن العنف يمكنه أن يخدم من يملك تفويضا سماويا.(٢) ولكننا نجد في التقاليد والأساطير القديمة حول معارك **كاو كاو** إلى ابطال **شويخو جوان** وجسر **لودنگ** أن الحروب والمعارك البطولية قد رفعت منزلة الرجال والنساء في الذاكرة المجيدة، وأن العديد من مناطق الصين كانت مسرحا لحوادث عنف تتفجر بشكل متكرر، وأن هذا يعود إلى سلالة **الخان** (منذ سنة ٢٠٦ قبل الميلاد حتى سنة ٢٢٠ بعد الميلاد)، أو حتى قبل ذلك. لقد أخبرني مؤرخ محلي من منطقة **جيانگسو** أنه وسط لم يكن لجولات العنف التي استغرقت فترات طويلة فيه أي دور في تاريخ الصين. لكن الإدعاء بأن تلك المناطق كانت "صينية اعتيادية" هو ادعاء يتجاهل الصورة النمطية عن العنف في مناطق التخوم/الحدود في شمال غرب البلاد، وكذلك ما كان يجري في مقاطعتي **جيجيانگ** و**آنوخي** وحتى **جيانگسو** المعروفة بتاريخها التقليدي العنيف. ولكي نفهم الصين وخصوصياتها، يجب علينا أن نستذكر ذلك العنف في مخيلتنا.

وهكذا يمكننا أن نبني على قول Hsiao Kung-Ch'uan المشهور بأن الصين فسيفساء شاسعة تتكون من مجموعة من البيئات والتواريخ. أركز في هذا الكتاب على جزء صغير لأكشف الألوان والنسيج لمكونات هذا الجزء بزواياه الحادة وأشكاله المختلفة. وعن طريق تزايد انتشار الوثائق عن الحوادث المحلية وقبولها، سيكون بإمكان المؤرخين المحترفين أن يوضحوا طبيعة الجهود الإنسانية المعقدة التي خلقت ذلك التاريخ.

أرض التخوم

في شهر اكتوبر من عام ١٩٣٨ كان **گو جيگانگ** متعبا وقلقا. كان والده يعاني سكرات الموت في بيت العائلة في منطقة **سوجو**، لكن الأستاذ البالغ من العمر ٤٥

عاما، والذي يدرس التاريخ القديم، لم يكن بإمكانه السفر تأدية لواجبه نحو والده. لقد أمضى السنة الماضية وهو يتنقل من مكان إلى آخر بعد أن ترك منطقة **بيبنگ** قبل وقت قليل من وصول القوات اليابانية الغازية اليها. وصل إلى منطقة **سيتشوان** في شهر سبتمبر بعد سفرة مجهدة في شمال غرب البلد بحثا عن الحقيقة. لم يكن بعد مستعدا لكتابة تقريره إلى المنظمة الصينية البريطانية للثقافة والتربية التي كلفته بهذه المهمة ومولتها على امل معرفة الوضع التربوي للمسلمين في شمال غرب الصين. ورغم ذلك وافق **جيگانگ** على أن يلقي محاضرة بناء على طلب صديق له. كانت المحاضرة أمام أساتذة وطلبة كلية منغوليا- التبت للعلوم السياسية. وفي قاعة أعدت على عجل لهذه المناسبة، لأن كافة جامعات منطقة **تشونگتشينگ** وما يتوفر فيها من البيوت وحتى أنابيب صرف المياه قد اكتظت باللاجئين الهاربين اثر تقدم القوات اليابانية نحو مناطقهم. وقف ليقول:

عندما أطلق Demchkdonggrub *(بالصينية* De Wang *) حركة استقلال منغوليا عام ١٩٣٣ التقيت به وبأعوانه في* ***بيلينگمياو****. أدركت بعد تلك المقابلة ثقل موضوع الحدود ... (وخلال رحلتي الأخيرة) وجدت أن أغلب الأماكن التي زرتها يسكنها* ***خوي*** *و****فان*** *(من التبت) ... يُشكل قطاع الطرق مشكلة رئيسية هناك ... ورغم أننا قابلنا عددا من هؤلاء المارقين، فإنهم لحسن الحظ لم يسلبونا.*

إن من أصعب المشاكل وأشدها إلحاحا هي المواصلات ... وإنه لن يكون بإمكانك أن تتصور المشكلة مالم تكن هناك شخصيا. ونادرا ما يتواصل الناس حتى في المدن وفي البلدان المجاورة مع بعضهم البعض... وإذا لم تُحل مشكلة المواصلات في منطقة شمال غرب البلاد، فليس هناك أي معنى لمناقشة المشاكل الأخرى. إن أكثر المناطق التي زرتها يوجد فيها نوع من التداخل المعقد بوجهيه الديني والعنصري.... فللمسلمين تعاليم قديمة وأخرى جديدة وثالثة أجدّ منها. أما البوذيون من التبت ومنغوليا فلهم ملل ونحل متعددة منها الأحمر والأبيض والأسود والزهري. أما من الناحية العنصرية فهناك الخان (الصينيون) والمنشوريون والمنغوليون والمسلمون الخيوي والتشينگ والفان التبتيون والمسلمون السالار

والتوريون (وهم المنكور الذين يتكلمون المنغولية) .... ونظرا لوجود هذا العدد الكبير من الإثنيات/القوميات في المنطقة فالواقع يفرض وجود نوع من الحواجز الذهنية بينهم، وهم فقط يعرفون الفروقات ولا يعيرون اهتماما بأنهم مواطنون في جمهورية الصين!

.... الناس الآخرون من بقية أنحاء الصين نادرا ما يذهبون إلى منطقة الشمال الغربي. الذين يذهبون هناك هم التجار والطبقة الدنيا من الباعة المتجولين المدفوعين بتحقيق ارباح عالية عن طريق رفع اسعار السلع وخداع السكان المحليين من التبتيين والمنغوليين الجهلة.

الأماكن التي ذهبنا اليها في هذه الرحلة هي في الحقيقة وسط مناطق بلادنا. وعندما يقول الناس إننا ذهبنا إلى الحدود/التخوم فهذا يجعلنا نشعر بالخجل ... ولذلك فإن مسؤوليتنا يجب أن تهدف إلى تقليص هذه الحدود تدريجيا وتوسيع نفوذ منطقة المركز حتى نصل آجلا أم عاجلا إلى الغاء هذه "التخوم" لنصل إلى "الحدود" مع الدول المجاورة. (٣)

ليس لدينا ما يشير إلى ردّ فعل جمهور الحضور الذي كان يستمع إلى محاضرة **جيكانگ**، لكنه ظل مقتنعا بأن منطقة شمال غرب الصين تملك احد المفاتيح لمستقبل الصين. ولذلك فإنه أمضى جلّ مهنته يحقق في تاريخ تلك المنطقة. ولسوء الحظ فإن الوالد قد توفي دون أن يحظى بمشاهدة ولده البكر.

أرض تخوم محافظة گانسو

كان رأي **جيكانگ** حول الوضع الجغرافي في منطقة شمال غرب الصين ضمن حدود البلاد صحيحا، إذا كانت المحافظات التي زارها والتي تقع قليلا إلى الشمال والغرب عن المركز الجغرافي للبلاد، وأن المساحات الشاسعة التي فتحها **التشينگ** تقع ضمن "الصين". ولكنه بالتأكيد كان حاذقا في وصفه للوضع الثقافي التربوي. فبالرغم من قربها إلى "المركز" في الصين، فإن ما يدعوه بشمال الغرب يمثل أرضية لالتقاء أربعة عوالم ثقافية وطوبوغرافية متمثلة بهضبة التبت وسهول منغوليا

وصحراء وسط آسيا والمنطقة الزراعية الرسوبية لشمال الصين.(٥) (*نعني بالطوبوغرافية السمات السطحية لموضع أو إقليم وتشمل الهضاب والأودية والأنهار والطرق والجسور ...الخ- المترجم*) وهذه الزاوية الحدودية تضم ثقافات تطورت وتفاعلت في تلك البقعة من الأرض لقرون عديدة. لنتصور على سبيل المقارنة منطقة متشابهة لها في الولايات المتحدة، لو وضعنا عددا كبيرا من فلاحي هنود **النافاهو** مع صيادي الجاموس الوحشي من قبائل هنود **السيوز**، بالإضافة إلى اصحاب مزارع المواشي من المستوطنين الأوربيين، وكذلك الرعاة ممن يتكلمون الأسبانية. ثمّ حصرنا هذا الخليط لفترة طويلة في مساحة تمتد على رقعة من الأرض مساحتها ٣٠٠ كيلومتر مربع من البيئة المختلفة التضاريس في ولاية نيو مكسيكو. في الحقيقة أن هذه المقارنة بين شمال غرب الصين والغرب الأمريكي كانت حاضرة في ذهن مواطن صيني من سكان العاصمة الصينية عندما تمّ إبعاده إلى منطقة **تشنگاي** خلال الثورة الصينية. كتب يقول:

يمر الطريق عبر تلال ووديان كانت في يوم ما مهجورة فارغة، تذكرني بما تصورته عن الغرب الأمريكي حسبما شاهدته في فلم سينمائي عُرض في شنغهاي. وتساءلت في نفسي "أين رعاة البقر وأين الهنود الحمر؟" وفي النهاية أصبحت أنا واحدا من رعاة البقر وأصبح التبتيون هم الهنود الحمر.(٦)

تُشكل المساحة الجغرافية لشرق **گانسو** نقطة تحول بين منطقة الهضاب والسفوح من جهة ومنطقة المنخفضات الصالحة للزراعة ذات المناخ الجاف القاسي وطبيعتها الطوبوغرافية الحادة التي تتغير بشكل مفاجىء.(٧) كما أن الطرق الرئيسية، ذات الأهمية التاريخية بين وسط آسيا والمراكز الثقافية للصين (غربا- شرقا) وبين التبت ومنغوليا (شمالا- جنوبا)، تمرّ عبر محافظة **گانسو**، وهي الوادي الضيق بين جبال التبت الشمالية وصحراء منغوليا.

أدت هذه الطوبوغرافية المعقدة إلى تعقد جغرافية السكان. في الزمن القديم، كانت محافظة **گانسو** تخضع من الناحية العددية والسياسية للصين والسلطة التي تحكمها خلال فترات حكم السلالات الفاتحة والسلالات المحلية. وكما أوضح

جيگانگ فإن الصراع واحيانا المشاركة في تقاسم المناطق الغنية أو ذات الأهمية الإستراتيجية في محافظة **گانسو**، كانت بين الصينيين وبين خليط من الشعوب غير الصينية، من بينها التبتيون المقيمون والرحّل (بينهم بعض المسلمين) والسكان الذين يتكلمون التوركية (من المسلمين وغير المسلمين) والسكان الذين يتكلمون المنغولية (من المسلمين وغير المسلمين). كما طفت إلى السطح هويات إثنية جديدة نتيجة تداخل السكان وزحف سلطة المحافظات وتفاعل ثقافات الجماعات الهامشية. كانت هذه التغيرات مهمة من الناحية الإستراتيجية لعدد من المحافظات، لكنها كانت تغيرات جوهرية بالنسبة للسكان في تلك المناطق. إن بروز هذه الإثنيات حتى على المستوى الفردي وبشكل ظاهر أو مبهم، أثبتت أنها تخلق مشاكل خاصة في مناطق التخوم، عندما حاولت الدولة الحديثة تثبيت حدودها الخارجية وتصنيف سكانها وتعدداهم. ولم تكن **گانسو** استثناء.

تقع نهاية المنطقة الزراعية في الصين في منتصف محافظة **گانسو** خاصة في **جياوگوان** عند **جدار الصين العظيم**. ولكن حتى داخل منطقة الجدار فإن طوبوغرافية الأرض تفرض وجود اقتصاد متنوع المصادر يشمل تربية المواشي والتجارة في المنتجات الحيوانية، إضافة إلى زراعة القمح والحبوب بشكل عام. يتمتع النصف الشرقي للمحافظة بمناخ – مشابه لمناخ منطقة الشمال الشرقي للولايات المتحدة، نيو انگلاند- وهويسمح بزراعة التبغ والفواكه والدخن والأعشاب الطبية. كما يمتاز ما يسمى بالممر الزراعي في شرق المحافظة بتربة وظروف ملائمة جدا لزراعة الأفيون، التي كانت تمارس بشكل واسع في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

لا بدّ من التذكير أن الزراعة في محافظة **گانسو** لا تشبه الزراعة في بقية أرض الصين. فمناطق التلال الغنية بالحشيش، خاصة في أعالي سفوح جبال **التبت والشان**، توفر مناطق رعي غنية للأغنام والماعز والخيول والغزلان **والياك** *(نوع من البقر الضخم الطويل الصوف يعيش في جبال التبت- المترجم)*. أما مناطق الوديان البعيدة عن مصادر المياه فإنها قاحلة. وحتى المناطق الرسوبية فيها لا تصلح

للزراعة لعدم توفر التربة الصالحة والمياه. وهذا هو السبب الذي أدى إلى انتشار التجمعات السكانية على مسافات بعيدة وتفصل بينها مساحات شاسعة. تنقطع المواصلات تماما عند تعرض طرق المنطقة إلى عوامل الجرف وقت سقوط الأمطار أو في حالة حدوث هزات أرضية. إن **جيگانگ** يعرف من خلال خبرته المباشرة أن مهمة الوصول إلى العديد من مناطق محافظة **گانسو** البعيدة عن المراكز الإدارية الكبيرة وحتى الصغيرة، صعبة بفعل العوارض التي فرضتها عليها طوبوغرافية الأرض ومناخها.

تعدد المراكز والحدود الخارجية

نتيجة للمزيج البيئي المشار إليه في أعلاه، فإن مجتمع **گانسو** نادرا ما كان موحدا جغرافيا أو يتبع نظاما مركزيا. وفق الخارطة التي أعدها وليام سكنر تبدو محافظة **گانسو** وكأنها تابعة لمنطقة اخرى على الحافة الخارجية لشمال الغرب حيث تقع مدينة **شيئان** في وسطها. يناقش هذا الكتاب أن وجهة النظر التي تركز على مركز واحد لا تصف محافظة **گانسو** بدقة. إن كلا من التبتيين والسالار والمسلمين الذين يتكلمون الصينية والمنغوليين والمسلمين الذين يتكلمون المنغولية لهم مراكزهم والمناطق التابعة لها الخاصة بهم. وهي منظمة بطريقة مختلفة عن بعضها البعض. والعجز عن فهم هذه الأنظمة والتداخل بين المفاهيم السائدة في كل منها والتي تتميز بعلاقات قوية، سيقود إلى عدم استيعاب تاريخ تلك المنطقة ولا جغرافيتها، كما حدث في حالة **جيگانگ** وغيره من الكتاب الآخرين.

فمثلا وفي هذه الفترة من تاريخ الصين، فإن صينيي **گانسو** لم يتكلموا لغة أسلافهم ولم يلتزموا بعاداتهم ولا تقاليدهم أو قيمهم. كما أنهم تأقلموا للبيئة القاسية وثقافة جيرانهم من غير الصينيين.(١٣) إن الحدود في تغير دائم ولها جانبان. ولذلك فإنه لا يمكن اعتبار محافظة **گانسو** كحد نهائي للثقافة الصينية. كما أنها تمثل الحدود الخارجية للتبت ومنغوليا ومنطقة وسط آسيا المسلمة. وبدأ من تاريخهم الخاص وثقافاتهم وجوهرهم، فإن غير الصينيين في المناطق الحدودية قد

تطوروا وتغيروا بفعل اتصالهم مع بعضهم البعض ومع الصين. وهذا التأقلم والتكيف المتبادل يضم العمليات الاجتماعية والثقافية التي يركز عليها هذا الكتاب. وهي مختلفة ومتطرفة حالها حال التضاريس الأرضية لمحافظة **گانسو**.

إن عملية التفاعل التي اقترحها **جيگانگ** وتمناها بعمق قد غيرت طبيعة محيط الصين كما غيرت الصين ذاتها. فمناطق حدود محافظة **گانسو** التي كانت في تغير مستمر نتيجة للتفاعل بين الصينيين وغير الصينيين قد حل محلها للأسف تدريجيا في الأوقات العصرية مفاهيم قوية حول **الحدود السياسية**. وهي علامة بارزة لطغيان **السيادة الوطنية** على اخلاقية النظم السابقة، وتفردها بالسلطة العليا التي تفرض على المواطنين تأييدها والإخلاص لها لوحدها. لقد تزايد الضغط على سكان مناطق الحدود بتغير الدولة الصينية، خاصة على القادة المحليين الذين كان عليهم أن يختاروا التحالف مع مراكز القوة السياسية الجديدة. فنظام **توسي** الذي كان سائدا في فترة حكم **التشينگ** والذي يقوم على توالي القواد المحليين على السلطة بالوراثة، حين كانت الإمبراطورية تنعم عليهم بالألقاب لحكم مناطق الحدود، تغير ذلك وحلّ محله نظام "وطنِي" لتولي قادة محليين المهمة شرط تشربهم بقيم "الدولة الوطنية". وهؤلاء القادة جاءوا بشكل عام من مجموعة يسمون أنفسهم **خان**، وهم ممن يؤمنون "بالثقافة الصينية" أو من بين المتنفذين من الجماعات غير الصينية الذين يرون أن مصالحهم وربما مصالح مجتمعاتهم المحلية يمكن ضمانها عن طريق الإنخراط في خدمة الدولة على المستوى المحلي.(١٤) ونظرا للاختلافات المتعددة للناس في محافظة **گانسو**، فإن ذلك جعل من هذه القيادات المحلية مشكلة شائكة. ولذلك فإن ظهور قيادة من بين المتنفذين من المسلمين في شمال غربي البلاد من الذين يدينون بالولاء للسلطة المركزية- أثناء فترة حكم **التشينگ** منذ أواخر القرن التاسع عشر ثم الجمهورية (١٩١٢- ١٩٤٩)- يُشكل جزءاً كبيرا من جوهر هذا الكتاب.

لم يخبر **جيگانگ** مستمعيه في الصين عام ١٩٣٨ أن الصراع والوعي الوطني لخلق الدولة الوطنية قد فرض على مناطق حدودها الخارجية أن تساير وتتكيف مع

الوضع الحديث. كان يتوجب على القيادات الوطنية والمفكرين السياسيين أن يخلقوا صينا جديدة كفكرة وكمؤسسة، كدولة وطنية حديثة تختلف عمّا عرفوه خلال فترة امبراطورية **التشينگ** وتغطي نفس المساحة وترتبط بالماضي عن طريقي اللغة والتاريخ. لقد تحدث **جيگانگ** عن توسيع السلطة المركزية لتضم الصين بكاملها، وتترك الحدود الوطنية كتخوم. كان ذلك هدف دمج العناصر المختلفة بما يتفق مع سياسة الدول الحديثة. وحتى إن كان الناس في محافظتي **گانسو وتشنگاي** يشيرون إلى مناطقهم بأنها "تخوم" (بالصينية **بيانجانگ**) ويطلقون على بقية الصين اسم "الداخل"، فذلك لأنهم يعيشون وسط ثقافات **الآخرين** المتعددة. فبالنسبة لهم، كانوا يرون أنفسهم يعيشون على هامش الصين الثقافية.

تمت المرحلة الأولى من عملية بناء الدولة الوطنية وولادة فكرة العالم الجديد بشكل تام دون الإشارة إلى مناطق التخوم الصينية. ظهر في محافظة **گانسو** عدد من المدارس الحديثة (تُسمى بالصينية **شوتانگ**)، كما ظهرت مجموعات صغيرة من الشبيبة الشيوعية التي أُبيدت عن بكرة ابيها من قبل سلطات **لانجو** في عشرينات القرن الماضي.(١٥) غير أن العالم الحديث قد زحف إلى منطقة شمال غرب الصين عن طريق التكنولوجيا العسكرية، ودُبر الأمر ببراعة على يد قواد كانوا قد خاضوا معارك هامة في شرق الصين. إن الإصلاحيين والثوريين ودعاة جوهر الثقافة لم يفكروا أو يعيروا المسلمين أي اهتمام، لأن كل ما يعرفونه عنهم أنهم عنيفون، على شاكلة الصورة النمطية لسكان التبت المتوحشين الذين يكتسون بصوف حيواناتهم، وأن كلا الفئتين ليستا إلا مصدر تهديد لوحدة الشعب الصيني!

كان الجزء الآخر من عملية التحديث خلق نموذج للولاية الجديدة التي تُجبر سكان المناطق الحدودية على الخضوع للمركز وخلق مفارقة تاريخية بابتداع حكومة موحدة قادرة على الصمود في وجه عالم القرن العشرين العدواني والمعادي لطموحاتها. لقد تعاملت الصين الجديدة مع سكان التخوم بالقوة بدلا من الإقناع. ولذلك فإن الإيديولوجيات والنقاشات في فترة العشرينات لم تتطرق إلى محافظة **گانسو** إلا نادرا.(١٦) كما أن قادة المحافظة وموظفيها الكبار وجنرالات

جيش جمهورية الصين استخدموا أساليب العالم الحديث وأدواته في منطقة الشمال الغربي لسبب واحد فقط، وهو إحكام سيطرتهم على مناطق المحافظة. وعندما وصل الجنرال المسيحي **فنگ يوشيانگ** إلى محافظة **گانسو** لم تكن لديه برامج أو خطط لمكافحة الأفيون، بل ليقود حملات عسكرية لتصفية المسلمين الثوريين والناشطين الصعبي المراس.

شهدت أواخر فترتي حكم **التشينگ** والجمهورية تحولا ملحوظا في منطقة الشمال الغربي ولكن ليس عن طريق المناقشات والأفكار المثالية للتحديث والتنمية، بل تم ذلك عن طريق عمليات عسكرية لقهر السكان وكسر روحهم المعنوية. فنخبة القادة المحليين "الجدد" لم تبرز من بين صفوف الطلبة أو العسكريين الشباب ولا من بين الناشطين السياسيين الذين ساهموا في الاضرابات وحملات المقاطعة، ولا حتى من بين القادة التقليديين الذين أصبحوا أعضاء في مجالس الحكم المحلية. وفي نفس الوقت احتفظ المسؤولون المحليون من غير المسلمين الذين كانوا يشغلون مناصب عالية أيام حكم سلالة **التشينگ** بمناصبهم وحضوا بالشرعية في العصر الجمهوري، في حين خرجت نخبة مسلمي **گانسو** من بين صفوف العسكريين الذين حضوا بتأييد الجماعات الدينية-السياسية المسلمة **مينخوان** التي كانت تتوفر لها المصادر المالية لكسب المتطوعين وتسليحهم عسكريا.

وبوجود نخبة من هذا النوع فإن محافظة **گانسو** (بالمقارنة مع بقية الصين) قد مرّت بفترة أصبحت فيها تحت نفوذ قادة ميليشيات مع افتقارها لوجود حركة ثقافية أو طبقة مثقفين حتى في الحواضر. وهكذا ظلت مناطق حدود الشمال الغربي مكانا تابعا ومعقلا يجب الدفاع عنه ومصادر طبيعية يجب أن تُستغل، ولكن ليس كمنطقة متجانسة روحا أو طبعا أو مصلحة وفق الفكرة التي جاء بها قادة الصين الجديدة. إن معاصري **جيگانگ** من المثقفين كانوا يميلون إلى وصف سكان منطقة الشمال بأنهم همج عنيفون معادون للنظام الحضاري الجديد. غير أن **جيگانگ** وزميله **وانگ شومِن** كانا يسافران بعربات تجرها الثيران بين مدينتي **لانجو** و**شينينگ** ليزورا

المدارس والجنود والمسؤولين. شاهدا شخصيا مسلمي الصين وكل منطقة شمال غرب البلاد بعيون مختلفة جدا، واصفين إياها بأنها ستكون منطقة معين لا ينضب من الطاقة الحاسمة المتوقعة لبناء وطن جديد. وفي تلك السنة المشؤومة أي سنة ١٩٣٧ كتب **جيگانگ** ما يلي: *تقع على عاتق المسلمين مسؤولية كبرى في بعث العرق الصيني*.(١٧) وهو يعلم جيدا، حتى وإن كان بعض مواطنيه لا يعلمون، بأن مسلمي شمال غرب الصين هم صينيون أقحاح.

السالار في منطقة التخوم

للسكان من **السالار** لغتهم الخاصة بهم، وهي تختلف في مفرداتها وقواعدها الأساسية عن لغتي الخان والتبتيين المحيطين بهم. ولغة **السالار** قريبة من لغات التوركمان والأوزبك الذين يسكنون في سمرقند. وهي جميعا تنتمي إلى فرع لغة Yugus المنحدر من لغة جماعة Xiongna الغربية التي تعود أصلا إلى اسرة اللغات التوركية. يتميز **السالار** بطول القامة وضخامة الجسم وكثافة الشعر وعلو الأنف والعيون الحادة الغائرة. تفرّقهم هذه الصفات عن **الخان** و**التبتيين** من جهة، وتثبت من جهة أخرى أواصر القربى مع سكان آسيا الوسطى.(١٨) لقد حاول الكثير من الرحالة أن يصفوا الوضع الأنثروبولوجي **للسالار** وقالوا عنهم أنهم طوال ذوو أنوف معقوفة ...الخ. لكن مثل هذه الأوصاف ليست بذات قيمة. وكما قلنا آنفا إن **السالار**، وعلى وجه الخصوص خلال المئتي سنة الماضية، كانوا خليطا من الترك والمنغول والتبتيين والصينيين و**الخويخيوي** (المسلمين الذين يتكلمون الصينية).(١٩)

سكان التخوم

انتعشت في محافظة **گاسو** الزراعة والحياة الريفية والأنواع المتعددة من حياة الرعاة الرحل قرب بعضها البعض. كما إن سكان مناطق الحدود، بما فيهم الصينيون، قد تطورت هويتهم الجماعية ونمت من خلال اتصالهم بثقافة "**الأغيار**" الآخرين. يعيش في هذه المحافظة خليط من الأقوام على تخوم ثقافتهم اللغوية بما

فيهم المسلمون الذين يتكلمون التوركية والمسلمون الذين يتكلمون المنغولية والتبتيون الذين يتكلمون الصينية والمسلمون الذين يتكلمون لغة التبت والمسلمون وغير المسلمين الذين يتكلمون اللغة المنغورية منگور وغيرهم من الأقوام الأخرى. جرى تصنيف هذه المجموعات بشكل اعتباطي من قبل الدولة على أنها "أقليات قومية". ولا بد من الإشارة إلى أن هذه المجموعات كانت في فترات سابقة أكثر انفتاحا وليونة اتجاه بعضها البعض. فسكان مناطق التخوم دافعوا عن هوياتهم أو غيّروها بشكل واع أو غير واع نتيجة لعملية التكيف مع "الجيران".(٢٠)

فمن الممكن أن يعتنق رجل صيني غير مسلم الإسلام ليحسن فرص نجاحه في العمل، وأن ابنة عمه قد تتزوج من مسلم له ثروة طائلة. وقد يأكل تاجر مسلم لحم الخنزير في وجبة مع رجل غير مسلم دعاه اليها، ولا يحب أن يسيء إلى مشاعر مضيفه الهام. وقد يستقر تبتي من القوم الرحل في قرية ويبتني له بيتا دائما ويبدأ في ممارسة مهنة الزراعة لأنه ملّ حياة الرعي والكوارث الفصلية التي يأتي بها المناخ. وقد يشجع شخص يتكلم التوركية أولاده لأن يتعلموا اللهجة الصينية المحلية ليحسنوا فرص حياتهم في المستقبل في منطقة تسكنها غالبية صينية، أو ربما لا يشجع آخر أولاده على ذلك حفاظا على تراثه الإسلامي. ومن المؤكد أن مسلما يتكلم المنغولية سيتمكن من كسب قوته عندما يهاجر بحثا عن فرصة للعمل في مناطق لا يسكنها المسلمون، فيصبح لزاما عليه وعلى افراد عائلته أن يتعلموا الصينية. وفي مثال آخر، لو تمعنّا النظر في منطقة Tangwangchum في الضفة الغربية لنهر **تاو** وجنوب **لانجو** لوجدنا أن نصف قبيلة **وانگ** مسلمون بينما النصف الآخر لا يدين بالإسلام. وينطبق نفس الشيء على أسلافهم. وربما تشد صلة القربى المسلمين وغير المسلمين، فإن أفراد القبيلة الواحدة قد يعادون البعض من اقاربهم ويتحالفون مع إخوانهم في الدين، عندما يصبح الدين عامل فرقة قدر تعلق الأمر بالهوية. ففي بعض العائلات التبتية التي تتعامل مع المسلمين تجاريا، قد يتحول أحد الأبناء إلى الإسلام وهو يعيش في نفس البيت مع أخ آخر أصبح **لاما**. إن

قرارات وتغيرات من هذا القبيل قد حدثت واحدة تلو أخرى فخلقت وضعا معقدا للهويات القومية في محافظة **گانسو**.

وطبقا للمعتقدات الفكرية التي يؤمن بها الكثير من الصينيين في فترة ما قبل الحداثة، فإن غير الصينيين كان عليهم إما أن يبقوا في ظلام البربرية أو يتحولوا إلى **ليخوا** أي إلى جانب الثقافة الصينية التي تتمتع بالقوة. وفي مثل هذا البناء الأسطوري تفرض الصين استقرارا وجاذبية تشدّ نحوها أي شخص سريع التأثر بقوتها الأخلاقية. وهذا التوصيف يجب أن يُشرح بشكل موسع عند الحديث عن الحقائق التاريخية.(٢٢) عاشت شعوب كثيرة بجوار الحدود الصينيّة لآلاف السنين وتغيرت بوجود الصين، لكنها لم تنجذب قطعا أو يتم استيعابها بواسطة الثقافة الصينية أو المجتمع الصيني، كما تظهر ذلك بوضوح قضية التبت. وبالرغم من ذلك يدعي بعض الصينيين أن الموضوع الأخير تغذيه النزعات الرجعية أو الحماقة البربرية الخالصة. وكمراقبين للواقع يمكننا الإستنتاج أنه لا يحب كل من يعرف الصين أن يصبح صينيا! ربما يحب البعض التجارة معهم أو تستهويه الغزوات لأرضهم، ولكن بالتأكيد يحب الناس أن يبقوا كما هم عليه، بغض النظر عمّا آلت إليه الثقافة في مناطق التخوم.

مسلمو گانسو مجتمع خليط

لا يعمل مسلمو گانسو كمجتمع موحد، بما تعنيه هذه الكلمة، لأنهم منقسمون وفق عوامل عدة أحدها العوامل الجغرافية.(٢٣) فمثلا سكان أحياء متعددة من مدن **گانسو** وقراها يُصنفون بأنهم "مسلمون" ولكنهم يختلفون باختلاف الموقع الجغرافي والحجم وعلاقتهم بغير المسلمين ونشاطاتهم الاقتصادية وولائهم المذهبي وتحالفاتهم السياسية. فقريبا من حدود **شانكي** وفي واد رسوبي توجد مدينة تجارية اسمها **جانگجياتشوان** التي يسكنها المسلمون. يعيش غير المسلمين على بعد عدة اميال منها، باستثناء بعض الصناع الماهرين الذين يلتزمون بعادات المسلمين الغذائية، الأمر الذي مكنهم من العيش بينهم. يزور المدينة جامعو

الضرائب فقط لأداء مهامهم، كما يأتي اليها بائعو الجلود على فترات متقطعة لبيع منتجاتهم، وكذلك يحضرون أحيانا من المدينة المجاورة **مالوجن** أثناء موسم المزاد العلني لبيع الحيوانات. كانت مدينة **جانگجياتشوان** منذ أواخر القرن التاسع عشر والعشرين واقعة تحت نفوذ قيادة دينية من جماعة **الجهرية**، وهي فئة من **الصوفيين النقشبندية**. كانت سلطة شيخ الطريقة فيهاهي السائدة في عموم الوادي.(٢٤)

وبالمقابل يتصف الوضع في عاصمة المحافظة **لانجو** بواقع مناقض، حيث توجد في المدينة عدة أحياء يسكنها المسلمون فقط، رغم أنهم يشكلون ١٠% من مجموع سكان المدينة. وبغض النظر عن تمتعهم بالثراء في اعمال التجارة، فليس لهم استقلال أو نشاط سياسي. بُنيت في أحياء المسلمين جوامع كبيرة، الا أنها لم تُستعمل كمراكز دينية للمسلمين الذين يأتون من مناطق المحافظة الأخرى. وعندما تم محاصرتهم من قبل مسلمي **خيجو** أو **شونخوا**، فإن مسلمي **لانجو** لم يستطيعوا التمرد أو الدفاع عن حقوقهم لأنهم تحت أنظار حاكم المدينة وثكنته العسكرية.(٢٥)

كان التوافق السياسي بين مسلمي **گانسو**، على الأقل خلال فترتي حكم **التشينگ** ومن بعده الجمهورية مرتبطا بمجتمع **خيجو**، وهي الآن مدينة مركزية في منطقة **لينشيا خوي** ذات الحكم المستقل. وهي تقع في وادي نهر **داكسيا** جنوب غربي **لانجو** وعاش فيها المسلمون وغير المسلمين وربما كان عدد كل من الفئتين ٤٥ ألفا في مطلع القرن العشرين.(٢٦) عاش غير المسلمين في القطاع المسور في شمال المدينة بينما عاش المسلمون في ضواحيها والمناطق الزراعية التي تزود المدينة بالمؤن. فمن الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية كان للمسلمين السيطرة الكاملة عليهما، كما شغل البعض منهم وظائف عسكرية وكانت لهم قوات من الميليشيا المحلية ذات نفوذ طيلة الفترة الحديثة. ويساعد المجتمع المسلم عدة مؤسسات دينية منها أضرحة الأئمة **الصوفيين**. ولأجل تأكيد مركزية المدينة في حياة مسلمي **گانسو**، فإن أغلب الجنرالات العسكريين في منطقة الشمال الغربي كانوا خلال العهد الجمهوري سجلوا أن **خيجو** هي سكنهم الرسمي، رغم أن أكثرهم

يسكنون في مناطق اخرى. ونظرا لأنها كانت مركزا لبيع البضائع الصينية ومنتجات مناطق تلال التبت، فإن المدينة قد أثرت وقت السلم، لكنها كانت ضحية الكثير من التدمير والخراب خلال الحروب المحلية بين مختلف الفئات. فمثلا مناطق المسلمين في ضواحي **بافانگ** قد تمت استباحتها وأحرقت لعدد من المرات نتيجة تزايد العنف في مناطق التخوم خلال فترة حكم **تشيانلونگ** (١٧٣٦-١٧٩٦).

أما مدينة **تيانشو** التي تُعتبر الآن مدينة هامة في أعالي **وادي وي** فكان عدد المسلمين فيها حوالي ٥ آلاف شخص ولهم خمسة جوامع وسط مدينة يبلغ مجموع سكانها ٥٠ ألفا تقريبا. أضف إلى ذلك، أن سكان المناطق التي تزود غيرها بالمؤن كانوا من غير المسلمين. لذلك فإن المجتمع المسلم الصغير الحجم كان عليه أن يأخذ موقفا استرضائيا ولينا في تعامله مع الآخرين، خاصة وأن الثكنة العسكرية كانت متمركزة هناك. ورغم أن المسلمين هناك كانوا ينتمون إلى منظمات يُفترض فيها أن تكون مقاتلة سلفية، ورغم أن المركز الرئيسي **للجهرية** كان موجودا في مدينة **جانگجياتشوان** القريبة، إلا أنهم لم يثوروا قط على جيرانهم أو يلحقوا بهم الأذى.

تقع مدينة **فوجيانگ** (وتسمى الآن **گانگو**) قريبا من مدينتي **تيانشو وجانگجياتشوان**، وهي عبارة عن سوق للمنطقة ويسكنها قليل من المسلمين. بالنسبة لعلماء الإنثروبولوجيا الأوربيين العاملين في تلك المنطقة في مطلع القرن العشرين، فقد كانوا يعتقدون بقناعة أن ذلك المكان يمثل واقع المدن الصينية الواقعة إلى الشرق من ذلك بمسافة بعيدة، وأنها من الناحية الثقافية كانت بعيدة عن المراكز الإسلامية القريبة اليها جغرافيا. وفي الحقيقة أن دراسات الأنثروبولوجيا الوصفية التي أمضى جوزيف دولز وقتا طويلا في إعدادها لم تأتِ على ذكر المسلمين اطلاقا،(٢٨) رغم أن المسلمين الذين كانوا يعيشون في تلك المناطق وينتسبون إلى **الجهرية** قد ساهموا بقيادة الأئمة في الاضطرابات والإنتفاضات التي نُسبت إلى الجماعة **الصوفية**.(٢٩)

ومع شعورنا بالحذر ازاء عدم دقة الإحصاءات في فترتي حكم **التشينگ** ومن بعده الجمهورية، فإنه يمكننا أن نضع خارطة لتوزيع المسلمين في **گانسو** رغم أنها

غير منتظمة بدرجة ما. فهم كانوا يتجمعون في مناطق **خيجو** **وشونخوا** **وجانگجياتشوان** **وتاوجو** **ونينگشيا** **وشينينگ**. إن أقساما كبيرة من المحافظة - بين **لانجو** **ونينگشيا** - إلى الشرق والجنوب كانت فيها الكثافة السكانية ضعيفة. أما أجزاء محافظة **گانسو** في **وادي** **وي** فقد غلبت عليها الجماعات غير المسلمة، في حين كان المسلمون يتمركزون في مدن **تيانشو** **وفيوجيانگ** **وبينگليانگ** **وجانگجياتشوان**. وكما أشار **جيگانگ** بألم بالغ، أن طرق المواصلات في المحافظة كانت سيئة للغاية بفعل الكوارث الطبيعية ونشاطات قطاع الطرق التي كانت عائقا في تعقيد أو قطع شبكة الاتصالات بين المسلمين. وباختصار فإن ظروف المجتمعات المسلمة في **گانسو** وعلاقاتهم بجيرانهم من غير المسلمين كانت تعتمد بدرجة كبيرة على عوامل محلية. فمثلا، بعد عام١٨٧٣ طُرد المسلمون ولم يُسمح لهم بالسكن داخل المدن المسوّرة في المحافظة خوفا من تكرار حوادث العنف التي طغت خلال السنوات ١٨٦٢-١٨٧٣. وفي مدن **خيجو** **وشينينگ** ونينگشيا، كانت التجمعات السكانية المسلمة تسكن في ضواحيها فقط حتى منتصف القرن العشرين. ولكن في مدينتي **تيانشو** **ولانجو**، عاش المسلمون داخل المدن حالهم حال الآخرين لأن أعدادهم قليلة ولم تشكل تهديدا للآخرين. أما حول **خيجو** فقد كان الفصل بينهم وبين غيرهم اشد صرامة.

في إحدى المرات قمنا بسفرة برفقة سائقي البغال، الذين غمرونا بمشاعر الصداقة وطلبوا منا أن نتوقف معهم في قراهم كي نستريح. وهكذا فعلنا وأمضينا الليلة في عالم إسلامي مصغر. كانت أسماء الأطفال اسماعيل وفاطمة وعبد الله. قبل حلول الظلام قام رجال متدينون ملتحون بأداء صلاة العشاء في الأماكن العامة.

وفي مرة أخرى قمنا بسفرة على نفس الطريق العام، ولكن في هذه المرة كان سائقو البغال من الصينيين (غير المسلمين). لقد بدا لنا أن منظر الطبيعة الريفية مختلف تماما وتطغي عليه صفة الحياة الصينية. ومرة أخرى أمضينا ليلتنا ضيوفا على قرية سائقي البغال. كان عبق البخور يملأ المكان وكانت أصوات نخير الخنازير تُسمع في فناء البيت وطرقات القرية بعد حلول الظلام وهي تختلط مع

رنين الأجراس وقرع الطبول. كان الناس يلبسون الأقنعة ويحملون صورا ويدورون في طرقات القرية، فقد صادف أن كانت ليلة مكوثنا هناك ليلة احتفال عام عندهم. (٣١)

لذلك يجب علينا أن نعطي اهتماما خاصا للسكان المحليين في دراستنا للمسلمين في شمال غرب الصين، وعدم الإعتماد على التصنيف الرسمي وخطط المؤسسات الوطنية التي اعدت لأغراض أيديولوجية لكي يستعملها الصينيون والعلماء الغربيون. إن الصفات التي يشترك فيها سكان **كانسو**، مثلهم مثل غيرهم، ليست قاطعة أو صارمة وتخصهم وحدهم فقط. فالوضع الجغرافي والعائلي والانتماء الديني والمهنة ودرجة التعليم وغيرها من عوامل الولاء، كان لكل ذلك تأثير على خيارات المسلمين وغير المسلمين عبر امتداد تباين ثقافاتهم.

الفصل الثاني

التشيع الثقافي والتكيف

مسلمو الصين حتى القرن السابع عشر

الوصول إلى صين التانگ والسونگ (٦١٨-١٢٧٩) كيف جاء المسلمون إليها



جامع مقاطعة غوينشو الذي بني عام ٦٢٧ وبنيت المنارة في القرن العاشر

<http:/www.Google Courtesy>

كان لمحمد القدرة على خلق السموات والأرض ... وهو الذي شق القمر الى شطرين ثم اعاده متكاملا.... كان ذلك عام ٦٢١ وهي السنة الرابعة لـWu-te وودى. صدر الأمر الإمبراطوري إلى كل من **أويانغشين** *Ou Hsuen (المسؤول عن الساعة المائية) بحفر نص البسملة على ختم لضرب عملة جديدة إشعارا لبداية فترة الإسلام، وتسجيل هذه الخطوة كعمل بطولي خارق. وأصل الحكاية هو أن الإمبراطور* **تاي تزونغ** *T'ai-ltsung رأى في منامه أنه قابل الرجل المقدس فقام من نومه مذعورا. في اليوم التالي أرسل عددا من الوفود إلى أرض الرسول، الذي بادر بدوره إلى ارسال خاله سعد بن أبي وقاص ومعه أجزاء القرآن الثلاثون بسوره البالغ عددها ١١٤ سورة وآياته التي تعدادها ٦٦٦٦ آية ليقدمها هدية للإمبراطور.... قام* **تاي تزونغ** *بمراجعة كل ذلك ونشر الإسلام في كل أرجاء الإمبراطورية مما أدى إلى ازدهاره في الصين.*(١) (من الملاحظ أن كاتب النص قد جاوز الحقيقة في عدة امور منها قدرة النبي، إذ خلط بينه وبين الله - الرب. في اعتقادي أن هذا راجع إلى التأثر بأفكار المسيحية التي تخلط بين يسوع والرّب. والملاحظة الأخرى هي إرسال اجزاء القرآن الثلاثين، الذي لم يتم جمعه بعد حسب تسلسل الحوادث التاريخية، وكذلك نسب سعد ابن أبي وقاص للنبي ومهمته المزعومة إلى الصين. وسعد بن أبي وقاص هو مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. فهو من بني زهرة وهم فخذ آمنة بنت وهب أم النبي، وقد كان النبي يعتز بهذه الخؤولة فقد ورد أنه كان جالسا مع نفر من أصحابه فرأى سعد بن أبي وقاص مقبلا فقال لمن معه: "هذا خالي فليرني امرؤ خاله" - المترجم)

لقد رأى الإمبراطور **تاي تزونغ** *في منامه رجلا معمما وهو يطارد شبحا ظهر أمامه في أروقة القصر. أخبر مفسر الأحلام الإمبراطور أن الرجل المعمم هو* **خيويخيوي** *(مسلم) جاء من جهة الغرب. ففي أرض الجزيرة العربية ظهر ملك*

مسلم له مزايا فائقة، وولدت بمولده الحكمة وجاء مبشرا نذيرا. تقدم الجنرال ***شي شرجي*** Shih-Chi Hsu *نحو الإمبراطور وقال له "ابعث رسولا عبر حدودنا الغربية إلى ملك المسلمين واطلب منه أن يُرسل المبشرين ليزيلوا كل الشرور لكي ترتاح البلاد منها إلى الأبد." وهكذا تم ارسال الضابط الشهير* ***شرتانغ*** Shih T'ang *في مهمة سفير. عاد الضابط السفير ومعه ثلاثة من علماء الدين الجديد إلى الصين. غير أن اثنين منهما توفيا في الطريق وتمكن واحد فقط هو* ***غو شن*** Ko-hsin *من الوصول سالما. وعندما حضر* ***غو شن*** *أمام الإمبراطور أخبره أن السماء قد أرسلت الفرقان (القرآن)، ثم وبّخه لأنه يعبد الأوثان.(٢) أصدر الإمبراطور أمرا بتعيين* ***غو شن*** *رئيسا لمجلس علوم الرياضيات.(٣)*

المسلمون في فترتي التانگ والسونگ

ليست لدينا أدلة تاريخية تشير إلى أن سعد بن أبي وقاص، وهو خال النبي (للأسف، وقع المؤلف ليمن بنفس خطأ المصدر الذي استعان به في مطلع هذا الفصل- المترجم) قد حضر فعلا إلى الصين. ومن المؤكد أن الإمبراطور **تانگ** لم يقم بمراجعة القرآن ولم يكن ممكنا أن يتحمل أن يوصف بأنه كافر يعبد الأوثان. غير أن قصصا من هذا القبيل كانت شائعة، ولم يعترض المسلمون الصينيون على ماجاء فيها. وهكذا أصبح مسلمو الصين يشكلون جزءاً من التاريخ المبكر للإسلام. ومن المرجح أن المسلمين حضروا إلى الصين ضمن وفود رسمية وكتجار بعد عدة سنوات من هجرة النبي محمد من مكة إلى المدينة عام ٦٢٢.(٤) وهم بهذا انضموا إلى عدد كبير من سكان وسط آسيا وغربها من الذين هاجروا إلى المراكز التجارية لإمبراطورية **التانگ** واستقروا فيها.(٥) ولستة قرون بعد ذلك لعب العرب (بالصينية **داشي**) والفرس (بالصينية **بوسي**) دورا مهما في الحياة الاقتصادية للصين، خاصة في المناطق التي يمر عبرها طريق الحرير Silk Road في الشمال الغربي حتى موانىء المدن الساحلية في جنوب شرقي البلاد.(٦) وبعد عدة قرون، خاصة

بعد الاجتياح المغولي، حصلوا على مناصب سامية مثل رئيس مجلس العلوم الرياضية.

إن الكثير من تجارتهم كانت بضاعة فاخرة تُسلّم مباشرة للبلاط الإمبراطوري كهدايا من الحكام المسلمين، حقا كان ذلك أم بهتانا. ويورد عدد من الوثائق التاريخية بعض المناسبات التي وصلت فيها القوافل إلى **تشانگئان** و**كايفنگ** ونزل أصحابها ضيوفا على المسؤولين الكبار، فأقيمت لهم حفلات تكريم باذخة وقُدمت لهم هدايا تفوق "قيمة الخمس" التي جاء بعضهم من أجل جمعها! لم يكن مسموحا لأعضاء وفود جمع الخمس بالبقاء في الصين لفترة طويلة، بل كان عليهم أن يعودوا بعد عدة شهور إلى بلادهم محملين بما جنوه من هبات الإمبراطور. يشك الكثير من المؤرخين الحديثين، وهم على حق، بموضوع جمع الخمس ويميلون إلى الاعتقاد بأن مهة تلك الوفود كانت لأغراض تجارية معروفة للصينيين، وكذلك للأجانب الآخرين.(٧)

غير أن بعض التجار الأجانب قد جاءوا إلى الصين ليستقروا فيها زمنا. استطاع البحارة المسلمون أن يصلوا شمالا إلى **يانگجو**، وهي منطقة تقاطع نهر**يانگزي** مع القناة الكبرى، في حين استطاع تجار طريق الحرير من الوصول إلى **كايفنگ** والى عاصمة سلالة **السونگ** (٩٦٠-١١٢٧). تمكن القليل منهم من المساهمة في السياسة ونشاطات المجتمع الصيني، لأن الحكومة حاولت عزلهم. ففي مدينتي **تشانگئان** و**گوانگجو** وغيرهما من المدن الكبرى، كان يتعين على الأجانب السكن في مناطق معينة خاضعة لمراقبة السلطة، وأن ينحصر نشاطهم الاقتصادي على أسواق بعينها بغية الحدّ من احتكاكهم بالصينيين. كما اتخذت حكومة **التانگ** إجراء يقضي بمنع زواج الرجال الأجانب من الصينيات، وحتى ارتداء الزي الصيني.(٨) وهكذا بقي المسلمون تحت الإقامة المؤقتة وفق تعليمات الحكومة السرية منها والعلنية، وكذلك تصرفات المجتمع الصيني من حولهم. لقد مُنحوا قدرا من الحقوق المدنية والاستقلال الإداري ضمن مناطق تجمعهم، ولكن حُضر عليهم

الاختلاط بالسكان المحليين. غير أن اجراءات من هذا القبيل لم تمنع بعض المسلمين من تعلم اللغة الصينية والزواج من الصينيات والبقاء لفترة طويلة في الصين. ورغم أنه يمكننا الحدس بمدى علاقتهم بالسكان المحليين، فليس هناك شك بأن البعض منهم قد استقروا واستطاعوا أن يجدوا زوجات مسلمات (أو تحولن إلى الإسلام) من بين الجماعات المهاجرة الأخرى والسكان المحليين، وخلقوا مجتمعا خليطا يوحده الإسلام، وكونهم "أجانب" وربما استخدامهم اللغة الفارسية كلغة للتعامل بينهم.

خلال فترة حكم **التانگ** والسلالات الخمس (٩٠٧-٩٦٠) وما تلى ذلك خاصة في فترة حكم **السونگ** (٩٦٠-١٢٧٩) كان تجار الاستيراد والتصدير ذوو الشأن مسلمين، وكانوا يتمتعون بالإقامة الدائمة ولهم ممثلوهم في مدن **تشانگثان وتشانجو** و**خانگجو** وكايفنگ **ويانگخو** و**گوانگجو** وربما غيرها من المدن الأخرى. كانت تجارتهم تشمل سلعا مختلفة وأن عددهم لم يكن قليلا.(٩) فمثلا قتل جنود **تيان شنگونگ** الآلاف من المسلمين **الجاشي والبوسي** في مدينة **تسانگجو** خلال معركة **التانگ** ضد الثوار المحليين. وتشير المصادر العربية إلى أنه عندما سيطر جيش المتمردين بقيادة **تشاو خوانگ** على مدينة **گوانگجو** عام ٨٧٩ فإنه قام بإهراق دم عشرات الآلاف من التجار الأجانب، أغلبهم من المسلمين.(١٠)

تشمل واردات الصين التوابل والعقاقير الطبية وقرون الكركدن والعاج والجواهر الثمينة. وكل هذه السلع خفيفة الوزن غالية الثمن ونادرة ومناسبة للتجارة التي تقطع القوافل فيها مسافات بعيدة، وبشكل عام بيد التجار المسلمين. يذكر التاريخ الرسمي لسلالة **السونگ** قصصا عن التجار العرب الذين مارسوا أعمالهم في مدينة **گوانگجو** وكذلك قوائم السلع العربية التي قُدمت كهدايا للبلاط.(١١) لقد دفع التجار الأجانب الضرائب المستحقة على بضاعتهم وساهموا بذلك في اثراء الدولة. كما أن العطور والتوابل القادمة من غرب الصين غيّرت طباع الصينيين وعاداتهم. وكذلك الحال بالنسبة لعقاقير العلاج الطبي القادمة من غرب الصين والتي دخلت الأسواق الصينية

بكميات هائلة.(١٢) هذا وقد حضي البخور الراتنجاني Resinous Gum ذو الرائحة العطرة على حظوة شعبية متميزة إلى الحد الذي جعل الإمبراطور يأمر بإشعال المئات من الشموع المصنوعة منه في القصر الإمبراطوري خلال ساعات المساء. ونتيجة لذلك حصل التاجر المسلم **بو لاوشين** على تقدير رسمي خاص لنجاحه في استيراد كميات كبيرة من هذه المادة إلى الصين.(١٣)

خضعت قوافل تجارة المسلمين وسفنهم لدفع الضرائب وفق عملية منتظمة أشرفت عليها الحكومة الصينية. وقامت الدولة في حينها في احتكار تجارة استيراد الحديد والعقيق والمرجان، خصوصا العطر منه، لكي تُباع هذه السلع إلى مسؤولي الحكومة الذين لا يستطيع المسلمون المساومة معهم، كما يفعلون عادة في الأسواق. كانت الضرائب المفروضة على السلع المستوردة تقدّر في موانىء وصول السفن، وكانت تبلغ بين خمس أو خمسي ثمن البيع (أيِ ٢٠% إلى ٤٠%)، ويذهب قسم كبير من الرسوم لخزينة الدولة خاصة بعد أن خسرت سلالة **السونگ** سلطتها في شمال الصين التي أصبحت تحت نفوذ الغزاة من Jin عام ١١٢٧. كان المسؤولون الحكوميون في موانىء السفن في مدن الجنوب والشمال يستخدمون أموال القصر الإمبراطوري واموالهم الخاصة لشراء سلع التجار المسلمين بأسعار مخفضة. يُسلّم بعضها إلى القصر الإمبراطوري أو تُباع لأجل كسب المزيد من الأرباح. كما كان يتعين على التجار أن يُقدموا قدرا من سلعهم كهدايا للمسؤولين المحليين بغية التسريع في انجاز عمليات البيع والتخليص، وحتى لا تتعرض رخص الاستيراد إلى التأجيل والمماطلة.

وبالرغم من خضوع نشاطات تجارة المسلمين للقوانين، فإن المسلمين المقيمين في الصين في فترتي **التانگ والسونگ** كانوا أيضا خاضعين ضمن نشاطاتهم اليومية إلى سلطة الموظفين المسلمين بتفويض من القصر الإمبراطوري. كانت الحارات التي يسكنها المسلمون تُسمى "حارات الأجانب" (بالصينية **فانگ فانگ**)، وكان ذلك يمثل نوعا من المساومة التي فُرضت عليهم في القرن التاسع

عشر.(١٤) كان على المسلمين في تلك المناطق أن يخضعوا لسلطة محاكم اسلامية إذا ما اقترفوا ذنبا ضد المسلمين الآخرين، وكان القاضي مُعترفا به من قبل الدولة. أصبح القليل من المسلمين قبل نهاية فترة **السونگ** مواطنين عاديين. ولكن حسب علمنا فإنهم من جهة والحكومة من جهة أخرى لم يكونوا راغبين حقا في هذا التبادل الثقافي والتكيف.

لقد سمحت سلطات **التانگ والسونگ** للمقيمين بأن يلبسوا ويأكلوا ويؤدوا صلواتهم كما يحبون.كما تركت لهم أن يحافظوا على لغتهم، شرط أن يتعلموا الصينية ويستخدموها في ميداني العمل والتجارة. كما تُرك لهم أن يمارسوا طقوسهم وشعائرهم شرط ألا يقوموا بالتبشير لدينهم. وتمكن عدد قليل من هؤلاء المقيمين ممن حصل على ثقافة كلاسيكية من الحصول على وظائف لتدوين تاريخ الإمبراطورية، وحصل واحد منهم فقط على شهادة قانونية امبراطورية تحت حكم **التانگ**!(١٥) وحتى منتصف حكم سلالة **السونگ** اعتبر جميع المسلمين انفسهم في نظر الصينيين مقيمين بشكل مؤقت ولا يتمتعون بحق الإقامة الدائمة.(١٦)

بدايات الانتماء

في أواخر القرن الثاني عشر تقريبا، كان بعض المسلمين يعيشون في الصين لعدة أجيال واستطاعوا أن يشغلوا مواقع هامة. كان من بين (المولودين لعائلات أجنبية) أو ما يسمى **ووشي فانكي** (الجيل الخامس لوالدين أجانب) ممن سُمح لهم بالزواج من الصينيات ولأن يشتروا أراضي لغرض بناء المساجد أو استخدامها كمقابر في مدن الثغور.(١٧) وسمحت سلالة **السونگ** في جنوب البلاد (١١٢٧-١٢٧٩) للتجار الأجانب تولي مناصب رسمية، إذا كانت عائلاتهم قد عاشت في البلاد لثلاثة أجيال. كما سُمح للأجنبي أن يتزوج احدى أميرات القصر الإمبراطوري إذا كان هو أو أحد أفراد عائلته قد حصل على منصب حكومي عالٍ. إن الكثير من منتسبي التجمعات السكنية الإسلامية في الصين يدعون اثبات ملكية

المساجد والمقابر التي تعود إلى فترة حكم **التانگ**. ومن المُفترض أن سعد بن أبي وقاص هو الذي أمر ببناء مسجد **هوايشنگ** في مدينة **گوانگجو**. ولكن استنادا إلى وصف موجز وما قالت به مصادر غربية، فإن **دونالد لزلي** قد استنتج أنه لا يمكننا أن نثق بدقة تاريخ بناء أول مسجد في الصين قبل مجيء سلالة **السونگ** إلى الحكم. واستنادا إلى حجم التجمعات السكنية للمسلمين وطول فترة تواجدها في مدن **گوانگجو ويانگجو وتشوانجو**، ربما كانت لهم مساجد ومقابر خلال فترة حكم **التانگ**. غير أن المصادر لا تسمح لنا بالجزم.(١٨)

ورغم أنهم كانوا بدرجة كبيرة تجار استيراد واصحاب قوافل تجارية خلال النصف الأول من حكم السلالة، فإن الذين من أصل آسيا الوسطى كان لهم تأثير قليل في منطقة شمال الصين بعد منتصف حكم سلالة **التانگ**، لأن التجارة على طريق الحرير قد توقفت بسبب الحروب المتعددة والغزوات المتكررة لسكان الشمال. ورغم ذلك فإن تاريخ سلالة **السونگ** يشير إلى وجود أجانب، ربما مسلمين، ممن عاشوا في مدينة **تشانگئان** لأربعين عاما وتزوجوا من نسوة عشن في مناطقهم ولم يكونوا راغبين في العودة إلى أوطانهم الأصلية.(١٩) ونحن على علم أنه خلال فترات السلم كان السفر بين الصين وبلاد فارس أمرا اعتياديا، وأنه خلال السنوات الأولى للفتح العربي لأرض فارس هرب بعض الفرس الذين لم يرغبوا في اعتناق الإسلام إلى منطقة **تشانگئان** وسُمح لهم في الإقامة هناك. وفي شمال امبراطورية **السونگ**، كانت الوفود التي تأتي لاستلام "الزكاة" تعود إلى أوطانها وتترك منطقة **كايفنگ**.(٢٠)

إن التحول التدريجي لسكان آسيا من الأقوام التوركية نحو الإسلام قد أثر على مناطق شرق تركستان بعد القرن الحادي عشر، وذلك عندما أصبحت منطقة **كاشگار** مركزا للصراع بين الحكام المسلمين.(٢١) وبالرغم من كل هذه المخاطر وزحف كل من **الكايتان** و**الجرتشد** و**المغول** بقيت بعض طرق التجارة مفتوحة. فمثلا أصبحت **شينيانگ** (تسمى حديثا **تشينگخاي**) مركزا تجاريا رئيسيا عندما قطع

التانگوتز التابعين لمملكة **شيشيا** طريق الحرير وكانت حينها **ديداو** (تُسمى الآن **لينتو**) مدينة يسكنها المئات من التجار الأجانب. أما المسلمون في مدينة **خيجو** التي أصبحت تُسمى "مكة الصغيرة" في محافظة **كانسو**، ربما بنوا أول مسجد لهم في فترة حكم **السونگ**. وحتى بعد سقوط شمال الدولة بقي المسلمون في شمال الصين تحت حكم **الجورتشد**. في عام ١٢٢٨ بسط المغول حمايتهم على دور العبادة، بما فيها مسجد المسلمين في **فنگشيانگ** في جنوب غربي **شانشي** .(٢٢)

نحن على معرفة بأنه خلال فترة انتهاء حكم سلالة **السونگ** أصبح المسلمون جزءاً معروفا في العالمين الاقتصادي والاجتماعي في مدن الصين التي كانت ترتبط بالتجارة العالمية. كان الكثير منهم يجيد اللغة الصينية ويفهم العوامل التي تتحكم بحركة الأسواق ومزمع على عدم مغادرة الصين. كانت تجارة المسلمين تشكل نصيبا كبيرا من موارد الإمبراطورية نتيجة للضرائب التي يدفعها التجار الذين جلبوا الكثير من السلع الثمينة للبلاط الامبراطوري والسوق العامة. أضف إلى ذلك، أن التجار العرب والفرس هم الذين ادخلوا التكنولوجيا إلى الصين مثل تصنيع الأقطان وصناعة الزجاج، كما أنهم أخذوا عنها مهارات صناعة الخزف والورق ونقلوها إلى الشرق الأوسط. كما تمت عمليات أكثر تعقيدا ولم تحظ بالتغطية خصوصا ما كان يتعلق منها بالطب. فقد جلب الفرس والعرب العقاقير الطبية إلى البلاد وساهموا في تطوير أساليب الشفاء والصيدلة.(٢٣)

ورغم أن المسلمين لم يخضعوا رسميا إلى تمييز قانوني محدد، فإنه كان يُنظر للمسلمين نظرة سلبية كأجانب وكتجار. ومن وجهة النظر الاجتماعية في الصين فإن المسلمين كانوا في الطبقة الدنيا. فمن وجهة نظر النخبة، لم يترك المسلمون لا هم ولا دينهم أي أثر إيجابي على الصين. ولم يظهر عن الإسلام أي تقرير منصف ودقيق إلى حدٍّ ما إلا في فترتي **التانگ والسونگ**.(٢٤) ورغم أن كلمات مثل **فان وخوي** و**بوسي** و**داشي** وغيرها يمكن أن تُترجم إلى "أجنبي" دون أن تحمل في ظاهرها نظرة سلبية. لكن الحقيقة هي أن هذه الكلمات محملة في باطنها وكأنها

"وصمة اجتماعية" ذات طابع قبيح للغاية. وفي نفس الوقت، كان الصينيون تملأهم الرغبة لكسب الأرباح نتيجة تعاملهم بتجارة التوابل والأحجار الكريمة والعقاقير والأغذية والنباتات المنشّطة للشهوة الجنسية، وغيرها من السلع القادمة من الغرب والتي يأتي بها التجار المسلمون من مناطق بعيدة. ومن ناحية أخرى، وجد المسلمون تدريجيا أن الصين تمنحهم فرصا جيدة للعمل والإقامة وبناء العائلات. ونظرا لصعوبة السفر بالسفن من أرض فارس والعرب إلى الصين، فإن النساء لم تكن قادرات على القيام بتلك الرحلات. ولذلك اتخذ معظم التجار زوجات صينيات من اللواتي اعتنقن الإسلام ووضعن الأسس لإنشاء مجتمعات مدنية اسلامية دائمة في كل أرجاء الصين. وكنّ حريصات على أن يتعلم أولادهن وبناتهن اللغات المحلية الصينية.

المسلمون خلال فترة حكم اليوآن (١٢٧٩- ١٣٦٨) أربع صور لوزير المالية أحمد فنقطي

كان أحمد رجلا عربيا مسلما ذكيا وجريئا. كان له تأثير على الخان الكبير (لقب خلفاء جنكيز خان في بلدان آسيا الوسطى - المترجم) يفوق تأثير أي شخص آخر....... لقد ُوجد أن له أساليب سحرية لإغراء صاحب الجلالة الذي أعطاه أذنا صاغية ومصداقية لكل ما كان يمثله .... لقد شرّف هذا الرجل كل المناصب الحكومية والمدنية العامة التي شغلها. إلى جانب ذلك كانت الحسان يقعن تحت سحره ولم يتردد في امتلاكهن وجعلهن على قائمة رغباته الجنسية. لقد خلف من الأبناء خمسة وعشرين، تولوا جميعا مناصب عالية في الدولة. كما استطاع أحمد أن يجمع ثروة طائلة لأن كل شخص يأتي طلبا لمقابلته كان يتعين عليه أن يجلب معه هدية ذات قيمة.(٢٥) لقد شغل الأمير أحمد وزارة المالية بشرف وجدارة فترة تقارب ٥٢ سنة .... كان خلالها حذرا دائم الإنتباه.(٢٦)

*وعندما توفي أحمد، لم يكن القبلاي **شيزو** على علم تام بفسوق هذا الرجل. طلب **شيزو** من **جونكشو** بألاّ يحقق مع أزواجه أو أولاده، وأن يركز بدلا من ذلك على التحقيق مع **بولو**، الذي كشف عن كل جرائم أحمد وشروره. وفي لحظة غضب قال "إن قيام **وانگ جو** بقتله كان حقا عملا يدل على الإخلاص." لقد طلب أن يُستخرج رفاته ويُترك عند بوابة **تونكشوان** لتأكل لحمه الكلاب السائبة. قام المسؤولون الحكوميون على اختلاف درجاتهم بمشاهدة عملية استخراج الرفات، وعبروا عن فرحتهم بذلك.*(٢٧)

*لقد خدم أحمد في موقع حكومي تركز على الإشراف على أموال الدولة خلال فترة حكم **يوآن شيزو**، وهي الفترة التي تم فيها توحيد الأمة وتهدئة الوضع العام. ولكن عندما نتأمل استغلاله المنصب من أجل أغراضه الخاصة واستغلال الضعفاء من المواطنين، فلا بد من اعتباره من أشد أعضاء البيروقراطية الإقطاعية شرا.*(٢٨)

حكم الصين: سيطرة السيمو والمغول

جلبت قوة التحول الحضاري في القرن الثالث عشر تحت ظروف الفتح المغولي إلى الصين مدّا من المسلمين ذوي المهن المختلفة والثقافات المتعددة، ليس فقط كتجار ورجال أعمال بل كقضاة ومعماريين وعلماء وحرفيين ومزارعين. ولكي يبسطوا نفوذهم على المناطق المفتوحة قام **أوگدي ومونگي وقُبلاي** بتأسيس ادارات ثانوية جديدة واستثنوا الصينيين منها. كما أسسوا اتحادات للتجار سموها **السيمو گوان**.(٢٩) ومن الجدير بالذكر أن **ماركو پولو** الكاثوليكي القادم من **فينا** أصبح واحدا من المسؤولين، لكن أغلبهم كانوا مسلمين من وسط آسيا وغربها.

لقد أنيطت بهم مهام حفظ السلام وجمع الضرائب وتوزيع البضائع، الأمر الذي جلب على هؤلاء الأجانب شهرة بغيضة اخلاقيا بين صفوف الصينيين. غير أنهم استطاعوا من تثبيت أقدامهم كمقيمين دائميين. ولكي يضمنوا لأنفسهم **وللسيمو** المناصب العليا قام أمراء **اليوآن** بتولي مناصب الحكام المحليين. وكذلك حظي

عدد من المسلمين بإشغال وظائف بدرجة وزير خلال فترة حكم **اليوآن** المبكرة، تميز منهم **السيد آجال شمس الدين** (بالصينية **سي ديانتشي**) الذي سمح له منصبه كحاكم لمقاطعة **يوننان** بعد أن شغل مناصب عليا قبلها، أن يُثبت وجود المسلمين الدائم في جنوب غربي الصين.(٣٠)

استطاع المسلمون أن يبسطوا نفوذهم على الميدانين الأكاديمي والاقتصادي داخل بيروقراطية **اليوآن**. فالدوائر المسؤولة عن اختصاصات الفلك والطب وصناعة الأسلحة (خاصة المنجنيق وأسلحة الحصار الأخرى) واللغات الأجنبية، كان على رأسها عدد من العلماء والتقنيين المسلمين. فالفارسي جمال الدين مثلا قد أحضر التصاميم لأحدث أدوات علم الفلك من بلاد فارس، وقام في العاصمة بكين بتأسيس أول مرصد فلكي لمراقبة الأجرام السماوية. فأصبح بذلك العالم المفضل لدى **القُبلاي** في ما يتعلق بأمور التقويم السنوي.(٣١) أضحى علماء الفلك المسلمين، خاصة الفرس الذين يُسمون **مسلم** بالصينية، جزءاً من حياة البلاط منذ أواخر القرن الثالث عشر حتى أفول نجمهم بوصول المبشرين اليسوعيين (جمعية دينية للرجال أسسها القديس إغناطيوس ليولا عام ١٥٤٣- المترجم) بعد ثلاثة قرون.(٣٢) وخلال الغزو الناجح لشمال الصين على يد جيش قوامه من المغول **والسيمو** الصينيين، استطاع رجلان مسلمان بناء منجنيق، الأمر الذي مكّن المغول من السيطرة على **شيانگيانگ** ثم **خينان** (التي تُسمى الآن **خوبي**). وفي عاصمة **اليوآن** تمّ تأسيس كليات لتدريس اللغة الفارسية وغيرها من لغات آسيا الوسطى.(٣٣)

وإضافة إلى عملهم كعلماء وموظفين في خدمة السلالة الحاكمة فإنهم عملوا أيضا شركاء في مشاريع تجارية. فأصبح المسلمون **أورتاق** أي شريك مع الأسياد المغول لجمع وتصدير المنتجات الصينية واستيراد السلع الأجنبية عبر طرق التجارة المفتوحة التي تربط بين اجزاء الإمبراطورية المغولية.(٣٤) استمتع الذين عملوا في خدمة **اليوآن** بمغانم سياسية واقتصادية نتيجة تقربهم من البلاط المنغولي، مما نجم عنه استثمارات مباشرة للأمراء المغوليين وقروض من خزينة الدولة وحتى اعفاء من الضرائب بأمر من **القُبلاي** وحاشيته القريبة. ولذلك فقد تفرع نشاطهم في كل منطقة

ومحافظة في الصين. ونظرا لانحدارهم أصلا من وسط آسيا (تذكر المصادر الصينية خاصة القادمين من خوارزم وسمرقند) بالإضافة إلى الفرس والعرب، ولتعاملهم ليس فقط بسلع الترف ولكن حتى في تجارة المواد الغذائية والملح والماشية، فإن أعداد المسلمين تضاعفت في الصين وأصبح وجودهم من ناحية العدد وتنوع النشاطات ظاهرة ملحوظة بشكل بيّن.(٣٥) ونظرا لأن نشاطهم لم يقتصر على التجارة بل امتد إلى أعمال الخراج فإن الفلاحين في الريف الصيني يعرفونهم. وأن جميع **السيمو** أصبحوا موضوعا للاحتقار والخوف والكراهية.

وكغيرهم من الأجانب المقيمين بشكل مؤقت خلال فترات حكم السلالات السابقة فإن **السيمو والأورتاق** من المسلمين في عهد **اليوآن** كانوا يرومون البقاء في الصين. وبعد مرور جيلين أو ثلاثة تعلموا اللغة الصينية وأصبحوا معروفين بجودة أسلوبهم عند الكتابة بها. وبرز من بينهم عدد من الشعراء والرسامين والموظفين المدنيين الذين برعوا في اتباع تعاليم كونفوشيوس واحتلوا مكانتهم في النشاط الثقافي منذ منتصف فترة **اليوآن** حتى نهايتها.(٣٦) ورغم أن دونالد لزلي قد تجاهل درجة تشبع المسلمين بالثقافة الصينية خلال تلك الفترة فإن **السيمو** المسلمين من الجنود والتجار لا شك أرسوا لأنفسهم ظروف الإقامة الدائمة حتى وإن كانت في أحياء منفصلة عن جيرانهم من الصينيين. وفي منطقة **ممر گانسو** التي تُعتبر حلقة اتصال لطرق النقل والمواصلات الضرورية قام المغول بإسكان عدد من الجنود المسرحين من الخدمة وأسسوا مستوطنات زراعية في الحقول التي تركها أصحابها من المزارعين الصينيين أو أولئك الذين غيبهم الموت.(٣٧) وحتى الحرفيين الذين تمّ جلبهم من وسط آسيا استقروا في مناطق قريبة من سكنى الصينيين ولكن على شكل مدن أو مستوطنات "مختلفة".(٣٨) وبغض النظر عمّا إذا كانوا قد درسوا تعاليم كونفوشيوس بشكل كلاسيكي أم لا، فإن عددا كبيرا من المسلمين الذين عاشوا في الصين كان لهم من التصميم ما دفعهم لخدمة السلالة المغولية من خلال المهن والوظائف المتنوعة، وهي التي مهدت الأجيال القادمة منهم لاستيعاب الثقافة الصينية والتشرب بها.

تغير الأدوار وتحول الصور

كان الرأي السائد بين الصينيين عن المسلمين قبل بزوغ فجر حكم **اليوآن** "إننا متحضرون وهم برابرة." وبرغم الغربة وبعد المسافة استطاع التجار المسلمون من الإقامة في المدن التي تقع على طريق الحرير وثغور جنوب شرق الصين. كانوا قلة وسط بحر متلاطم من المواطنين الصينيين. وخلال فترة **اليوآن** كان منحهم لقب **السيمو** قد أعطاهم موقعا خاصا في المجتمع الصيني مما جعلهم معروفين لدى السكان المحليين، خاصة طبقة النخبة التي كانت تتبوأ عادة المواقع القيادية السياسية والاجتماعية. كان المسلمون الذين عملوا موظفين وتجارا قد أثروا هم وعائلاتهم واحتكروا بعض مناصب السلطة التي لم يكن بمستطاع الأجانب الحصول عليها في فترتي **التانگ والسونگ**، حيث كانت محصورة على الطبقة العليا في المجتمع الصيني ولأولئك المسؤولين الملتزمين بتاريخ الصين ولهم مواقف متشددة بخصوص من يمارس الكتابة. وفي نفس الوقت يمكن ملاحظة أن شعور العداء كان قويا بدرجة واضحة حين يتولى غير الصينيين مقاليد الأمور في البلاد.

إن الوجوه الأربعة التي اشرنا اليها لأحمد فنقطي وهو واحد من طبقة **القُبلاي** وشغل منصب وزير المالية، تمثل مشكلة في تدوين عملية التاريخ. لقد عمل أحمد مستشارا وإداريا **للقُبلاي** مدة عشرين عاما.(٣٩) إن أداءه الإداري الذي وصفه **رشيد الدين** بأنه كان مشرّفا، قد جلب عليه مشاعر عداء كثير من الصينيين، وأن رفاته قد استخرج لأنه اتُهم بأنه مرتش تتحكم بسلوكه الشهوات الجنسية ومحاب لأقاربه في قضايا التوظيف، وغيرها من تهم الفساد. وجدير بالذكر أن **ماركو پولو** هو الآخر قد أعطى عنه صورة سلبية عند الكتابة عن رحلته إلى الصين.(٤٠) تشير بعض المصادر أنه حين اغتيل أحمد احتفل الصينيون ورقصوا وغنوا وسكروا لثلاثة أيام متتالية.(٤١) لقد شوّهت سمعة أحمد على يد أعدائه في البلاط وأدانه **القبلاي** نفسه وأخزاه وعائلته إلى درجة أنه لا يمكننا من الحكم على انجازاته وجرائمه بشكل

موضوعي. كما أن المتخصصين الحديثين بدراسة مسلمي الصين يجدون صعوبة في دراسة حياة أحمد لأن مصادرهم باللغة الصينية تقسو عليه، في حين أن التضامن بين مسلمي الصين يدعو إلى أخلاقية تقييم الرجل بشكل أكثر ايجابية. وقد ظهرت دراسة حديثة أعدها شخص مجهول كال لأحمد فيها المديح، خصوصا فيما يتعلق في مهاراته كوزير للمالية في تنظيم تجارة الملح والشاي والنبيذ والخل والمعادن، لأنه وضع نظاما لتعويض المسؤولين بشكل عادل. كما أن معدّ الدراسة المجهول قد تحدث عن صعوبة منصب وزير المالية ودقة مهامه عندما كانت البلاد تحت سيطرة قوة أجنبية غازية. ومن جهة أخرى، فإن فساد أحمد ومحاباته لأقاربه لنيل الوظائف العالية في الوزارة وابتعاده عن زملائه من الموظفين الآخرين قد جلب عليه نقمة الصينيين منهم بشكل خاص.

وإضافة إلى استهداف أشخاص معينين مثل أحمد وازدرائهم، فإن أتباع سلالة **السونگ** وكل من عادى المغول قد كتبوا نصوصا للحد من قدر **السيمو** وتشويه سمعتهم، خاصة المسلمين الذين كانوا يسمونهم أمناء المغول أو العصابة الغير متحضرة أو الوحوش الذين تنقصهم الأخلاق. إن مؤلفي تلك النصوص لا يعرفون الإسلام ولا يعنيهم في شيء، لكنهم تكبدوا خسائر لا مثيل لها وفقدوا سيطرتهم وبالتالي امتيازاتهم، الأمر الذي جعل نقدهم يتعدى حدود الخطابة الأدبية والتحضر. فالنصوص التي تعود إلى **جو مي** وكذلك **جنگ سونان** و**تاو تسونگي**، وفي الحقيقة أن كل من أرخ لفترة **اليوآن**، وصف المسلمين بأنهم يفتقدون إلى النواميس الأخلاقية وآداب السلوك ويتصفون بالقذارة. واستنادا إلى ما صرح به **جنگ** "إن **للخيويخيوي** رائحة كريهة جدا حتى لو استحم." هذا وكان **تاو** قد أشار إلى قصيدة هجاء جاء فيها "إن انوف فيالهم أصبحت مفلطحة وعيون قططهم توحي بالغباء وكل آمالهم بحياة طويلة قد ذهبت أدراج الرياح .... ياللأسف! عندما تسقط الأشجار تبعثر القردة،" لكي يوضح مصير مسلمي **السيمو** الهمج عند اندحار أسيادهم المغول الذي ما كان منه مفرّ.(٤٢) وهنا نجد مرة أخرى أن المسلمين يشار

اليهم بأنهم **الآخرون** الذين لا رجاء في إصلاحهم، ليس وفق نزعة الخير الكونفوشية نحو الكائنات الأقلّ درجة، بل تعبيرا عن نَفَس من العنصرية الواضحة. كما نجد اقوالا تدل على السخرية من قبيل أنهم لا يمكن أن يكونوا أندادا لنا لأنهم غير قادرين على استيعاب **ونخوا** (الثقافة الأدبية). ومن الجدير بالذكر أن مثل هذه الأحكام قد ازدادت قسوة بتزايد أعداد المسلمين الذين تشبعوا بالثقافة الصينية.

وفي ظل الظروف التاريخية، فإن أمراء **اليوآن** حقيقة لم يفضلوا دون شرط خدمهم من المسلمين، بل وضعوهم تحت رقابة صارمة. فمثلا غضب **القُبلاي** نفسه لأن بعض ضيوفه من المسلمين رفضوا أكل طعامه "النجس" لأن ذبح الحيوانات لم يتمّ وفق الطريقة الإسلامية الحلال. دعاه ذلك أن يمنع المسلمين من ممارسة شعائر الذبح التي يتبعونها وأجبرهم أن يذبحوا الحيوانات وفق الطريقة المغولية.(٤٣) كما مُنعت عملية الختان وفُرضت الضرائب على المؤسسات الدينية الإسلامية والبوذية واليهودية والمسيحية وعلى العاملين فيها. أصبحت هذه الموضوعات نقاط خلاف بين المغول ومواطنيهم من **السيمو** خلال عقد الثمانينات من القرن الثالث عشر. ورغم عدم رضاهم فإن فترة الأجيال الأولى من المسلمين تميزت بنشاط المغول والأجانب الآخرين الدائم لاستغلال الاقتصاد الصيني إلى أبعد حد ممكن، وفي نفس الوقت تشبعوا تدريجيا بثقافة الصين وأصبحوا أكثر تقبلا لواقع الحياة فيها.

وهكذا بدأ المسلمون يشعرون بانتمائهم للصين في منتصف القرن الرابع عشر، بخلاف أسلافهم من القوم الرحّل. وفي تلك الفترة التي تميزت بالعنف والخروج على القانون، فإن المسلمين في طول الصين وعرضها بدأوا تنظيم قوات المليشيا المحلية والجيوش التي تدين بالولاء إلى السلالة الحاكمة.(٤٥) وعندما تمَ طرد المغول على يد ثوار **المنگ** في عقد الستينات من القرن الرابع عشر بقيادة **زو يونجانگ** (١٣٦٨-١٣٩٩) اختار الكثير من المسلمين البقاء. وفي الحقيقة أن الكثير منهم قد قاتلوا إلى جانب أهل البلد من الصينيين، وأن القيادة العسكرية بإمرة زو قد ضمت عددا لا بأس به من **السيمو** مثل **تشانگ يوتشون** و**لان يو** و**دنگ ديشنگ** وما

ينگ، وآخرين غيرهم من المسلمين. وساعد العلماء المسلمون الصينيون على تأكيد انتماء هؤلاء القادة إلى الإسلام.

إن هؤلاء "الوزراء الذين يمتازون بالكفاءة هم الذين بنوا الدولة"، وسواء كانوا **خيويخيوي** أم لا فإنهم جاءوا من المحافظة التي ينتمي اليها **أنخوي** وجو **يوانجانگ**، وليس من المناطق التي تُعرف بأنها "مسلمة" في مدن سواحل الجنوب الشرقي أو المدن التي تقع على **طريق الحرير**.(٤٦) إن وجود المسلمين- رغم قلة عددهم تحت قيادة عسكريين غير مسلمين- في الجيوش الصينية التي دحرت المغول ودفعت بهم شمالا كان نذيرا بتغير تدريجي ملحوظ في ظروف المسلمين في أواخر فترة **اليوآن** و**المنگ** في الصين. فالأجانب الذين كانوا يُسمّون **فنكه** ثم **سيمو** أصبحوا الآن **خيويخيوي**، غرباء مألوفين جاءوا اليوم ومكثوا للغد ثم أصبحوا مواطنين عاديين ولكنهم مختلفون.

تحول الموقف في فترة حكم المنگ (١٣٦٨-١٦٤٤)

*سُمح للمغول و**السيمو** المقيمين أن يتزوجوا من النساء الصينيات، ومُنعوا من الزواج بنساء من قوميتهم. وفي نفس الوقت كان يوجد بعض الصينيين الذين لم يكونوا راغبين في الزواج من نسوة من **الخيويخيوي** أو **القپتشاغ**.(٤٧)*

*يتميز **الخيويخيوي** بكثافة الشعر وكبر الأنوف بينما كان **القپتشاغ** يتميزون بقلة الشعر وزرقة العيون. كان لهم مظهر خاص يوحي بالإزدراء، ولذلك ما كان هناك من يرغب الزواج من نسائهم. ولم يكن مسموحا للمغول والسيمو أن يتزوجوا نساء من صنفهما. غير أن **الخيويخيوي** و**القپتشاغ** كانوا من أقذر **السيمو** ولا يوجد أي صيني يرغب في الزواج من نسائهم. يمكنهن فقط أن يتزوجن من صنفهن. والسماح لهم بالزواج من بعضهم البعض كان من دواعي العطف عليهم كي لا يزولوا من الوجود. ولا بدّ من التذكير أنه لم يكن هناك أي مانع يحول دون زواج الرجال الصينيين من **الخيويخيوي** أو **القپتشاغ** إذا ما رغبوا في ذلك.(٤٨)*

الإسلام والمسلمون

بناء على الانتشار الواسع المدى للمسلمين في عموم الصين في فترة حكم **اليوآن**، فإن تطور وضعهم خلال فترة سلالة **المنگ** قد حدث وفق عدد من الظروف وضمن عدد من البيئات. قيل الكثير عن علاقة مسلمي الصين بدولة **المنگ** لكن هذه الأقوال لم تعتمد على مصادر تاريخية موثوق بها. وهي تعكس فقط مفارقة تاريخية للخلافات السياسية أكثر من كونها بحوثا جدية تركز على دراسة الواقع المحلي بدلا من التعميمات الشاملة. فمنذ بداية حكم **المنگ** قامت الجيوش بقيادة **جو يوانجانگ** بطرد المغول من أرض الصين واستعادتها كاملة. ساورالقادة الجدد بعض القلق حول العلاقة بالناس والولايات التي تمتد على طول الحدود الشمالية والغربية. حاول **المنگ** أن يؤثروا على تثقيف المقيمين "الأجانب" نتيجة خوفهم من **الآخرين** وثقتهم بقوة الحضارة الصينية وقدرتها على التأثير. فالجنرال **جو يوانجانگ** قد ضمّ إلى قيادة جيشه عددا من الضباط المسلمين وربما قد تكون له زوجة مسلمة. غير أن السلالة التي أنشأها لم تؤثر أولا على مواطنيها من المسلمين ثقافيا، وثانيا لم تقض على التمييز ضد المسلمين في الصين.

وظف أباطرة **المنگ** بعض المسلمين في مواقع عالية منها عدد كبير من العلماء في مختلف المؤسسات الحكومية التي تعنى بشؤون التنجيم والتقويم السنوي وتفسير الشواهد. ونظرا لنجاح جمال الدين مثلا وخدمته تحت عدد من امراء **اليوآن** فإن **مكتب الفلك** كان فيه قسم خاص لدراسة التقويم العلمي الإسلامي وكتاب علم النجوم الإسلامي اللذين حافظا على وجودهما.(٥٦) وإضافة إلى تعيين وحدات عمل علمية "إسلامية"، فإن العلماء من مسلمي الصين قد اشاروا إلى الأصول الإسلامية لعدد من مسؤولي **المنگ** الكبار والمفكرين المشهورين من أمثال **خاي روي وما ونشنگ وما تشيانگ** والأديب الكبير **لي جي** الذي يعود اصله إلى محافظة **تشوانجو**.(٥١) إن ذكر مثل هذه المنجزات يمكن أن يثير في انفسنا الشك بأن نعد مثل هؤلاء مسلمين أو نعتبر القضية برمتها **مسألة دينية** لأن الحكم بحد ذاته راجع إلى أسماء الأشخاص أو أصولهم التي انحدروا منها، أو في الحقيقة اعتبار

الخيوي جزءاً من هيكل **المتسو**. إن الكثير من هؤلاء الرجال، خاصة **لي جي**، لم يتركوا اشارة إلى اصولهم كمسلمين ولم يكن الدين موضوعا مذكورا في كتاباتهم ولا في سير حياتهم الشخصية. ولذلك فإن نسبة صفة **الخيوي** قد أظهرت في القرن العشرين ادعاء يشير إلى مفارقة تاريخية تظهر رغبة الطبقة العليا في فترة **المنگ** لربط انفسهم بالمتدينين وبالذين اظهروا تشبعهم بالثقافة الصينية.

ولكن لا الارتباط بالبلاط ولا التشبع بالثقافة الصينية قد حال دون التمييز الشامل ضد المسلمين. فالحكام المحليون الغيرمسلمين غالبا ما أساءوا معاملة المسلمين بشكل غاشم.

*جرى إصلاح عائلة **خانجونگ** المسلمة من (**شانشی**) (فأصبح أفرادها ناسا شرفاء) لعدة أجيال. وحدث مرة أن تخاصم أحدهم مع رجل صيني فرفع شكوى ضده. لكن القاضي اتهم المسلم بارتكاب المخالفة وأرسل الجنود لاعتقاله. ونتيجة لسورة الغضب التي انتابت الرجل المسلم قرر أن يهرب إلى الجبال. وبرغم تدخل **كانگ لانگ**، وهو رجل من الطبقة العليا، أصرّ المسؤولون على ملاحقة الرجل المسلم ولم تنجح محاولتهم. اتصل **كانگ لانگ** بالرجل وحاول أن يهدىء من روعه ويقنعه بأن يسلم نفسه، فقال الرجل له "أنت على علم ياسيدي بالظلم الواقع علينا، ولذلك فإني أسلم نفسي لك، لأني لو سلمت نفسي للحاكم لكنت أقتل بكل بساطة.*(٥٢)

كان لقليل من المسلمين الحظ في أنْ يقف إلى جانبهم حليف مثل **كانگ لانگ**. كما تجدر الإشارة إلى أن عدم استقرار الأوضاع السياسية في عدد من مناطق الصين قد زاد من تقييد النشاطات التجارية وأن الصدامات المحلية أدت إلى افتقار المسلمين وضعف نفوذهم منذ منتصف فترة **المنگ** حتى نهايتها. إن الحوادث التي ظهر فيها "قطاع الطرق" المسلمون والاضطرابات التي كانوا وراءها بدأت تتكرر في المناطق الممتدة من **يوننان** و**گانسو** حتى **شاندونگ**.(٥٣) والتقارير الرسمية، بما فيها تقارير الحكومة السنوية، قد ورد فيها أن المسلمين كانوا يقومون بنشاطات غير قانونية تختلف عن تلك التي يرتكبها الصينيون العاديون، وأنهم قد عوملوا بسبب ذلك بدرجة عالية من القسوة.(٥٤)

دعونا نذكر مثلا العلاقة بين بلاط **المنگ** والمواطنين المسلمين فيما يتعلق بالقانون الذي يمنع غير الصينيين في الصين بأن يتزوجوا نساء من مجتمعهم المحلي ،ويفرض عليهم أن يتزوجوا نساء صينيات. إن مثل هذا القانون يتعارض تماما مع الأعراف السائدة خلال فترتي **التانگ والسونگ**، ويدل على قوة تأثير الفتح المغولي وظهور موقف جديد إزاء الغرباء. ولما كان الأجانب خاصة **السيمو** السابقين قد يشكلون خطرا، لذلك وجب اخضاعهم للتعاون عن طريق تعريضهم الدائم للثقافة الصينية من خلال محيط الأسرة والاختلاط الجيني بحضارة الصين. إن الهدف من هذا القانون كان أصلا التسريع بتشبع المغول والسيمو بالثقافة الصينية، ولكن غالبا ما يُشار إلى هذا القانون كبرهان على قسوة **المنگ** مع غير الصينيين. ورغم أن عزل **الخيويخيوي** و**القيپتشاغ** بسبب "قذارة مظهرهم الغريب" يفرض عليهم الزواج من بعضهم البعض، فإن نص القانون لم يضمر خيرا للعلاقات الاجتماعية. أضف إلى ذلك أنه لا الإضطهاد المتواصل للمسلمين ولا السياسة الليبرالية ازاء القوميات قد نفخ الحياة في علاقة **المنگ** بالمسلمين أو غيرهم من الأجانب الغرباء. وهناك حاجة ماسة لإجراء دراسات ضرورية قبل التوصل إلى استنتاجات ثابتة.

وجد المسلمون خلال فترة حكم **المنگ** للصين (بما فيها الشمال الغربي والجنوب الغربي) أن علاقاتهم مع الأقاليم الغربية (الأراضي الإسلامية في وسط وغرب آسيا)، كانت إلى حدّ ما محدودة وتخضع لتحكّم الدولة. وهي ظاهرة أدت قطعا إلى تشبعهم بالثقافة الصينية.(٥٥) ولغرض زيادة واردات الدخل وضمان أمن الحدود في مناطق التخوم، وجد واضعو سياسة **المنگ** أنه من المغامرة أن تسيطر الحكومة على كافة وسائل الانتقال في برّ الصين وكذا طرق النقل البحري في جنوب البلاد. لم تضع امبراطورية **المنگ** قيودا على الإسلام، ولكنها كانت تشكّ أن يتحول المسلمون إلى طابور خامس محتمل يعمل لمصلحة الغزاة القادمين من وسط آسيا. كما تمّ اتهام المسلمين بأنهم "يحاولون التحايل على الأنظمة التجارية قصد عدم دفع الضرائب، أو التخطيط لمهاجمة المستوطنات في مناطق الحدود

الصينية." ولذلك فهم يمثلون خطرا داخليا. أما المسلمون خارج الصين فإنهم كانوا يسعون إلى توطيد علاقاتهم على جانبي حدود دولة **المنگ** مع آسيا الوسطى.(٥٦)

في بداية فترة حكمهم، كان **المنگ** في الصين حقيقة في خطر دائم قادم من وسط آسيا، مع أنهم لم يكونوا على معرفة بمداه أو متى سيحدث. إن **تيمورلنگ** (*كان مجرد راع تمكن من الاستيلاء على السلطة بقوة إرادته، وخيل إليه في نهاية المطاف أن الكون كله قد صار طوع بنانه وراح يتصرف على هذا الأساس، من دون أن يبدو الملك/الغازي فيه مختلفاً كثيراً عن الراعي الذي كانه في خاليات ايامه. إنه الشخص نفسه سواء كان متسلطاً أو بائسا سيكتشف هذا في نهاية الأمر، حين يجد نفسه اخيراً، وبعد أن هزم الملوك والدول وحاز ما يريد، وحيداً في مواجهة العدو الفاتك الذي لا يمكنه أن يهرب منه، الموت- المترجم*) الذي يعرفه كل من **جو يونجانگ** وابنه الإمبراطور **يونگل** (الذي تولى الحكم بين ١٤٠٢-١٤٢٤) لم يجد لغة التبعية والمطالبة بالجزية طريقة لطيفة أو مسلية. لقد وجد أن الرسائل القادمة من **نانجنگ** التي تطالب بالخضوع إلى سلطة أباطرة **المنگ** استفزازية مثيرة للحنق. فأباطرة **المنگ** لم يكونوا مسلمين وليس لديهم القوة العسكرية الكافية لإسناد طلباتهم. وفي عام ١٣٩٥ كان **تيمورلنگ** مصمما على الانتقام من الإهانات التي حملتها رسائل بلاط **المنگ** الإمبراطوري، غير أن جلّ تفكيره آنئذ كان منصبا على فتح آسيا الصغرى (تركيا حاليا) والهند أولا. وما أن حل عام ١٤٠٤ حتى قام بمهاجمة قافلة سفير الإمبراطور **يونگل** المؤلفة من ٨٠٠ بعير. ثمّ أعدّ جيشا عرمرما استعدادا لفتح الصين. ومن حسن حظ امبراطورية **المنگ أن تيمورلنگ** قد أدركته الوفاة قبيل تحقيق حلمه. غير أن ابنه **شاه روخ بهدور** وافق على تبادل السفراء بشرط عدم الخضوع أو دفع الجزية التي كان **المنگ** يطالبون بها. أما الإمبراطور **يونگل** نفسه فقد كان من جانبه حذرا من قوة مسلمي آسيا الوسطى وحريصا على الحصول على السلع (خاصة الخيول) القادمة إلى الصين عبر طرق المواصلات البرية، ولم يجدد طلبات والده بل اكتفى بمخاطبة **بهدور** كندٍ سياسي.(٥٧)

بعد موت **تيمورلنگ** انتعشت حركة التجارة والوفود التي تطالب "بالزكاة" بين الصين و**هرات** و**سمرقند** وبشكل خاص مع **طرفان** التي تحول سكانها إلى الإسلام

في تلك الفترة.(٥٨) وفي حقبة الخمسينات من القرن الخامس عشر أصبحت القوافل التجارية إلى **بكين**، التي سيطر عليها التجار البوذيون خلال حكم **يونكل**، تحت سيطرة التجار المسلمين. إستمر توارد القوافل حتى الوقت الذي قام فيه حكام **طرفان** بالسيطرة على **هامي** رغم الهجمات المعاكسة لجيش **المنگ**. عقب ذلك فرض **المنگ** حصارا اقتصاديا في فترة التسعينات من القرن الخامس عشر حتى تمّ اخضاع وسط آسيا لسلطتهم. دفعت تلك الخطة حكام **طرفان**، ولو لوقت قصير، أن يتعاملوا بشكل حذر مع بلاط **المنگ** ولكنهم لم يتخلوا أبدا عن **هامي**. انتهى الصراع لصالح **طرفان** في مطلع القرن السادس عشر حيث انضم الإقليم اليها فنشطت تجارة المسلمين وأرسلت الوفود لجمع الزكاة من **بكين** نفسها. جُنيت ارباح خيالية وتدفقت التجارة من شمال غرب الصين إلى وادي **فرغانة** عن طريق **هامي** و**طرفان**، رغم جهود بلاط **المنگ** للحدّ منها. وبالتأكيد فإن تجار مسلمي الصين استغلوا مركزهم أحسن استغلال كوسطاء يجيدون التحدث باللغات على طول طرق التجارة ومراكزها.

جنى التجار الصينيون الذين كان بينهم الكثير من المسلمين مزيدا من الأرباح عن طريق تجارة تبادل الشاي بالخيول، التي وضعها حكام **المنگ** من أجل تأمين الخيول لأغراض الحرب، وهو أمر لا يمكن للصين أن تحققه بنفسها اعتمادا على الداخل.(٥٩) إن حاجة الأجانب للشاي قد أعطت دولة **المنگ** بعض النفوذ، واستطاعت السيطرة الرسمية في الحدّ من نفوذ التجار المستقلين ووضعتهم خارج اللعبة خلال النصف الأول من حكم السلالة. غير أن حرب الحدود والإدارات الفاسدة أعطت اولئك التجار فرصة للمشاركة في العمليات التجارية. وفي نهاية القرن السادس عشر فشلت السيطرة الحكومية تماما واستطاع الفاتحون **التشينگ** من ضمّ أسواق الشاي ومراعي منغوليا وآسيا الوسطى إلى امبراطوريتهم، الأمر الذي جلب معه مجموعة جديدة من المشاكل.(٦٠)

وفي المناطق الساحلية لعب التجار المسلمون أيضا دورا رئيسيا منذ حكم **التانگ**، وحاول **المنگ** الاعتماد على خبرة المسلمين بينما عملوا على الحدّ من

نفوذهم في التجارة. إن أكثر المسلمين شهرة في فترة **المنگ** هو الأدميرال **جنگ خي** الذي انحدر من عائلة مسلمة من اقليم **يوننان**. لقد دعاه **جو دي**، الذي كان حينها أميرا لمنطقة **يان** وأصبح فيما بعد يُسمى الإمبراطور **يونگل**، إلى الخدمة وهو في سن العشرين وجعله قائدا للقوة التي حاربت الثوار في محافظته. "ونظرا لأن **جنگ خي** كان ذا نفوذ بين الخصيان ويمتاز بالوسامة والحصافة فقد اختاره الإمبراطور **يونگل** ليكون الموفد الرئيسي والقائد العام لست حملات بحرية اتجهت إلى **المحيط الغربي** بين الأعوام ١٤٠٥-١٤٢١."(٦١) كما أن الإمبراطور الذي خلف **يونگل** بعث **جنگ خي** في حملة سابعة عام ١٤٣٠. إن تربية **جنگ خي** كمسلم ربما أثرت على قرار الإمبراطور لتعيينه في ذلك المنصب. ونفس الشيء ربما ينسحب على تعيين الأديب الفارسي **ما خيوان** ليكون مساعدا **لجنگ** في ثلاث من أصل أربع حملات بحرية.

جلبت قوة السلطة، التي تمتعت بها الصين بفعل قيادة **جنگ خي** في بحر الصين الجنوبي والمحيط الهندي وصولا إلى البحر الأحمر، للصين والبلاط ثروة طائلة وجزيات متنوعة وسلعا نادرة وحيوانات غريبة. وأكثر أهمية من ذلك، فإن الحملات البحرية قد خلقت في داخل الصين شعورا عميقا في شرعية حكم الإمبراطور **يونگل**.(٦٢) أرسل الحكام الأجانب، بما فيهم العرب والفرس على امتداد طرق التجارة، ممثليهم إلى بلاط الإمبراطور في **نانجينگ** ثم **بكين** (التي جعلها **يونگل** عاصمة للبلاد عام ١٤٢١) وهم محملين بالهدايا الغالية مقابل استلام "الزكاة". وبالإضافة إلى الثروة والأشياء الغريبة التي عادت بها حملات **جنگ خي**، فقد حملت معها المعرفة والاقتناع بأن أعدادا هائلة من سكان العالم يؤمنون بديانة **الخويخيوي**. إن الإنطباعات الثانوية عن جنوب وغرب آسيا التي سجلها المسؤولون في فترتي حكم سلالتي **التانگ** و**السونگ** قد حلت محلها تقارير اصلية كتبها رجال صينيون ممن سافروا حقا إلى تلك المناطق وتاجروا وتفاوضوا واشتركوا في حروب تبعد عن سواحل الصين.(٦٣) لقد وجدوا أن المسلمين يعيشون في مناطق تمتد من مدينة **تشوانجو** إلى مدينة عدن، بل أبعد من ذلك.

وأدى بحارة حملات جنگ مناسك الحج في مكة وكتبوا وصفا للكعبة وقبر النبي محمد وبئر زمزم وغيرها من الأماكن المقدسة لدى المسلمين.(٦٤)

مسلمو الصين وتقييدات المنگ على التجارة الأجنبية

بعد عقد الثلاثينات في القرن الخامس عشر وجدت حكومة **المنگ** أنه لا قيمة لتلك الرحلات البحرية المكلفة سياسيا وتجاريا.(٦٥) توقفت الرحلات وبتوقفها اختفت تدريجيا السلع الغربية وكذلك المعرفة. ومع أنه حدث عدد من المحاولات للعودة إلى سابق العهد على يد الجمعيات اليسوعية في أواخر حكم سلالة **المنگ**، إلا أن اهتمام الصين بالإنجازات العلمية في "أرض الغرب" لم يتجدد حتى القرن التاسع عشر حيث ازداد الضغط على الصين مما اضطرها إلى فتح أبوابها للتغيير.

بالرغم من تحيز الصينيين ضد المسلمين على المستويين الرسمي والشعبي، فإنهم رأوا أن المسلمين المقيمين بين ظهرانيهم يسعون لعلاقات ثابتة وقوية مع الصين. وفي بعض الأحيان يمكن للمرء أن يجد قيودا على حرية السفر، إلا أن ذلك لم يمنع الكثير من المسلمين الصينيين من توطيد علاقتهم الاجتماعية عن طريق الزواج وتبني أطفال صينيين. وأدت هاتان الخطوتان إلى زيادة أعداد المسلمين وشدّت ارتباطهم بالصين. وجدت الجماعات المسلحة الصينية التي تشدها الروابط الاجتماعية مع بعضها البعض، شأنها شأن الأقليات في المجتمعات المتعددة القوميات، وكذلك قضايا الزكاة التي تفرضها الشريعة الإسلامية، ضرورة المزيد من التعاون والتآزر في وقت الأزمات واستمرار عملية التكيف الثقافي.(٦٦) أما الزواج فكان يعني دائما أن يتزوج الرجال المسلمون من نساء صينيات تحولن إلى الإسلام وأصبحن عضوات في المجتمع المسلم. ونادرا ما كان يُسمح بزواج المرأة المسلمة من رجل غير مسلم لأن الشريعة والضغط الاجتماعي يمنعان "خسارة" امرأة لكي تقترن بشخص "خارجي". وكما أشرنا سابقا، فإنه كان للنساء المسلمات الصينيات دور كبير في دفع عملية التكيف الثقافي. وهذا بالضبط ما نوته حكومة **المنگ** بجعل

الصينية لغة الحوار في بيوت المسلمين في الصين. وكانت العملية الثالثة متمثلة بتحول الصينيين الراشدين إلى الإسلام الذي زاد من عدد المسلمين كما زاد في التداخل الإثني في مكونات المجتمع الصيني. لا بدّ من الإشارة إلى أن عملية تحول الرجال إلى الإسلام لم تكن بقوة حركتي الزواج والتبني. لقد كان دافع بعض أولئك الرجال هو زيادة فرص نجاحهم في التجارة في بعض المناطق التي تسكنها أغلبية مسلمة، وكذلك الإنتفاع عن طريق الإنضمام إلى شبكة التجار والقوافل التجارية. وهكذا أصبح الصينيون مسلمين وانضموا إلى طبقة **الخيويخيوي**.

إن تكيف مسلمي الصين للعيش في ذلك البلد يعود أصلا إلى ميداني الثقافة واللغة، كما شجعت ذلك دولة **المنگ** عن طريق الضغط على كل الأقليات لتقطع اتصالاتها "ببلدانها الأصلية" إلى الغرب والجنوب. إن وجود **تيمورلنگ** ومن تبعه في حكم آسيا الوسطى ونشاطات القراصنة بمختلف اصولهم على السواحل الشرقية والجنوبية للبلاد، أضعفا سلطة الحكومة المركزية وأديا إلى وضع القيود على الحركة التجارية وحددا من رغبة المسلمين في السفر إلى الصين.(٦٧) كان نجاح **المنگ** في فرض تلك القيود قد انحصر أصلا على منطقة جنوب شرق البلاد، حيث وجدت المجتمعات الإسلامية نفسها هناك في عزلة متزايدة نتيجة لسياسة حكومة **المنگ** وعداء جيرانهم الصينيين بسبب ثورات مسلمي **اليوآن** الأخيرة في مقاطعة **اليانگزي**مثلا. دونت آخر عوائل **المنگ** المسلمة أن نسبها القبلي يعود إلى **كونفوشيوس** من أجل تكريم اسلافهم على الطريقة الصينية. وبلا شكّ فإن مثل هذه الوثائق توضح تشبع المسلمين بالثقافة الصينية ووصول علاقتهم بالعالم الإسلامي خارج الصين إلى الحضيض.(٦٨)

ردود الفعل على عملية التشبع الثقافي ومقاومتها

*إن ما يدعوه الناس **تسياوجنگ** كانت أصلا نوعا من **البِنين** التي تستعمل الأبجدية العربية. كان معظم المعلمين في المساجد (في الصين) أميين في اللغة*

*الصينية ولكنهم يجيدون مخارج الأصوات العربية. ولذلك فإنه عندما كانوا يدّرسون النصوص وعند احتياجهم إلى كتابة تعليقاتهم على حواشي الصفحات، فإن الطريقة المعتمدة الموثوق بها هي استخدام **تسياوجنگ** ... إن استخدامها لم يكن مقصورا على التعليقات على النصوص الدينية .... فالناس الذين تلقوا تعليمهم في المساجد سواء عملوا كأئمة أم لا، كان بإمكانهم استخدام **الپنين** عند كتابة النصوص أو الرسائل الشخصية أو تعليقاتهم على ما يجري من الأحداث. ولا يزال هذا الأسلوب متبعا إلى يومنا هذا من قبل بعض الناس خاصة في **كانسو** و**نينگشيا** و**تشينگاي**.*(٦٩)

الإنتماء: القديمو وجينگتانگ جيّاو

كانت مجتمعات المسلمين فى الصين وحتى القرن السابع عشر تركز حياتها المدنية حول المسجد. لم تكن هناك سلطة معترف بها للمسلمين خارج مجتمعاتهم المحلية، بالرغم من أن بعض الأفراد قد برزوا كقادة محليين من خلال تخصصهم بالإسلام وتمتعهم بالمزايا الشخصية الدينية وتجميع الثروة أو نجاحهم في اجتياز نظام الإمتحانات.(٧٠) والمساجد المحلية شدت نفسها بالمجتمعات الإسلامية الأخرى عن طريق الرابطة الإسلامية وكونها أقلية وعن طريق التعامل التجاري. استطاع **الخيويخيوي** أن يدخلوا العبارات والمصطلحات العربية والفارسية إلى اللهجات الصينية المحلية. وتختلف تجمعات المسلمين في مساجدهم عن ممارسات غير المسلمين، خاصة ما يتعلق منها بمركزية المؤسسات الدينية في حياة الناس، وكذلك الترابط المتوقع الذي تخلقه الهوية الدينية.

أمضى غالبية المسلمين حياتهم وحصروا علاقاتهم بشبكة الاتصالات فيما بينهم، واقتصر تعاملهم مع غير المسلمين على ميدان التجارة فقط. فلم يكن متوقعا منهم أن يتناولوا الطعام مع غير المسلمين أو يزوجوا ذريتهم إلى اشخاص خارج مجتمعهم. ومن خلال هذين النشاطين أغلقوا سبل الاتصال الاجتماعي مع الآخرين. كانوا يعتمدون على قادتهم أن يتوسطوا بينهم وبين السلطة وكانوا

يستخدمون اللهجات الصينية المحلية كما يستخدمها غير المسلمين (مع إضافة عبارات الخيويخيوي). كانوا يلبسون نفس الزي ويعدون طعامهم بنفس الطريقة وفق مفهوم الأكل الحلال. وبهذا يكون مسلمو الصين قد طرحوا السؤال حول الأقلية الثقافية. كيف يمكن التكيف للضغط الثقافي الذي تفرضه الأكثرية من خلال رغبتها في تغيير أساليب حياة الآخرين التي تختلف عن ثقافتها؟ الإجابة عن هذا السؤال يمكن العثور عليها في الإستراتيجية التي تبعها القادة المسلمون وهم يخططون لحياة المجتمع المدني المسلم، والحفاظ على نسب العائلة والمضي قدما لتحقيق النجاح في ميادين الحياة المتنوعة.

تحتاج كل طائفة دينية إلى بيت لممارسة عبادتها. ويتراوح هذا من غرفة صغيرة في بيت شخصي في القرية إلى مجموعة من البنايات الشامخة في المراكز التجارية الثرية. وبطبيعة الحال تتطلب هذه المساجد أئمة للقيام بالطقوس المفروضة على المؤمنين. فهم يأمون الصلاة اليومية وصلاة الجمعة ويلقون خطبتها ويمثلون المجتمع عند التعامل مع المسؤولين الحكوميين. إضافة إلى ذلك يقومون بتفسير النصوص الدينية لعامة الناس ويذكرونهم بتطبيق الشريعة في بعض الحالات. وإذا نظرنا إلى هذه المهام مجتمعة، نجد أنها تفوق ما يقوم به رجال الدين غير المسلمين. وحتى لو تأملنا الطقوس الكونفوشية لوجدنا أنها لا تشمل القيام بطقوس غسل الأموات وتكفينهم وأداء الصلاة على الجثمان قبل دفنه سواء كان ذلك في المدن أو القرى. كما لا يوجد من يُصلي ويدعو أن تُرزق امرأة عاقر طفلا، كما نجد ذلك في الإسلام. يمكن أن نجد مثل هذه العلاقة الوثيقة بين القادة الدينيين وأتباعهم عند بعض الطوائف الصينية. ولهذا السبب كان البلاط الإمبراطوري والمسؤولون فيه ينظرون للإسلام على أنه هرطقة مثل البوذية والداوية Daoism.

قبل أن تنتشر الطريقة الصوفية في شمال غرب الصين، كان الناس الذين يترددون على المساجد يختارون الأئمة عن طريق مجالس الشيوخ عندهم.(٧٢) يتم اختيار هؤلاء وفق بعض المعايير مثل العمر والتمتع بدرجة من بحبوحة العيش والمعرفة العالية بقضايا الدين. وكان دور مجالس الشيوخ هو المحافظة على وحدة

الجماعة وتطبيق السلطة المدنية والإدارية فيما يتعلق بأمور ملكية الأرض، خصوصا التي يتم التبرع بها لغرض بناءالمساجد حيث تصبح وقفا إسلاميا ومركزا لأداء فروض الصلاة وغيرها من الشعائر الدينية.(٧٣)

تكون لرجال الدين، الذين يتم تأهلهم من قبل مراكز التعليم الإسلامية في الصين وفي آسيا الوسطى، عادة خبرة في التنقل من مكان إلى آخر وفق شبكة من الاتصالات. وعقود العمل التي يحصلون عليها هم ومساعدوهم تكون من الناحية الواقعية مدى الحياة. ولكن بإمكانهم أن يطلبوا مناصب أعلى. أما مجالس الشيوخ فهي التي تحكم الجماعة وتمثلها وتنتخب الأئمة وتعينهم من الذين يتمتعون باحترام وطاعة أعضاء الجماعة، ولكن بدرجة أقل بين اعضاء الجماعة المهمين. يُتوقع من الإمام أن يكون متمكنا من اللغة العربية أو الفارسية لإجراء الطقوس الدينية وممارسة مهمته كقاض. وفي أية قرية صغيرة لا تقتصر مهمة الإمام على الإمور الدينية بل يقوم أيضا بتعليم الأطفال اللغة العربية والصلاة. أما في المدن الأكبر فيوجد مسجد أو عدة مساجد يكون لكل منها إمام ومساعد أو عدة مساعدين، وكذلك مؤذن للصلاة وعدد من المعلمين الذين يقومون بتدريس الدين. ومهما كان حجم المسجد فإن استقلالية المؤسسة كانت تقوم على عاملين: مجلس الشيوخ ورجال الدين الذين أصبح يُطلق عليهم **قديمو** (Gedimu) بالصينية، تحريفا لأصلها العربي "قديم" بمعنى كبير السن. الا أن هذه التسمية بدت تتناقض مع سلوكية المؤسسات الإسلامية بوصول الجماعات **الصوفية** إلى شمال غرب الصين في القرن السابع عشر.(٧٤)

خلال الفترة الممتدة من منتصف فترة حكم **المنگ** حتى أواخرها، شعرت بعض المجتمعات المسلمة أن الأطفال لا يتلقون تربية اسلامية كافية ، لأنه كان لضغط التكيف الثقافي واللغوي قوة لا يُستهان بها. لذلك تولى بعض التربويين المهنيين مهمة تنظيم مناهج الدراسة الإسلامية التي أصبحت تُسمى بالصينية **جينگتانگ جياوى** أي "قاعات التربية الدينية" وكانت الدروس فيها ذات نكهة عربية أو فارسية مشوبة بقدر من الصينية. إن العلماء المتخصصين بدراسة مسلمي الصين عادة ما

يربطون **جينگتانگ جياوى** مع مقاطعة **شانشي**، وبالذات باسم أحد مسؤوليها المدعو خو **دنگجو**.

لقد جاء **خو** من منطقة **وادي وي** في مقاطعة **شانشي** حيث يعيش مئات الآلاف من المسلمين في المدن والقرى في تلك المنطقة الغنية. أدرك **خو دنگجو** بعد أن أدى فريضة الحج أن حياة المسلمين في الصين قد تدهورت، قدر تعلق الأمور بمعرفة الإسلام. ولذلك قام بافتتاح عدد من المدارس الدينية. ويمكننا الافتراض أنه حوالي منتصف القرن السادس عشر كان الكثير من المسلمين الصينيين لا يفهمون العربية ولا الفارسية، مما توجب أن تُشرح لهم النصوص الدينية باللغة الصينية. وفي الحقيقة أن النصوص العربية قد اختفت تماما وحلت محلها نصوص مكتوبة باللغة العربية-الصينية، ومن ثم بالصينية فقط.(٧٣) تشير المصادر المطبوعة إلى أن أجيالا من المعلمين الصينيين يرجعون بتقاليدهم الفكرية إلى **خو** وحوارييه.(٧٦) كما يرجع إليه الفضل بتنظيم السكن والطعام والمساعدة المالية وتوفير الكتب واللوازم الدراسية لطلبة المدرس الدينية، الذين عاش البعض منهم في منزله الشخصي.

قام خو **دنگجو** وأتباعه بتدريس منهج إسلامي بطريقة مألوفة لا جديد فيها، باستثناء كفاءة الدارسين باللغتين العربية والفارسية. وبدلا من استخدام نصوص القرآن كمادة للدراسة، اختاروا عددا من الآيات والسور القصيرة سموها "عربية القرآن". وسُمح لمن أكمل دراسة تلك النصوص أن يتقدم لدراسة القرآن كاملا. وإضافة إلى ذلك استخدموا كتابا أوليا لتدريس الإسلام سموه **تساشو**، وشمل على نص الصلاة باللغة العربية وبعض النصوص الفارسية حول العقيدة والوضوء والعبادة والصيام والزواج والجنازة وغيرها من المناسبات الأخرى. يقول أحد الباحثين إن الكتاب المذكور يعود إلى الفترة المتأخرة من حكم **اليوآن**، عندما كانت الفارسية لغة التفاهم بين المسلمين في شرق آسيا.**(٧٧)**

ورغم أننا ما زلنا نفتقر إلى دراسة تعتمد على النص في حركة الإصلاح المذكورة في أعلاه، فإنه يبدو أن بروز **جينگتانگ جياوى** اعتمد على تلفظ الكلمات العربية حسب الأصوات الصينية. حتى أن الدارسين للقرآن الذين استخدموا النص

العربي كانوا يتعلمون تلاوته بالأصوات الصينية. ولو أخذنا على سبيل المثال كلمة "سلام" فإنها تُلفظ بالصينية في ثلاثة مقاطع **سا ليانگ مو**. لم يُطبع أي نص من فترة حكم **المنگ**، غير أن بعض الزملاء من **شانشي** أخبروني أن الطلبة، خاصة في الدوائر الأدبية في اقليم **شيئان**، كانوا يستخدمون الحروف الصينية لكتابة الكلمات العربية.

لم تكن هذه الطريقة شائعة الإستعمال لأن معظم سكان مناطق شمال غرب الصين كانوا لا يعرفون القراءة والكتابة بالصينية. وفي الحقيقة أن تلك الأمية هي التي قادت إلى الاختراع الثاني لمسلمي الصين الذي أطلقوا عليه **شياوجنگ** وهو أصل **پنين** أو طريقة الكتابة بالحروف الصينية. ومنذ منتصف فترة **المنگ** حتى أواخرها كان الذكور من مسلمي الصين الذين يدرسون في مدارس المساجد يستطيعون القراءة لكنهم لم يكونوا قادرين على الكتابة أو التحدث بالعربية ولا بالفارسية. وفي نفس الوقت كانوا قادرين على التحدث بالصينية لكن القليل منهم استطاع أن يقرأ أو يكتب بها. واستجابة للحاجة إلى لغة مكتوبة ، اخترع معلمو المساجد **پنين** pinyin عربي لكتابة الصينية. أطلقوا عليه **شياوجنگ** أو **شياورجن** لتمكين المسلمين الذين لا يجيدون قراءة الصينية معتمدين على الحروف التي تعلموها في مدارس المساجد. فأصبح بإمكانهم أن يدونوا ملاحظاتهم على النصوص المكتوبة بلغات يستطيعون قراءتها لكنهم يجهلون التحدث أو الكتابة بها. ولهذه الطريقة طبعا بعض القصور. فالفروق بين اللهجات كانت تؤدي إلى الكثير من الاختلافات. فلا العربية ولا الفارسية يمكنهما أن يمثلا التركيب الصوتي للصينية المستعملة في الكلام. كما أن حروف الكتابة العربية وبالتالي الفارسية لا تستطيع في كثير من الحالات أن تميز بسهولة المقاطع الأخيرة من الكلمات الصينية (كما الفرق بين **تسيآن** وتسيان.)(٧٨) ومع ذلك استطاعت هذه الطريقة من تجاوز عجزها وبقيت مستعملة من قبل مسلمي الصين، رغم أن القليل منهم فقط كان قادرا على استعمالها. وهكذا استطاع مسلمو الصين أن يتحكموا في التكيف لغويا للحياة في الصين باستحداث طريقتين: استعمال الأصوات الصينية **جيانگتانگ جياوي**

لتلفظ الأصوات العربية أولا. وثانيا استخدام **تسياوجنگ** لحروف العربية لكتابة لغة الكلام الصينية. وباستخدام كلتي الطريقتين، يمكننا القول إن ذلك يمثل عملية التكيف الثقافي لمسلمي الصين خلال فترة حكم **المنگ** ليصبحوا مواطنين فاعلين في الدولة، وكمساهمين في الثقافة الصينية وكمسلمين يمارسون طقوسهم الدينية.

إن كلا من مفهومي **القديمو** في المسجد وطريقة تعليم **جيانگتانگ جياوي** يقتربان كثيرا من المفاهيم السنيّة المعروفة التي تنتشر في المجتمعات التي تتبع المذهب **الحنفي** في العالم الإسلامي. واستنادا إلى الأدلة الحديثة يمكننا القول بأن المزيد من المسلمين أصبحوا مواطنين عاديين حتى في **شانشي** و**كانسو**. إن أحفاد مسلمي **السيمو** كانوا قد عاشوا في الصين مدة قرنين عند ظهور **خو دنگجو** - ما يقارب ستة إلى سبعة أجيال - ومن المتوقع منهم أن يكونوا قد تكيفوا للغة وغيرها من سبل الحياة اليومية. وإذا ما استثنينا وجود الجماعات الخارجة على القانون والتحايل على القوانين التجارية من أجل تقليل نسبة الضرائب، وهوسلوك موجود بين المسلمين وغير المسلمين، فليس هناك ما يدل على خروجهم على المجتمع وأنهم تقبلوا سلطة **المنگ**، إلاّ في حالة تدخلها في معاملاتهم التجارية أو تهديد وجودهم. فسلوكهم خلال أوقات الشدة في فترة نهاية حكم **المنگ** تؤكد قناعتهم بأن الصين هي وطنهم وإن سياستها تعنيهم أيضا.

غرباء وقت الشدة التحول من حكم المنگ إلى حكم التشينگ (١٦٤٤-١٦٥٠)

قدّم خي بي، السكرتير المشرف في دائرة المراقبة للمجلس الحربي، مذكرة مفصلة وهامة إلى البلاط من أجل فرض السيطرة المحلية خاصة في المناطق التي تتميز بخلق المشاكل مثل محافظة ***كانسو****. بدأ أولا بكيل المديح لسرعة نجاح* ***منگ كياوفانگ*** *في استعادة السيطرة على* ***كانسو*** *وتدمير الثوار المسلمين في فترة نصف شهر فقط. "إن إخضاع هؤلاء الأشرار الحقراء كان يشبه أن تمسك ثعلبا أو فأرا في يدك." .... ومع ذلك فقد كان هناك احتمال كبير بأن الصدام مع المسلمين يمكن أن*

*يتجدد. ثم أضاف قائلا إنه لا أحد يمكن أن يختلف مع سياسة البلاط الحكيمة بإصدار العفو العام. ولكن لا بد من الإشارة إلى أن أولئك الذين اقترفوا جرائم وحشية .... لم يتم القضاء عليهم بعد." وأكثر من ذلك أن المسلمين والصينيين ما زالوا يعيشون جنبا إلى جنب مع بعضهم البعض في المدن الكبرى في الشمال الغربي." إن عاداتهم مختلفة وينجم عن ذلك شك متبادل." ولذلك فهو يقترح سياسة لإعادة التوطين القومي. إن التجمعات السكنية المسلمة يجب أن تكون على بعد خمسين لي من مقاطعة **خان جو** ومنطقة **شيان** والثكنة العسكرية في **وي** أقرب اليهم في المناطق المناسبة لتوطينهم. يجبُ أن يُنقلوا هم وعائلاتهم ويُغير نمط حياتهم من مقاتلين على ظهور الخيل إلى فلاحين مسالمين.*

امنعوهم من تربية الخيول واقتناء السلاح. اطلبوا من قادتهم الدينيين أن يمارسوا سلطة عليهم، وأن تتم مراقبتهم على الدوام. سخروهم للعمل في زراعة الأرض لكي يتم تدريجيا تغيير نزعاتهم.(٧٩)

الانحياز

صاحب سقوط امبراطورية **المنگ** في منتصف القرن السابع عشر الكثير من الفوضى الاجتماعية، فواتت المسلمين الفرصة لمقاومة سلطة الدولة بالقوة كلما سنحت لهم الفرصة. كما كان عليهم أن يحموا أنفسهم وممتلكاتهم في أوقات الاضطرابات. وغالبا ما انضم " الثوار" المسلمون إلى بعض القوى الأخرى من القوميات المعادية للدولة. وهكذا تمكن المسلمون وغير المسلمين من التوحد في وجه عدو مشترك متمثل في الإدارة السيئة ووسائل العنف التي يمارسها ضدهم. وحدث في نفس الوقت أن ساعد **ما شوينگ**، وهو جنرال مسلم من **شانشي**، قائدا متمردا آخر هو **لي تشينگ** في حملته التي تكللت بالنصر ضد **المنگ** في شمال غرب الصين. هذا وكان **ما شوينگ** ينحدر من نفس المقاطعة التي ينتمي اليها الكثير من ضباط **لي تشينگ** وجنرالاته. كما أن أهداف خططه العسكرية لم تختلف كثيرا

عن خططهم. لقد كان يخوض حربا صينية ويساهم في صراع صيني لسلالة ضد أخرى. لم يكن يهدف إلى وضع المسلمين في قمة هرم السلطة في الصين، وفي الحقيقة لم يقصد تحرير بعض مناطق الصين باعتبارها مناطق إسلامية.(٨٠) الواقع هو أن الثوار المسلمين ضد حكم **التشينگ** المنشوري، الذي هزم **لي تشينگ** وجانگ **شيانجونگ**، لم تكن لهم الرغبة في الإنفصال إطلاقا.

منذ بداية تولي السلطة على الصين، حاول حكام بلاط **التشينگ** أن يبسطوا نفوذهم على التجار في **طرفان** و**هامي** لكي يتعاملوا مع عدد من التجار الصينيين الذين يتم اختيارهم من قبل مسؤولي **التشينگ** في منطقتي **لانجو** أو **بكين**. كما حاول الحكام المنشوريون إعادة العمل بتجارة الخيول مقابل الشاي التي احتكرتها دولة **المنگ** منذ بداية فترة حكمها حتى أواسطها.(٨١) قوبلت مثل هذه التدخلات في شؤون تجارة آسيا الوسطى بسخط التجار في شمال غرب البلاد وزادت من تردي الوضع الاقتصادي ودفعت بعض المسلمين لاستخدام العنف، خاصة في منطقة ممر **كانسو** وهي حلقة طرق المواصلات بين **كانسو** و**تركستان**. لربما كان المسلمون على علم بأن الحكم المنشوري يواجه مقاومة في كل ارجاء الصين، الأمر الذي أدى إلى تبعثر قواته العسكرية، وهو الذي دفعهم أن يستغلوا ذلك لصالحهم.

في عام ١٦٤٦ قاد مسلمان هما **ميلاين** و**دنگ گودونگ**، قوات عسكرية قالت المصادر الحكومية إن تعدادها كان مائة ألف جندي - وهو أمر بالتأكيد مبالغ فيه - وتحركت إلى داخل ممر **كانسو** فاحتلت **لانجو** وعددا من المدن الصغيرة المحيطة بها، ثم قامت بحصار **گونگتشانگ** إلى الشرق من **كانسو**.(٨٢) لا يمكن اعتبار هذا التحرك العسكري جهادا انفصاليا لأن المسلمين وحلفاءهم من غير المسلمين قاموا بعملياتهم باسم أمير **المنگ** السابق لمنطقة **يانتشانگ** المدعو **جو شيتشوان**.(٨٣) وفي الوقت الذي ثار فيه **ما شوينگ** ضد **المنگ** وقدم العون للثوار الصينيين الآخرين، كانت قرارات **ميلاين** و**دنگ گودونگ** تركز على "الصين" واضفاء الشرعية

على حكم سلالة **المنگ** ضد ادعاء **التشينگ**. ومع أن **جو شيتشوان** قد لقي حتفه في بداية المعارك لكن الولاء له لم يخفت.

وبالتأكيد لا يمكننا التغاضي عن حقيقة التدخل الخارجي في قضية ثوار **هامي** وحتى منطقة **طرفان** البعيدة. فبعد عدة اشهر من الثورة بعث سلطان هامي **سعيد بابا** أحد ابنائه المدعو **تورومتاي** ليكون أميرا على الثوار في **سوجو** للدلالة على قوة الترابط مع **ميلاين ودينگ**.(٨٤) ورغم أننا نعرف شيئا قليلا عن ذلك الترابط، فإنه يمكن الافتراض أن العلاقات السياسية والتجارية والدينية بدأت تظهر عبر حدود **المنگ** – **هامي** وأن كلا الجانبين قد قررا الاتحاد في وجه المغتصبين المنشوريين. يدعي فلاتشر أنه وفق ما كان يجري في ذلك الوقت، فإن **الصوفية النقشبندية** قد لعبت دورا في توحيد ثوار **سوجو** مع **هامي**، لكنه يعترف بعدم وجود مصادر تؤيد هذا الإدعاء.(٨٥)

بعث قائد **التشينگ** في **كانسو** المدعو **منگ تشياوفانگ** قوة عسكرية استطاعت فك الحصار المفروض على مدينة **گونگتشانگ** مباشرة. فقد الثوار مواقعهم بسرعة وانسحبوا من **لنتاو** ثم **لانجو** أمام زحف قوات **منگ** ذات الخبرة القتالية، والتي تقدمت على ثلاثة محاور للوصول إلى العاصمة الإقليمية. ومع أن قوات **منگ** الخلفية قد أمضت أشهرا في تطهير المناطق من بقايا الثوار في جنوب وشرق النهر الأصفر، استطاعت قوته الرئيسية من التقدم بسرعة وحاصرت قاعدة **ميلاين ودنگ** الرئيسية في **گانجو** الواقعة في ممر **گانسو**. وبعد ستة أشهر من الحصار الدامي استطاع الثوار أن يتفاوضوا مع **منگ تشياوفانگ**، وأعقب ذلك استسلامهم بعد أن حصل **ميلاين** على منصب مساعد القائد العام في حامية **التشينگ** في مدينة **لانجو**. غير أن كلا من **ميلاين ودينگ** بقيا في شمال غربي **گانسو**.(٨٦)

لقد أحسن تحالف الثوار الحساب بأن أمام جيش **التشينگ** العديد من المهام الواجب تنفيذها عام ١٦٤٩. فبعد أسابيع من انتصارها في **گانجو** صدرت التعليمات لقوات **منگ** بالتحرك جنوبا لمحاربة المناطق التي ما زالت تشكل خطورة

في جنوب مقاطعة **ستشوان**. إستغلت قوات **ميلاين** و**دنگ** الفرصة فتقدمت جنوبا لتحتل عددا من المدن فوصلت إلى **لنتاو** وقتلت في طريقها مسؤولي **التشينگ**. غير أن **منگ تشياوفانگ** ردّ بسرعة فدفع الثوار خلفا إلى مواقعهم في ممر **كانسو** واستطاع أن يقتل **ميلاين** بعد أن فرض حصارا ثانيا على **كانجو**. أما **دينگ** فاستمر يقاتل في **سوجو** ثم باتجاه **هامي**. لم يكن له أمل في الوقوف في وجه قوات **منگ** العالية الكفاءة، لكن القوات الأخرى المعادية **للتشينگ** بقيادة **جيانگ شيانگ** إلى الشرق من **شانشي** استطاعت، دون قصد، أن تعطي الثوار المسلمين بضعة أشهر إضافية من الحياة! عهد **منگ** لقواته غير النظامية للقيام بعمليات الحصار وأمضى معظم سنة ١٦٤٩ مشغولا بدحر قوات **جيانگ**، ولم يرجع للسيطرة على **سوجو** حتى شهر ديسمبر. ونتيجة لانتصار **منگ**، في ذلك الشهر والذي نتج عنه قتل كل من **دنگ** و**ترموتاي** وحوالي خمسة آلاف من أتباعهما على يد **التشينگ**، أصبح من الممكن "تهدئة الوضع" في ممر **كانسو**.(٨٧)

إن تهدئة الوضع كان يجب أن يُخطط لها كي لا تتكرر أعمال العنف، غير أن معالجة مشاكل العامة ومكافأة القوات المؤيدة التي أبدت بسالة في القتال لا يمكن أن تحلّ مشاكل السيطرة المبالغ فيها على النشاطات التجارية والفقر التي كانت وراء قيام الإنتفاضات أصلا. إن جيشي **ميلاين** و**دنگ گودونگ** لم يضما ثوارا مسلمين فقط، بل كان معهم **آخرون** من الصينيين والتبتيين. غير أن عملية التهدئة التي قام بها المسؤولون قد أفردت المسلمين باعتبارهم عنيفين بالفطرة. وكما رأينا في أعلاه فإن **خو بي**، وهو مسؤول مدني، قد جسد سياسة التمييز العنصري ضد المسلمين دون سواهم من **الآخرين**، مما ترك لتلك السياسة أثرا بعيدا بأنهم ستوحشون بطبيعتهم ولا بد من "ترويضهم" عن طريق اخضاعهم لعملية "التدجين" السلمية.(٨٨) وافق البلاط على قبول هذا الرأي فأقرّ سياسة توطين المسلمين في ممر **كانسو** بعيدا عن المدن والحاميات العسكرية. وإضافة إلى ذلك قُطعت التجارة عن مدينة **هامي** لمدة خمس سنوات، وحتى اللحظة التي أرسل فيها حاكم المدينة سبعوثا يعتذر عن دورها في التمرد.

ورغم أنهم صُنفوا بأنهم يختلفون عن الثوار والأبطال الآخرين، فإن **ما شوينگ** و**ميلاين** و**دنگ گودونگ** كانوا بلا شك قد تشربوا الثقافة الصينية.(٨٩) إن هويتهم كمسلمين صينيين قد تطورت على مدى عملية طويلة للتكيف الثنائي بين المسلمين المهاجرين والمجتمع الصيني. وهي عملية بدأت في فترة **التانگ – السونگ**، وتسارعت في فترة **اليوآن** وأتت ثمارها في فترة **المنگ**. ورغم أن هذه العملية لم تكن سهلة بسبب عاملي الوقت والمكان فإن النتيجة كانت مسلمين يعتقدون أن الصين بلدهم والصينية لغتهم. كانوا متنوعين في ميولهم وكثيري الخصام كسائر الصينيين الذين عاشوا معهم. **فما شاوينگ** لم يمثّل كافة المسلمين الصينيين، بل جزءاً واحدا منهم فقط. واختلفت هذه الجماعة عن سائر الجماعات غير الصينية في البلاد ولم تحتل مناطق واسعة على امتداد الحدود.

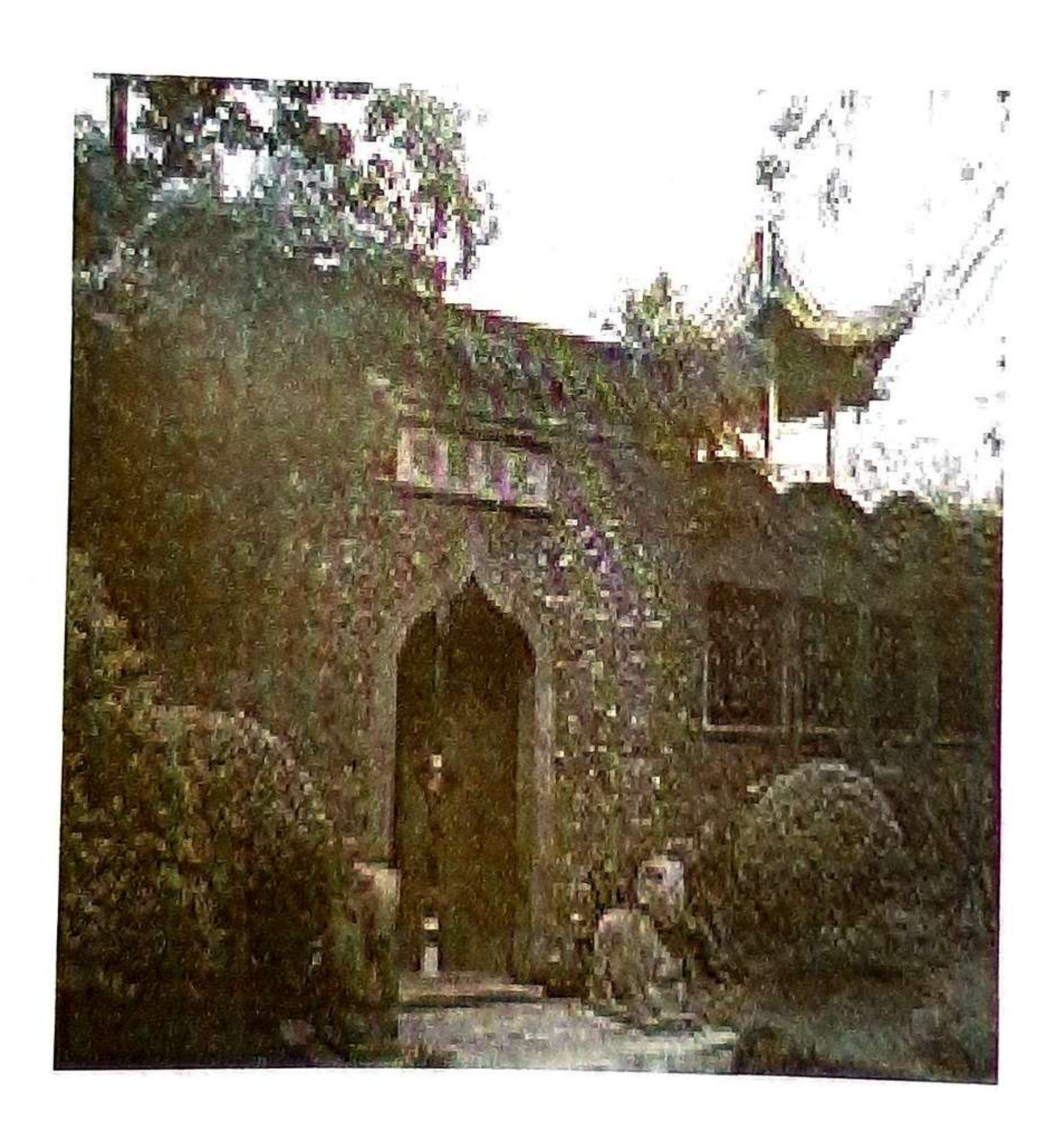
تركز المسلمون الصينيون في الشمال الغربي والجنوب الغربي ومدن الشرق (لأن المجتمعات المسلمة التي كانت تسكن المدن الساحلية في جنوب غربي البلاد قد تلاشت تدريجيا عندما توقفت التجارة البحرية مع الفرس والعرب في نهاية فترة **المنگ**) وأصبحوا جزءاً شاذا من المشهد الصيني بشكل عام. فهم عاديون لكنهم مختلفون وهم محليون لكنهم غرباء. قاموا بتحدي بعض المفاهيم الأساسية في الصين عن **الذات والآخرين**، وأنكروا تماما قوة الحضارة الصينية، التي غالبا ما يؤطرها المثقفون بإطار أخلاقي، وقدرتها على إحداث التغيير. وكما سنرى في الفصول القادمة فإن المسلمين في شمال غرب البلاد حافظوا على علاقات قوية مع وسط آسيا وغربها. إن سقوط **المنگ** وانتصار **التشينگ** لم يغير واقع المجتمع ويجعله خاضعا أو متكيفا. كان للبعض منهم أصدقاء في **هامي** وكانوا على استعداد للقتال إلى جانبهم. ومن المثير للسخرية أنه برغم التعميمات السلبية عنهم، فإن المسلمين قاتلوا كصينيين تأييدا لمنگ طالب بالحصول على العرش الإمبراطوري في بكين. وعلى أية حال لا يتوفر لدينا دليل على أنهم كانوا جماعة واحدة متماسكة (مثل **مانتسو**) خارج مجتمعاتهم المحلية. لم يستجب أي من المسلمين في طول

البلاد وعرضها لينضم للقتال تحت رايتي **ما شوينگ** أو **ميلاين**، وأن مجتمعاتهم بقيت معزولة ضمن المناطق والمقاطعات لا اتصال بينهم سوى عن طريق التجار أو رجال الدين الذين يتنقلون من مكان إلى مكان ومن مهمة إلى مهمة اخرى.

خلال القرن التالي عاش مسلمو شمال غربي الصين فترة سلام نسبي مع بعضهم البعض ومع جيرانهم ومع دولة **التشينگ**. وليس بوسعنا القول إن سياسة **المنگ** في إعادة توطين المسلمين قد حافظت على ابقاء وضع هادئ مسالم لأن غالبية منطقة **گانسو**،دعك من بقية الصين، كانت خاضعة لتلك السياسة. لكنه يمكننا القول إن مسؤولي **المنگ** بمساعدة حامياتهم العسكرية استطاعوا إخماد أية اضطرابات، وأن مختلف الناس في الشمال الغربي قد وجدوا أن حكم **التشينگ**، الذي توسع تدريجيا نحو الغرب ليشمل كل ما يُسمى الآن **شينجيانگ**، مناسب لحاجاتهم ويمكن تحمله والتعامل معه.

الفصل الثالث

الارتباط بين المسلمين خلال مطلع فترة حكم التشينگ ١٦٤٤-١٧٨١ التأثير الغربي: الصوفية في الصين



ضريح شيخ الصوفية بهاء الدين في مدينة يانغجو

<http:/www.Google Courtesy>

أيها المسلمون: ماذا علي أن أعمل؟ إنني لا أستطيع أن أفهم نفسي. لست مسيحيا ولا يهوديا ولا جبريا ولا مسلما. لا أنتمي إلى الشرق ولا إلى الغرب. لست من أهل الأرض ولا البحر. لست من ضرب الطبيعة ولا من أجرام السماء الدائرة. لست من الهند ولا الصين ولا بلغاريا ولا سقسين. لست من مملكة العراقين ولا من بلاد خراسان.

أنا من مكان اللامكان وأثري لا أثر له، فهو ليس جسدا ولا روحا لأني أنتمي إلى روح الحبيب. لقد طرحتُ الثنائية جانبا وأدركت العالمين كعالم واحد، وهو ما أريد وأعرف وأرى وأدعو.(١)

لقد تخلى الصوفيون عن شكل المعرفة وقشرتها ورفعوا راية عين اليقين حيث اكتسبت الأفكار نورا، كما اكتسبت الجوهر والمصدر الأساسي للمعرفة الروحية. الموت الذي يخشاه الآخرون، يسخر الصوفيون الحقيقيون منه. لا أحد يستطيع أن ينتصر على قلوبهم، فالضيم يقع على قشرة المحار وليس على اللؤلؤة بداخلها.(٢)

هداية الله ودخول الصوفية إلى الصين

في مطلع القرن السابع عشر عبر داعية اسمه **محمد يوسف** من **پامير** إلى **ألتيشهر** ليشارك في حل نزاعات دينية وسياسية بين القادة المحليين الذين ينتمون إلى فئات متناحرة.(٣) ونتيجة لنجاحه مع حكام **تشاگاداير** في منطقة **ألتيشهر**، سافر شرقا لتأمين مساندة مريديه في **طرفان** و**هامي**. ثم عبر حدود دولة **المنگ** إلى **ممر گانسو** فوصل إلى مدينة **سوجو**، التي جعلها الثائر **دنگ گودونگ** مركزا له بعد سنوات. حصل **محمد يوسف** على تأييد علماء الدين المسلمين الذين كانوا يتكلمون الصينية.(٤) وبعد القيام بعدد من الزيارات إلى بلد **السالار**، رجع إلى منطقة **ألتيشهر** حيث قام أعداؤه بدسّ السمّ له فمات سنة ١٦٥٣.

احتل مكانه ابنه المسمى **خوجه آفاق**، حسب مصادر آسيا الوسطى وسمي **هداية الله**، وفق المصادر الصينية. واعتُبر حفيدا للنبي وسليله بعد خمسة وعشرين جيلا. تنقل **هداية الله** في منطقة شمال غرب الصين في سبعينات القرن السابع عشر،

واستفاد من الأمن النسبي وحرية الحركة اللتين تحققتا في ظل سيطرة **التشينگ**. فزار كلا من **لانجو** و**ديداو** و**شينينگ** وربما **خيجو**، فكان له تأثير عميق على كافة المجتمعات المسلمة والغير مسلمة على السواء.(٥)

كان **محمد يوسف** وابنه **هداية الله** قائدين صوفيين للحركة التي غيرت العالم الإسلامي بين القرن الثالث عشر حتى القرن الثامن عشر.(٦) وهي غالبا ما تسمى بالمذهب الباطني (الذي يقول إن المعرفة المباشرة بالله أو بالحقيقة الروحية يمكن أن تتمّ للمرء عن طريق التأمل أو الرؤيا أو النور الباطني، وبطريقة تختلف عن الإدراك الحسي العادي أو اصطناع التفكير المنطقي - المترجم) أعطت **الصوفية** صوتا للطموحات الشخصية والجماعية للتوحد مع كل ما هو مقدس، وهو أمر كان موجودا عند المسلمين منذ فجر الإسلام.(٧) إن اسم **الصوفية** مشتق من الكلمة العربية "صوف" وهو إشارة هامة لفكر **الصوفية** وتطبيقاته التي تركز على نكران الذات. كان الصوفيون/المتصوفون "الأوائل" يلبسون أردية من الصوف ويمارسون التقشف ويكثرون من الزهد والصيام والترتيل والابتعاد عن العالم المادي والتأمل على أمل تحقيق حالة عليا من الوعي الديني وشعور التواصل مع الخالق لبلوغ شواطئ الأفق البهي.

القديم والطرائق الصوفية

لم تحافظ **الصوفية** على وحدة حركتها لفترة طويلة، حالها حال كل الحركات الدينية الأخرى. فأئمة **الصوفية** في كل فترة من الفترات ابتدعوا سبلا مختلفة وتوصلوا إلى قناعات دينية نتيجة تجربة كل منهم في الزهد ومن خلال بيئاتهم السياسية والاجتماعية. وأكثرهم شهرة هم من جاءوا بما سمي "**طريقة**" التي أصبحت تدريجيا عنصرا في التحول الاجتماعي وسبيلا للإنجاز الديني، وأصبح ذلك ممكنا لأن الإسلام لا يفترض وجود سلطة دينية مركزية غير الخلافة (الخليفة أمير المؤمنين) والقيادة السياسية (مثل الشيعة) التي تدعي الإنتساب المباشر لسلالة النبي. فالمساجد في كل حي تتمتع بالإستقلال لإدارة شؤونها وتعيين أئمتها

ومعلميها ومؤذنيها من الذين تربطهم بالآخرين علاقات شخصية ولهم معرفة بالقضايا الدينية والشرعية، ولكنهم لا يمثلون أية سلطة رسمية.

إلا أن الحقيقة هي أن **الصوفية** تفرض مراكز للسلطة على اتباعها وتأمرهم بالطاعة حتى وإن كانوا بعيدين . ويتحمل شيخ الطريقة المسؤولية ويتمتع بالبركة التي تؤمن له قوة روحية وزمنية. تنتقل هذه البركة من جيل إلى جيل في تتابع اسنادي موروث كحلقات "السلسلة" بدأ من المؤسس للطريقة ومن ثم لمن يأتي بعده في قيادة الحركة، وتصبح مراقدهم أماكن مقدسة للزيارة والتبرك. ولهذا أصبحت قباب **الصوفية** علامات فارقة لانتشار تواجدهم في حياة المسلمين واتساعه من أسبانيا إلى الصين. وفي كل تلك البلاد بحث أتباع الطرائق الصوفية عن الإلهام في صلواتهم وتقربهم من الله من خلال التقرب إلى شيوخهم. كان كل مجتمع صوفي تحت قيادة أئمة محترفين يعينهم شيخ الطريقة، فاستطاعوا بذلك تأسيس شبكة دقيقة من التأثير والسلطة. إن الطرائق **الصوفية** وعلاقتها بمراقد الصالحين قد هيأت حلقة للتنظيم والعبادة والولاء أشد فاعلية من كافة الممارسات التي عرفتها المجتمعات الإسلامية واستقلالية المساجد التي قامت على طابعها المحلي.

شجع توفر الطرائق المختلفة على قيام المنافسة بين الجماعات **الصوفية** لتمارس تأثيرها الديني الذي قاد في كثير من الأحيان إلى التسلط وتكديس الثروة. فمنذ نشأة تلك الطرائق كانت الجماعات تتنافس فيما بينها ليس لغرض الفوز بانضمام المسلمين إلى حركتها فقط، بل إلى قيام نوع من التحالف بينها وبين العائلات التي تتمتع بالنفوذ، وكذلك جمع التبرعات والزكاة والحصول على الوقف الذي جعل شيوخ الطريقة رجالا اثرياء وقادة زمنيين في نفس الوقت.(٩) كان لكل معلم منهم طرائقه الخفية في ممارسة الشعائر التي تنتقل من جيل إلى جيل كحلقات "السلسلة"، وتنتقل معها بركة الشيخ المؤسس لتشمل الأتباع أجمعين. وكلما كبر حجم تلك الطرائق تزايد إدعاء شيوخها بأنهم من سلالة النبي. وهكذا أصبح كل "شيخ" "سيّدا" في نفس الوقت، يفرض على الأتباع أن يدينوا له ولمن

يرثه بالولاء.(١٠) ورغم أن مؤسسي الطرائق الصوفية قد كانوا فعلا رجالا زاهدين، إلا أن الذين جاؤوا من بعدهم وكذلك أقاربهم أصبحوا رجالا ذوي ثروات طائلة وشغلوا مناصب سياسية عالية.(١١)

كان لشيوخ الطريقة ممثلون (يُسمى الواحد منهم خليفة أو رئيس) يتنقلون على امتداد طرق التجارة وينزلون ضيوفا على المسلمين وغير المسلمين ممن يرغبون في تجاذب أطراف الحديث معهم. فاستطاعوا أن يكسبوا الأتباع الجدد بطرق مختلفة من بينها المواعظ الفصيحة والكلمات السحرية (يسمونها بالعربية كرامات) والمحاضرات حول بعض النصوص الدينية وكذلك اشتراكهم في حلقات الذكر. وحلقات الذكر هذه تشبه كثيرا بعض المراسيم البوذية خصوصا ما يتعلق منها بأداء الأناشيد الدينية وتكرارها بصوت مسموع أو بشكل صامت مصحوبا بالضرب على الدفوف. وهذه عادة ما تقود إلى حالة من النشوة والاتصال المباشر بالخالق. وهكذا وفرت الصوفية لأتباعها طريقة جديدة للتعبير عن الحماس الديني ومجموعة منتقاة من أساليب التنوير والأطر الممنهجة للطريقة ذاتها. ومن خلال شبكة الأتباع، الذين يسمونهم مريدين، يتصل هؤلاء بالمجتمعات الإسلامية وقادتها قصد الحصول على الثروة والقوة.

عندما يحاول شخص أن ينضم أو يتقبل الطريقة الصوفية، يكون لزاما على هذا المريد أن يعلن الولاء والطاعة لشيخ الطريقة ومن يأتي بعده. ضمنت هذه الرابطة الحميمة لشيوخ الطريقة الإحترام الشخصي والطاعة التي لا تشوبها شائبة.(١٢) ويستطيع القائد الصوفي ذو الصفات الشخصية المحببة أن يضمن ولاء المريدين والتزامهم المنتظم الكامل الذي يتجاوز حدود المتعارف عليه ولا يعتمد على حسن النية أو عامل كبر السن. وعادة ما يتنقل شيوخ الطريقة بين القرى والمدن ليجمعوا المريدين مع بعضهم البعض ويخلقوا التضامن القائم على الإخلاص الشخصي. ويقف هذا التنظيم على النقيض مما كان يجري في المجتمعات غير الصوفية التي تتبع فكرة القديمو حيث يقود مجلس كبار السن (مجلس الشيوخ) النشاطات المحلية بالتعاون مع رجال الدين الذين يعملون في المساجد. أصبحت زوايا

الصوفية مراكز دينية واجتماعية بديلة للجوامع في أحياء المدن وفي القرى. "يقوم شيوخ الطريقة بتعليم وإيواء مريديهم ويقيمون حلقات الذكر ويوفرون الإقامة للصوفيين المتجولين. كان لهذه الزوايا مهام تماثل تقريبا مهام الأديرة في أوروبا وأصبحت مراكز للاختلاط الاجتماعي.(١٣)

تختلف المؤسسات **الصوفية** بأفكارها وتتنوع سياساتها باختلاف البيئة والمحيط. لقد أظهر فلتشر بدون شك أن المسلمين الصينيين قد حافظوا على علاقتهم "بالغرب"- أي العالم الإسلامي، وإن تلك التيارات الدينية والسياسية استمرت في تدفقها على الصين عبر حدودها مع جيرانها من الدول الإسلامية.(١٤) ونظرا لأن **الصوفية** قد جاءت إلى الصين أولا عبر وسط آسيا فإنه لكي نفهم منزلتها التاريخية في شمال غرب الصين يجب أن نتفحص بشكل موجز الدور الذي لعبه شيوخ الطريقة في شرق تركستان.

رغم أن التصوف يبدو من الناحية الفكرية أنه يشمل تجربة دينية فردية لا يمكن التعبير عنها، فإن الحركة **الصوفية** لم تتوان عن خوض عالم السياسة. كانت **النقشبندية** من أهم الطرائق **الصوفية** في وسط آسيا. "اعترضت **النقشبندية** على الممارسات الهادئة وزادت في نشاطاتها التبشيرية قصد الحصول على التأييد السياسي خاصة بين المواطنين الرّحّل الذين كانت قدراتهم العسكرية تبسط نفوذها على السياسة في آسيا الوسطى."(١٥) إن تحول غير المسلمين إلى الإسلام كان يعتبر في نظر شيوخ الطريقة من المهام الرئيسية لهم، واستطاع المبشرون **بالصوفية** بنجاح من اقناع ناس ذوي انتماءات ثقافية متباينة شملت التبت ومنغوليا والتوركي (وهم الأتراك والأذربيجانيين والتركمان والقرغيزيين) إضافة إلى الصينيين.

وهكذا انتقلت **الصوفية** من غرب تركستان باتجاه الشرق خلال القرون الأخيرة من حكم **المنگ** والأولى من حكم **التشينگ** حيث تحالفوا مع سلاطين وملوك مناطق الواحات وكذلك السكان الرّحّل. كان من بين هؤلاء كل من **الويغور** المغولي **كاشگري** خوجه وأميري **فرغانة** **وكوكاند**. وفي الحقيقة إنه حتى الحكام غير المسلمين مثل **أويرات** المغولي وغيره، حاولوا التقرب من الصوفيين - وقت

وصول **خوجه آفاق** إلى الصين- وهدفهم أن يكونوا اتباعا لبلاط **كاشگر**. وعليه فإن دخول **الصوفية** إلى شمال غرب الصين قد أطلق شحنة في الجو السياسي، حيث كانت الخصومات في وسط آسيا تلعب دورا مختلفا في النسيج الاجتماعي والثقافي. وبدلا من عالم إسلامي يبسط فيه القادة سلطانهم، فإن البيئة التي عاشت فيها **الصوفية** في الصين كانت السيطرة فيها بيد غير المسلمين. ومع ذلك تناحرت الجماعات **الصوفية** فيما بينها الأمر الذي جعل تأثيرها على منطقة **گانسو** يختلف عمّا كان عليه في **كاشگر** لأن الأولى بعيدة ومن المتوقع أكثر عداء للقوة السياسية الغير دينية، التي تعني في هذه الحال غير المسلمين.

وكما رأينا في حالتي **ما شوينگ** و**ميلاين/ دنگ گودونگ**، فإن سيطرة الدولة على شمال غربي البلاد واجهت تحديا وقت الاضطرابات والضعف العسكري والممارسات الإدارية الظالمة التي تسببت في قيام الثورات وربما قادت إلى نجاحها وتغيير السلطة الشرعية (لبلاط **ما شوينگ**) أو تعيين قيادة جديدة لتحل محل (**ميلاين وجو سيتشوان**). إن وصول الحركة **الصوفية** قد وفّر السبل لتحرك شبكات للتضامن لم تكن موجودة لدى مسلمي الصين من قبل. مبدأيا، لم يكن هدف الحركة تحدي سلطة الدولة. فلابدّ قبل ذلك من تأمين الأعداد اللازمة من المريدين في المجتمعات الإسلامية، وتوفير الإلتزام وتأمين سبل الديمومة والاستقرار والثروة. وهكذا رسم **خوجه آفاق** الطريق لشخصية هامة في تلك المرحلة وهو **أبو الفتوح ما لايتشر** ليؤسس جماعة **الخفيّة** كفرع للصوفية **النقشبندية** في ممر **گانسو**.

ما لايتشر وبروز المينخوان

إن **الآفاقية**، وهي فرع من **النقشبندية**، سميت بهذا الإسم تيمنا باسم **خوجه آفاق**. وهي تؤكد على المعجزات ودراسة **المثنوي**، وهو عمل من تأليف الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي، وتجديد الإيمان واتباع الشريعة الإسلامية.(١٦)

*(**المثنوي**، ديوان شعر باللغة الفارسية. يعني **المثنوي** بالعربية النظم المزدوج، حيث يتحد شطرا البيت ويكون لكل بيت قافيته الخاصة. يبلغ عدد أبيات **المثنوي***

٢٥٦٣٢ بيتا موزعة بين اجزائه الستة. وفيه ٤٢٤ قصة تشرح معاناة الإنسان للوصول إلى شواطئ الأفق البهي وحبه الأكمل، الذي هو الله- المترجم) ومن خلال ممارستهم للتأمل، يقول الصوفيون إن ذلك هو "تذكير القلب" الشائع عند **النقشبندية**، الذي أعطاهم كنية **الخفية** أي "**الصامتون**".(١٧) التحق **خوجه آفاق** بوالده في شمال غرب الصين بحثا عن سبل من أجل التنافس مع أفراد أسرته في **ألتيشهر** لبسط النفوذ هناك. كانت هذه ظاهرة للخصومات السياسية-الدينية في وسط آسيا، وتقوم على توريث قيادة الطرائق **الصوفية** وبالتبعية السلطة المدنية.(١٨)

وجد **خوجه آفاق** رغبة شديدة لدى أتباعه في **گانسو** فقام بثلاث زيارات إلى **شينينگ** التي تعتبر محطة رئيسية على **طريق الحرير** وهي الآن مركز لمحافظة **تشنگاي**. كان المسلمون يتوافدون على **شينينگ** ليستمعوا لمواعظ هذا الداعية الصوفي المشهور الذي يعمل المعجزات ويعلم **المثناوي**. إدعى **ما تونگ** أن زيارات **خوجه آفاق** قد أدت إلى قيام تسعة تنظيمات **صوفية في گانسو**، غير أن فلتشر يشير إلى ثلاثة من الأتباع المهمين كانوا وراء ذلك النجاح.(١٩) ومع ذلك يتفق الإثنان على أن أكثر الجماعات السياسية الناشطة كانت نتيجة لجهود **خوجه** آفاق الذي قلد معلما متقاعدا اسمه **ما طيبابا** منصب شيخ الطريقة في **ميلاگو**. ومع أن الأخير لم يقم بأي نشاط متميز إلا أنه عين أحد الأذكياء من طلابه المدعو **أبو الفتوح ما لايتشر** خلفا له.

كتب **أبو الفتوح** أن ميلاده وتربيته ومنصبه الروحي كلها تعود إلى **هداية الله**.(٢٠) كان والده **ما جياجون** وجده **ما كونگشان** يهتمان بالتجارة والأمور العسكرية. فقد كان جده جنرالا في جيش **المنگ** واجتاز الإمتحان العسكري في فترة **التشينگ**. أما والده فقد انصرف للتجارة. وفي سن الأربعين أصبح غنيا لكنه كان محروما من الأطفال. سافر **ما جياجون** من مدينته **خيجو إلى شينينگ** ليقابل **خوجه آفاق** ويطلب منه دعاء لله كي يرزقه ولدا. وبعد أن أكمل **خوجه** الدعاء التفت إلى **ما جياجون** ونصحه بأن عليه أن يتزوج من مدينته امرأة شابة "تنتظر الإيمان". كانت تلك المرأة غير المسلمة والبالغة من العمر ستة وعشرين عاما لا تزال باكرا.

لقد طلب يدها العديد من الرجال لكن كل واحد منهم قد اختطفته يد المنون قبل اتمام الزواج. وبمباركة **خوجه** نفسه تزوج **ما جياجون** تلك الفتاة بعد أن أشهرت إسلامها فأنجبت له ولدا. وحسب ما ورد في أساطير **الخفية** فإن متاجر **ما جياجون** وممتلكاته قد التهمتها النيران في حريق هائل لم يترك له شيئا. وعندما ولد الصبي سماه أبوه **لا يتشر** بمعنى "الذي جاء متأخرا".

الآن وقد فقد كل شيء وأضحى فقيرا، لم يستطع **ما جياجون** الاستمرار في السكن في مدينة **خيجو** فتحول للعمل كبائع شاي متجول على الطرق الممتدة بين **خيجو وشينينگ**. ونظرا لأنه لم يستطع أن يبقي ابنه معه، فقد ارسله ليكون في عهدة صديق يسكن في **ميلاگو**. قام هذا الصديق بتسجيل الولد في مدرسة **ما طايبابا** ليتعلم القرآن ويتلقى تربيته هناك. أثبت الولد **ما لايتشر** أنه عبقري، إذ أكمل دراسة المنهج الإسلامي قبل بلوغه سن الثامنة عشرة وحصل على شهادته في **الصوفية** واستحق منزلة **أخونگ** أي أمام من معلمه الذي أسبغ عليه **بركة** من **خوجه آفاق**.(٢١) عمل **ما لايتشر** معلما وداعية في منطقة **خيجو**. وبناء على ما ذكره **ما تونگ** فإن **ما لايتشر** قام عام ١٧٢٨ بأداء مناسك الحج في مكة.

تختلف المصادر حول التاريخ والمواقع التي زارها **ما لايتشر** في قلب العالم الإسلامي. تقول بعض المصادر إنه درس في الهند وتقول أخرى إنه درس في بخارى، فيما ذكرت مصادر ثالثة إنه درس في اليمن. غير أن جميع المصادر تتفق على مكوثه في بعض مراكز التعليم الإسلامي ربما لعدد من السنوات. رجع إلى الصين وهو يحمل رغبة شديدة في إصلاح الحركة الإسلامية في بلاده، كما جلب معه بعض المصادر الإسلامية المعروفة (من بينها القرآن) وأخرى جديدة لم يُعرف عنها من قبل في منطقة شمال غرب الصين، خاصة كتاب "خلاصة العبادات" الذي أهداه إياه أحد معلميه.

ونظرا لأن القليل من المسلمين في الصين كان يمكنه أداء فريضة الحج أو يستطيع قراءة أو شرح الكتب الدينية بلغاتها الأصلية، أصبح **ما لايتشر** يتمتع بمكانة مرموقة لدى عودته إلى بلاده. فصفاته الشخصية المتميزة والدعوة التي جاء بها

ضمنت له تأييد العديد من المسلمين الصينيين ومن يتكلمون التوركية ليصبحوا مريدين للطريقة **الصوفية**. كما أن مهاراته للإتيان بالمعجزات قد شجعت العديد من غير المسلمين لإشهار إسلامهم. ولحد يومنا هذا يحظى **ما لا يتشر** بتبجيل المجتمعات الإسلامية في التبت ومنغوليا وكذلك المنحدرين من أصل منشوري في محافظة **تشينگاي**، ويعتبرونه زعيمهم الروحي لأنه هو الذي هدى أسلافهم للإسلام.(٢٣) وحين يستقر وليّ روحي مثل **ما لايتشر** في مكان ما يتجمع حوله المريدون وتعطي مساهمته في حل أي خلاف وزنا للجانب الذي يقف في صفه.(٢٤) ومثلا على ذلك أنه نشب خلاف بين المسلمين في مقاطعتي **خيجو وشونخوا** في أربعينات القرن الثامن عشر حول موضوع الإفطار اليومي خلال شهر رمضان، وفيما إذا كان يتوجب على المسلم أن يفطر ثم يصلي صلاة الغروب أم العكس. ألقى **ما لايتشر** بثقله إلى جانب المعسكر الأول، وهو الأمر الذي جلب خلافا مريرا إلى الحدّ الذي أقام فيه **ما ينگوان** الدعوى ضده عام ١٧٤٧.(٢٥)

أظهرت تلك الدعوى أمام محكمة دولة **التشينگ** مستوى الصراعات في المجتمعات المسلمة في الصين. في الأماكن الأخرى من العالم الإسلامي تكون السلطة "المدنية" سلطة اسلامية، وعليه فإن السلطة القضائية ليست مشكلة. والجماعات المتناحرة قد تطلب حكما من عالم ديني معروف ولا تذهب لمحاكم القضاء في أمور كالتي أشرنا اليها في أعلاه. وحتى في القضايا الشائكة تلجأ الأطراف إلى حكم الشريعة الذي لا خلاف عليه. غير أنه في **كانسو** أنكر كلا الطرفين حجج الآخر وارتضيا الإحتكام أمام محكمة يعرفان جيدا انها غير إسلامية، ولا تستند في احكامها على مبادئ المؤسسات القانونية الإسلامية. ولذلك فإن الخطوة التي أقدم عليها **ما ينگوان** تظهر بشكل واضح قناعته بشرعية نظام محاكم **التشينگ** ومقدرتها على حل الخلافات بين المسلمين في شمال غرب البلاد. ومن جهة اخرى تعني اعترافا بأن مسلمي تلك المناطق ينتمون إلى الصين. لقد كانت تلك البادرة من قبل الطرفين مقدمة لحل الخلافات بين المسلمين عن طريق اللجوء إلى محاكم الدولة المدنية.

كما أنها حددت أبعاد القضايا القانونية المتنازع عليها وفق بنود النظام القضائي الوضعي لحكومة **التشينگ**. ثم أن **ما ينگوان** اتّهم **ما لايتشر** بالهرطقة، بمعني البدعة والخروج على الإجماع، وخداع الناس لأن **ما لايتشر** قد أسس جمعية أطلق عليها (الرمال المضيئة) والتي يتم خلال اجتماعاتها نفخ الرمال في آذان الأعضاء.(٢٧) وقصده الواضح من ذلك أن يربط بين الصوفية **الخفيّة** مع الجماعتين البوذية والدائية في الصين، اللتين يُعرف عنهما ممارسة الطقوس الغريبة ونزوعهما للتحريض على الفتنة أو العصيان. لربما وجدت محكمة **التشينگ** حجة لهذا النوع من المناقشة، لأن جماعة **ما لايتشر** عُرف عنها نزعتها التفريقية عند النظر اليها من وجهة النظر القانونية التي تثمن المحافظة والإنسجام الاجتماعي، في حين أن الممارسات الصوفية رغم تظاهرها بالهدوء تحت راية **النقشبندية** تقود إلى سلوكيات غريبة على مجتمع **القديمو**. غير أن الحاكم العسكري **جانگ گوانگسي** أسقط الدعوى المرفوعة ضد **ما لايتشر** واتهم خصمه **ما ينگهوان** بالتشهير وطلب أن يُعاقب وفق قانون **فانزوو**، الذي ينص على معاقبة المدعي بنفس العقوبة التي يُراد انزالها بالمدعى عليه.(٢٨) صدر الأمر بمنع **تشيانكاي** و**خوكاي** من ممارسة شعائر الجنازة بكاملها وطُلب منهما أن يحترما ديانة أجدادهم دون أي تحريف.

غير أن حكم القضاء لم يضع نهاية لتلك القضية. فدخول **ما لايتشر** معترك الحياة العامة وسياسة المجتمع الإسلامي في **گانسو**، تسبب في نشوب الفرقة والصراع بين أنصاره ومعارضيه. تشير معظم النصوص إلى أن إجراء الشعائر والطقوس ومن ضمنها نفخ الرمال في الآذان كانت من أهم الأسباب الواضحة لذلك الخلاف. غير أن حاجّا ذا صفات شخصية كارزمائية فائقة من **خيجو** قد ضرب على وتر حساس في الحياتين الاقتصادية والاجتماعية. كان تأثيره على إشهار **السالار** بشكل خاص لإسلامهم، قد وضع الناس في **گانسو** في موقع عصبي مزعج، لأن افراد هذه الفئة يتكلمون التوركية ويعيشون في منطقة تقاطع الطرق الموصلة بين **لانجو- شينينگ** و**خيجو- شينينگ**، ومعروفون بانتفاخ البطون! كان سكان **گانسو** الآخرون يخشون من توحد **السالار** تحت قيادة صوفية بدلا من

توزعهم على جماعات صغيرة تجتمع في مساجد صغيرة يقودها أئمة متعددون تعينهم حكومة **التشينگ**. فلا شك أن توحدهم سيخلق تهديدا للأمن العام.(٢٩) وفي الحقيقة إنه عندما اندلعت القلاقل والاضطرابات بشكل مفتوح في منطقة **گانسو** خلال ثمانينات القرن الثامن عشر ومرة اخرى خلال تسعينات القرن التاسع عشر، كان **السولار** و**الخفية** هم من أجّجها واستهلها. من الواضح أن **هداية الله** و**ما لايتشر** قد حققا نجاحا مشهودا في صفوف تلكما الجماعتين.

لم تقف أفكار **ما لايتشر** عند طقوس **الخفية** وشعائرها. فاعتمادا على ما تطرحه **الآفاقية**، فإن **الصوفية** في آسيا الوسطى مرتبطة ارتباطا وثيقا بالشخصيات السياسية من نسل ما أطلقوا عليه **المخدوم الأعظم**. إضافة لذلك، إن **ما لايتشر** هو الذي أرسى مبدأ وراثة **الطريقة** ومبدأ انتقال البركة بين شيوخ **الخفية** وجعل زيارة مراقد الشيوخ الصالحين جزءاً من طقوس مريدي الطريقة.(٣٠) وبعد وفاته أصبح ابنه **ما گوياو** شيخا ليضمن استمرار تدفق الثروة على الأسرة وتشبثها بقوتها الدينية ونفوذها. واليه يعود الفضل والى آخرين غيره لاستمرار نسل **هداية الله** في موقع القيادة، كما أن المصادر الصينية تورد فضله في تأسيس ما سمي **مينخوان**، إشارة إلى نسب مشايخ المسلمين في شمال غرب البلاد.

مينخوان تعبير صيني محلي مأخوذ من menhu التي تعني "العائلة الكبيرة" أو "العائلة الرسمية،" ثم أصبحت تدريجيا تعني تضامن مشايخ **الصوفية** الصينية في شمال غربي البلاد وتفرّد سلالة أسرة واحدة بهذا الموقع. ورغم أن هذا النوع من النفوذ والسلطة ليسا غريبين على واقع الحال في العالم الإسلامي، فإن فكرة توريث القيادة الدينية والاجتماعية والسياسة وجدت لها أرضا خصبة في الصين.(٣١) حافظت طرائق **الصوفية** على توريث الشخصية المتميزة المحببة، لكنها عجزت عن طرح النموذج الذي نجده في التوريث على الطريقة الصينية jiazu . ومع ذلك استخدم **المينخوان** أساليب ونماذج **جياتسو** الصينية لإدارة الملكية العامة وتنويع صنوف التجارة والنشاطات الاقتصادية لغرض ضمان البقاء والتقدم في عالم سريع التغير كالذي شهدته البلاد في أواخر حقبة الصين الإمبريالية. كما طرح **المينخوان**

نفسه باعتباره مزيجا من الصينية والصوفية وأكد على العودة إلى نسب النبي وبناء العائلة والتنافس الاجتماعي - الاقتصادي.(٣٢) وهكذا استمد هذا النموذج شرعيته من مصدرين التقيا عند منطقة التخوم، الأمر الذي جعل في يد **المينخوان** اداة قوية لبسط نفوذه على النخبة المحلية.(٣٣)

وفي نفس الوقت، فإن حق التوريث قد خلق **للمينخوان** أرضية خصبة للصراع. لم يكن **ما لايتشر** المؤسس الوحيد الذي حظي ببركة **هداية الله**. **فقد** كان هناك **ما شاوجن** الذي رجع من **شينينگ إلى ديداو** الواقعة على نهر **تاو**. أصبحت سلالته في صدارة الإفتاء **للمينخوان**، وهو ما أدى إلى تصادمها مع **الخفية** في **شينينگ** في القرن التاسع عشر. (٣٤) كما أن **ما تسنگشنگ** (عبد الرحمن) وهو **أخونگ** أي إمام معروف في **خيجو** قد نال البركة والتعليمات من **هداية الله** فأصبح رئيس **مينخوان** مدينة **بيتشانگ**، حيث يقع ضريحه في القسم الغربي منها.(٣٥) وتبعه آخرون مستفيدين من موهبة اكتشاف الأشياء، وهي التي تجمع ما بين **جياتسو** والطريقة **الصوفية**. وخلافا لما كان سائدا في المؤسسات الإسلامية، أصبح بمستطاع **المينخوان** زيادة أتباعه مما جعله في صراع مع الآخرين في كافة المناطق الإسلامية في **گانسو**. فزيادة الأعضاء تعني زيادة الثروة ورفعة منزلة **المينخوان**، لأنه حتى العائلات الفقيرة كانت تريد لأبنائها الشباب القبول في مدارس **المينخوان** ليصبحوا حرسا مرافقا لحماية شيخ الطريقة.

بحلول منتصف القرن الثامن عشر جاءت من وسط آسيا تشكيلات دينية واجتماعية جديدة متمثلة بالطريقة **الصوفية** التي حركت اهتماما قويا بالنشاطات السياسية والقوانين الإسلامية وتضامن المجتمع مع الإبقاء على روح التنافس التي يسمح بها الدين. وهكذا وعن طريق دمج نفسها بالأفكار الصينية حول التوريث اجتماعيا وفكريا، أصبح للمينخوان الصوفية مؤسسات اقتصادية نشطة. إن مجيء **الصوفية** من الغرب قد عزز روابط مسلمي **الگانسو** مع مراكز دينهم في مناطق وسط وغرب آسيا، غير أن تكيفهم قد حصل ضمن اطار ثقافي صيني الهوية. وخلال فترة حكم **التشينگ** تعرضت المنطقة إلى ضغط قادم من المدن الكبيرة الواقعة شرق

البلاد حيث توجد تيارات قوية نامية لشد ارتباط هوية المسلمين بأرضهم الصينية لغويا وفكريا وثقافيا.

التأثير الشرقي وكتب الخان الإسلام بملامح صينية

*عادة ما تكون قضايا البشر ومصالحهم متقابلة يكمل بعضها البعض الآخر. وعليه فإن تأثير الأفكار الكونفوشية ونفوذها في الإسلام ظهر وكأنه قد اعطى الأخير في نهاية فترة **المنگ** ومطلع فترة **التشينگ** شحنة جديدة وأمده بحيوية ودم كانا جليين بما قدمه علماء المسلمين ومثقفيه في تلك الفترة. لقد ظهرت مجموعة من المثقفين المسلمين الصينيين واستعملت بشكل منتظم لغة كونفوشيوس وأراءه لدراسة النصوص الدينية الإسلامية وتلخيصها. أسس هؤلاء نظاما فكريا صينيا إسلاميا متكاملا واستخدموا اللغة الصينية لكتابة المؤلفات الإسلامية بأسلوب صيني بحت. أطلق مسلمو الصين على تلك المؤلفات **كتب الخان**- أي الشريعة الصينية. فكان لجهدهم هذا تأثير مضمون على المجتمع الإسلامي الصيني.*(٣٦)

أصبح مسلمو الصين خلال فترة حكم **المنگ** متأثرين بالحياة الصينية تأثرا عميقا إلى درجة جعلت البعض منهم يعبر عن خوفه من أن القوم قد فقدوا ايمانهم وقيمهم وخصوصيتهم لأنهم فقدوا القدرة على قراءة كتبهم الدينية المقدسة. جاء ردّ الفعل على ذلك سريعا، إذ بدأت مدارس المساجد في **شانشي** و**گانسو** بتدريس العربية والفارسية وانتشرت الفكرة في كافة أرجاء الصين بواسطة **أخونگ** أي الأئمة الذين كان يتم تدريبهم في شمال غرب البلاد. وفي الحقيقة أن الخوف قد استشرى حتى بين المجتمعات الإسلامية المثقفة الكبيرة في مدن شرق الصين.

كانت أعداد المسلمين التي تذهب للحج والدراسة من مدن **نانجنگ** و**بكين** و**گوانگجو** محدودة جدا. وفي نفس الوقت كان تعليمهم على يد **أخونگ** غير كاف لتأهيلهم لقراءة الكتب الدينية وفهمها بشكل عميق. كما أن اختلافاتهم مع جيرانهم غير المسلمين وتميزهم عنهم أصبح أقل وضوحا. والمثقفون منهم درسوا كونفوشيوس بطريقة كلاسيكية ونجح البعض منهم في اجتياز الإمتحانات المدنية.

غير أن ثقافتهم الإسلامية لم تزدهر في ظل ظروف العزلة. كان يمكن معالجة ذلك التخلف المعرفي للثقافة الإسلامية بفتح المجال أمام المتحمسين للمعرفة وقراءة الكتب باستقدام بعض القياديين من بلدان قلب العالم الإسلامي. لكن سياسة **المنگ** أغلقت تلك السبل، أو على الأقلّ لم تشجع على بعث الروح لمعالجة النقص، وذلك عندما أغلقت طرق التجارة البحرية فأغلقت بذلك أبواب الاتصال بالعالم الإسلامي.

رغم أن المسلمين قد عاشوا في الصين منذ أيام **التانگ** وأن الكثير منهم أصبحوا مفكرين مرموقين في الثقافة الصينية، إلا أنه لا أحد منهم قد كتب نصا إسلاميا واحداً بلغته الأمّ، الصينية. قد يبدو هذا الأمر مريبا وغريبا في نفس الوقت أنه بعد ثمانية أو تسعة قرون من وجودهم هناك لم يُكتب نصّ واحد على الإطلاق! نحن نعلم أن الفارسية والعربية قد بقيتا دون استثناء اللغتين الفاعلتين في الدين الإسلامي. ولذلك فإن القيام بكتابة نصّ بلغة اخرى كان يتطلب شجاعة شخصية وروحا خلاقة للقيام بتلك المهمة. وخلال الفترة الوسطى من حكم **المنگ** حتى نهايته كان القلق حول امكانية استمرار الإسلام كدين في الصين قد بلغ أوجه، وخلق للنخبة منهم الظروف المواتية لسبغ غور تلك المهمة على أن يكون من يقوم بها قد وصل إلى قدر من الكفاءة اللغوية في كلتي اللغتين ليكون بمقدوره ترجمة النصوص والأفكار والحكم. إلا أن ذلك لم يكن متوفرا في المدن الشرقية في مقاطعة **يوننان**.

ونتيجة لتأثرهم بالحركات الجديدة في آسيا الوسطى، أصبح المسلمون في **گانسو** على الحدود الثقافية في شمال غرب الصين صوفيين، وانضموا إلى طرائق المذهب الباطني بمختلف مسمياتها وأسسوا **مينخوان**. أما في وسط البلاد فتبنى مسلمو **شانشي** ما سُمي **جينگتانگ جياوو** للتأكد من أن اللغات المقدسة ستحافظ على بقائها للأجيال القادمة. لكن المسلمين في **سوجو** في مقاطعة **جيانگسو** وكذلك في بكين وخاصة في **نانجنگ**، ألفوا ضربا جديدا من النصوص سموها كتب **الخان**. تعكس تلك الكتب حقيقة أن من ساهم في اعدادها مثقفون نصف أسمائهم

عربية ونصفها الآخر صينية.(٣٨) وهي لم تكن متشابهة لأنها عكست ظروف مؤلفيها وقناعاتهم الدينية وأولوياتهم الثقافية.

وفي مدينة **جيانگنينگ** اجتاز **واو سونتشي** الإمتحان الرسمي بمستوى xiucai لكنه توقف عن البحث للعمل في منصب حكومي، وانصرف إلى دراسة المناهج الإسلامية خلال فترة تغير الحكم من **المنگ** إلى **التشينگ**. وبعد أن أحرز مستوى متقدما أصبح معلما لتدريس الإسلام في **سوجو** وترجم كتاب **مرصد العباد**، الذي أخذ من وقته خمس سنوات رغم مساعدة اخيه الجادة. ويقال إن الأخ ربما كان ذا كفاءة لغوية أعلى في العربية والصينية. **المرصد** كتاب ألفه أبو بكر عبد الله في القرن الثالث عشر. يتابع الكتاب رحلة الروح من منبعها الأصلي ثم الحياة الحاضرة التي تقود إلى العالم التالي.(٣٩) ونظرا لتضلعه في أفكار **الصوفية**، أصبح كتاب **أبي بكر** مرشدا للسلوك والمعتقدات الإسلامية، وفيه أقسام عن معجزة الخلق والواجبات الأساسية والخير والشر وطرق تطوير شخصية الفرد في مختلف طبقات المجتمع. لقد وصل الصوفيون الصينيون إلى شمال غرب البلاد وهم يحملون بأيديهم **الطريقة** كأداة للمؤسسات الدينية والاجتماعية، وأن صفاتهم الشخصية المتميزة في القيادة سهلت عليهم قيادة الجماهير. غير أن **الصوفية** وصلت إلى شرق الصين عن طريق انتشار الكتب والنصوص الفلسفية التي لا تختلف كثيرا عن الكتب الإسلامية الأخرى. لكنها بالتأكيد مختلفة جدا عن الكتب التي تتناول القضايا الاجتماعية والسياسية.

وبناء على ما جاء في إحدى مذكرات **واو سونتشي**، فإن كتابه لم يكن يهدف إلى إحداث أي تغيير، مع أنه استعمل اسلوبا دقيقا في ترجمة الكتاب واقتصرت تعليقاته على نواحي قواعد اللغة والإعراب. وبعد أن أكمل **واو** ترجمة الكتاب، قام افراد عائلته بإضافة تعليقاتهم كمقدمة لكل فصل منه لغرض تبسيط قراءته. ونظرا لأن **واو** كان قلقا من سوء استخدام الكتاب، فقد وضع منعا على طبعه. فبقي الكتاب على شكل مخطوطة حتى نهاية القرن التاسع عشر.(٤٠)

في نفس الوقت الذي كان فيه **واو** يترجم كتاب **أبي بكر**، كان شخص آخر، وربما في فترة مبكرة، اسمه **جانگ جونگ** (يسمى أحيانا **جانگ شيجونگ**) يعدّ كتابين مهمين عن الفلسفة الإسلامية. إنصب أكثر عمله الذي عنونه Guzhen zongyi على الحوار بينه وبين مفكر صوفي هندي الأصل اسمه بالصينية **آشيج**. التقى الإثنان عام ١٦٣٨ وقام **جانگ** بمصاحبة معلمه هذا أثناء تجول الأخير في شرق الصين. ومن خلال حواراته مع **آشيج** وتعليقاته هو، ركز **جانگ** على مصاعب الإيمان والطاعة لله باعتبارهما جوهر الإسلام. "الشيء الأساسي في الإسلام هو الاعتراف بالله، والإيمان هو مفتاح هذا الاعتراف."(٤١) وجدنا في كتاب **جانگ** التعبير الأولي الذي أصبح فيما بعد المبدأ الأساسي لدى مسلمي الصين. لكي نعرف الله يجب أن نعرف أنفسنا أولا. وهذا المبدأ يتناسب تماما مع عقيدة الإسلام ،خاصة مع مبدأي **الخفية** والتأمل عند **الصوفية**، وكذلك مع العقائد الصينية مثل تطوير النفس وتهذيب الجوهر. وجدت هذه الأفكار النفسية والدينية التي تدعو لضبط النفس استجابة واسعة بين مفكري الصين من المسلمين، وغيرهم من المؤمنين بالعقيدة على مرّ القرون.

بعد أن غادر **آشيغ** الصين عائدا إلى بلاده، سافر **جانگ جونگ إلى** مدينة **يانگجو**، وهناك التقى بصورة منتظمة مع ثلاثة من مريديه الذين كانوا يستوضحونه حول العديد من القضايا الدينية. وقاموا كمجموعة بدراسة نص تُرجم إلى الصينية بعنوان Lusuli الذي سماه لسلي "فصل الشهر."(٤٢) ساعد **جونگ** مساعديه في ترجمة الكتاب والتعليق عليه. وبعد عودة معلمهم إلى **سوجو**، جمع الثلاثة الترجمة والتعليقات في كتاب سموه **سيبيان يوداو**، وقسموه إلى أربعة أجزاء هي: الإيمان والله والإسلام وأحكام الصلاة، و"السلوك السوي" الذي يشمل الوضوء وغيره من الوصايا المحددة. رغم أن **جانگ جونگ** لم يلتزم بالترجمة الحرفية كما فعل **واو سنتشي**، فإنه أخذ النصوص العربية وتعاليم **آشيغ** وجعلها محور كتاباته مضيفا اليها افكاره الخاصة وتعليقاته بدلا من اتباع الطرق الصينية في التأليف.

ظهر مسلم آخر اسمه **وانگ دايو** (١٥٧٠ - ١٦٥٠) في مدينة **نانجنگ** ونشر عام ١٦٤٢ كتابا بعنوان (التفسير الحقيقي للتعاليم الإسلامية التقليدية)، الأمر الذي جعله

في طليعة الأعمال في هذا الميدان، رغم أن المؤلف لم يكن رائدا لشرح الإسلام وتبريره في الصين، ولا في ترجمة النصوص العربية ولا الفارسية. نجد في مقدمة كتاب وانگ بيانا عن سبب حاجة المسلمين لهذا النوع من الكتب. تعطي تبريراته الشخصية فكرة عن دوافعه وصورة محددة لقراءه. كتب يقول:

جاء أجدادي من الجزيرة العربية ليجمعوا الزكاة من المسلمين تحت حكم **منگ تايتسو**. *كانوا على معرفة بمبادئ علم الفلك واستطاعوا أن يصححوا اخطاء التقويم السنوي للبلاد. وفي مسحهم للسموات السبع العليا وسبر غور الأعماق التسع، استطاعوا مراجعة ما تم انجازه دون الوقوع بأي خطأ يستحق الذكر. لقد أدخلوا الفرحة على قلب الإمبراطور الذي اقتنع تماما بقدراتهم ومواهبهم والتي لولاها لما أمكن انجاز ما تم انجازه. ولذلك عينهم في مجلس الفلك واعطاهم الحق للسكن هنا في (*__نانجنگ__*). أعفاهم من أعمال السخرة وأرسى أسس تحالفهم مع الصين إلى الأبد. ولكن خلال السنوات الثلاثمائة الأخيرة كانت الفرصة شاخصة أمامنا لنتكيف لهذا البلد ونتعود عليه، لكننا لم نجرأ على نسيان أصولنا.*

لم أدرس في شبابي تعاليم كونفوشيوس. وعندما بدأت البحث عن عمل ورغم أني كنت حاصلا على التعليم الإبتدائي إلا أن ذلك لم يعطني أكثر من فرصة عمل مؤقت ككاتب. وعندما نضجت شعرت بالعار من انجازي البسيط، فبدأت في اكتشاف الطبيعة من حولي واطلعت على مختلف التقارير السنوية ومبادئها، إضافة إلى دراسة مختلف الفلسفات. وعندما توصلت إلى بعض القناعات بدأت أدرك أن أسسها منحرفة وطرقها مغلوطة وتتعارض مع نفسها. وجدت أن الفرق بينها وبين الإسلام كالفرق بين الليل النهار. ورغم أنني لم أكن راغبا في التفكير، تمنيت التخلي عن مهمة الكتابة ذات القيمة وتركها للأجيال القادمة لكي توضح القضايا وتصل إلى استنتاجات صائبة. غير أني التقيت بعدد من المفكرين من مختلف الإتجاهات وبدأت معهم حوارا جادا. لم يكونوا قادرين على الوقوف أمام الحجج التي سقتها لهم وشعرت دائما أنهم على باطل. وحتى البارزين منهم اعترفوا لي بمحض ارادتهم أنهم آسفون لعدم وجود دليل متكامل لكل التعاليم الإسلامية.

ولذلك كلما التقيت بعدد منهم كنت أدون ملاحظاتي عما يقولون، وأرتب تلك الملاحظات بشكل منتظم عندما ارجع إلى البيت. توفر لدي الكثير منها ولذلك بدأت بعزل بعضها وتصنيف ما تبقى فانتهيت بكتاب فيه اربعون قسما. إن المبادئ والطريقة التي ناقشتها تعتمد كليا على القرآن الكريم مع اشارة لبعض التعليقات، ولم أجرأ على التعبير عن مشاعري الخاصة لأضيف أو أختزل أو أصنف بين ما قاله العلماء المختلفون.(٤٤)

حافظ **وانگ** على الحقائق الأساسية وعلى تفوق الإسلام. ورغم أنه بالتأكيد لم يهدف إلى التملق لكونفوشيوس، فإنه كتب بحثه بشكل واع مستخدما كلمات كونفوشية. أما المفاهيم التي طرحها **السونگ والمنگ**، المعروفان بأنهما من أتباع الكونفوشية الجديدة والمرتبطين بالأخوين **تشينگ وجو تشي**، فقد كانت قد أقرت من قبل الدولة. وهي التي كانت متوفرة له خارج المصادر العربية والفارسية التي اعتمدت على حقائق الإسلام. وهو لم يقدر على الكتابة عن الإسلام باستخدام ألفاظ ترتبط بالبوذية أو الداوية- معاذ الله! إن معنى ذلك يعني فشل مشروعه. وكما ذكر في مقدمة كتابه أنه يهدف إلى توضيح الإسلام للمسلمين باللغة الصينية (لأننا ما زلنا لا نجرأ على نسيان أصولنا). كما أنه كان يريد عرض الصفات الأخلاقية للإسلام أمام غير المسلمين الذين ينظرون إلى المفاهيم الكونفوشية الجديدة كإطار يمثل الطريق الوحيد لأخلاقية الرأي وحتى منطقيته (عبر الجميع عن اسفهم لعدم وجود دليل متكامل للتعاليم السديدة الصالحة).

يشتمل كتاب **وانگ** على عشرين مقالا مقتضبا عن الفلسفة والدين وعشرين اخرى عن الطقوس والقوانين. وبدلا من ترجمة نصّ أو جمع نصوص من العربية والفارسية، نظم **وانگ** أفكاره حسب التقسيمات الإسلامية القديمة، وكذلك وفق المعاني الصينية التي اقترحها عليه المشاركون في حلقات النقاش مع غير المسلمين. والفصول الأولى من كتابه حول توحيد الله ومعجزة الخلق لم تشتمل على اقتباسات من القرآن فقط، بل شملت أيضا نصوصا صينية من ضمنها نصوص كتبها **لاو تسي** ليثبت أن التوحيد الذي طرحه الإسلام يدافع عن التقاليد الصينية - بل في الحقيقة

يحسنها ويجعلها أكثر اكتمالا. وهو حين يرجع بالحديث عن **الكتب الأربعة**(٤٥) يقول "إذا كان الشخص لا يعي فكرة توحيد الله، فإن إيمانه ليس عميقا. وعندما يكون الإيمان غير عميق فإن **الطريقة** لن تكون ثابتة. وعندما لا تكون **الطريقة** ثابتة فإن العقيدة لا تكون عميقة - فبدون وجود التوحيد وعمق الأساس، لا يمكن **للطريقة** أن تدوم أو تصمد.(٤٦)

في الفصول عن الشعائر والتطبيق، غالبا ما يبرر **وانگ** بطريقة أقرب للمغامرة إلى أن الحياة الدينية الإسلامية لا تناقض الفلسفة الكونفوشية، ولا حتى الديانة الصينية الشعبية. ويبدو أن آراءه تكاد تكون مأخوذة من نصوص محادثات أجراها مع مناقشيه من غير المسلمين. فمثلا القسم، الذي تحدث فيه عن الضرب في الرمل بغية التكهن وكشف الغيب، كان استجابة لنقد بأن الإسلام يتجاهل المشاعر حين يدفن الموتى بدون تابوت.

يقولون "إن التعاليم الإسلامية قاسية ومتطرفة. ففي مراسم الغسل والدفن لا تسمح هذه التعاليم باستخدام التابوت لوضع الجثمان فيه قبل دفنه. وهذا لا ينسجم مع المشاعر الإنسانية." وجوابي على ذلك إن عدم استخدام التابوت يعود إلى مبدأين: أولهما الطبيعة والآخر هو الطهارة. أنا أقصد أن اصل الإنسان هو تربة الأرض والعودة إلى الأصل يعني العودة إلى الأرض، ونحن نسمي ذلك الطبيعة. أما الطهارة، فنعني أنه عندما يُلحد الجثمان بلحمه ودمه في الأرض مباشرة، فإنه سرعان ما يتحلل ويتحول إلى أحد مكونات التربة ذاتها. أليس ذلك هو الطهارة؟ ليس للميت معرفة بالعالم من حوله حتى وإن كان داخل تابوت مزين بالذهب! ثم إن هذا التابوت البائس لن ينفعه في شيء.(٤٧)

يعرض **وانگ دايو** في كتابه آرائه التي يدافع عنها بحماس ويدعو المتضلعين في كلّ من النصوص الصينية والإسلامية إلى تأييدها. وهو يحثُ بقوة الجهات الإسلامية خاصة لاستخدام لغة مصاغة وفق الناموس الأخلاقي للنخبة الصينية، والتي تختلف بشكل قاطع مع لغة علماء الفقه المسلمين والمشرّعين والمنطقيين. في قسم آخر يناقش أن الفروض الإسلامية الخمسة تتشابه مع الخصال الحميدة

الخمسة للكونفوشية ويسميّها **ووتشانگ** أي **الثوابت الخمس**. قام **وانگ** بأخذ كل واحدة من الخصال الكونفوشية كي يقارن الفروض الخمسة (الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج) ويصفها ويشرحها بلغة صينية واضحة لا لبس فيها ولا تعقيد.(٤٨)

تمت اعادة طبع كتب **وانگ** عدة مرات وبقيت قيد التداول بين المسلمين الصينيين، لكنها لم تحقق أي تأثير على المفكرين الغير مسلمين. إن أصول الإسلام في أرض بعيدة، ونكرانه لبعض الحقائق الأساسية الظاهرة في الديانة الصينية القديمة، وأكثر من ذلك الإفتراض بأن الجزيرة العربية هي مركز الإشعاع الحضاري، قد حالت دون أن يأخذه المثقفون الصينيون على محمل الجدّ. والحقيقة هي أن **وانگ دايَو** لم يدّعي قطعا أن الجزيرة العربية كانت مهبط الوحي أو مصدر الإشعاع الحضاري! وكغيره من الكتاب المسلمين الصينيين، أشار إلى الأشياء المرتقبة حول بروز حكيم في الشرق (كونفوشيوس) وآخر في الغرب (النبي محمد). لكن التزام النخبة الأدبية من غير المسلمين باعتبار الصين المركز الحضاري للبشرية قد حال دون قبولهم بوجود حقائق كافية وموازية أو مساوية لتلك الحضارة، دعك من التي تدّعي السموّ عليها! ولكن ضمن العالم الثقافي للمسلمين الصينيين، إحتل **وانگ** موقعا مركزيا كمبدع لعدد من المؤلفات الإسلامية الصينية.

ورغم أن مؤلفات **وو سونتشي** و**جانگ جونگ** و**وانگ دايَو** أصبحت جزءاً من **كتب الخان**، فإن تلك المؤلفات كانت لها أغراض وطرق مختلفة في تقديم فحوى القضايا الإسلامية لقراء الصينية. **وو سونتشي** مثلا، رغب في تقديم كتاب من الشرق الأوسط يدور حول الفلسفة **الصوفية** بثوب صيني قريب جدا من النسخة الأصلية، مع إضافة القليل من التعليقات والشروح. أما **جانگ جونگ** فقد وضع نفسه من خلال مناقشاته مع معلمه وأبدع في خلق كتاب عام عن المعرفة الإسلامية كأساس لكتابة شروحاته حول أفكار الإسلام وتطبيقاته. وإذا انتقلنا إلى **وانگ دايَو** لوجدنا أنه أكثرهم ابداعا واستخدم طريقة الفلسفة الكونفوشية الجديدة لغرض نقد

بعض مفاهيمها الجوهرية وليبرر مكانة الإسلام في كتاباته. لقد أدى كل من هؤلاء الثلاثة دوره ضمن العالم الإسلامي الذي لم تعد فيه معرفة العربية والفارسية كافية للتربية الإسلامية، ونبهوا المسلمين إلى أن عالم الصين يتطلب منهم المشاركة في حوار أخلاقي عالمي، وليس كأجانب ينقصهم ناموس الأخلاق. استجاب أحفادهم إلى هذين الضغطين المزدوجين، فنجم عن ذلك أدب غزير لمسلمي الصين.

الانتعاش الثقافي لمسلمي الصين: ما جو ولو جي

وُلد **ما جو** عام ١٦٤٠ في مقاطعة **باوشان** التابعة لولاية **يوننان** ودرس في طفولته منهج كونفوشيوس. كان ابوه عالما كلاسيكيا توفي عندما كان **ما** طفلا في السابعة. شجعته أمّه أن يسلك الطريق للنجاح في الإمتحان. وبعد أن اجتاز **ما** امتحان **شيوتساي** xiucai وهو في سن السابعة عشرة، حصل على وظيفة في عهد آخر سلالة **المنگ**، الإمبراطور **يونگلي** الذي حكم للفترة ما بين (١٦٤٤ – ١٦٦٢). كان نفوذ الإمبراطور قد انحسر تدريجياً باتجاه جنوب غرب البلاد نحو **يوننان** بفعل تقدم قوات **التشينگ** الغازية.(٤٩) استطاع **ما جو** أن ينجح في الوقوف بوجه العاصفة التي أثارها اجتياح **التشينگ**. وبحلول عام ١٦٥٩ تمكن من طبع كتابه الأول وحصل على وظيفة معلم، وأصبحت مقالاته معروفة في كل أرجاء المحافظة عام ١٦٦٥.(٥٠) ولكن حاله حال **واو سانجي**، الضابط في جيش **التشينگ**، بدأ **ما جو** مناورات سياسية وضعته في موقف تصادم مع البلاط المنشوري، فقرر الانتقال إلى بكين عام ١٦٦٩.

في خضم الحركة الداعية إلى بعث النشاط في صفوف المسلمين في بداية حكم **التشينگ**، انصرف **ما جو** إلى الدراسات الإسلامية وأمضى حقبة من عمره في دراسة اللغات والنصوص الدينية. وحين تعمق في جهوده تلك أدرك أنه من النافع لإمبراطورية **التشينگ** أن تعترف بالإسلام رسميا. أثار في تلك الفترة أنه سليل السيد **جلال أجل شمس الدين** وأنه جده (الخامس عشر)، وبذلك يكون النبي محمد هو جده (الخامس والأربعون). استعان **ما جو** ببعض معارفه من المسؤولين للطلب من

الإمبراطور **كانجي** الذي حكم للفترة ما بين (١٦٦١ -١٧٢٢) أن يعترف بأنه سيد. ورغم أن تلك المحاولة قد فشلت، فإنه استطاع أن يقنع المسلمين أنه من الأهمية بمكان أن تعترف دولة **التشينگ** بمكانة الإسلام في الصين ومنزلته بين مسلميها.

ولكي يدفع بطموحاته في هذا الإتجاه، أمضى **ما جو** معظم وقته في بكين لجمع خلاصة أبحاثه في دليل شامل عن أفكار الإسلام وتطبيقاته وسماه **بوصلة الإسلام**، الذي أصبح واحدا من **كتب الخان** المهمة. وبعد ذلك، أي في عام ١٦٨٤ انطلق **ما جو** في رحلة طويلة وهو يحمل مخطوطة كتابه هذا واصطحب معه زوجته وولديه. غطت تلك الرحلة زيارة أهم التجمعات الإسلامية الصينية في مختلف أرجاء البلاد باستثناء **گانسو**. استغرقت الرحلة أربع سنوات زار فيها **نانجنگ** والمراكز الإسلامية في وسط آسيا والمدن الرئيسية في وادي **يانگزي** و**شانشي** وأخيرا **سيتشوان** على الطريق الطويل إلى بيته في **يوننان**. وأينما توقف، اجتمع مع **أخونگ** الأئمة المعروفين والعلماء المحليين ليطلعهم على مخطوطة كتابه طالبا منهم أن يعلقوا عليها أو يكتبوا مقدمة لها أو يكتبوا مقالات عنها، فاستجابوا لذلك فجمع منهم عددا كبيرا منها. وعندما قفل راجعا إلى بيته قام بمراجعة مخطوطته وأضاف اليها ما اختاره من الإقتراحات والنقد والتعليقات. استغرقت هذه العملية خمسة عشر حولا أو أكثر. تمّ استنساخ المخطوطة ووُزع عدد منها في المناطق التي زارها قبل نشر الكتاب، واستُكملت النسخة النهائية عام ١٧١٠. يقع الكتاب في ثمانية أجزاء ويحتوي على أقسام حول الإسلام التقليدي ويعالج المواضيع والمشاكل التي يواجهها مجتمع مسلمي الصين بطريقة عملية وواقعية تختلف عمّا قام به **واو دايّو** في كتابه Zhengjiao zhenquan **جنغجياو جنتشن** . كما شمل الكتاب جزئين مكتوبين بلغة منطقة يوننان ويشملان عددا من الأسئلة والإجابة عنها، تماما كما فعل **واو**. دوّن **ما جو** حملته الناجحة ضد بعض التعاليم **الصوفية** التي سماها "هرطقة" وكانت تُدرس وتُمارس في تلك المنطقة. قال عنها إنها دخيلة على الصين جاءت عن طريق الهند. والجزء الأخير من الكتاب عنونه (إدانة عامة لطرائق منحرفة) أفصح فيه عن معارضته **للقلندرية**، وهي حركة **صوفية** نجحت في

اقناع بعض المسلمين وكسبهم إلى صفوفها. قال **ما جو** إن مبادئهم وسلوكهم مقيتان يخالفان الشريعة الإسلامية ونواميس الأخلاق عند كونفوشيوس، ونصح ،في الحقيقة نجح في اقناع السلطة، بملاحقة هؤلاء ومعاقبتهم رسميا.

حصل **ما جو** على ثقافة صينية كلاسيكية وعلى معرفة في الفلسفة الإسلامية ودافع للحصول على اعتراف الدولة. وهذه امور وثّقت عرى التآلف والتكاتف بينه وبين المجتمعات الإسلامية عن طريق السفر اليها والاتصال بها. قامت مهمته التي شملت اقامته الطويلة في بكين وسنوات إعداد كتابه المشار إليه في أعلاه بدافع الرغبة لكي يكون قائدا إسلاميا معروفا على امتداد امبراطورية **التشينگ** ويحصل على اعتراف الدولة به **كسيد**. وبهذه الطريقة وضع نفسه بمنزلة سليلي كونفوشيوس! لم تُجدِه تلك المحاولة نفعا، لكن ذلك لم ينتقص من جهوده في تأليف كتاب شامل وشائع غطّى مجالات عدة وكشف عن اتجاهات متباينة داخل مجتمع مسلمي الصين.

ربما يكون **ليو جي** أكثر الكتّاب المسلمين شهرة (له إسمان آخران أيضا). أمضى كل حياته في الممر الضيق بين جنوب وادي **يانگزي** وبكين.(٥٢) أصله من مدينة **نانجنگ** مثل **وانگ دايو**، وينتمي إلى أسرة ثقافتها خليط من الإسلام والكلاسيكية الصينية. قابل والده **ما جو** وكتب قصيدة أضافها **ما** إلى كتابه. لكن الوالد لم يكن يرغب في إضافة مداخلاته إلى المناقشات الجارية في الصين حول الفلسفة الإسلامية، بخلاف الابن الذي أحرز ثقافة تفوق ثقافة والده بشوط كبير. بدأ **ليو** تعليمه بدراسة كونفوشيوس لثماني سنوات ثم ركّز على العربية والفارسية واخذه ذلك ست سنوات. أمضى السنوات الأربع التالية في دراسة البوذية والداوية والكتابات "الغربية" التي عنت أحيانا الكاثوليكية الرومانية والمؤلفات العلمية للكاتب ماثيو ريتشي واتباعه، التي ربما كانت موجودة في مكتبة خاصة في بكين. ويُقال إنه درس الجغرافية والفلك وعلم النفس وغيرها من المواضيع التي تعني المسلمين في الصين على مدى قرون عديدة.(٥٣) ونظرا لكفاءته العالية في اللغات والأدب، انطلق **ليو جي** لتأكيد الفكر الإسلامي وتركيزه في الصين، وذلك عن

طريق الكتابة عن تاريخه وتوضيح مبادئه واعتبار حقائقه وأسسه مساوية للكونفوشية، التي كانت تغلب على الحوارات الفلسفية الجارية في أيامه آنذاك.

حقق **ليو جي** شهرة واسعة بعد أن ألف عددا من الكتب ما زال عشرة منها على الأقل قيد التداول، وضمنت له هذه المؤلفات مكانة بين دوائر الصفوة في تلك الفترة من حياته. أهديت بعض كتبه للبلاط، وهي الكتب التي احتوت على مقدمات كتبها بعض المسؤولين من غير المسلمين كان أحدهم بمنصب وكيل وزارة. غير أن مثل هذا التزلف لم يزد مبيعات تلك الكتب ولم يوسع دائرة انتشارها. وعن طريق التمييز الواضح بين الإسلام والبوذية والداوية ونشر هذا التمييز في ظل رقابة الدولة، فإن كتبه وضعت الإسلام في موقع متساو مع عقيدة الحركة الثقافية **للتشينگ**، وهو الأمر الذي جعل مراقبي الدولة المتشددين على حذر من تسلل أية مبادئ دينية متمردة.

*عندما ناقش نائب وزير رئاسة مجلس الحرب موضوع الإسلام مع **ليو جي** توصل إلى قناعة بأن الإسلام يلتزم بمبادئ الكونفوشية، فيما يتعلق بالولاء والسيادة واحترام الأبناء لوالديهم والحب الأخوي ... الخ. وأضاف أنه 'يمنع الحديث عن الدين الإسلامي كحركة هرطقة وكمذهب خبيث.*(٥٤)

ساعدت كلمات وكيل الوزارة التي كُتبت عام ١٧١٠ على حماية المسلمين كجماعة والإسلام كدين من الاضطهاد للسنوات السبعين القادمة، خاصة عندما لجأ بعض المسلمين – الصوفيون في شمال غرب البلاد – إلى العنف ضد دولة **التشينگ**.

تُرجمت النصوص الأساسية لأعمال **ليو** المعروفة التي شملت سيرة النبي من الفارسية، وأضاف اليها مجموعة واسعة من الإقتباسات والأساطير والدراسات المنهجية التي لها علاقة بدراسة الإسلام في الصين. حافظت هذه الأعمال على بعض المصادر الأولية بشكل يجعلها شيئا أقرب إلى موسوعة لمسلمي الصين في متناول الجميع. ثمّ التفت ليو إلى مدارس المسلمين فكتب كتابا أوليا للأطفال عن اللغة العربية وبحثا عن الفرائض الخمسة في الإسلام.(٥٥) كما ألف كتابين آخرين

عن الإسلام. عنوان الأول **تيانفانگ شنگلي** وهو كتاب يمزج النظام الفلسفي والديني الإسلامي بالأفكار الكونفوشية، في حين قدّم الكتاب الثاني المعنون **تيانفانگ ديانلي** الشعائر الإسلامية وغيرها من السلوكيات الدينية والدنيوية باعتبارها متشابهة مع المبادئ السامية في المجتمع الصيني.(٥٦)

أصبح كتاب **ليو جي** الثاني **تيانفانگ ديانلي** من أشهر كتبه لأنه الكتاب الإسلامي الوحيد الذي تمت اضافته إلى **سيكو تسوانشو**، وهو المشروع الأدبي العظيم الذي أمر الإمبراطور **كيانلونگ** بجمعه ليضمّ أهم الأعمال. ورغم ذلك فإن الذين جمعوا تلك الأعمال قد كتبوا تعليقات سلبية عن كتاب **ليو جي** إذ قالوا "إن اسلوب الكتاب يتميز بالروعة .... ولكن إذا كان أساس البداية خطأ، فإن الكلمات الجميلة لا تعني شيئا." ومع هذا، فإن شمول الكتاب ضمن مشروع الإمبراطور قد أعطاه موقعا متميزا ليضاف إلى **كتب الخان**.(٥٧)

أسهم كتاب **تيانفانگ ديانلي** في فهمنا لحركة الإسلام في الصين لأنه أعطانا تحليلا متناسقا رائعا للعلاقة بين الإسلام والكونفوشية. يقول **ليو** في مقدمة كتابه "إن أساليب **الخوي** (الإسلام) ورو (الكونفوشية) تأتي من نفس المنبع، وإن مبادئ كل منهما تتشابه مع الآخر."(٥٨) ولأنه يعرف جيدا تأكيد الكونفوشية على الناموس الأخلاقي ويعرف أن نصوصه الإسلامية تركز بشكل شديد على اللاهوت والعلاقة بين الإنسان والخالق، فإن **ليو** قسّم **الداوية** إلى قسمين وادعى أن الإسلام قد وضّح **تياندو** (الطريق إلى الجنة) في حين أن **راندو** (طريق الإنسانية) يمكن أن يوجد في كتب الكونفوشية وممارسات اتباعها. ومثله مثل **وانگ دايو**، قال **ليو جي** إن فروض الإسلام الخمسة موازية للمبادئ الصينية الخمسة، لكنه تحاشى **الأشياء الخمسة الثابتة** واختار **العلاقات الخمسة** (Wugang) التي تشكل أساس المبادئ الأخلاقية للكونفوشية. وعن طريق خلق هذا التوازي الأخلاقي، وضع **ليو جي** الإسلام والكونفوشية على قدم المساواة، إذ قال، "إن الكتاب المقدس ... هو الكتاب المقدس لدى المسلمين، لكن مبدأ Li هو نفس المبدأ الذي يوجد في كل مكان تحت الشمس."(٥٩)

تنتقل الفصول الغنية لكتاب **تيانفانگ ديانلي** من النظري إلى الفلكي ثم إلى الواقعي، وذلك في الأقسام حول التعاليم الأصلية إلى حقيقة **الفروض الخمسة والعلاقات الخمسة** وصلاة الجمعة ودورة الحياة. غالبا ما انتقِد الكتاب من قبل علماء المسلمين وغير المسلمين واعتبروه متأثرا جدا بالكونفوشية وشديد الاسترضاء لهيمنة الفلسفة الصينية. وفي الحقيقة أن ليو نحا منحى وسطا بين الدفاع المستميت عن الإسلام الفريد في طبيعته، وكتابات بعض العلماء المُتشبعين بالثقافة الصينية من العائلات التي كانت مسلمة في السابق، والتي لا يمكن تمييزها عن كتابات غير المسلمين.

وبطبيعة الحال، استمر العديد من **أخونگ** في اعتقادهم بأن دراسة العربية والفارسية واتقانهما هما الوسيلتان المناسبتان للثقافة الإسلامية. غير أن **ليو جي** وأسلافه كانوا تركوا أثرهم على النخبة من مسلمين الصين. لقد هيأت أعمالهم لبعث الروح وايقاد جذوة الوعي بين المسلمين هناك، عن إسلام يتعايش مع المنهج الكونفوشي ونظام الإمتحانات من جهة، وكذلك كأداة للدعاية تهدف إلى تثقيف غير المسلمين عن مبادئ الإسلام الأخلاقية العالية. كان يمكن أن يكون "استخدام الكونفوشية لغرض نشر الإسلام"، أسلوبا فعّالا لو تواجدت أعداد كافية من المسلمين ممن لهم قدر من الكفاءة في اللغات المقدسة، وأيضا معرفة كافية في اللغة الصينية لفهم النصوص الفلسفية والطقوس. وبالرغم من احتقار المثقفين المسلمين التقليديين، الذين قالوا إن هؤلاء أعداء للدين والعادات، فإن مؤلفي **كتب الخان**، قد دفعوا إلى المقدمة عناصر ايمانهم التي جعلوها متجاوبة مع النظام السياسي والفلسفة الأخلاقية في الصين تحت حكم امبراطورية **التشينگ**.

وكلما أصبح نظام **التشينگ** أكثر استقرارا ازدادت سطوته في القرن الثامن عشر، الأمر الذي جعل مسلمي شرق الصين على قناعة بعدم شق عصا الطاعة عليه. وبدلا من ذلك طرحوا تبريرا عقلانيا فحواه أن المسلمين يمكن أن يعيشوا بسلام في الصين ويحافظوا على بقائهم كمسلمين، وفي نفس الوقت يساهمون كأقلية في الحياة الثقافية العامة. وهذه الاستراتيجية، التي تختلف بشكل صريح مع موقف

الصوفية، بدأت في المدن الشرقية (حتى **ما جو** الذي ينحدر من **يونان** قام ببحوثه ونشر كتاباته في بكين)، حيث يشكل غير المسلمين الغالبية العظمى.

وهذا يختلف اختلافا واضحا عمّا كان عليه الحال في شمال غرب البلاد. كان **أخونگ** يتمتعون بقوة النفوذ لكن الحياة الثقافية لم تكن متوفرة للجميع، وكذا الوضع بالنسبة للكتب. كان القليل من الرجال قادرين على اجتياز نظام الإمتحانات، والقليل جدا من المسلمين كانوا قادرين على قراءة الصينية. وفي **گانسو** توجد اعداد كبيرة من تجمعات المسلمين كانت تنتشر بينها مشاعر الإختلاف الثقافي عن **الآخرين**، وتعيش في جو مشحون بروح التمرد وتتوقد فيه جذوة الخصام، وتحركه مجموعات **صوفية** تسعى لخلق التضامن والولاء **للشيخ** ورغبة عارمة للدفاع عن النفس. أما الشرارة التي أشعلت في المنطقة عنفا استمر لفترة طويلة، فقد تمثلت بوصول جماعة **صوفية** اخرى تُسمى **الجهرية** بقيادة حاج عاد من اليمن اسمه **ما منگشين**.

إحياء الحركة النقشبندية في الصين

بتاريخ ٢٥ يوليو عام ١٩٤٦ كتب الكاهن ف.م. تايلر إلى عضو بعثته التبشيرية كلود ل. بيكنز، الإبن ليوضح أمرا يتعلق بـ"قضية التعاقب" عند صوفيّي **الجهرية**، الذين يسمون أنفسهم "دراويش"، وهي كنية تركية أطلِقت على الصوفيين. عمل تايلر بين مسلمي شمال غرب الصين وناقش بدون جدوى فضائل المسيحية ضد العناد في الخنوع لديانات السلف. بعث تايلر في وقت مبكر نسخة من "سلسلة" شيوخ الطريقة إلى صاموئيل زونمر، والد زوجته، والذي كان عميدا للدراسات الإسلامية في جمعية التبشير الأمريكية. غير أن السلسلة كان فيها بعض الأخطاء. وفي شيء يختلف تماما عمّا يتعلق بوثيقة كهذه من الصين، غطت السلسلة أجيالا تسبق وصول الحركة إلى الصين. وتشكل بهذا نقطة البداية في جهد جوزف فلتشر للتعرف على أصول إحياء حركة **النقشبندية** في الصين.(٦١) تشمل الوثيقة التي كُتبت بالعربية على الأسماء التالية:

١. عويس القرني.

٢. جامع.

٣. الشيخ مهاردني.

٤. أبو زيدون (يزيد).

٥. جُنيد.

٦. تاجر.

٧. دهو انديني، وهو نقشبند المتوفى عام ٧٩١ هجري الموافق عام ١٣٨٩.

٨. زين.

٩. أبو ضحى هالك.

وبعد سنوات، في أواخر سبعينات القرن العشرين اكتشف فلتشر هوية الشخصين الأخيرين في القائمة، وهذا يوضح بدون شكّ ما ورد في سجلات فرع من **الجهرية** لا يعرفه أي شخص خارجها، وذلك هو أن **الجهرية** الصوفية في **كانسو** كانت في الحقيقة تنبع من **النقشبندية**، وأن مؤسسها مسلم صيني درس في اليمن وهو مرتبط برباط وثيق في حركة تجديد **الصوفية** في كل أنحاء العالم الإسلامي. إن البحوث التي اجريت في الصين منذ ذلك الوقت قد عمّقت تلك الصلة، وأن الوثيقة العربية التي تعود إلى الحركة **الجهرية** قد عززتها.(٦٢)

ما منگشين والجهرية: الصلة العربية

غيرت **الصوفية** شخصيتها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر على امتداد العالم الإسلامي. امتدت حركات التجديد من غرب افريقيا إلى الصين ودعت إلى تنقية الإسلام مما علق به من الأمور الثقافية نتيجة المفاسد الاجتماعية والاقتصادية والدينية التي يمكن أن تكون قد تمّت في صفوف الحركة **الصوفية**. وفي العديد من الأقطار الآسيوية كانت **النقشبندية** في طليعة هذه الحركة الجديدة. كرّس لها **أحمد سرهندي** (المجدد في الذكرى الألفية) حياته في القرن السابع عشر في الهند.(٦٣) وصلت حركة التجديد **الصوفية** إلى شمال غرب الصين في شخص **عزيز ما**

منگشين (١٧١٩ – ١٧٨١)، وهو **نقشبندي** من **گانسو** والذي حاله حال **ما لايتشير**، درس في مكة واليمن لعدة سنوات.(٦٤) تتلمذ معلموه على يد **ابراهيم بن حسن الكوراني**، وهو من أشهر المجددين الصوفيين في شبه الجزيرة العربية.

تتلمذت على يد **الكوراني** أجيال من المريدين، وهم مثقفون وزعماء دينيون انحدروا من سلالة قادة حركات اجتماعية – دينية قامت في سومطرة وجاوا وشمال الهند وأرض العرب والصين وفي غرب أفريقيا. وهذا دليل جدير بالملاحظة عن التواصل المفتوح بين صفوة الصوفيين خلال ذلك القرن على المستوى العالمي.

أظهر جوزف فلتشر كيف أن صوفيين من الصين هما **ما لايتشر** و**ما منگشين** قد حصلا على نموذجين مختلفين من معتقدات **الصوفية**، رغم أن كليهما قد حصلا على تعليمهما من نفس المدارس في الشرق الأوسط.(٦٥) وكما رأينا، فإن **ما لايتشر** عاد إلى الصين ودعا أتباع المشيخة **النقشبندية** إلى ممارسة الصلوات السرية. أما **ما منگشين** فقد تتلمذ بعد عقد أو عقدين من الزمن على يد جيل ثان من المعلمين اليمنيين الذين درسوه أن حلقات الذكر يجب أن تتغنى بصوت مسموع عند التسبيح لله. تتلمذ **ما منگشين** على يد **عبد الخالق بن الزين المزجاجي**، الذي ساهم في نقاشات فكرية في عالم أكثر انفتاحا على طرائق جديدة في احياء الذكر وقيل إنه درّس مريديه الصلوات **الخفية** والصلوات **الجهرية**.(٦٦)

من المؤكد أنّ موضوع الذكر لم يكن موضوعا مثيرا للنزاع بين اتباع **النقشبندية** في اليمن في مطلع القرن الثامن عشر. كان الإلتزام بالتجديد على المستوى السياسي والاجتماعي والديني هو ما فرّق بينهم بدرجة أكبر. ظهرمن تلامذة **الكوراني**، خاصة الجيل الثاني، أصوليون ممن صدموا العالم الإسلامي بتقييمهم السلبي لممارسات المسلمين في ذلك الوقت. فمثلا كان محمد حياة السندي هو أحد معلمي عبد الخالق وكان أيضا من مريدي محمد بن عبد الوهاب. أصبح الأخير أكثر أعداء **الصوفية** شهرة، وضد حركة التجديد في شبه الجزيرة العربية. كما أسس حركة لا تزال تتمتع بالنفوذ والقيادة في بلاده. وفي الحقيقة أن "**الوهابية**" أصبحت في رأي المفكرين الأوربيين نموذجا للفكر الرجعي المتطرف الذي لا

يقبل الرأي الآخر. ضمّت قائمة الناشطين المجددين الآخرين كلا من شاه ولي الله من دلهي ومحمد السمّان وعبد الرؤوف السنكلي من سومطرة. عاش هؤلاء في نفس الجو الذي عاشه **ما منگشين**. بالنسبة لهؤلاء وكذلك لأحمد سرهندي، كان الإصلاح السياسي والاجتماعي هما المحور المركزي **للنقشبندية**.(٦٧)

عاد **ما منگشين** إلى الصين عام ١٧٦١بعد أن تلقى تدريبه مع عصبة من المجددين من كل أنحاء العالم، وفي ذهنه أن يُنقّي الإسلام مما علق به. أسس أولا مدرسة للقرآن وانصرف إلى تنقية الإيمان مما لحق به بتأثير الثقافات المجاورة. وكغيره من شيوخ **النقشبندية**، آمن بتطبيق الشريعة الإسلامية واعتبرها محور حياة المسلمين. واعتمادا على مصادر **ما تونگ** الشفوية، فإن برنامج **ما منگشين** للإصلاح تضمن خليطا من المعتقدات **الصوفية** والسنية في الاعتراض على تكديس الثروة من قبل القادة الدينيين عن طريق التبرعات، والاعتراض على بناء المساجد البهية وتزيينها بطرق فخمة، والتأكيد على المشاعر بطريقة تختلف عن الإدراك الحسي، من ضمنها ضرب الطبول والرقص الإيقاعي، وأخيرا التأكيد على قيادة الجماعة عن طريق الجدارة وليس الوراثة.(٦٨) ورغم أنه **نقشبندي** مثل **ما لايتشر**، فإنه لم يمارس الذكر الصامت "إحياء الذكرى في القلب" وهو من صفات أغلب جماعات **النقشبندية**. وبدلا من ذلك تغنى هو ومريدوه بالله جهرا. ومن ذلك أخذت الجماعة اسمها **الجهرية**. وطبعا يصاحب ذلك تمايل الجسم ونشر الذراعين في حركات ايقاعية في حالة من الابتهاج الغامر.(٦٩)

اعترض **ما لايتشر** ومريدوه ومن خلفه على شعائر **الجهرية**، معتمدين على تقاليد **آفاقي** في وسط آسيا وخوفا على مصالحهم الذاتية المحلية. كما احتقروا بشكل عميق وجود سلطة دينية تنافسهم في شمال غرب البلاد. وفي أواخر الستينات من القرن الثامن عشر عندما كانت كل من **الجهرية والخفية** ناشطتين في منطقة **كانسو**، بدأ الصراع العميق الطويل الأجل في داخل المجتمعات الإسلامية في شمال غرب البلاد وهو الأمر الذي زاد في تعقيد الوضع الصعب في العلاقة بين المسلمين ودولة **التشينگ**.(٧٠)

عندما وصلت **الصوفية** إلى الصين أول مرة عارض المسلمون المحليون تلك الموجة الجديدة التي تقوم على التأمل وتنحو نحو طريقة سرية لا يمكن مقارنتها بدياناتهم الإسلامية التقليدية التي كانوا يسمونها **القديمو**. غير أن البعثات التبشيرية **الصوفية** من وسط آسيا والصين بقيادة شيوخ مثل **هداية الله** و**ما لايتشر** و**ما منگشين** و**الخوجه عبد الله** كانت لهم امتيازات رمزية شخصية قوية وأنهم جاءوا أو درسوا في قلب أرض الإسلام. درس أغلبهم في مكة وادعى اثنان منهما على الأقل بأنهما من سلالة النبي محمد، وهما الأمران اللذان ضمنا لهم مكانة خاصة بين المجتمعات الإسلامية في امبراطورية **التشينگ**. كانوا يجيدون العربية والفارسية اللتين لم يجيدهما رجال الدين **القديمو**، لأن ثقافتهم وتحصيلهم انحصرا على المدارس المحلية. إن تملك **الصوفية** لمصادر "نقية" من غرب آسيا، وإن قدرتهم على ترجمة تلك المصادر قد أضافتا إلى تأثيرهم على الذين تحولوا إلى الطرائق **الصوفية**. كما أن البعض منهم كان ميالا إلى الانتقال من مكان إلى آخر مما زاد في تحول الناس إلى طرائقهم عن طريق الاتصال المباشر أو الأصوات العالية "لزخرفة" هذا التيار الديني وانتقاله بين الناس كانتشار الإشاعات!

الصراع بين الطرائق الصوفية

حصل شيوخ الطريقة الذين يتمتعون بصفات شخصية متميزة (كاريزما) مثل **ما لايتشر** و**ما منگشين** على مكانة عالية عندما اعتنقت اعداد كبيرة من المسلمين أفكارهم ودانت لهم بالولاء. استخدم **ما لايتشر** جاذبيته الشخصية وقدراته الإبداعية في التنظيم داخل المجتمع الصوفي لتكديس ثروة هائلة عن طريق التبرعات والزكاة. لم تقتصر التبرعات على الأموال فقط بل تعدتها إلى العقارات والمزارع وحتى الحيوانات مما أدى إلى زيادة ثروته بشكل ملحوظ. لم تكن هذا الثروة، كما هو معروف، متوفرة لخدمة المساجد أو الطرائق الصوفية ذاتها. كانت بالفعل ثروة شخصية! فالنخبة الصوفية **للخفية** ومن ثمّ **الجهرية** بدأتا تتنافسان مع بعضهما البعض ومع مؤسسات **القديمو** من أجل مصادر الثروة والمال والنفوذ الديني وكل

ما يتعلق بالتعاليم الإسلامية، إضافة إلى القوة والتفرد باتخاذ القرارات التي تخص كل جماعة.

من أشد الصراعات تقسيما، ذلك الذي دام مدة طويلة وأدى إلى خسائر فادحة بين صفوف المسلمين في شمال غرب البلاد. لم يكن بين الطرائق الصوفية والقديمو، بل كان بين **الخفية** و**الجهرية**، متمثلا في صراع شخصي بين قائديهما اللذين كان كل منهما يدعو مسلمي **گانسو** إلى اتباع خطاه. كان المسلمون هناك يستمعون إلى رسالتين مختلفتين تدعوان لممارسة شعائر مختلفة عن بعضها البعض وتتبنيان مفاهيم اجتماعية وسياسية متغايرة. فأتباع الصوفية **الخفية** ادّعوا أن **الجهرية** تمارس شعائر خرافية على حافة اللاأخلاقية، خاصة في حلقات الذكر وما فيها من الرقص الإيقاعي الصاخب. ومن جهة اخرى انتقد **ما منگشين** التبرعات العالية التي كان يطالب بها اتباع **ما لايتشر** مقابل خدماتهم الدينية وتأكيدهم على فرض المهابة والوقار على قبور الأولياء وجعلهم مشيخة **الخفية** قضية وراثية. إحتلت هذه القضية موقعا رئيسيا بدأ من **ما لايتشر** نفسه الذي أحلّ **البركة** وأجاز نقلها من الآباء إلى الأبناء، وهي مسألة كانت لها أهميتها الاقتصادية والاجتماعية. أدى موضوع الوراثة إلى ما سُميّ **مينخوان**، وأصبح **ما لا يتشر هواسي** هو أول **مينخوان**.

إضافة إلى الخلاف في أداء الشعائر عند **الخفية والجهرية**، والتي أدت إلى تأجيج الصراع بينهما، فإن **ما منگشين** المتأثر بأفكار **الكوراني** السياسية والدينية أعطى **الجهرية** ميلا نحو نزعة التحارب في صفوف حركة التجديد ومع غير المسلمين. أما **ما لايتشر** بصوفيته **الخفية** فقد كان ميالا لاتباع سنة **خوجه آفاق** السياسية في التعاون مع سلطات الدولة. **فخوجه آفاق** هذا كان قد تولى حكم منطقة **كشگر** بتعيين من جانب **گلدان** غير المسلم وموافقته.(٧١)

احتدم الصراع بين **الخفية والجهرية** بعد عودة **ما منگشين** إلى **گانسو** عام ١٧٦١، وتحول إلى صراع دموي مفتوح لأن المجتمعات الإسلامية كانت مسلحة، أضف إلى ذلك حقيقة أخرى هي أن الفن العسكري تخصص لمسلمي شمال غرب البلاد. إن عسكرة مجتمع **التشينگ** الذي أشرنا إلى أنه بدأ في تسعينات القرن الثامن

عشر، قد بدأ قبل ذلك واستمر على طول جبهة الحدود الشمالية الغربية. فسكان الحدود يمتلكون الأسلحة لأغراض الحماية والصيد، ومن الطبيعي أن يدربوا أبناءَهم على استعمالها. وكل جماعة تتردد على مسجد معين، خاصة في المناطق التي يسكنها خليط من المسلمين وغير المسلمين، قد أعدت ليوم الحاجة صنفا من الميليشيا. وفي القرى الصغيرة بنوا الحصون على قمم التلال والروابي لأغراض تكديس المؤن وصد الهجمات، مما حدا بجيرانهم من غير المسلمين أن يحذوا حذوهم ويبنوا تحصينات مماثلة. أما الجماعات الصوفية الأكبر حجما من التي يمتد نفوذها لمناطق أكثر اتساعا، فقد أعدت الميليشيات على نطاق أكبر ووضعت لها قيادات مركزية وتسلمت الأوامر من مراكز شيوخ الطرائق.

وهكذا وبدأ من ستينات القرن الثامن عشر شغل الصراع بين الجماعات الإسلامية المتناحرة وردّ فعل الدولة ازاءها صفحات تاريخ شمال غرب الصين. كان جليا أن **الخفية** تحالفت مع دولة **التشينگ** واعترفت الدولة بها باعتبارها ممثلا للمسلمين، وظلت هذه الطريقة وفية لتعهداتها، في حين وقفت **الجهرية** على الجانب الآخر. وهو ما جعل المسؤولين الحكوميين ومسلمي **الخفية** يطلقون عليها مسميات تنتقص من قدرها مثل "التعاليم المبتكرة" ويصفونها باستمرار أنها تهديد وخطر وهرطقة.(٧٢) ونظرا لالتزامها بتجديد الإسلام عن طريق قوة السلاح، أثارت **الجهرية** الهلع في قلوب المسؤولين المحليين لأنها "اختلقت" عددا من الصدامات المسلحة بين المسلمين. وازداد رعب المسؤولين عندما هاجم أتباع **الخفية** أتباع **الجهرية** علنا في الشوارع وأقاموا عليهم الدعاوى في المحاكم، الأمر الذي أدى إلى سفك الكثير من الدماء.

لم يحقق المعنيون من المتخصصين بشؤون مسلمي الصين أي نجاح في وضع أصابعهم على جذور الصراع بين أتباع الطرائق **الصوفية** في القرن الثامن عشر في منطقة **گانسو**. لماذا واجه أنصار الذكر الصامت والذكر الجهري بعضهم البعض في صراعات دموية في شمال غرب الصين؟ فالصوفيون في أرض العرب كانوا يمارسون كلا الطريقتين دون أي تعارض أو صراع. وفي الحقيقة يمكن للمرء أن

يكون من مريدي كلتي الطريقتين. الجواب هو أنه يمكن أن يكون الخلل في منطقة شمال غرب الصين وليس الإسلام ذاته، في طبيعة مجتمع مسلمي **گانسو** وتاريخه، وليس في صفات **الصوفية** و**النقشبندية** ومذهبيهما. ويتوجب على المرء إذاً أن يتأمل القضية من منظور آخر ويبحث في مجموعة من الأسباب الممكنة مثل البيئات المحلية والجماعات القومية (الإثنية) المحلية والضغوط الداخلية والخارجية على المجتمعات الإسلامية في شمال غرب البلاد، وتأثير المجتمعات المحلية لغير المسلمين وكذلك تأثير دولة **التشينگ** نفسها.

فقرب ممرگانسو من مدينة **هامي** قد مكّن **سعيد بابا** مثلا من تقديم العون لثوار **ميلاين** خلال أربعينات القرن السابع عشر. وخلال العقد الذي تبع مذبحة **منگ تشياوفانگ** قرب **سوجو** استمر القادة الدينيون في التنقل بين شمال غرب الصين ووسط آسيا يستنهضون همم السكان المحليين ويعملون على زيادة الإرتباطات القائمة وتقويتها. وكما رأينا فإنه خلال الفترة مابين ١٦٥٠- ١٧٨٠ إستقبل مسلمو شمال غرب الصين طريقتين ومفهومين جديدين لمعرفة الإسلام، وبالتالي معرفة أنفسهم وموقعهم في المجتمع الصيني وثقافته. جاءت هاتان الحركتان في نفس الوقت تقريبا من الشرق ومن الغرب وجلبتا معهما طرقا جديدة للتعبير عن الانتماء إلى الصين من جهة وإلى الأمة الإسلامية من جهة أخرى. كما جلبتا الفرصة لزرع فتنة وصراع واسع النطاق.(٧٣) انتشرت **الصوفية** من الأرض الإسلامية غربا إلى امبراطورية **التشينگ**، بنفس الطريقة التي انتشرت فيها في كل أرجاء العالم، وهي من خلال شخصيات رجال صالحين يتمتعون بصفات فريدة متميزة (كاريزما) من الذين جذبوا المسلمين إلى صفوفهم وشجعوا غير المسلمين على التحول إلى الإسلام على هدي طرائقهم.

في المقابل، كان المثقفون من مسلمي مدن شرق الصين قد تلقوا ثقافة مزدوجة لمنهجي كل من الإسلام والكونفوشية مما جعلهم يحللون الإسلام ويصفونه، بما فيه أفكار الصوفية، بكلمات مستقلة لا تتعارض مع الكونفوشية الجديدة. أذكت إحدى هاتين النظرتين في مجتمع مسلمي الصين جذوتي التجديد والنزعة الحربية

وهيأت ظروفا للشد والجذب بقدومها من الغرب. قابلتها من جهة أخرى نظرية تدعو لخلق الظروف المواتية للتكيف والتوافق بين المعتقدات، قادمة من كبرى مدن شرق الصين. ولا زالت هذه الأفكار تبعث الحياة في صفوف المسلمين إلى يومنا هذا. إن التناقضات الداخلية لهاتين الطريقتين وفيما بينهما هي رمز للصعوبات في أن يكون الفرد صينيا ومسلما في نفس الوقت. وعندما أدرك مسلمو الصين أن الوحدة التي هي في صلب كلي المفهومين، والإختيار والتفضيل بين أحدهما على الآخر، فإنهم خلقوا حلولا لتلك المعضلة على المستويين الفردي والجماعي.

كما كان للعوامل الخارجية فعلها الواضح. فالفساد في القصر، خاصة خلال فترة الإمبراطور **تشيانلونگ** وتفضيله **خيشن** وبطانته الفاسدة قد تسبب في فساد الحكومات المحلية في شمال غرب البلاد وتفككها في أواخر القرن الثامن عشر. فالفضيحة المالية الكبرى بين مسؤولي مقاطعة **گانسو** قد كُشف عن انتشارها بشكل واسع في مناطق الحدود. وإضافة إلى ذلك، فإن اضطرابات **تسيانكاي خوكاي** قد نبهت المسؤولين عن مخاطر النزاعات الضروس داخل المجتمعات الإسلامية وجعلت الدولة تضع عيون الرقابة على كل من **خيجو** و**شونخوا** و**شينينگ**. وفي هذا الجو المشحون بالشكوك والفساد والتحيز ضد المسلمين، حاول الإمبراطور **تشيانلونگ** أن يطبق السياسات التي فوّضه والده إياها.

التغيرات في القرن الثامن عشر

*إن المسلمين في كل محافظة وكذلك قطّاع الطرق في **خبي** ..... و**آنخوي** بدأوا بتشكيل جماعات من أجل إثارة النزاع والقتال. وفي أوضاع كهذه وإذا كان هناك من يدعون أنفسهم "مرتزقة" يتم توظيفهم لأعمال العنف، فإن الأحكام العسكرية بالإبعاد يجب أن تُرفع درجة واحدة أعلى.* (٧٤)

لم يغير وصول الجماعات **الصوفية** إلى شمال غرب الصين المجتمع المحلي تغييرا كبيرا. فالنشاطات الاقتصادية بقسميها الزراعي والرعوي استمرت بالنمو وفق نماذجها المعروفة الطويلة الأمد. أما المواصلات فقد بقيت بطيئة وغير مضمونة في

بعض الأوقات. كانت الأصواف والجلود تُنقل من المناطق العالية إلى الوادي، في حين أخذت تجارة الأواني والشاي والقمح اتجاها معاكسا. كان الصينيون والتوركيون والتبتيون والمغول بمختلف اديانهم ومعتقداتهم يلتقون في مجموعات في مناطق الرعي والطرقات والأسواق يبيعون ويشترون ويساومون ويتزوجون من بعضهم البعض، ويتقاتلون أحيانا! وعلى المستوى المحلي أضحى التآزر بين **الصوفيين** مسألة نسب وغنى وكذلك مكانة قدسية سموها **مينخوان**، قادت إلى التنافس على السلطة فأخلت بالنظام المحلي في وقت كانت فيه امبراطورية **التشينگ** تشهد تغيرا سريعا. ومع وجود **الخفية والجهرية** وانتشارهما في **گانسو** في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، دعونا نتفحص الآن عالم **التشينگ** الأوسع لنكتشف الضغوطات الخارجية التي أضرمت النار في **گانسو** في تلك الفترة الحرجة.

فتح شينجيانگ

منذ اجتاح **التشينگ** المنشوريون حدود الصين قبل ما يقارب القرن، فإنهم وسعوا امبراطوريتهم باتجاه الغرب والشمال الغربي. إن حملة الفتح هذه هي التي خلقت "الصين" كما نعرفها الآن والتي وصلت أوجها بضم شرق تركستان و**تسونگخاريا**. ورغم أن الإمبراطور **كانگشي** قد دحر **گالدان**، فإن المهمة قد تُركت لحفيده الإمبراطور **تشيانلونگ** لكي يقضي على المقاومة المحلية والغزوات الأجنبية التي أوحى بها شيوخ **الصوفية**.(٧٥) وعندما تمّ تدمير فرع جماعة **آفاق** في المنطقة والتابعة **لمخدوم زاده خوجه**، انتقل نسل **النقشبندية** من **خوجه آفاق** ليرتبط **بالخفية** في منطقة **گانسو**. بحلول عام ١٧٥٩ أحكم المنشوريون قبضتهم على منطقة واسعة تمتد من **التاي** حتى القسم الجنوبي من حوض نهر **تادم** وغربا إلى منطقة **پاميرز**.

كان هدف حكومة **التشينگ** الاستراتيجي في الإستيلاء على هذه المنطقة الواسعة والاحتفاظ بها هو منع قيام تحالف بين الحكام المنغوليين (بما فيهم **زنگار**) وحكام التبت، الأمر الذي يضمن أيضا السيطرة على العنف الذي يشكله القرغيزيون

الذين يسكنون في المناطق الغربية من **تسونگخاريا**.(٧٦) وبعد الإجتياح الذي تمّ على يد حوالي ٢٥ ألفا من الجنود الذين ينتمون إلى ثقافات متعددة، حكم **التشينگ** "المناطق الجديدة" (بالصينية **شينجيانگ**) بطريقة لم تهدف إلى دمج السكان المسلمين الذين يتكلمون التوركية بالثقافة الصينية ولا المنشورية، ولكن بدلا من ذلك الاعتماد على تعاونهم في المحافظة على النظام الاجتماعي واستمرار تدفق السلع التجارية في تلك المنطقة العازلة. والى الشمال والشرق من **تيانشان** فإن الحكومة العسكرية والأعداد الكبيرة المهاجرة من الصينيين المسلمين وغير المسلمين حولت منطقة **تسونگخاريا** إلى منطقة زراعية رعوية متعددة القوميات. وفي **ألتيشهر** في جنوب المنطقة الجبلية طبّق زعماء المناطق نظاما ضريبيا متساهلا يشوبه القليل من الفساد، في حين حافظ التجار الصينيون وتجار آسيا الوسطى على تدفق البضائع بالرغم من امتناع السلطات عن منح الغرباء منهم موافقة للإقامة الدائمة. وفي كافة مناطق **شينيانگ** كان التجار القادمون من **شانشي وجيانگنان** وكل سكان الشمال الغربي بما فيهم المسلمون الصينيون قد وجدوا أسواقا مربحة لتجارة الجملة في السلع النادرة، مقابل أرباح نقدية لشحن البضائع إلى مختلف أرجاء الصين.

يمكننا فقط أن نخمّن تأثير اخضاع تلك المناطق على المسلمين في شمال غرب الصين. فبعد القضاء على قرن من القلاقل والاضطرابات في تركستان وضمّ كافة المنطقة لإمبراطوريتهم، استطاع أباطرة **التشينگ** أن يفتحوا أمام المسلمين مجالا محليا جديدا لنمو النشاطات الاقتصادية والتبادل الثقافي. ومع أنهم نظموا النشاطات وأقروا نماذجها الصينية في منطقة **شينيانگ**، فإن المنشوريين ساعدوا بلا شك مسلمي الصين للهروب من واقعهم المزري في **گانسو** والبحث عن حياة أفضل في مناطق الأراضي الصالحة للزراعة في **تسونگخاريا**، وهو الأمر الذي لم يكن متاحا لهم تحت حكم سلالة **المنگ**. كما اعتمدت سلطة **التشينگ** على استغلال المصادر في شمال غرب الصين، البشرية منها والإنتاجية، من أجل تأمين كميات هائلة من الإمدادات للجيوش التي استقرت في "المناطق الجديدة". لقد

أصبح بمستطاع مسلمي **گانسو** من ساقة البغال وأصحاب القوافل التجارية وممّونى الأغذية وتجار الحيوانات وعلفها ومربي الماشية والمزارعين أن يستغلوا الفرصة لينتجوا ويتوسطوا في المعاملات التجارية وينقلوا كافة المؤن والإمدادات التي تحتاجها القوات العسكرية.

كان لشلل القوة الإسلامية المستقلة في شرق **پاميرز** تأثير على صعود النفوذ الأوربي في العالم الإسلامي. وهو الذي دفع بالمسلمين أن يعيدوا النظر في رأيهم في وجه القوة السياسية غير المسلمة. والحركات التجديدية، برغم تعاونها أو وحدتها على طول العالم الإسلامي وعرضه، كان لها ردّ فعل متباين وطرق متعارضة، خاصة عند القيادة الدينية لمختلف **الطرائق الصوفية**. وهكذا أمكننا أن نجد اتجاها نحو نزعة المجابهة العسكرية عند **ما منگشين** وجماعة **الجهرية** من جهة، وإذعان **ما لايتشر** وجماعة **الخفية** من جهة اخرى، في وجه القوة العسكرية الجبارة لحكومة **التشينگ** ونفوذها السياسي. لقد تقبلت **الخفية** الأمر الواقع والسيطرة الجلية لسلالة **التشينگ**، ووجدت فيها فرصة للإزدهار، في حين طالبت **الجهرية** بالإصلاح وتجديد الإسلام للوقوف في وجه اجتياح تلك السلالة، التي عنت السيطرة الكاملة لغير المسلمين.

سوء الإدارة تحت ظل امبراطورية التشينگ

في الوقت الذي كانت فيه قوة **التشينگ** تفصح عن نفسها بشكل جلي في وسط آسيا، كانت جذور الكارثة قد زرعت داخل البيروقراطية في بكين وكافة ارجاء الصين. فالفساد وسوء الإدارة اللذان عادة ما ارتبطا **بخيشن** وزمرته، بدأت علاماتهما في الظهور في شمال غرب البلاد في وقت مبكر. لا يمكننا أن نحدد بسهولة العلاقة بين جشع المسؤولين والصراع في المجتمع بشكل عام. غير أن كلتا الظاهرتين قد تزامنتا مع النتائج الرهيبة خلال منتصف فترة حكم الإمبراطور **تشيانلونگ** في **گانسو**، كما لاحظ ذلك مستشاره الأعلى.

*في **گانسو** عاش **الفان** (التبتيون) والمسلمون بشكل مختلط. لقد فضلتهم لكونهم "لا يتحيزون وعندهم واعز لعمل الخير." لم تضع تمييزا أو تصنيفا لمنع تقاليدهم، لكي يكون الجميع قادرين على استيعاب فضائل الإمبراطورية ولتنغمس اجيالهم في خدمة البلاط ورعايته. وحين يتحدى الثوار المسلمون ذلك فإنه من الصعب فهم سلوكهم الذي يفتقر إلى العقلانية والمبدأية. ولو تأملنا السبب لوجدناه في صفوف المسؤولين في **گانسو**، الصغار منهم والكبار، من الذين اختلقوا "النكبات" وآذوا الناس بسبب جشعهم الذي لم يعرف حدودا. إن تراكم تلك التجاوزات الشديدة على مدى السنوات قد أخلّ في الإنسجام الذي أنعمت به السماء، وخلق طاقة خبيثة قادت إلى كارثة خطيرة وعبيء عسكري.(٧٧) وكما قرأنا تعليمات جلالتكم إلى المسؤولين المحليين، أدركنا أن جلالتكم قد فهم هذه المشكلة وشخّصها منذ أمد بعيد.(٧٨)*

سنصف في الفصل التالي نشاطات الثوار المسلمين، ولكن يجب أولا أن ننظر إلى ما فعله أولئك المسؤولون ليستفزوا الناس ويوقظوا غضبتهم.

في مطلع السبعينات من القرن الثامن عشر بدأت موارد محافظة **گانسو** في النضوب لأنها كانت تختفي في جيوب المسؤولين بمقادير عالية جدا.(٧٩) اكتشف المحققون الذين بعثهم الإمبراطور **تشيانلونگ** ثلاثة نماذج من الفساد: اختلاسات القمح المباشرة من الضرائب المفروضة على الأراضي الزراعية ومخازن القمح ذاتها. اختلاسات قسم من الأموال المخصصة لبناء مخازن القمح الجديدة. ومن أشد الاختلاسات عجبا هي اختلاسات الرسوم، التي يجب أن تكون بشكل قدر معين من القمح، مقابل الحصول على شهادة اجتياز الإمتحان، وبيع ذلك القمح. توسعت هذه الطريقة أكثر بواسطة ارسال تقارير من المناطق التي تكون فيها نسب الرسوم عالية. أضف إلى ذلك الطلب من الحكومة المركزية ارسال "معونات اسعاف غذائية للمناطق المنكوبة بالمجاعة،" سواء كانت توجد فعلا مجاعة أم لا! ثم يقوم المسؤولون باختلاس تلك "المعونات،" وتحويلها إلى حساباتهم الخاصة بدلا من ايداعها في خزانة المحافظة. وفي مقاطعة فقيرة مثل **گانسو** يتوقع المرء

وجود قدر زهيد من تلك المصادر. لكن محافظ الخزينة، **وانگ دانونگ**، قد اختلس الملايين بخططه المختلفة، في حين كان مساعدوه المحليون في كل أرجاء المحافظة قد نهبوا الآلاف ومئات الآلاف!

لم يكن أعضاء المجلس الإستشاري الأعلى لإمبراطورية **التشينگ** فقط هم الذين شخّصوا الفساد، بل حتى مجموعة من الباحثين المحدثين قد توصلوا إلى قناعة باستشراء ذلك الفساد وأن تلك الظاهرة عجلت بتزايد العنف في المجتمع بعد منتصف فترة حكم **تشيانلونگ**. إن الأساليب التحليلية للكونفوشية والماركسية والعلوم الاجتماعية الليبرالية قد استُخدمت لوصف ذلك الترابط، إلا أنه غالبا ما غاب عنها وصف التعقيدات والإختلافات المركزية للأنظمة المحلية. بالتأكيد تمت سرقة الملايين من اقتصاد محافظة **گانسو** على يد مسؤولي **التشينگ**، والذي نجم عنه تدهور المستوى المعاشي لعامة الناس، خاصة أن التلاعب بأسعار القمح والكميات المطروحة منه في الأسواق كانا يجريان على يد موظفي الدولة بشكل لا خجل فيه. لكن واقعا كهذا ليس من الضروري أن يقود إلى تأسيس جماعات سرية ومذاهب هرطقة وعصابات مسلحة. الحقيقة هي أن فسادا مماثلا قد حدث في **جيجانگ** - كان **وانگ دانوانگ** قد نُقل إلى هناك قبيل اعتقاله ومن ثم محاكمته - ولم يؤدِ إلى نتائج كالتي شهدتها **گانسو**. صحيح ان الفساد المالي في المنطقة على يد مسؤولي حكومة **التشينگ** قد لعب دورا رئيسيا في نفور السكان المسلمين من الدولة، لكنه لم يكن السبب الكافي لانتشار العنف وتوسعه على مدى شاسع. إن موقف **تشيانلونگ**، برغم سلالته وتحذيراته الشخصية للمسؤولين هناك، قد خلق شعورا اتجاه المسلمين على أنهم فئة تشجع على العنف في صفوف مجتمع مناطق الشمال الغربي، ويكون بذلك له يد في التمييز ضدهم.

المسلمون في مفهوم قوانين امبراطورية التشينگ

في عام ١٧٣٠ قدّم **يو گوخوا**، المدعي العام **لشاندونگ**، مذكرة طلب فيها منع الإسلام في كافة أنحاء امبراطورية **التشينگ** لأن عاداته مختلفة وتعاليمه مضللة

للناس. اعترض الإمبراطور **يونگجنگ** (١٧٢٢-١٧٣٥) على وجهة نظر **يو گوخوا** مستعيدا ما كان قاله والده من أن المسلمين تحت حكم **التشينگ** لا ينفصلون عن الحضارة، وأنهم من ابناء الإمبراطور، ويجب أن يعاملوا بالحسنى كبقية الرعايا. إن الإختلافات بين من (الصيني غير المسلم) **والخوي** تعود إلى اختلاف في العادات التي توارثوها من جيل إلى جيل، وليس سببها هرطقة أو خيانة.

لماذا إذن استفزاز المسلمين فقط وجعلهم هدفا للإتهامات بارتكاب الجرائم؟ إذا كان المسلمون ينتهكون القوانين حقا فإن تلك القوانين بالتأكيد سُتطبق بحقهم .... وعليه، إذا لم يرتكب المسلمون أية مخالفة لكن المسؤولين، صغارا كانوا أم كبارا، يصرون على ملاحقتهم اعتمادا على اختلافات بسيطة في التقاليد بهدف منعهم من ممارستها، فإنني سأنزل بحق هؤلاء المسؤولين أقسى العقوبات.(٨٠)

بشّر هذا الموقف في مطلع حكم أباطرة **التشينگ** المسلمين ببزوغ فجر جديد تحت تلك السلطة في كل أنحاء الإمبراطورية، وهو الأمر الذي دفع المسؤولين المحليين للإلتزام بأوامر الإمبراطور. غير أن مذكرات كالتي قدمها **يو گوخوا** وآخرون تسببت في تعيين مسؤولين شديدي التحامل ضد الإسلام. في الحقيقة ضد أي تعاليم "مختلفة،" وأن رغبة الإمبراطور سرعان ما تلاشت أمام ناظريه ووضِعت على الرّف. لقد رأى مسؤولو البلاط الإمبراطوري أنفسهم بأنهم المدافعون الحقيقيون عن سلطة **التشينگ** وقوانينها ومعتقداتها وتقاليدها ولغتها، وغير ذلك من الأمور، ضد البرابرة "الآخرين" الذين يسعون إلى تقويض سلطة الدولة. ربما يكون هؤلاء قد تعرضوا إلى ضغوط من الجماعات المحلية غير المسلمة، بما فيه الطبقة الأرستقراطية لحماية المجتمع المحلي من **الخيويخيوي** المتوحشين الميالين لارتكاب الجرائم. غير أنه من الأهمية بمكان أن نشير إلى أنه لم يرتكب المسلمون اعمال عنف ضد الدولة على مستوى واسع، أو ضد المسؤولين المحليين لمدة تزيد على قرن من الزمن بعد سحق ثورة **ميلاين ودنگ گودونگ** عام ١٦٤٨، أي حتى منتصف فترة حكم **تشيانلونگ**.

ومثله مثل والده، التزم **تشيانلونگ** في البداية بمبدأ معاملة رعايا الإمبراطورية بمعيار واحد، واقتنع بوجهة نظر مسؤولي **شانشي** الذين وجدوا أن الإسلام عديم الأذى وأن المسلمين رعايا ملتزمون بقوانين الدولة.(٨١) وحتى خلال فترة "محاكم التفتيش الأدبية" لم يُظهر الإمبراطور الذي كان متوقعا منه أن يكون شديد الحساسية ازاء أية وثائق تُشمّ منها رائحة الهرطقة، أي غضاضة وحكم بطريقة منفتحة ومستقيمة ليس فيها ما يمكن أن تلمس فيه معاداة للإسلام. ولكن بحلول عام ١٧٨٢ أثار "عنف المسلمين" في منطقة **گانسو** الكثير من القلق في اروقة البلاط الإمبراطوري. وفي نفس السنة ألقي القبض في منطقة **گوانگشي** على **خاي فورون**، وهو طالب في معهد اسلامي من **كانتون**. كانت محاكم التفتيش الأدبية في أوجها فتم جلب كل الكتب الإسلامية الموجودة في محل سكناه لغرض الإطلاع عليها، وبالتبعية توجيه الإتهام له. كانت كتب **خاي** مكتوبة بالعربية والفارسية التي لا يستطيع المسؤولون قراءتهما. كما تمّ جلب **كتب الخان**، خاصة ما ألفه **ليو جي وجو تشون**. وجد المفتش العام **لگوانگشي** أن تلك الكتب المكتوبة بالصينية تحتوي على مقاطع "تفترض أشياء غير دقيقة وأفكارا طائشة ... وفيها القليل من الشرّ والإنحراف." وعليه أوصى بإنزال اقصى العقوبات بحق المتهم.(٨٢)

وفي وثيقتين شديدتي اللهجة صدرتا في ذلك الصيف، شجب الإمبراطور **تشيانلونگ** التهم التي ألصقتْ بكتابات **جو** وقال إن الإسلام دين سلام رغم أن بعض أنصاره يرتكبون أحيانا أعمالا حمقاء، وأصرّ على أن يتمتع المسلمون بحماية القانون، كغيرهم من رعايا الإمبراطورية.

*إن النصوص الدينية التي يرددونها باستمرار مأخوذة من كتب توارثوها عن الأجداد، وفي الحقيقة لا تحتوي على أية لغة بذيئة أو ميالة للفتن. وأكثر من ذلك إن العبارات في هذه الكتب التي لفت **جو تشون** الإنتباه إليها عبارات فجة لكنها بعيدة كل البعد عن العنف والتمرد. إن هؤلاء ليسوا إلا ناسا بسطاء وجهلة يؤمنون بالإسلام.*

إن كتبهم التي يقدسونها معروفة لكل المسلمين جميعا. وهنا ليس بينهم وبين البوذيين والداويين واللاما أي فرق. بالتأكيد لا يمكن القضاء عليهم، ولا حرق كتبهم. (٨٣)

من الواضح انه لم يكن للإمبراطور أية نوايا للتمييز ضد الإسلام نفسه ولا ضد المسلمين الملتزمين بقوانين دولته. شُجبت بعض أفكار **دو تشون** لحماسها الزائد عن اللزوم، واطلق سراح **خاي فورون** بدون أن يلحق به أذى. لقد كتم الإمبراطور غضبه لأنه أدرك أن اطلاق العنان للغضب سيؤدي إلى ردّ فعل في صفوف المسلمين – وتعاليم **ما منگشين** الجديدة، **أي الجهرية**.

لكن **تشيانلونگ** فشل كما فشل والده من قبله في الحدّ من المشاعر المضادة للمسلمين وممارسات المسؤولين في الحياة اليومية. وفي الحقيقة أنه تحت حكم **تشيانلونگ** وخلفه أضحت قوانين السلالة الحاكمة تعكس مفاهيم فحواها أن المسلمين، لسبب أو لآخر، يميلون إلى العنف وأكثر ضراوة من بقية المواطنين الآخرين. القانون الجزائي الذي يميز بين المسلمين وغير المسلمين قد كُتب بشكل حاذق، لكن مؤشرات التحامل كانت جزءاً من سياسة **مجلس العقوبات** والقضاة. فالقانون الأول الذي وضع بشكل خاص لمعالجة نشاطات المسلمين يعود إلى **تشيانلونگ** السابع والعشرين (١٧٦٢) ويطلب من رجال الدين المسلمين أن يُبلغوا عن أية نشاطات مشبوهة في مجتمعاتهم، ويهدد بإنزال العقاب الصارم بحقهم إذا ما توانوا عن التبليغ عن نشاطات المسلمين الإجرامية.

كانت القضية الأولى التي نُظر فيها بموجب القانون الجديد قد حدثت في نهاية ذلك العام، وذلك حينما أبلغ مسؤول محلي في **شاندونگ** بأن زمرة من المسلمين الأجلاف الوحوش قد أسسوا حزبا سريّا ليصبحوا قطاع طرق. طالب المسؤول بعقوبات صارمة منذ تلك اللحظة وفي المستقبل لمثل "هذه الجرائم الجماعية لزمر الرعاع." كما صادق **مجلس العقوبات** وبمباركة من الإمبراطور على عقوبة الإبعاد بحق اللصوص المسلمين المسلحين الذين يُلقى القبض عليهم في مجموعات تتألف من ثلاثة اشخاص فأكثر، وبدون التمييز بين القادة والأعضاء. يتمّ نفي هؤلاء

إلى المناطق الغربية الجنوبية ليشغلوا وظائف حرس حدود! أمّا إذا ارتكب غير المسلمين جرائم مماثلة فيتم النظر في امور اخرى ذات علاقة، من قبيل إن كانت السرقة قد حصلت فعلا وكم تُقدر اثمان المسروقات. ثمّ كان قادة العصابة ينالون عقابات أشد من العقوبات التي تنزل بالأعضاء.(٨٤) غير أن الموظفين الرسميين وغير الرسميين لم يكلفوا انفسهم عناء تمييز من هذا الصنف عندما يتعلق الأمر بالمسلمين. وهكذا تجمعت قرارات **مجلس العقوبات** وتكدست بمرور الوقت وفي متونها ينمو تحامل وتحيز لئيمان.

في مطلع السبعينات من القرن الثامن عشر، كشفت التقارير السنوية لإمبراطورية **التشينگ** عن معارك وخصومات وغيرها من اشكال العنف الذي اتخذ منحا جماعيا بين المسلمين. أضحى مسؤولو المدن كثيري الشكّ بالمسلمين عموما. ولذلك عندما استلم **مجلس العقوبات** إبلاغا من **شاندونگ** عن قضية قتل اتّهِم بها مسلمون، أصدر المجلس المذكور قانونا خاصا بالمسلمين أطلِق عليه اسم **قانون الشّجار**. نصّ هذا القانون على أنه إذا اشترك ثلاثة مسلحين مسلمين في قتل أحد ما، يُحاكم مرتكب الجريمة بموجب القوانين السارية ويعاقب الآخرون بالنفي إلى مناطق الحدود للعمل كحراس. وإذا لم يكونوا مسلحين فيُخفف الحكم إلى مائة جلدة وقضاء ثلاث سنوات بالأشغال الشاقة. إذا كان عدد المشاركين عشرة، حتى وإن لم يكونوا مسلحين، وأدت جريمتهم إلى جرح شخص ما، فيُحكم عليهم بموجب قانون المعاقبة الجماعية المشار إليه في أعلاه. وتتفاوت هذه الأحكام في درجات شدّتها، وتكون أكثر صرامة إذا ما قورنت بالأحكام التي تُنزل بحق غير المسلمين.(٨٥)

كان الإتجاه واضحا أنه بمرور الوقت وضعت دولة **التشينگ** مجموعة قوانين تميز ضد المسلمين باعتبارهم فئة خاصة من الخلق الذين إذا ما خالفوا القانون الجنائي فيجب معاقبتهم بدرجة أكثر شدة وصرامة من الآخرين. إن إجراءات كهذه تمثل عودة قوية للممارسات التي رأيناها خلال فترة سلالة **المنگ**. خلقت هذه المعاملة المتحيزة جوا داخل الدوائر الحكومية يميل إلى الإجراءات العسكرية

الصارمة، التي قد تتعارض مع الرغبة المعلنة للأباطرة. وبالتأكيد بقيت تلك الممارسات سارية المفعول داخل نظام **التشينگ** وأظهرت للمسلمين في كافة أنحاء الإمبراطورية انهم يُعاملون بشكل مختلف إذا ما وقفوا متهمين أمام قضاة الدولة. خلال فترة حكم **داوگوانگ** (١٨٢١- ١٨٥٠) أشار قانون فرعي إلى تساوي جميع المسلمين الذين يرتكبون المخالفات القانونية، مع أشد المجرمين من غير المسلمين عنفا، مثل عصابتي قطاع الطرق **أنخوي** وخبيّ. ومع تزايد الفوضى في المنطقة أضاف **مجلس العقوبات** إلى القائمة عصابة اخرى هي **خينان**.

عسكرة المجتمع والعنف المحلي

لكي نحدد آخر الظواهر التاريخية الخارجية التي برزت في منتصف فترة حكم **تشيانلونگ**، لا بدّ من التذكير بالعنف الذي ضرب المزيد من المناطق المحلية الصينية خلال سبعينات القرن الثامن عشر وبعدها. من أشد اعمال العنف وضوحا بعد تنازل الإمبراطور **تشيانلونگ** عن العرش بعد وثبة **النيلوفار البيضاء** عام ١٧٩٥، كان بدأ تفاقم الأمن المحلي وردّ فعل النخبة في أعداد دفاعاتهم المحلية وتحصيناتها.(٨٦). تُعتبر انتفاضة **وانگ لون** عام ١٧٧٤ أول انشقاق رئيسي على سلطة الدولة في الصين، رغم أن تمرد التركستان قد حدث بعد اجتياح **التشينگ** لمنطقة **شنجيانگ** في ستينات القرن الثامن عشر، ثم تلتها انتفاضة المسلمين عام ١٧٨١ أي بعد سبع سنوات.(٨٧)

ادعت النخبة الصينية على مدى ألف عام أن مجتمعها يتميز بشخصية متناغمة محبة للسلام وفق نظرية كونفوشيوس، التي تناقض الطبيعة المتوحشة **للأغيار** المحيطين بهذا المجتمع. فالعنف داخل الإمبراطورية يجب أن يُلقى على عاتق الأفكار الشريرة والرجال الأشرار الذين يجب أن يُستأصلوا من الدولة الفاضلة. ولذلك حتى وإن كان مسؤولو الدولة قد قتلوا المسلمين بالجملة وشرعوا قوانين تميز ضدهم، استمرت دولة **التشينگ** في ادعاءها أنها تقتلع فقط "الأعشاب الضارة" من بين صفوف المسلمين، وتُبقي على الجيدين منهم ليعيشوا بسلام. والادعاء

الآخر هو أن **الأغيار** المتوحشين الذين لا علاج لهم يمكن أن يُستعمل كمبرر لإعلان الحرب من أجل القضاء عليهم (كما حدث **لگالدان والخوجه مخدوم زاده**). ولكن يجب التخفيف من حدة الهجوم بعد تصفية المنشقين لأن الناس يصبحون أولاد الإمبراطور ويُعين قادتهم كزعماء تابعين. إن كلتي هاتين النظريتين لتحليل الاضطرابات الداخلية قد وضعتا غشاء على عيون المسؤولين، على المستويين المركزي والمحلي، لرؤية الأسباب المتعددة للعنف المحلي وتعقد عملية العداء للدولة بين صفوف **الأغيار** على المستوى المحلي. وهو ما زاد الخصام بين المجتمعات الإسلامية، وضاعف الشلل الذي أصاب النظام الاقتصادي والاجتماعي وانتشر كالوباء في منطقة **گانسو** في منتصف القرن الثامن عشر.

لا يمكن القول إن عاملا بحد ذاته سواء الأفكار الجديدة أو الإجتياح أو التطورات الداخلية كانت وراء العنف الذي هزّ **گانسو** في عام ١٧٨١ ومرة ثانية عام ١٧٨٤. إن ردّ فعل جيش دولة **التشينگ** غير الكفوء ومحاولات تهدئة المناطق باستخدام الوسائل العسكرية وتحريم **الجهرية** (التعاليم الجديدة)، كلها حدثت واتخذت اشكالها المختلفة ضمن الظروف التي أشرنا اليها في أعلاه. كما أن اجتياح **شينيانگ** وفساد ادارة **التشينگ** والتميز القانوني ضد المسلمين وتزايد العنف داخل المجتمع بشكل تدريجي، كلها لعبت أدوارها وتسببت في الإنفجار الذي قاده **سو الثالث والأربعون** (سو سيشيسان) والذي افتتح قرنا ونصف من سفك دماء المسلمين، أو على أيديهم في شمال غرب الصين.

الفصل الرابع

الخطط الاستراتيجية للمقاومة: الدمج باستخدام العنف حين سالت الدماء الأولى في عام ١٧٨٠



تمثال الأدميرال المسلم جنغ خي

‹http:/www.Google Couretsy›

*بعد أن صليت الفجر تركت المسجد واجتزت شارع **ما لايتشر**، يا إلهي! هاجمني حشد من الناس وهم يحملون العصي الطويلة والقصيرة والسياط، فانهالوا علي ضربا، بينما وقفت النسوة عند ابواب بيوتهن وهن يرمين علي القمامة. وبعون الله، لا أدري من أين جاءتني الشجاعة والقوة اللتان مكنتاني من ضربهم الواحد تلو الآخر بعد أن كسرت ما يحملونه من السلاح. إزدادت نزعة الانتقام بين صفوف المخذولين فأخذهم الإبن الرابع لما لايتشر إلى الحاكم وادعى أننا جئنا بتعاليم جديدة لخداع الناس. حكمت المحكمة ضدنا وقادوني فضُربت ٤٠ جلدة، في حين حُكم على **ما منگشين** بثلاث جلدات. وحين شرعوا بجلده انشق السوط إلى شطرين! .... في اليوم التالي، ذهبت لصلاة الفجر عن طريق شارع **ما لايتشر** مرة أخرى، فلعنت ساكنيه من أولهم إلى آخرهم. تعجب الذين ملأ الحقد قلوبهم وقالوا، "من أين أتته هذه الجرأة؟" ذهبوا إلى المحكمة ثانية فقرر الحاكم أنه "يجب أن يعود كل شخص إلى مسقط رأسه".* (١)

الخفية ضد الجهرية في شونخوا

إثر رجوع **ما منگشين** من "الغرب" ونجاح حملته لإقناع الناس بمذهبه الجديد، اشتد الصراع بين أنصار **الخفية** و**الجهرية** في "بلاد السالار" وغيرها في محافظة **گانسو**. فالمسلمون انفسهم ودولة **التشينگ** سموها مشاحنات كلامية حول "خلافات دينية،" وإن التقارير الرسمية قد اعطت مبررات دينية لاستخدام العنف ضد مراسيم الذكر **الجهري** ولبس الأحذية خلال مراسيم الجنازة وطول اللحية والشارب، وغيرها من التفاصيل الدقيقة التي يراها البعض هرطقة وخداعا. غير أن تلك الصراعات "الدينية" كانت لها أسباب مذهبية. إن ما يقسم العباد ليس قضية الذكر فقط، بل جملة مواضيع مختلفة جعلت أنصار الطريقتين يواجهون بعضهم البعض في الشوارع ومن ثم أمام المحاكم المحلية. وفحواها خصومات حول الأموال التي تدخل المؤسسات الدينية ووضع السيطرة على عملية التحول إلى الإسلام

والخلافات الشخصية بين قادة المجموعتين، واخيرا تجرأ أنصار **الجهرية** من الشباب على تحدّي "الأعداء" في مناطقهم والدخول معهم في معارك شوارع.(٢).

كان يمكن أن تكون المواجهات بين أنصار **ما منگشين وما لايتشر** قضية عادية لصراع بين عصابات تتخاصم فيما بينها وسط أجواء معقدة تطغى على منطقة الحدود. لكن حدوثها في منطقة **السالار** قلب مفاهيم المعادلة. كان المسؤولون الرسميون في **گانسو** يخشون عنف **السالار**، كما كان يخافه الناس من القوميات الأخرى في منطقة **خوانگجونگ**، لأن سمعتهم بكونهم غزاة والخوف منهم قد انتشر في ممر **گانسو** حتى **شانسي**. فالإنطباع عن **السالار** وعنفهم الوراثي ووحشيتهم، اتهامات مثبتة في الوثائق الرسمية والمناقشات المحلية، وهي اتهامات أصبحت في عقول الناس حقائق ثابتة.

هاجر أجداد **السالار** من وسط آسيا إلى الصين ربما في القرن الرابع عشر.(٣) تقول المصادر الصينية المدفوعة بقرون من المشاعر المعادية، إن **السالار** قد طُردوا من أرضهم لسلوكهم العنيف.(٤) عاش هؤلاء في منطقة معزولة يصعب الوصول اليها، الأمر الذي جعل شهرتهم تطبق الآفاق، رغم أن عددهم لم يكن أكثر من ٥٠ ألفا في مطلع القرن العشرين.(٥) ولو أخذنا على سبيل المقارنة **المونتاگناردز** في الفيتنام وسكان منطقة جبال **أپالاتشيا** في الولايات المتحدة **والكارن** في بورما وغيرهم، لوجدنا أن **السالار** لا يختلفون عنهم من حيث السمعة والانطباعات السلبية والصور النمطية. احترف البعض منهم مهنا ذات طبيعة خطرة مثل الاتّجار عبر المسافات البعيدة عن طريق القوافل البرية أو الطّوافات في الأنهار. إستقر البعض منهم بعيدا عن منطقة **شينخوا** وانضم الكثير منهم للخدمة في الجيش. وفي المناطق الرسوبية المتحضرة من الصين، تُعطي مثل هذه المهن للعاملين فيها سمعة أقرب إلى مهنة قطّاع الطرق. صحيح أن البعض من **السالار** قد اعتاشوا من أعمال السلب على طرق التجارة، لكن تحركاتهم ومهنهم قد وصمتهم بأنهم بُغاة متشردون، إن لم يكونوا قطاع طرق فعلا، بغض النظر عما يفعلونه. وبطبيعة الحال

لا يمكننا أن نثق بالصورة التي يتخيلها الصينيون عنهم، والتي تجعلهم أوتوماتيكيا في خانة غير المتحضرين.(٦)

وكغيرهم من المسلمين الصينيين، كانت المساجد محاور حياة مجتمعات **السالار** وكانوا يسمونها **گونگ**. كان عندهم ثمانية منها على الجانب الجنوبي من النهر الأصفر وخمسة أخرى على الجانب الشمالي. تتردد على هذه الأماكن الدينية أعداد غفيرة منهم، رغم قلة عددهم وانتشار الفقر بينهم. وفي مطلع القرن العشرين كان يوجد في مقاطعة **شونخوا** وحدها ٦٢ مسجدا في مختلف الحجوم.(٧) تزاوج **السالار** مع الإثنيات الأخرى من التبتيين والصينيين. كما أنهم تأقلموا من خلال طرق عديدة على ظروف الحياة في منطقة الحدود. فمثلا أطلقوا شعرهم على شكل ضفائر على الطريقة المنشورية، غير أن الكثير منهم قاوموا بنجاح قضية لبس الأخفاف! وكما ذكر جوزف ترنپر، فإن مظهرهم كان يبدو وكأنه خليط يحمل سمات سكان منطقة الشمال الغربي مجتمعين. وفيما يتعلق بأصولهم الإسلامية ومعاملاتهم التجارية، أوجد **السالار** علاقات أقوى وروابط أشد مع مسلمي وسط آسيا مما كان لهم مع جيرانهم من المسلمين الصينيين. كما أن تقاليدهم الدينية ولغتهم التوركية خلقت فيهم الدوافع ووفرت لهم الحوافز الضرورية لاستغلال فرص التجارة الواسعة.(٨)

إن مقاطعة **شونخوا** أرض فيها غلظ وارتفاع. ومع ذلك يعتبرها **السالار** وطنا لهم. كانت من وجهة نظر الصينيين منطقة متخلفة منعزلة، وكمدينة حدودية جغرافيا لا وجود فيها لطبقة من المثقفين المعروفين. إنما ورد ذكرها في التاريخ بسبب العنف الذي كانت مسرحا له. تقع المدينة وسط منحدرات من التلال على ضفة النهر الأصفر وفيها مركز حكومي وثكنة عسكرية صغيرة يمثلان سلطة الدولة على امتداد أميال عديدة. وسكان منطقة التلال مكونون من التبتيين و**السالار** وغيرهم من المسلمين و**المنگوردز** وقليل ممن يتكلمون اللغة الصينية.(٩) وهكذا يمكن اعتبار المنطقة أرضا للسالار الذين عاشوا فيها لفترة تقرب من منتصف فترة حكم **التشينگ**، وهي فترة تزيد على الفترة التي عاشها الأوربيون في شمال أمريكا.

وعندما اندلعت الاضطرابات بين مختلف ساكني المنطقة،أضحت **شونخوا** غير مستقرة من النواحي العسكرية والاجتماعية والثقافية.

في مثل هذه الظروف الصعبة والأعداء يحيطون بهم من كل جانب، لم يستطع أي من سكان الحدود من النجوّ بنفسه دون الإعتماد على استعمال السلاح والمهارات العسكرية. وهما ما ساعد **السالار** في المحافظة على وجودهم. لا يمكننا طبعا توجيه اللوم اليهم، لكننا نستطيع أن نفهم كيف تولدت الانطباعات السلبية عنهم والخوف منهم بين الناس الذين عاشوا جوارهم. لقد لخص أحد المبشرين في القرن العشرين انطباعات السكان المحليين عن **السالار** وقام بنشرها على نطاق واسع.

*إن الموقع الجغرافي لمنطقة سكن **السالار** القريبة من التبت، جعلهم يدخلون في صدامات مسلحة دائمة مع أولئك الناس، مما جعل روح اجدادهم الشرسة تترعرع في داخلهم. إن انتشار إشاعة واحدة فقط بأن **السالار** قد تمنطقوا أسلحتهم وخرجوا كان كافيا لإثارة الرعب بين الصينيين المتواجدين على طرق التجارة. وهناك قول معروف مفاده أن **السالار** لا يحكمهم إلا واحد منهم، رغم أن مهمة كهذه ليست سهلة بالضرورة.*(١١)

لا يمكننا طبعا قبول مثل هذه الانطباعات السلبية كحقيقة ثابتة، ومن الأفضل أن نعرف كيف تطورت الأمور لتصل إلى هذا المستوى من تلويث سمعة **السالار**. إن الصينيين غير المسلمين وغيرهم من السكان المحليين الآخرين قد وضعوا صورا راسخة عن جيرانهم، بأنهم عنيفون ميالون للحرب وغير متحضرين يلتهمون ضحاياهم كالوحوش الضارية. بكلمة أخرى، برابرة لا أمل في إنقاذهم مما هم فيه. إن مظهر الصراعات القائمة على الإختلافات الأيديولوجية قد خلق **للسالار** جوا متقلبا ومتفجرا في سائر أنحاء المحافظة لأن مجرد ذكر اسمهم يثير الفزع في قلوب الناس. ولذلك فإن خصوماتهم المسلحة كانت تُقابل بأقسى درجات العنف على يد القوات الحكومية.

إن المسلحين الصوفيين في **شونخوا** وخوجو لم يكونوا بالتأكيد يهدفون إلى تأسيس سلالة حاكمة أو انفصالا عن محافظة **گانسو**، كما أن نشاطاتهم المسلحة لم تكن اعلانا للجهاد ليحولوا جزءاً من امبراطورية **التشينگ** إلى منطقة لتأسيس إمارة إسلامية. فبدلا من ذلك كانوا يبغون انتقاما من أعدائهم المسلمين على المستوى المحلي. ونظرا لافتقارهم إلى القيادة المركزية، حتى على مستوى المجتمعات المحلية، فإنه حتى القاضي الذي يبجله جانب، يعارضه الجانب الآخر باعتباره هرطقيا. ولذلك فإن كلي الجماعتين من أنصار الطريقة **الخفية** وأنصار الطريقة **الجهرية**، أي أتباع التعاليم القديمة والتعاليم الجديدة، كما كانت تسميهم التقارير الرسمية لدولة **التشينگ** ، بدأوا بعرض قضاياهم أمام المحاكم الرسمية غير الدينية. كما أنهم في حالات اخرى، وخاصة بين الشباب، فضلوا أن يحسموا خلافاتهم بقوة السلاح والاقتتال في الشوارع، وهو الأمر الذي حظي بانتباه السلطات وتدخلها الحاسم.(١٢)

من الصراع إلى "الثورة"

لم يتسبب أنصار **الخفية** في إثارة نعرات العنف في محافظة **گانسو**، قبل ظهور **الجهرية**. فأتباع الإصلاحي **ما منگشين** هم الذين أضحوا يُسمّون بمخربي الاستقرار الاجتماعي. وكما أوضحنا في أعلاه فإن الطرائق **الصوفية** لم تكن حركات جماعية تدعو إلى التأمل فقط، ولكنها كانت تدعو أيضا إلى دعم نماذج من النشاطات الاجتماعية والسياسية. فالولاء الداخلي لقائد معين جعل من الممكن تحريك مشاعر أنصاره وتسليح قواتهم ضد الأعداء، أي اتباع الطرائق **الصوفية** الأخرى. وبعد عشرين عاما، بلغ الصدام ذروته في عام ١٧٨١ عندما تدخلت المحاكم وقوانينها للنظر في قضايا الإقتتال في الشوارع بين أتباع الطريقتين، وهو ما حدا بسلطة **التشينگ** لبعث المحققين إلى **شونخوا**.(١٣) أصدر المحققون أوامرهم لاعتقال **ما منگشين** بعد أن عرفوا المزيد عن قيادة الحركة **الجهرية** وما كان يبدو من نشاطاتها التخريبية. وفي الحقيقة أنه حين تمّ إلقاء القبض على **ما منگشين**، لم يكن قط قريبا من منطقة **شونخوا** في أي وقت من الأوقات. لقد تمّ اعتقاله باعتباره المثير للقلاقل رقم

واحدا! فأودع السجن في **لانجو**. كُلف الجنرال **شينجو**، مساعد القائد العسكري لحامية مدينة **خوجو**، بملاحقة مثيري الشغب في **شونخوا**. فاستصحب معه **يانگ، شيجي** حاكم المدينة مع فوج من الجنود وكانت مهمتهم هي اعتقال جماعة ما ووضع حد لتهديدهم الإنسجام الاجتماعي.

في الطريق اعترضتهم حفنة من أنصار **الجهرية** من **السالار** بقيادة **سو الثالث والأربعين** وذلك في منطقة **باجوانگزي**. كان **السالار** قد أعدوا أنفسهم لذلك الفخ فأخفوا اسلحتهم وتظاهروا بأنهم من أنصار التعاليم القديمة **الخفية** ورحبوا بالجنرال وبمن كان معه. وحين أخبرهم الجنرال بنيته لتصفية أنصار التعاليم الجديدة **الجهرية**، أطلق **سو** إشارة فحضرت ثلة من المقاتلين الأشداء الذين كانوا قد اختفوا خلف تلة قريبة، فتمّ تجريد الجنرال وجنوده من السلاح ومن ثمّ بعدها اغتيل الجنرال والحاكم بدم بارد.(١٤) ثارت ثائرة امبراطور **التشينگ** نتيجة لهذا العمل العدواني الشنيع الذي اعتبره تجاوزا على هيبة الدولة وتحد لسلطانها، بل إنه بداية "ثورة" لتقويض اركانها. أصبح الصراع بين المسلمين الصوفيين مع بعضهم البعض موضوعا جانبيا حتى بعد أن أصبح حقا مدعاة للفوضى التي لا يمكن التغاضي عنها. وأشد من ذلك أنه أدى إلى مقتل الممثلين المحليين وقضاة الإمبراطورية. أعلنت السلطة شرعيتها واصدرت الأوامر لقوات **التشينگ** للتدخل السريع ومطاردة هؤلاء المارقين وتصفيتهم وانزال العقاب الصارم بمن يلقى عليه القبض منهم حيا، لأنهم شقوا عصا الطاعة على الحكومة المركزية.

كان موقف المسلمين هو الردّ بالمثل على العنف الذي أنزلته القوات الإمبراطورية بهم، فتزايد عدد "الثوار" خاصة مع تزايد الرأي بأن **الجهرية** صنف من الهرطقة، الأمر الذي جعل أنصارها في صدام مباشر ليس مع **الخفية** فقط بل مع شرعية امبراطورية **التشينگ**. لم يكن **السالار** راغبين أصلا في تحدي تلك الشرعية. كما أن نشاطاتهم حتى لحظة مصرع الجنرال والحاكم، كانت محصورة على ملاحقة أنصار **الخفية** باعتبارهم أعداءهم المحليين. وحين قتلوا **شينجو ويانگ** كان

سلوكهم ردّ فعل لتهديد خارجي - اعتبروه تدخلا في شؤونهم الداخلية وتهديدا موجها ضدّ طريقتهم **الجهرية**. وفي نظر **التشينگ** ، **فإن السالار** بقيادة **سو** قد ارتكبوا بادرة خطيرة بقتل المسؤولين الحكوميين فتحولوا من هراطقة مسلمين يحاولون تهديد الإنسجام الاجتماعي إلى ثوار يجب سحقهم مهما كلف الأمر. وهذه صيحة استمر صداها يتردد لأكثر من قرن!

لكي نوضح للقارئ قوة الذاكرة الشعبية عن الخوف من بطش السلطة بهدف إحلال السلام بقوة السلاح في منطقة الحدود، دعونا نتأمل "**ملحمة سو الثالث والأربعين**" التي جمعها وسجلها العالم الاجتماعي **وانگ شومين** الذي صاحب **گو جيگانگ** في منطقة شمال غرب الصين في حدود عام ١٩٣٧. تعيد الملحمة إلى الأذهان رد فعل الناس على احداث العنف عام ١٧٨١ حتى بعد مرور قرن من الزمن.

اصمتْ اصمتْ واستمع لما أقول
من **شيتسو** جاء **سو الثالث والأربعون**
جاء المعلم **سو** وخلفه **السولار** البواسل
وهم على أهبة الاستعداد للقتال طول الطريق حتى **لانجو**
لم يكن المعلم حاد الذكاء
لأن الداهية الحقيقي معلم اسمه **ما منگشين**
كان **ما منگشين** رجلا ذكيا فعلا
ستة آلاف من **السولار** البواسل كانوا مستعدين للموت في ساحة الوغى
لكن **سو** لم يقدر على المناورة دون حدوث شيء آخر
كان ينتظر أوراق شجر الكرز كي تنثني على شكل حبات الفاصوليا
يبدو أنه قد قابل **الخان الثاني**
الذي كان متّقد الذكاء
هبّ لمساعدة سو كي يلحقا **بتشيانلونگ** شر هزيمة
كانت زوجة **الخان الثاني** سيدة متقدة الذكاء جدا

كانت تريد من زوجها ألّا يلعب تلك اللعبة
اسمعني يا زوجي
وأنت أيضا يا **سو**
لو أزعجتما الإمبراطور
ستنالان منه أقسى الجزاء
إن سببتما له الأذى
فتلك جريمة لا تُغتفر
وفي اللحظة التي ينال فيها الغضب منه
ستُسجل أنها آخر لحظة لوجودكما على ظهر البسيطة
فجند الإمبراطور متحمسون كحرارة الشمس
وجنودك من **السالار** مثلهم مثل السحب العابرة
وحين تُشرق الشمس ستختفي تلك السحب
كم من **السولار** سيصمد في المعركة؟ لا أحد
حين تُشرق الشمس ستُعلن نهاية السحابة
هلاّ دخلت هذه الفكرة ذهنك؟!(١٦)

يبدو أن زوجة **الخان الثاني** قد أدركت ما سيترتب على مهاجمة القوات الحكومية أكثر مما أدركه زوجها أو **سو الثالث والأربعون**، على الأقل بما تفصح به الملحمة عنها.

بالرغم من تهديد **التشينگ** بالانتقام، لم يتورع **سو** أو يتردد في معاقبة **الخفية** لأنها جلبت سخط الدولة على **الجهرية** أولا، وثانيا كان يهدف للعمل على إنقاذ **ما منگشين** من عقوبة السجن الظالمة التي يقضيها في سجن **لانجو**. ومن **شونخوا** قاد **سو** حوالي ألفين من المقاتلين وتوجه إلى **خوجو** فدخلوا فيها وقتلوا عددا من أنصار **الخفية** وجنود **التشينگ** وبعض المسؤولين الحكوميين. لم يفسح المهاجمون مجالا لقادة القوة العسكرية في المدينة لتنظيم دفاعاتهم بشكل جيد، لأن **الجهرية** عبروا **نهر التاو** مستخدمين العبارات تحت جنح الظلام.(١٧) تحرك المسؤولون

على عجل والخوف يملأ قلوبهم فأتوا **بما منكشين** إلى سور المدينة وعرضوه أمام القوات المحاصرة مقيدا بالأغلال. أظهر **الجهريون** احتراما ورهبة ومحبة لشيخهم ما، الأمر الذي عزز اعتقاد المسؤولين في **لانجو** بأنه المتمرد الذي ينوي تهديم صرح السلالة. أنزلوه من على السور وقطعوا رأسه بالسيف في الحال. وفي رأيهم وهم يواجهون خطر القوات المسلحة المحاصرة أن فعلهم مبرر رغم أن الرجل ما كانت له علاقة مباشرة بهجوم **سو الثالث والأربعين** على **شينجو** ورجاله.

إن "**عصابات التعاليم الجديدة**"، كما بدأ مسؤولو **التشينگ** يسمونهم، هاجمت أسوار مدينة **لانجو** إلا أنها فشلت في إحراز أي تقدم. لم تتوفر لهم حتى الوسائل البدائية لكسر اسوار المدينة ولم تكن لهم الخبرة في ذلك. كما أن نجاحاتهم العسكرية كانت تعتمد على سرعة تحركهم أكثر من اعتمادها على التخطيط، يدفعهم واعز الانتقام من المسؤولين الأشرار الذين نحروا شيخهم بتلك الوحشية. تمترس الألفان من المقاتلين الأشاوس في الجبال جنوب المدينة. أحيط القصر الإمبراطوري علما بتطورات الهجوم المفاجئ على العاصمة الإقليمية، فبُعث المفوض الإمبراطوري **أگوي** من العاصمة بكين لتهدئة الموقف. عجز **أگوي** في بادئ الأمر من كسر دفاعات القوة المحاصِرة. وزاد في الطين بلة ضعف الكفاءة العسكرية لزميله **خَشن**، فأعيد الأخير إلى بكين. طلب **أگوي** العون من المليشيا التبتية المسلحة المتواجدة في جنوب **گانسو** وكذلك **الأشان** المنغول والحاميات العسكرية الصينية المحلية، وكل من يجد في نفسه البسالة والجرأة للإنضمام اليه. استطاع **أگوي** بجيشه المؤلف من قوميات متعددة أن يقطع الماء عن قوات **الجهرية** ويحاصرها ويبيدها عن بكرة أبيها خلال فترة لم تتجاوز الثلاثة أشهر. وفي المعركة الأخيرة قُتل **سو** ومن كان معه من **الجهريين** شرّ قتلة. إنْ نجاح هذه الحملة ضد **الجهرية** أصبحت علامة بارزة في سياسة **التشينگ** للإعتماد على سكان مناطق الحدود من أجل السيطرة على تلك المناطق.

إن العنف الذي شهده عام ١٧٨١ قد دفع لمزيد من الهجمات العسكرية وأجج الكره ضد **الآخرين** لأسباب ثقافية ودينية، كما أنه قوّى نزعة الانتقام عند كل

الفرقاء. إن ذات العنف أظهر التناقض الجلي بين مسلمي **گانسو** أنفسهم. فتلك الحرب لم تضع المسلمين ضد **التشينگ** فقط بل وضعتهم ضد المنغول والمنشوريين والصينيين من غير المسلمين. إلّا أن الأهم هو أنها وضعت المسلم ضد المسلم. لقد حارب بعض أنصار **الخفية** إلى جانب القوات الحكومية لتصفية **سو الثالث والأربعين** وجنوده من أنصار **الجهرية**. الأدلة على وجود الفرقة بين المسلمين واضحة في كل الوثائق الرسمية المدونة عن الأحداث التي تلت ذلك العام. وهو ما أعطى المسؤولين الفرصة لتأمين النظام الاجتماعي. لكنه يتوجب علينا التزام الحذر عندما نقرأ كلمات رجال الأدب الصينيين عن "الكفاح الوطني" و"الانتفاضات الوطنية الصائبة" وغيرها. إن وصم الناس بأنهم ينتمون إلى هذا **الميتسو** أو ذاك (**السالار** و**دونگ شيانگ** و**مينزو الخوي** قد خاضوا المعارك الضارية ضد ظالميهم من **التشينگ** الإقطاعيين) لأن هذه التصنيفات تشوه الحقائق اكثر مما توضحها وتسلب تلك الحوادث عمقها ومعناها.

ثأر الجهرية عام ١٧٨٤

إثر انتصار **أكوي** بالقرب من **لانجو** وإبادة **سو الثالث والأربعين** ورفاقه في العقيدة والسلاح، بذل مسؤولو **التشينگ** جل جهدهم على ملاحقة المسلمين من أنصار **التعاليم الجديدة** ومعاقبتهم. لقد ارتُكبت أخطاء كثيرة منها نقل الحفيد الثالث **لما لايتشر** المدعو **ووئي** وعدد من أنصار التعاليم القديمة إلى جنوب غرب البلاد باعتبارهم "ثواراً موالين للتعاليم الجديدة." إن عملية تهدئة مناطق الحدود قد جلبت على امبراطورية **التشينگ** عداء تزايد بمرور الوقت نتيجة قيام المسؤولين المحليين بأعمال هدفها خلق الإنطباع لدى البلاط وأمام مسؤوليهم بأنهم مخلصون للدولة، في حين كانوا يقترفون اعمالا انتقامية يندى لها الجبين ضد الثوار ومن والاهم. وليس من المدهش أن نرى أن عددا من مسلمي **الجهرية** الذين فلتوا من اضطهاد السلطات بدأوا مباشرة التخطيط للانتقام من قاتلي شيخهم (تلك المقتلة الوحشية

في **لانجو**)، وثأرا لرفاقهم الذين استشهدوا في المعارك أو من الذين أصبحوا هدفا لانتقام قوات الحكومة خلال عملية التهدئة.

بدأ **تيان وو**، وهو إمام **جهري** من غير **السالار**، تحريك رفاقه وبدأوا بجمع السلاح وبناء القلاع واعداد اللافتات وجمع المؤونات من أجل مقاومة أي حصار يمكن أن تفرضه عليهم القوات الحكومية.(١٩) تركزت تحضيرات **تيان** هذه في المرتفعات الواقعة إلى الجانب الشمالي من منبع **نهر وي**. وفي منطقة **گويران** الواقعة على امتداد الوديان القاحلة في شمال شرقي **گانسو**. وكلا المنطقتين تبعدان عن **شونخوا**.

إن الولاء **للجهرية** والمشاعر المعادية لإمبراطورية **التشينگ** (التي يحملها غير **الجهريين** من المسلمين)، والرغبة الشديدة في الانتقام من قتلة **ما منگشين**، كل هذه العوامل وجدت لها صدى واسعا من التأييد خاصة في مناطق المسلمين. ومهنة **تيان وو** كرجل دين ومنطقة نفوذه تشيران إلى أن نفوذ **الجهرية** أبعد من مناطق سكن **السالار** عام ١٧٨١. كما أن مجتمعات المسلمين الصينيين في شرق **گانسو** كانت متأثرة بالثقافة الصينية أكثر من تأثر **السالار** بها. تأثر هؤلاء بشكل عميق بوصول **الصوفية** وبالخوف من بطش **التشينگ** الذي سيمتد ليشمل المسلمين كافة.

في عام ١٧٨٤، أي بعد ثلاث سنوات من مقتل **ما منگشين** دعا كل من **تيان وو** **وجانگ ونتشينگ**، الذي ربما كان قريبا لزوجة **ما منگشين**، **إلى** الانتقام لمقتل شيخهم فهاجموا الحاميات المحلية في شرق **گانسو**، وهي مناطق بعيدة جغرافيا وثقافيا عن بلاد **السالار** التي كانت مسرحا للوثبة الأولى.(٢١) قُتل **تيان وو** في بداية المعارك لكن هذا التحرك كان أكبر من ثورة **سو الثالث والأربعين**، وتطلب من حكومة **التشينگ** عدة اشهر وتكاليف اكثر لإخمادها. وبرغم الإدعاء بأن ملاحقة الثوار ستجري لإنزال العقاب بهم، إلّا أن قائد الحملة **لي شرياو** قد أمر بإعدام أكثر من ألف امرأة وطفل من أتباع **الجهرية** في شرق **گانسو**، مما تسبب في مزيد من الحقد الدائم بين صفوف المسلمين.(٢٢) وحتى الصحف المحلية- التي كانت من أشد أنصار الدولة والإمبراطور، والتي كانت ابواق **دعاية** لسمو الثقافة الصينية- قد

أشارت إلى أن المذبحة التي حلت بالأبرياء ستوقد روح القتال بين صفوف ما تبقى من الثوار.

خلال الفترة التي تلت سحق التمرد الثاني للمسلمين المحليين، أدرك بعض قادة **التشينگ** العسكريين أن تجدد العنف ثانية قد يكون مرده شدة العنف ضد **الجهرية** قبل ثلاث سنوات. لقد اعترف **فوكانگان** أن لا هو ولا غيره من جنرالات الدولة يستطيع تصفية أنصار **التعاليم الجديدة**، كما صدرت لهم بذلك التعليمات، وأن بعض اتباع التعاليم القديمة من المسلمين **الخفية** بدأوا يسمعون إشاعات بأن الدولة ترتكب المذابح ضد المسلمين، فانضموا إلى صفوف ثوار **الجهرية**. والمحاولة الواسعة لتصفية هؤلاء الأنصار أو اجبارهم على التحول إلى التعاليم القديمة سيؤدي إلى نفور كافة مسلمي **گانسو** من الدولة نفورا دائما، المسلم الصالح منهم والطالح. وعليه اقترح **فوكانگان** اتباع وسائل أخف قسوة مما كان يُستعمل لتهدئة المناطق عام ١٧٨١.(٢٣)

استمرت الحكومة في ملاحقة أنصار التعاليم الجديدة **الجهرية** بالرغم من اقتراح **فوكانگان** المشار إليه في اعلاه، وسنت قوانين لإنزال عقوبات صارمة بحق أي مسلم يساهم في أية مخاصمات دينية. كما صدرت التعليمات بمنع المسلمين من بناء مساجد جديدة وفرضت عليهم ايقاف التبشير بالإسلام بين غير المسلمين، أو حتى تبنّي أطفال غير مسلمين. ومُنع الأئمة **أخونگ** أن يتحدثوا عن الإسلام خارج مناطقهم المحلية والهدف من كل هذه الممنوعات هو الحد من نشاطات مبشري **الصوفية** المتجولين.(٢٤)

طُبقت العقوبات الخاصة بهذه "الجرائم" على المسلمين من غير اتباع **الجهرية**، لكن أنصار **الخفية** استمروا في تحالفهم مع امبراطورية **التشينگ** وخدمتها على المستوى المحلي، واستحصلوا على بعض الأراضي التي صودرت من العائلات **الجهرية** "المجرمة." لم يحاول **التشينگ** التضييق على **الصوفية**، التي لا يفهمها المسؤولون، لكن التضييق استمر على اتباع التعاليم الجديدة، الذين قالت السلطات عنهم إنهم وراء التهييج واضطراب الأمن الجماعي وتعكير السكينة العامة. جرت

الأمور عكس ما أراد مسؤولو الدولة. لقد ساعدوا من حيث لا يدرون عندما ربطوا مباشرة بين **الجهرية** والحركات "الهدامة". فالمسلمون الذين عندهم خلاف مع سلطة الإمبراطورية بدأوا ينضمون إلى الحركات المسلحة السرية المعادية للدولة، حتى وإن كانوا من اتباع **الخفية**. والأئمة **أخونگ** الذين شعروا بأنهم مسؤولون عن التلاحم في صفوف **الجهرية**، استمروا في نشاطاتهم لأنهم رأوا في انفسهم دعاة دين إلهي حق أعظم من كل المعتقدات والأفكار الوضعية. فبدأوا في كتابة كراسات سرية بالعربية والفارسية تحتوي على قصص ومعجزات عن الأولياء الصالحين بدءاً من **ما منگشين** ومن تبعه، وتكيل لهم المديح وتذكر كراماتهم. واحد من هذه الكتب ألفه **أخونگ** إمام من **گانسو** اسمه **جوانلي بي**. تُرجم هذا الكتاب حديثا إلى الصينية من قبل اثنين من أئمة **أخونگ الجهرية**، وهما روائيان مسلمان معروفان. يوضح الكتاب ليس فقط انتقال المعتقدات من جيل إلى جيل بل أيضا سلسلة المشايخ التي يجب أن يُحافظ على سريتها لحماية المعنيين من بطش السلطة.(٢٥) وبالرغم من وضع المنع عليهم، استطاع المبشرون بفكر **ما منگشين** من جمع الأنصار الجدد من تركستان إلى منشوريا، ثم جنوبا حتى منطقة **يوننان** التي نُفي اليها العديد من **جهرية گانسو**.وهذا يتناقض بشكل حاد مع صوفيي **گانسو** الآخرين وأتباعهم الذين اقتصرت نشاطاتهم على مناطقهم المحلية وحافظت مؤسساتهم على احترامها في عيون **التشينگ**. إن تفرد **الجهرية** بكونها منظمة اسلامية واسعة الإنتشار في مختلف المناطق أعطى الإمبراطورية دليلا آخر على أنها خطر يهدد السكينة العامة. استمر الحال حتى تأسيس المعاهد الإسلامية "الوطنية" في بكين و**نانجينگ** على يد "المثقفين المسلمين الجدد" في القرن العشرين. وهذه هي المرة الأولى التي أصبح فيها للمسلمين منظمات غير تجارية ولها نشاطات متنوعة.

يجب ألّا توصف حروب القرن الثامن عشر بأنها "صراعات قومية" أو "ثورات إسلامية" لأنها كانت خصومات محلية بسبب قضايا دينية ودنيوية وأنها انتعشت واشتدت بسبب بطش الدولة الذي حركه خوف المسؤولين المحليين من **السالار**، ومن قبل رجال خافوا على فقدان وظائفهم واعتقدوا أن ملفاتهم في العاصمة أهم

من مواطني الدولة الذين يحكمونهم. كانوا يخشون وقوع اللوم عليهم في حالة اختلال الأمن العام في مناطقهم. اضف إلى ذلك انتشار اتباع **التعاليم الجديدة** الخارجين على القانون خارج محافظة **شونخوا**، وهو الأمر الذي سبب لهم قلقا بالغا. غير أنه غاب عليهم كما غاب على المواطنين غير المسلمين أن يميزوا بشكل واضح بين المسلم "الجيد" والمسلم "الرديء" سوى قضية "التعاليم" التي يؤيدونها. كما أن المسلمين كانوا يسمون اخوانهم في الدين "النوع الباطل من المسلمين" ورددوا ذلك أمام محاكم الدولة بشكل مستمر بعد رجوع **ما منكشين** من الحج عام ١٧٦١. وهكذا يمكننا أن نرى تعقيد القرارات السياسية الوطنية فيما يتعلق **بالتعاليم الجديدة** وسوء الإدارات المحلية والخصومات الدينية والوضعية وحماس بعض العسكريين الزائد عن اللزوم في تنفيذ قرارات لا يمكن تنفيذها أصلا. إلى جانب ذلك وصول تيارات اسلامية قادمة من غرب البلاد لتبدأ تاريخا متعطشا للدم في **گانسو** استمر اكثر من قرن ونصف.

أما الإمبراطور **تشيانلونگ** فقد كان حائرا حيال نشاط الثوار في منطقة الشمال الغربي. كتب في رسالة إلى الجنرال **فوكانگان** يقول:

*فمثلا موضوع الثوار المسلمين بقيادة **تيان وو**- كيف استطاع أن يجمع هذا الحشد إلى جانبه بدون قضية أو سبب ويحدد موعدا لإعلان الثورة؟ لماذا انضم إليه المسلمون في المناطق القريبة والبعيدة وأطاعوه كالأغنام؟ لقد فكرت في هذا الأمر مليا وأعدت النظر في تصرفاتي لكي أجد جوابا. عندما توليت العرش منذ عدة عقود تصرفت بحذر شديد وآليت على نفسي ألا أظهر ولو شيئا قليلا من الغرور أو التظاهر. لقد استجبت بشكل مستمر إلى معاناة الشعب .... أما بالنسبة **لگانسو** فقد أمددتها بالمؤونات الإستثنائية طوال هذه السنين ولم أسمع أن القحط أو الفيضان أو المجاعة قد حلت بأرضها. لم يفقد الفقراء منهم بيوتهم. ولم يأت إلى سمعي أن قاطعي الطرق يسببون أية مشاكل، ولا أن المسؤولين قد استعملوا مع المواطنين أساليب فجة، مما أتاح للصوص أن يعيثوا في الأرض فسادا ويخلوا في السكينة العامة. هل أن تحقيقات **لي شرياو** مع المسلمين قد تسربت، الأمر الذي جعل الثوار*

ينشرون الإشاعات (بأن حملة الحكومة) تهدف إلى "تصفية المسلمين" فاختلقوا عذرا للتهييج؟ لقد فكرت بكل هذه الأمور، ولا أجد أيا منها كي يكون سببا حقيقيا. وفي النهاية أسأل نفسي، لماذا ثاروا إذن؟ يجب أن نصل إلى لبّ هذه القضية! (٢٧)

ثورة كبيرة كل ستين سنة

*إن الإختلافات الدينية قد تسببت في نشوب صراعات دائمية بين الصينيين والمسلمين. (**تشوون – جانگ**)*

*ثورة المسلمين في **شانسي وگانسو** لم تكن ثورة دينية. ومثلها مثل الثورة في **يوننان** ، فإن ثورة **دونگان** كانت صراعا داخليا في المجتمع على نطاق واسع – إنها ثورة لالتئام جراح ناس وقع عليهم الظلم فجعلوا المساجد مراكز رمزية لوجودهم. وهدفهم هو أن يحافظوا على ذلك الوجود. (**ك.سي. ليو ورتشارد ح. سمث**)*

*إنتفاضات المسلمين في **شانشي** هي ردّ فعل لابد منه ضد سلطة **التشينگ** الرجعية وتحيزها الديني وابتزازها الاقتصادي القاسي، وكل سياساتها الإقطاعية الظالمة. تفجرت هذه الإنتفاضات لتعبر عن التناقضات الاجتماعية في المنطقة. (**تشون تشونكاي**)*

*انتفاضة المسلمين الصينيين في **شانشي- گانسو** كانت تعبيرا عن صراع **منتسو الخوي** لمقاومة سيطرة **التشينگ** الرجعية، واعتراضهم على سيطرة النظام الإقطاعي وسيطرة الطبقة العليا لاستغلال الفقراء. والأهم من ذلك كانت صراعا لمقاومة حكام **التشينگ** وظلمهم وتحيزهم. (**وو وانشان**)*

*الإسلام الجديد الذي بدأ بنشر التزمت بين المسلمين عن طريق الجهاد، أصبح حركة اسلامية متطرفة اسمها **المهدية**. حاولت هذه الحركة استخدام الجهاد (بشكل رئيسي ضد غير المسلمين) لتخلق ألفية جديدة وتضع حدّا للخلافات المذهبية وفروعها المختلفة. بكلمة اخرى، فصلوا انفسهم عن الإسلام وانصرفوا إلى ممارسة شعائر تشجع الفرد على الإستبطان، أي أن يتأمل أفكاره ودوافعه ومشاعره.* (٢٨)

(رافئيل اسرائيلي) (اسرائيلي من اصل مغربي يؤمن بمفهوم صراع الحضارات الذي جاء به الصهيوني برنارد لويس – المترجم).

تاريخ الثورة الكبرى

تهتم أدبيات تاريخ الصين المعاصر عن المسلمين في شمال غرب البلاد بأعمال العنف في ستينات وسبعينات القرن التاسع عشر، وتستخدم عبارتين مثيرتين للذكريات تناقضان رواية حكومة **التشينگ**. تقول الأولى التي ظهرت في جمهورية الصين الشعبية بعنوان "الإنتفاضة الرشيدة **لخوي شانشي** ١٨٦٢- ١٨٧٥" في مقالة نُشرت في **شيئآن** وحددت الجانب الأخلاقي لحركة المسلمين العسكرية.(٢٩) ففي تحليل للصراع المحلي بين المسلمين وغير المسلمين، حمّلت المقالة الجماعة الأخيرة مسؤولية أكبر وألقت باللائمة على عاتق "قواد" المليشيات. فالمسلحون الذين قاوموا جيوش **التشينگ** في منتصف القرن التاسع عشر نالوا الإستحسان باعتبار حركتهم مقاومة للنظام الإقطاعي. والى جانب ذلك فإن الثوار المسلمين في شمال غرب البلاد (وفي جنوب غربها أيضا) كانوا أبطال **المينو** لأنهم قاتلوا من أجل استقلال ووحدة كل **منتسو** في الصين ضد سيطرة المنشوريين على البلاد. وفي اطار هذا التفكير اعتُبر المنشوريون أشرارا ليس لأنهم منشوريون، ولا لأن **المنتسو** الخاص بهم يسيطر على كل **منتسو** آخر، وإن حالة الأقلية لها ايجابية لا تكاد تُذكر- ولكن لأنهم اقطاعيون وظالمون ويفتقرون إلى الكفاءة.

أما العبارة الثانية فقد انطلقت من تايوان حيث لا يستخدم المثقفون كلمات عن الصراع الطبقي **والمنتسو**. كان عنوان الدراسة التي أعدها **گاو ونيان** هو "الحركة المعادية **للتشينگ** بين **خوي** الشمال الغربي في أواخر حكم الإمبراطورية."(٣٠) اشتملت قائمة "الأسباب المباشرة" للعنف امورا سياسية واقتصادية واجتماعية فشلت الحكومة في معالجتها. وفي رأي **گاو** أن المسلمين الصينيين الذين ثاروا ضد **التشينگ** كانوا أناسا جيدين وتصرفوا لأسباب أخلاقية في مقابل دولة تنقصها

الفضيلة. وعلى المستوى المحلي فإن القوات المضادة للمسلمين اعتمدت على فلسفة كونفوشيوس لإطلاق الصفات النمطية السلبية على المسلمين.

بطبيعة الحال، لا شيء جديد في الدراسات التاريخية الصينية لأننا تعودنا خلال العقود الأربعة الماضية على تكرار مفاهيم التناقض والصراع الطبقي التي ملأت صفحات المصادر الثانوية. وفي هذه القضية بالذات فإن الإستنتاجات التاريخية التي تبرز أمام الباحث الأوربي/الأمريكي كحقيقة اساسية، هي ان الثوار كانوا مسلمين مجبولين على العنف والتمرد. لقد تعلمنا لسنوات وعلى لسان المستشرقين بأن نتوقع العنف من المسلمين، وأن الصور النمطية عن الإسلام والمسلمين عند الصينيين التي اشرنا اليها في الفصول السابقة تشير إلى نزعتهم نحو السلوك المعادي اتجاه الغير. نشر رافئيل إسرائيل كتابا عن الموضوع بعنوان "دراسة الصدام الحضاري" ادعى فيها أن دوافع الثورة التي قادها **ما خوالونگ** كانت دينية صرفة.(٣١) فما هو الدور الذي لعبه الدين حقيقة في هذه الثورة؟ هل أن مؤرخي جمهورية الصين الشعبية على صواب حين نظروا إلى الإسلام باعتباره أكثر من عامل واحد فقط لتوحيد **منتسو الخوي** مع **منتسو** مسلم آخر ضد اقطاع دولة **التشينگ**؟ هل أن مثقفي تايوان لهم ما يبرر اعتقادهم حين قالوا إن مقاومة مسلمي القرن التاسع عشر لإمبراطورية **التشينگ** كانت مشكلة ذات صبغة سياسية ضد الإمبراطورية؟ هل أن إسرائيل على حق حين قال إن الإسلام وتعاليم كونفوشيوس أيديولوجيتان في صراع حضاري على الدوام، وذلك هو سبب العنف. سننظر في متابعة هذه المواضيع، ونحن نتفحص العنف الواسع الإنتشار في تاريخ مسلمي الصين – وسيل الدماء التي اريقت على مدى اثني عشر عاما، والخراب الذي حلّ في عدد من المحافظات وخلف الملايين من القتلى والمشردين، ودفع قضية ضمّ مناطق الحدود التي قال عنها **گو جيگانگ** إنه أمر مؤسف لم يتم تنفيذه ونحن في عام ١٩٣٩ كما ذكرنا سابقا.

ثورات ذات تركيز مختلف: شانشي

لم تشهد العقود التي تلت ثمانينات القرن الثامن عشر أي نشاط إسلامي معارض لإمبراطورية **التشينگ** في محافظة **گانسو**، غير أنه خلال ذلك الوقت اتسعت شبكة التجار المسلمين وكثر كذلك عدد رجال الدين المتجولين . نجم عن ذلك أن هؤلاء كانوا يأتون بأخبار عن اتساع دائرة العنف والاضطرابات في الصين، وكذلك نشروا بعض المعلومات الإستخباراتية المحددة حول نقاط الضعف في القوات العسكرية التابعة **للتشينگ**.(٣٢) وكما رأينا فإنه تمّ تطبيق عدد من الإجراءات التي تعبر عن التحامل العنصري للإمبرطورية ضد المسلمين بحجة تطبيق القوانين القضائية. فمثلا القوانين التي عالجت قضايا في **شاندونگ وأنخوي** و**خينان** وغيرها من المحافظات المركزية، أكد **مجلس العقوبات** أن المسلمين مطبوعون على العنف أكثر من غير المسلمين، ولذلك يجب أن تكون عقوباتهم أشدّ ردعا. ليس لدينا ما يدل على أن ما فعله المسلمون كان ردّا على التغيرات في القوانين، ولكن من المؤكد أنهم يعرفون أن "**الخونية**" أمر سلبي في نظر السلطات وربما خطر على الشخص الذي قد يجلبه حظه العاثر للوقوف أمام محاكم الدولة.

في عام ١٨٥٠ بعد اندلاع حروب **التايبنگ** في الجنوب وتزايد الصدامات بين المسلمين وجند الإمبراطورية في **هونان**، أصبح الوضع في شمال غرب البلاد أكثر تأزما. بدأ العنف على نطاق محدود- في الأسواق وداخل القرى – ثم اتسعت رقعته بسرعة لا تُصدق.(٣٣) إن الإدارة المدنية للإمبراطورية التي كانت مهتزة خلال فترة الاضطرابات ١٧٨١-١٧٨٤ لم تستعد توازنها. فالفساد وارتكاب الأعمال المحضورة من قبل موظفي الدولة، وزيادة الضرائب واهمال توفير الموارد الضرورية للجيش ومصادرة المواد التموينية من قبل القوات العسكرية المحلية، كل هذه الأمور كانت متفشية، وكان المسلمون وغير المسلمين في محافظتي **شانشي** و**گانسو** جميعا ضحاياها.

أضف إلى ذلك أن المسلمين خضعوا للتمييز الاجتماعي الذي فرضته الدولة كما فرضته قوات الأمن المحلية بتوجيه من الطبقة الأرستقراطية بقصد مواجهتهم.

استمرت عسكرة المجتمع في كل أنحاء الإمبراطورية، غير أن قوات ميليشا غير المسلمين في شمال غرب البلاد كانت لها مهمة واضحة، وهي استهداف المناطق ذات الكثافة السكانية الإسلامية، التي قامت بدورها بإنشاء مجموعاتها المسلحة. تسارعت هذه العملية في **وادي وي** في جنوب محافظة **شانشي** في القرى والحواضر حيث تحولوا إلى **الصوفية** وظلوا يتبعون **القديمو** والسكن حول المساجد تجمع بينهم روابط الهوية الإسلامية. وحين واجهوا قوات غير اسلامية مسلحة معادية، قام المسلمون بتأسيس روابط للدفاع عن أنفسهم وبنوا خطوطا دفاعية وتحصينات عديدة على سفوح التلال شمال **وادي نهر وي**. فمثلا تحصينات مسلمي **فنگسيانگ** امتدت "**لمئة لي**" (حوالي ٤٠-٥٠ كيلومتراً - المترجم) في شمال غربي **شانشي**. وما من شك أن الشباب المسلمين في تلك القلاع المحصنة قد دخلوا في مواجهات دموية مع غير المسلمين في المناطق المحيطة بهم. لكن المسلمين لم يؤسسوا قيادة مركزية على مستوى المحافظات ولا حتى على مستوى المناطق. فالصفوة منهم ومن مليشياتهم لم يعملوا على توسيع نفوذهم وسيطرتهم خارج نطاق مناطقهم إلّا ما ندر.

حدثت أشد المعارك ضراوة في الجنوب الشرقي من المحافظة في مطلع عام ١٨٦٠. وتشير المصادر المحلية إلى أن تلك الصراعات قد أثارت انتباه المجتمعات المحلية في عدد من المناطق حيث شارك فيها الآلاف من الرجال المسلحين. أضف إلى ذلك، أن السنتين ١٨٦١- ١٨٦٢ قد شهدتا تدخل قوات خارجية لتأجيج الصراعات المحلية. وعندما تحركت جيوش **تايپنگ** من منطقة **ستشوان** شمالا بقيادة **شي داكاي**، ومن **هينان** بقيادة **تشن ديكاي** التي اتجهت غربا، كل هذه التحركات أدت إلى زيادة الإحتكاكات في **شانشي**. وحين أدرك المسلمون وغير المسلمين عجز قوات **التشينگ** وعدم استعدادها عسكريا، قامت كلتا الفئتين بتعزيز دفاعاتها. كما أن البعض من المسلمين اتصلوا بالقوات المهاجمة الثائرة المتقدمة نحو مناطقهم ليكونوا حليفا لها ضد المليشيات غير المسلمة.(٣٤)

لم تكن **شانشي** وحدها ساحة للمصادمات. لقد هيأ القادة المحليون السلاح لأتباعهم وللمليشيات التي تأتمر بأوامرهم في كل ارجاء **گانسو**. والمساجد

المرتبطة **بالمينخوان** كانت لها شبكة من الاتصالات والإمدادات لأن أئمتها يمكنهم التنقل بين المناطق ذات الكثافة السكانية المسلمة بسهولة وبالقادة الذين يدينون بالولاء لشيخ معين. كما أن أتباع **الصوفية** كانوا قادرين على توظيف مصادرهم الاقتصادية بشكل فعال لأن الأتباع حريصون على تقديم التبرعات لخزينة **المينخوان**. وحتى في غياب تعاون مركزي، تمكن مسلمو **كانسو** من إعداد أربعة أقاليم ذات قدرة عسكرية يحكمها عادة قادة دينيون وعسكريون. أصبحت المنطقة الممتدة على طول **النهر الأصفر** من **نينگشيا** حتى مدينة **جنجيو** مركزا **للجهرية** بقيادة **ما خوالونگ**. كما أن **ما تسخانو** أصبح زعيما **للخفية** وقائدا للمليشيا في منطقة **خوزخو**، و**ما گيوان** قائدا للمليشيا في **شينينگ**. أما منطقة **سوزخو** الواقعة إلى الغرب من ممر **كانسو**، فشهدت بروز قوة مسلمة مستقلة تحت قيادة **ما ونلو**. كان الاتصال بين هذه المراكز يعتمد على شبكة اتصالات ومعلومات أكثر من كونها شبكة للتنسيق بين نشاطاتها. ولا تتوفر لدينا أية وثيقة تاريخية تظهر وجود نقاشات أو تبادل رأي من أجل تخطيط النشاطات والتنسيق لها بين قادة تلك المراكز، بالرغم من أن أتباع **الجهرية** في تلك المراكز الأربعة يدينون بالولاء إلى **ما خوالونگ**. وكما سنرى فإن كلّ أولئك القادة قد تمت تصفيتهم دمويا خلال العنف المحلي الذي تزايد فأصبح مواجهة عسكرية في ستينات القرن التاسع عشر.

إستنادا لما ذكره **وانجانگ تشو**، فإن الأسباب الموجبة للعنف بين الأعوام ١٨٦٢ – ١٨٧٣ بدأت بعراك بسيط حول أعمدة خيزران في سوق **وينان**. غير أن مؤرخين آخرين وجدوا أسبابا مختلفة أجمعت كلها على تزايد التوتر المحلي. يذكر أحد المؤرخين أن عددا من المسلمين حاولوا قطع عرض مسرحي لغير المسلمين لأنه لم تتم دعوتهم للمشاركة فيه.(٣٥) وتشير تقارير أخرى مصدرها شمال غرب البلاد إلى قيام نزاعات مسلحة بين الجماعات الإسلامية المتنازعة في عدد من المناطق في تلك السنوات. انتقلت اخبار هذه النزاعات بسرعة عن طريق شبكات التبادل التجاري وقنوات **التشينگ** الرسمية مما زاد في تعقيد الأمور والتوتر في كل أنحاء **شانشي** و**كانسو**. فمنطقة **شينينگ** مثلا عانت من الصدامات بين اتباع

الجماعات المختلفة التي تتنافس مع بعضها البعض داخل الخفية لعدة سنوات.(٣٦) وخلاصة القول إن "الثورة" كانت نتيجة التوترات القائمة في عدد من المناطق ولم تكن لها نزعة مركزية أو تمّ التخطيط لها. كان سببها انفجار التناقضات على المستوى المحلي ثم تطورت إلى نزاعات أكثر شمولا.

يتفق الجميع على أن العنف الذي انفجر بشكل غير اعتيادي في وادي وي انتشر بسرعة كانتشار النار في الهشيم، وذلك في ربيع عام ١٨٦٢.(٣٧) لم يجر القتال وفق خطط عسكرية أعدت لهذا الغرض، بل كان ينتشر على الطرقات والأنهار التي تصل بين المناطق ذات الكثافة السكانية المسلمة. ويبدو أن كلا منها كان ردا على هجوم المليشيات أو الإنسحاب إلى تحصيناتها أو مهاجمة القرى التي يسكنها غير المسلمين. وتشتهر شانشي بأنها أصل الثورة بسبب وصول جيوش تايبنگ ونيان اليها، وثانيا هو قيام مسلمي المنطقة بقتل بعض المسؤولين الكبار وعدد من افراد الطبقة الأرستقراطية. فمثلا جاء تسخانگ في، وهو مثقف وموظف عال في دائرة الإحصاء، من تسيان إلى ليتونگ لينظم مليشيا ويقنع المسلمين وغير المسلمين بأن جيش الدولة "العدو الحقيقي" وجيش تايبنگ هما ما يشكل تهديدا للأمن الجماعي. وبعد أن طلب من المليشيا غير المسلمة تركه دون حراسة وبعد أن فشل في تحقيق مركز متواز بين الطرفين،استطاع المسلمون اعتقال تسخانگ ومن معه وأخذوهم إلى كانتگتسخين حيث قتلوا جميعا، وهو الأمر الذي جعل المسلمين "ثوارا" في رأي قانون دولة التشينگ.(٣٨) وفي مناطق اخرى تمكنت المليشيا غير المسلمة من تحريك اعضائها واخذ زمام المبادرة بالهجوم.(٣٩). وبشكل عامل، فإن عنف المسلمين، وليس المليشيا شبه الرسمية، اعتُبر "ثورة" في رأي المسؤولين الذين اعتبروه نشاطا إجراميا.(٤٠)

التزم القادة العسكريون لإمبراطورية التشينگ من امثال ينگتشي وشينگباو بالسياسة الرسمية إثر موجة العنف التي ذهب ضحيتها عدد من اعضاء الطبقة الارستقراطية. هل توجب عليهم أن يتخذوا خطا متشددا ويعاملوا كل المسلمين كثوار أو يحاولوا التفريق بين المسلم "الجيد" والمسلم "الرديء"؟ أجمعت القيادة

العسكرية على الشق الثاني من الحلّ لأنهم أخذوا بنظر الاعتبار نقص مصادر التموين العسكري والعبء الذي سيقع على عاتقهم إذا ما قرروا مقاتلة **التايبنگ** والمتمردين الآخرين. كان بإمكان الحكومة أن تدفع إلى ميادين المعارك قليلا من آلاف الجنود الذين ينقصهم حسن التسليح ضد جيش مؤلف من مئات الآلاف من الجنود المتحمسين على الطرف الآخر. غير أن السكان المحليين غير المسلمين كانوا يخشون أن يقعوا ضحية للعنف البشع الذي سينزله المسلمون بهم، ولذلك طالبوا بالشق الأول وهو الذي يقوم على "إبادة" المسلمين.(٤١) يشير أحد المصادر غير الرسمية إلى "أوامر بقتل كافة المسلمين دون إجراء أي تحقيق."(٤٢) ففي أعين غير المسلمين في منطقة **شانشي** أن حكومتهم قادرة على حمايتهم فقط عن طريق ابادة المسلمين بشكل مستمر، إما بقتلهم على أيدي القوات الحكومية أو بالسماح للمليشيات للقيام بهذه المهمة.

أثارت الخيارات السياسية انقساما بين صفوف المسلمين. فبعض القادة الذين خشوا بطش الدولة وعرفوا ما تجره المليشيات عليهم، كانوا يفضلون شن ضربة شاملة على عاصمة المحافظة في **شيئان**لإضعاف المقاومة واجبار حكومة **التشينگ** على اصدار عفو عام عنهم وأن تتخلى عن خطر تسميتهم "ثواراً"؟ اعترض آخرون على هذا الرأي المتطرف وكانوا يفضلون اتباع وسائل دبلوماسية. وفي وسط ذلك الجو المليء بالإشاعات عن نشاطات المتعطشين للدماء (بعضها صحيح)، ازدادت الأمور سوءاً لوجود كثير من الجماعات المسلحة. قتل بعض الثوار المسلمين على يد اخوانهم في الدين وارتكب آخرون عمليات انتحار بسبب خيبة أملهم. وفي أواخر شهر يونيو ضربت ميليشا المسلمين المنظمة حصارا على مدينة **شيئان**.(٤٣) حاولت قوات **التشينگ** القادمة من **شانشي** في الشرق و**ستشوان** في الجنوب أن تكسر الحصار على مدى عام كامل. وأدت المعارك الطاحنة بين المسلمين وجنود **التشينگ** مع حلفائهم من مليشيا غير المسلمين إلى تكبد جميع الأطراف خسائر فادحة. تمّ كسر الحصار عام ١٨٦٣، واستمر القائد الكفوء **دولونگا** تقدمه غربا باتجاه **فنگشيانگ** ليعزز انتصار قوات **التشينگ**. لكن القوات الحكومية وسعت

انتشارها مما اعطى القوات المسلمة فرصة لصد الهجوم والمحافظة على مواقعها في الكثير من مناطق **شانشي** للسنوات الخمس القادمة. وبعد أن تمت هزيمة قوات **التايبنگ** وتعيين **تسونگتانگ** قائدا أعلى عندما تولى قيادة القوات القادمة من **هونان،** استطاع جمع المعلومات المخابراتية ومكّن قوات **التشينگ** من أن تستعيد السيطرة على **شانشي** عام ١٨٦٨.

وفي نفس الوقت خلف القتال الدامي الآلاف من المسلمين كلاجئين ومشردين هرب أغلبيتهم غربا باتجاه **گانسو** حيث نظموا "**الكتائب الثمانية عشر العظمى** "وفق المناطق والأشخاص الذين قادوها، فتمركزوا في شرق **گانسو** لإعادة بناء قوتهم حتى يتمكنوا من القتال ثانية من أجل العودة إلى مناطقهم وبيوتهم التي أجلوا منها. حافظت هذه الكتائب على خصوصيتها كمؤسسات اسلامية في **شانشي** وركزت على المحافظة على ولائها وصمودها لما تبقى من فترة العنف. وفي مختلف المراكز في **گانسو** كان على القادة المسلمين أن يقرروا ما كان يجب عليهم عمله للعناية باللاجئين القادمين من **شانشي** والذين كانوا "منّا" كمسلمين وفي نفس الوقت "منهم" (ليسوا من مناطقنا وغالبا ما تكون لهم ولاءات طائفين مختلفة). لم يكن قادة **گانسو** المسلمين راغبينَ في ادماج اللاجئين من مسلمي **شانشي** ادماجا كاملا في مجتمعهم. وهكذا أصبح مسلمو **شانشي** ليسوا كنواة لمقاومة نشاط قوات **التشينگ** "لتهدئة" **گانسو،** بل موضوعا مثيرا للنزاع بين المسلمين أنفسهم. فتجربتهم المريرة في **شانشي** ورغبتهم في الانتقام ووجودهم في **گانسو** كمشردين عن ديارهم قد زاد من شدة العنف في اقسام عديدة من المنطقة، وإن لجوءهم إلى شمال غرب البلاد اثر انتهاء المعارك قد ضاعف مشاكل تلك المنطقة. لم يتمكن هؤلاء من تأسيس قيادة ميدانية فاعلة، وبقوا كثماني عشرة كتيبة منفصلةُ، ثمّ بدأت قوتهم البشرية واعدادهم بالإنخفاض نتيجة انتشار الأمراض والمصادمات والظروف البائسة التي وجدوا انفسهم فيها.

وهكذا فإن الشجار أو سلسلة الشجارات المحلية في الأسواق قد تطورت إلى مذابح دامية مأساوية قادت إلى نزوح الآلاف من الأبرياء، وأدت إلى اختفاء

مجتمعات غنية من المسلمين في **شانشي** من الوجود. أشار الإحصاء الذي أجري عام ١٩٥٣ إلى وجود ما يقارب ٥٤ ألفا من المسلمين في كافة أنحاء المحافظة. وهذا يمثل فقط أقل من ١٠% مما كان عليه عددهم في مطلع القرن. وفي نفس الوقت لقي مجتمع **الشيئان** المؤلف من عدة الآف نفس مصير الثوار رغم أن السكان كانوا يرددون المرة تلو الأخرى أنهم لم ينضموا إلى صفوف الثوار تحت أي ظرف من الظروف.

ثورات ذات تركيز مختلف: گانسو

إمتاز الوضع في **گانسو** بظاهرتين أولهما أن المجتمع الإسلامي يمتاز بكبره ومدى انتشاره على مناطق واسعة. ولذلك لن يكون بإمكان عسكر الحكومة انزال ضربة قاضية به. والظاهرة الأخرى هي أنه لا تتوفر للمسلمين أية أماكن للهروب أو الإلتجاء. فمناطق الصين الأخرى لم تمنحهم ملجأ، والمناطق التي يتحدث سكانها التوركية في **شنجانگ** لم تكن خيارا مفضلا لديهم. اختلف القادة العسكريون للإمبراطورية مع واضعي السياسة حول مدى العنف الضروري الذي كان يجب إلحاقه بالثوار لتهدئة المناطق المسلمة. وفي النهاية تمت معالجة كل منطقة على حدة، اعتمادا على قوة المعارضة والخيارات العسكرية المتاحة، وكذلك ادراك القادة العسكريين والسياسيين لقوة دوافع المسلمين. فبعد أن تمت "تهدئة" **شانشي** عام ١٨٦٨ حوّل **تسو تسونگتانگ** انتباهه إلى منطقة **جنجيبو**، وهي المركز المنيع **للجهرية** تحت قيادة **ما خوالونگ**، وهو السليل الروحي **لما منگتسين**.(٤٤) كان ما مشغولا في المعارك وفي نفس الوقت يجري مفاوضات مع القوات الحكومية المحلية والوطنية منذ عام ١٨٦٢. استسلم في احدى المرات واتخذ له اسما جديدا هو **ما تشاوتشنگ** (الذي في خدمة **التشينگ**). ومن حسن حظه أنه في تلك المرة كان الجنرال **موتوشان** في منطقة **ننگشيا** قد انتصر في نقاشه مع جنرال آخر من أشد المعادين للثوار المسلمين، وهو الجنرال **دوشنگا** حول معاملة الثوار. قبل **موتوشان** وقتها استسلام **ما خوالونگ**. وبقصد تحاشي كلفة الحرب وصعوبة جمع

المعلومات الإستخباراتية، قبلت المحكمة رأي الجنرال بأن استسلام **ما خوالونگ** حقيقي غير زائف. وفي ذلك الوقت انضم **تسو تسونگتانگ** إلى جانب الجنرال المتطرف **دوشنگا**. وعلى الجانب الإسلامي وبدلا من عودة المقاتلين إلى حقولهم، استمر **ما خوالونگ** في تقوية قاعدته وتعزيز دائرة أوسع من الدفاعات العسكرية حول **جنجيبو**، وتقديم المساعدة الفعالة لمسلمي **شانشي** في أملهم للعودة إلى مناطقهم عن طريق استعمال القوة.

حين تمكن الجنرال **تسو تسونگتانگ** من حل مشاكله المادية والمعلوماتية عن طريق وضع الخطط العسكرية وتأمين القروض المالية الأجنبية، بعث بقوة قوامها ثلاثة ألوية عسكرية إلى شرق **گانسو** عام ١٨٦٩، واستطاع محاصرة مراكز **ما خوالونگ**. وبعد أن قضى على مقاومة المسلمين وسيطر على تمردين في صفوفه، تحركت قواته المجهزة بمدافع Krupp الألمانية الصنع نحو **جنجيبو** ففرضت عليها حصارا في شهر سبتمبر من عام ١٨٧٠، واجبرت قوات **ما خوالونگ** على الإستسلام في شهر يناير من عام ١٨٧١.(٤٥) وبإصرار من الجنرال **تسو** نفسه تمّ إلقاء القبض على قادة **الجهرية** في **نينگشيا** بما فيهم **ما خوالونگ** واكبر عدد ممكن من افراد عائلته وتمّ اعدامهم جميعا. وبعد فرض الحصار على المدينة تمّ انزال السيف بآلاف من اتباع **الجهرية** خلال عملية دموية رهيبة سموها "تهدئة". وكما سنرى فإن الجنرال **تسو** لم ينجح في تصفية اتباع التعاليم الجديدة تصفية كاملة، لكنه حاول كما تكشف ذلك نقاشاته القوية في مراسلاته ومذكراته، ميله لاتباع العنف الأحادي الجانب حتى إثر استسلام **ما خوانلونگ**.(٤٦)

لم تتبع دفاعات المسلمين ولا محاولات جيوش **التشينگ** نفس الطرق عندما وضع **تسو** الخطط لاستهداف المنطقة التالية، وهي منطقة حدود **ختسخو**، وهي مدينة تجارية تسكنها أغلبية مسلمة على الطريق من الصين إلى التبت.(٤٧) لم يكن اهم قادة المسلمين العسكريين في **ختسخو** وهو **ما تسخانو** قائدا في الحرب المقدسة ضد **التشينگ** فقط، بل كان **أخونگ** وجنرالا ورئيس **مينخوان** له ارتباط بما **لايتشر** وجماعة **الخفية**. استطاع **ما تسخانو** من المحافظة على نفوذه السياسي

ومنطقته بطريقة حاذقة عند تعامله مع الجنرال **تسو تسونگتانگ**. فبعد سقوط **ختسخو** في يد القوات الحكومية لم ييأس بل أنشأ قاعدة قوية لمقاومة النشاطات الحكومية، أو كما رآها المسلمون منطقة محمية ضد تحركات **التشينگ** المعادية. (٤٨) ورغم أن **تسو** قد أعدّ حملته ضد **ختسخو** عام ١٨٧٢ بتكديس كميات كبيرة من العتاد والتموين، لكنه فشل في السيطرة على تحصينات **ما تسخانو** الفائقة الإستعداد والتنظيم في **مثلث تاوخي**.(٤٩) عبرت قوات **التشينگ** نهر **تاو** لتشتبك في معركة حاسمة حول مدينة **تايتسي في** أواخر تلك السنة. استطاعت قوات المسلمين من طرد قوات الحكومة إلى منطقة النهر أولا ثم إلى خارج **مثلث تاوخي** بعد أن قتلت عددا من قادة تلك القوات وسيطرت على مناطقها وطرق تموينها. ومع أن مياه **نهر تاو** لم تكن حمراء نتيجة سفك دماء قوات **التشينگ**، كما أشار أحد المبشرين المسيحيين، فإن وحدات **تسو** هربت من أرض المعركة قبل أن تبدأ القوات الإسلامية في مناوشتها أو هجومها المعاكس!(٥٠)

لم يكن **ما تسخانو** انفصاليا متعصبا، كما جرت العادة على تسمية القادة المسلمين،بل تصرف على العكس من ذلك. فبعد أن وضعت الحرب أوزارها، وحتى في الوقت الذي كانت فيه قواته تلاحق بقايا جيش الحكومة في **تاوتسي**، بعث **ما تسخانو** ابنه رسولا إلى مقر قيادة قوات **تسو في آدنگ**. عرض أن يسلم **ختسخو** إلى الحكومة ثانية وعبّر عن ولائه لسلطة الدولة واستعداده لمعاونة جنودها في حملاتهم القادمة ضد الثوار، بما فيهم المسلمون. إن قدرة **تسخانو** الفائقة في التعامل مع امبراطورية **التشينگ** كانت تهدف إلى حماية جماعته والتأثير على سياسة الحكومة في حال تجدد القتال. بدأ **تسو تسونگتانگ** بنقل قوات المسلمين المستسلمة من منطقة إلى اخرى في **گانسو** وفق نصيحة **خي بي** في القرن السابع عشر القاضية بعزل المسلمين. كما أنه قلل من حدة الصدامات بالقرب من **ختسخو** عن طريق اجلاء غير المسلمين عنها.وهذا شيء لم يسبق له أن حدث في أي جزء من الصين.(٥٢) وبعد أن استُكمل الإستسلام قام **ما تسخانو** بإعدام المسلمين الحمقى الذين عارضوا رأيه بشكل علني عندما أعلن تحالفه مع دولة **التشينگ**.(٥٣)

ونظرا لإخلاصه ونجاحاته التالية ضد "الثوار المسلمين" في منطقتي **شونخوا وشينينگ**، أنعم البلاط الإمبراطوري عليه بغطاء الرأس المزين بالريش من الدرجة الخامسة، بناء على توصية من الجنرال تسو **تسولگتانگ** اعترافا بجميل **ما تسخانو** ومنزلته.(٥٤)

الآن وقد انضم إلى صفوف جيشه عدد من المجندين من مسلمي **ختسخو**، وجّه الجنرال قواده وقواته نحو **شينينگ**. ورغم أن هدفه المنشود هو أن يفتح الطريق إلى المدينة عبر **ممر گانسو**، الأمر الذي يعني مناوشة حاميات المسلمين العسكرية في **سوشخو**. خمّن **تسو** بأن موقع المدينة الإستراتيجي باتجاه الجنوب وأعداد المسلمين الكبيرة في **شانشي** يحتمان عليه السيطرة عليها أولا. وبسبب احاطة الجبال والأنهار بها، تمكنت المدينة من الوقوف بوجه الجنرال **ليو جنتانگ** لمدة ثلاثة أشهر لكنها سقطت في أواخر فصل الخريف من عام ١٨٧٢. ألقيَ القبض على قائد القوات الإسلامية **ما گيووان** في منطقة **السالار** وقُتل الآلاف من الجنود المسلمين. لم يُنزل **تسو** عقابا صارما على من نفذ بجلده من المسلمين، بل عمل على اعادة توطين لاجئي **شانشي** ممن نجوا في جولة الحرب الأخيرة، في **جنجيبو وختسخو** في أراض صالحة للزراعة وبعيدا عن مراكز الكثافة السكانية المسلمة، وأكثرها في شمال **گانسو** وجنوبها.

استطاعت قوات الجنرال **تسو** أخيرا من مواجهة آخر عارض في طريقها إلى **سوتسخو** لكي تستعيد **شينينگ** والقلعة الحصينة على الطريق العام إلى **ممر گانسو**، الذي يتمركز به عدد كبير من القادة المسلمين وقواتهم القادمة من مختلف مناطق الشمال الغربي. كان فيها **ما ونلو**، الذي تولى أعلى منصب قيادي وهو ينحدر أصلا من **شينينگ** والتحق به الكثير من مسلمي **شانشي**. وعملا بتخطيطه العسكري في المواجهات السابقة، تقدم **تسو** بعد أن ضمن خطوط امداداته ووفر العتاد لسلاحه الألماني لفرض الحصار على المدن، نحو **لانتسخو** واقام قاعدة هناك. بحلول شهر سبتمبر من عام ١٨٧٣تمكن من عزل **سوتسخو** من جهة الشرق وحاصرها بجيشه

المؤلف من ١٥ ألفا من الجنود بقيادته هو نفسه. إستسلم **ما ونلو** له بتاريخ ٢٤ اكتوبر بعد أن دكّت القنابل تحصيناته الدفاعية وسهلت اختراقها. في الشهر التالي أمر **تسو** بإعدام ٧ آلاف مسلم واشرف بنفسه على تلك العملية الدموية. كان معظم الضحايا من المسلمين المحليين ولكن كان بينهم ١٥٠٠ ممن ينحدرون من مجتمعات اخرى في **كانسو** و**شانشي**. إن حصيلة الإعدامات هذه تجاوزت تلك التي حصلت حين استولى **منگ تشيافانگ** على المدينة من قبضة **دنگ گودونگ** عام ١٦٤٩. ولكي يضمن بقاء **ممر گانسو** مفتوحا وآمنا من التهديد أمر **تسو** بإبعاد ما تبقى من المسلمين من كل المدن والقرى الواقعة على الممر ما بين **لانجو** و**سوجو** وتوطينهم في جنوب **گانسو**. "إن بذورهم سوف لن يكون لها وجود في هذه الولايات الثلاث، وما من داع للقلق عن صدامات بين المسلمين في داخل أو خارج **ممر تشيا- يو**".(٥٥)

وهكذا انتهت "الثورة الكبرى" لمسلمي الشمال الغربي بهزيمة شنيعة. وكما رأينا إنها كانت مجموعة من الثورات المحلية في أهدافها ونتائجها وفي ممن شارك فيها. وحسب علمنا لم تكن تهدف إلى اسقاط الحكومة أو تأسيس ولاية إسلامية مستقلة.(٥٦) وحتى هروب مسلمي **شانشي**، وهو العامل الوحيد الذي ربط بين مراكز الثورات المختلفة، لم يخلق أو يساعد على خلق قيادة إسلامية موحدة. **فكتائب شانشي الثمانية عشر الكبرى** أسسها اشخاص من خارج **گانسو**. لم يستقر هؤلاء اللاجئون حتى قام **تسو تسونگانگ** بتوطين ما تبقى من الأحياء منهم بالقوة نتيجة الهزيمة التي ألحقها بهم.(٥٧) كان هناك قائد مسلم من **شانشي** اسمه **باي يانخو** الذي استطاع تجميع قوة من اللاجئين وانخرط يقاتل من ملجأ إسلامي إلى ملجأ آخر في **گانسو**. وبعد كارثة **تسينينگ** فرّ إلى **تسينيانگ** حيث انضم إلى جماعة من قادة المسلمين الذين يتكلمون التوركية واستمروا في مقاتلة امبراطورية **التشينگ**. انتهت نشاطاته بوصول الروس للمنطقة في غرب **باميز**، ويُعتبر أنصاره أجداد "أقلية **الدونگان** القومية" في قرغيستان.(٥٨)

ثورة أم "ثورات" إسلامية

إن ما أشرنا إليه في اعلاه عن التخطيط للحرب وسرعة حدوثها، يخبرنا ويغني نقاشنا عمّا جرى في الصين ويطرح أمامنا عددا من التشكيلات، **المنتسو** الموحد والمسلمين المتطرفين، تصرفات مسؤولي امبراطورية **التشينگ** العقلانية الذكية وحتى أيضا بعض المفاهيم "الثورية." وكل هذه الأمور ليست طبيعية أو من الصفات الموروثة عند الاشخاص ولا الأحداث، طبعا. وهذا يحتم علينا استخدام الدلائل لنصف ما قام به الأشخاص – وهذا يعني اعادة صياغة الروايات التاريخية- وتعديل مفاهيمنا عن الأحداث وكما تعديل مفرداتنا عند وصفها. لنأخذ مثلا تأسيس المليشيا الإسلامية في وادي **نهر وي**. فحين تمّ تجنيد الأشخاص في المليشيا للدفاع عن النفس وتدريبهم وتسليحهم وتأمين التحصينات العسكرية والأيديولوجية لهم، توفر لأولئك الشباب متسع من الدوافع لمهاجمة القرى المجاورة التي يسكنها غير المسلمين.هل يمكن القول أن هؤلاء قد غرر بهم إمام متطرف؟ هل كانت دوافعهم محصورة بالنهب والعنف؟ أم أنهم سمعوا تقارير (صحيحة أو باطلة) عن مجازر قد ارتكبت بحق اخوانهم المسلمين في المناطق المتاخمة لهم على يد مليشيات غير منضبطة وبمعية قوات تغتصب النساء وتنهب الممتلكات؟ هل كانوا متوحشين متعطشين للدم أم أنهم مدفوعون بغريزة الدفاع عن النفس؟ هل كانوا سلّابين مرعوبين، وهل تغيروا بمرور الوقت؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة تتم فقط عبر صياغة تقارير مركزة اعتمادا على أدلة محلية أساسية وليس على روايات مجموعات متدينة، أو منتسو أو غيرها من الجماعات المختلفة (٥٩).

إن هذه الصدامات مثلها مثل صدامات عامي ١٧٨١ و١٧٨٤ قامت على تحريض المسلمين وغير المسلمين من المخلصين للإمبراطورية من جهة، ضد المسلمين (وأحيانا غير المسلمين) المتمردين والثوار بدوافع أخلاقية ومثيري الشغب (اعتمادا على وصف المؤرخين لهم) من جهة اخرى.(٦٠) إن "وحدة المسلمين"، وهو مفهوم يفضله المثقفون ورجال البعثات التبشيرية وكثير من مثقفي شمال غرب البلاد عندما يتحدثون عن المسلمين، لم يمنع عددا من مسلمي **گانسو**

أن يأخذوا جانب قوات **التشينگ** وحتى الانضمام إلى صفوفها. وجد هؤلاء الناس أن مصالحهم تقتضي التحالف مع الدولة ولم يترددوا في قتل اخوانهم في الدين! فكما أشرنا سابقا، قاتل **وانگ داگو** القادم من منطقة **خيتشنگ** إلى جانب قوات **التشينگ** وحصل على **غطاء الرأس المريّش** من الدرجة السادسة. وفيما بعد تمكنت وحدة من المقاتلين المسلمين في هجوم مضاد عام ١٨٦٣ من الظفر به فقتلوه وقتلوا معه افراد عائلته كافة.(٦١) قد يكون بالمستطاع القول بشكل عام إن أتباع **التعاليم القديمة** كانوا مخلصين للإمبراطورية وإن أتباع **التعاليم الجديدة** كانوا ثائرين ضدها، لكن الأدلة لا تؤيد مثل هذا الإفتراض. بالرغم من أن الناشطين ضد سلطة **التشينگ** تركزوا بين اتباع **الجهرية**، لكن أكثر نشاطات المقاومة نجاحا كانت على يد أنصار **الخفية** والمسلمين اللاجئين من منطقة **شانشي**، الذين كان القليل منهم صوفيين، دعك من كونهم اتباع **التعاليم الجديدة!**

كما أن **ما خوالونگ** وهو الحفيد الخامس **لما منگشين** وشيخ أنصار **الجهرية** والذي عُرف عنه تطرفه ضد **التشينگ**، بحسب معظم الروايات التاريخية، لم يكن في حقيقته زعيما انفصاليا برغم أن الدولة قد نعتته بأنه القائد الرئيسي للثوار. سعى **ما خوالونگ** لحماية أنصاره ومناطق نفوذه حول **جينجيبو** كما سعى نحو علاقات سلام حتى لحظة دفعوه لاتخاذ موقف عسكري مقاوم. وهو غالبا ما طالب بإصدار عفو عام عن كافة الجماعات الإسلامية المتمردة، وهناك تقارير مؤكدة أنه أحسن معاملة غير المسلمين الساكنين في المناطق التي كانت تحت نفوذه.(٦٣) وحتى التقارير الرسمية تبرئ ساحته من أي نشاط يهدف إلى تكوين سلطة منافسة أو مستقلة عن سلطة الإمبراطورية. وهو لم يتخذ أية ألقاب أو مراكز في حركته، رغم أن أحد قواد **الجهرية** التابعين له قد اضفى على نفسه الألقاب والمسميات بتأثير من ثوار **تايپنگ** ووجوده في **يونان**.(٦٤)

احتلت قضية الجهاد أو "الحرب المقدسة" مكانة هامة عند النخب الفكرية الأوربية والأمريكية حين تتحدث عن الإسلام منذ فترة الحروب الصليبية. وهي التي نقلت الصورة لشرح الوضع في الصين. ففكرتنا عن المسلمين أنهم فصيل من

المحاربين المتطرفين الذين لا يخشون الموت، قد جعلت نظرتنا عنهم مشوبة بالظلامية لفهم الدوافع الحقيقية للحروب التي خاضوها والمقاومة التي تنادوا من أجلها. ثم أصبحنا تدريجيا نستخدم كلمة الجهاد حين نتحدث عن أي نشاط عسكري يقوم به المسلمون لتوسيع مناطق نفوذهم، أو حتى حين يدافعون عنها. إن فكرة الحرب وإعلان الجهاد لتحويل مناطق **التشينگ** إلى مناطق تدين بالإسلام لم تكن قد خطرت أو وردت على ذهن مسلمي الصين. وذلك يختلف عما نعرفه إذا ما قارنا ذلك بالمسلمين الذين يتحدثون **التوركية** في **شينجيانگ**، الذين غالبا ما أعلنوا الجهاد ضد سلطة **التشينگ**. والحقيقة هي أن المسلمين الصينيين في **شانشي** **وگانسو** كان لديهم شعور قوي "بالانتماء" إلى الوطن الصين وشرعية سلطة الإمبراطورية. إن ترجمة الصينيين لمفهوم الجهاد هو التضحية بالنفس من أجل الإسلام، وهي دعوة للبطولة وليست لغرض السيطرة السياسية.(٦٥) فمسلمو **شانشي** **وگانسو** استخدموا مفهوم الجهاد ليس للانقلاب على الدولة بل للدفاع عن وجودهم ومقاومة فساد المسؤولين المحليين والانتقام من الأعداء المحليين.

إن دفاع **ما خوالونگ** العنيد وتضحياته الدموية الجسيمة للحفاظ على قاعدته في **جنجيپو** كان يمكن تحاشيها لو أن **تسو تسوگتانگ** أو سادته في بكين كانوا راغبين للدخول في مفاوضات من أجل إحلال السلام مع "الثوار المسلمين المتطرفين"، كما فعل **موتوشان**. غير أن **تسو** كان يروم انتصارا عسكريا لأنه مشبع بفكر كونفوشيوس من أجل بسط السيطرة والسلطة الإمبراطورية، ولأنه كان مقتنعا بأن **التعاليم الجديدة** هي أصل البلاء لكافة مشاكل **گانسو**. وعليه فقد أفشل محاولة **ما** للاستسلام إلى **موتوشان** وبعث الأفواج بعد الأفواج إلى منطقة **جنجيپو** كي يلقن الثوار والسكان في مناطق الحدود درسا. وفي ضوء أدلة كهذه يبدو **تسو تسوگتانگ** ليس أقل تطرفا في عقيدته وايمانه بسلطة **التشينگ** وبيروقراطيتها الكونفوشية من **ما خوالونگ** وافكاره **الجهرية** ودفاعه المستميت عن مناطق نفوذه.(٦٦)

لم يفاجئ خلق الصور النمطية السلبية عن المسلمين وفائدة مثل هذه الصور لخدمة اهداف دولة **التشينگ**، المؤرخين الأوربيين ولا الأمريكيين. وفي حالة غياب

مصادر من الجانب الإسلامي يكون من الخطأ الإعتماد على أدلة مصطنعة اختلقها المسؤولون الحكوميون والعسكريون للإستدلال على تطرف المسلمين. وفي الحقيقة أن اللجوء إلى أساليب من هذا الطراز كانت ديدن المؤرخين الصينيين للحط من قيمة معارضي السلطة حين تفشل في تحقيق مراميها "فالفائز ملك والخاسر خارج على القانون." وحين يقرأ المرء المصادر جيدا يتبين له مقدار التمييز ومستوى التحيز الذي تنوء به تقارير مسؤولي امبراطورية **التشينگ** والنخب الفكرية حين تتحدث عن المسلمين الصينيين. ويطالعنا نفس المستوى من السفاسف حين نبحث خارج التقارير الحكومية، ونتصفح خلاصات التقارير العسكرية فيما يخص دوافع المسلمين وأساليب تصرفهم.(٦٧)

من نافلة القول أن نذكر إن تدفق اللاجئين من **شانشي** إلى **گانسو** إثر تدمير بيوتهم وممتلكاتهم وسط المذابح والتقتيل والنهب، قد ساعد على ابقاء الشعور المعادي **للتشينگ** مستعرا في المناطق التي أجلوا إليها. لقد منحت مدن **جنجيو وتسينينگ** و**سوزخو** ملاذا آمنا لعدد كبير من مسلمي **شانشي**، فأصبحت هذه المدن مركزا قويا لحرب العصابات الإسلامية المعادية للدولة. ولكن حتى وإن كانوا يعملون جميعا لمقاومة **التشينگ**، فإن مسلمي **شانشي** و**گانسي** -بما فيهم أتباع **الجهرية** بقيادة **ما خوالونگ**- كانوا يفسرون الصدام تفسيرا مختلفا. يشير أحد المصادر إلى أن **ما خوالونگ** حاول أن يستفيد من **كتائب شانشي الثمانية عشر**، كخط دفاعي أول قصد حماية قواته وقلاعها في شمال **گانسو**. القضية الأخرى هي أن العديد من مسلمي **گانسو** لم يثقوا بالمحاربين القادمين من خارج منطقتهم. وهذا واضح من خلاصة كتبها احد معاوني **تسو تسونگتانگ** حين قال "إن **ما خوالونگ** مسلم من اتباع **التعاليم الجديدة** وهو يؤمن بأهداف دينية مختلفة عن اهداف **التعاليم القديمة في شانشي** (في هذه الحالة تعاليم **القديمو**). وهاتان الجماعتان لا تطيقان بعضهما البعض "ومثلهما مثل النار والماء."(٦٨) نجح هؤلاء بقيادة **ما تسخانو** في السيطرة على مهاجري **شانشي** واحتمال لجوئهم إلى العنف، فتمكنوا بذلك من الإنتفاع لحماية مناطقهم خلال فترة "التهدئة." وهكذا فإن مسلمي **شانشي والجهرية** - وليس كافة المسلمين - كانوا لبّ المقاومة ومن أشد معادي **التشينگ**. لكن

أهداف المجموعتين وغاياتهما ومراميهما اختلفت اختلافا كليا. فمسلمو **شانشي** كانوا يرومون القتال للعودة إلى بيوتهم وممتلكاتهم، أو ما تبقى منها، التي فرّوا منها. أما اتباع **الجهرية** فكان يبدو أنهم ملتزمون بقيادة شيخهم وبالنهضة الإسلامية في وجه سياسة **التشينگ** التي وضعت تشريعات لحرمان طريقتهم من حماية القانون، وبالتالي ابادتهم جميعا. ولذلك كانوا يهدفون إلى حماية وجودهم وبالدرجة الثانية حماية بيوتهم وممتلكاتهم.

كان موقف **تسو تسونگتانگ**، اللين والمتصف نوعما بالكرم حين قبل استسلام **ما تسخانو**، على النقيض من موقفه الوحشي المتصلب المتمثل في معارك **جنجيو** ومذبحة **سوجو**. أوعز **نكادا يوشينيبو** نزعة **تسو** لعمل الخير هذه المرة إلى عدة اسباب. إن حملة عسكرية ضد **خيجو** كانت ستتطلب وقتا طويلا في الوقت الذي كان فيه رؤساؤه ينظرون إليه لإحراز نصر سريع دون دفع كلفة عالية بعد المعارك الطويلة في **شانشي** وشمال **گانسو**، التي استمرت ما يقارب العقد من الزمن منذ بدء المشاكل. أتت مناورة **تسو** ثمارها وجلبت له الشهرة بما يشبه الانتصار العسكري دون دفع ثمن غال.

وبالإضافة إلى ذلك تطوع **ما تسخانو** لخدمة التاج الإمبراطوري، وهو الذي جعل بمستطاع **تسو** "أن يستخدم المسلمين للسيطرة على المسلمين،" مما اعتبر حلا متميزا لمشاكل الحدود. وهذا الأمر يقع ضمن أهداف المعايير السياسية الصينية، والذي خفف العبء المالي عن كاهل الدولة من جهة، وفي نفس الوقت أفشل أية محاولة لتوحيد المقاومة الإسلامية ، وهي وحدة تنبأ علماء الاجتماع بأنها دائمة ولا بد منها. استطاع **تسو** استغلال الفرقة بين مسلمي الصين عن طريق تأييد جماعة واضطهاد أخرى، وفصل التجمعات السكانية الكثيفة باستحداث مستوطنات ودسها بينها. أثبتت هذه الاستراتيجية فعاليتها في التعامل مع لاجئي **شانشي** الذين يصعب توطينهم أينما استقروا. ولذلك دفع **تسو** بهم إلى مناطق اسلامية معزولة في شرق **گانسو** ليمنعهم من العودة إلى قراهم في **وادي وي**. وجدير بالذكر أن بيوتهم

وحقولهم كان قد تمّ تمليكها لغير المسلمين في المنطقة، ولأن تسو كان يعلم بأن اللاجئين سيطالبون بتعويضات إذا تمكنوا من العودة.(٦٩)

كان ما تسخانو مستعدا للتفاوض لوقت طويل ولم يفصح عن نوايا ضد الدولة أو السلالة الإمبراطورية أو إعلان الجهاد ضدهما. ولذلك فإن صفة "الثوري" لم تكن حقيقة، وفي أحسن الحالات كانت لفترة مؤقتة. وهذا يختلف عن موقف **ما خوالونگ** الذي ارتبط اسمه **بالجهرية** والعنف الطويل الأمد الذي ألحق بها. أصبح **ما تسخانو** رئيسا لفرقة سماها **التشينگ "التعاليم القديمة"**، ضمت كلا من **الخفية** وجماعات مختلفة اخرى، إضافة إلى جماعة **القديمو** في **شانشي** و**گانسو**. ألقت سلطات **التشينگ** كافة الكوارث في شمال غرب البلاد على عاتق **التعاليم الجديدة** لفترة تقارب من القرن. وعملت مشاركة شيخ **التعاليم القديمة** في الحملات العسكرية المناهضة للمسلمين على تعميق الفرقة بين المسلمين لدرجة أكبر، وعزلت **التعاليم الجديدة** بطريقة أكثر فاعلية، وأدت إلى تثبيت "شرعية" **التعاليم القديمة**.(٧٠) وبظهوره كقائد ثوري أولا ثم عودته إلى طريق "الإخلاص" للدولة، تمكن **ما تسخانو** من بناء تحالف بين النخب الفكرية المسلمة وسلطة الدولة من أجل السيطرة على العنف المحلي، وفي نفس الوقت الإبقاء على قدر من السلطة المحلية في وجه مسؤولي الدولة وجيوشها. أظهرت الحوادث عام ١٩٧٣ مفارقة ساخرة وذلك عندما سلّم **ما تسخانو** مدينة **خنسخو** التي احتفظ بها كقاعدة مركزية له ولأحفاده وعائلته طوال مدة تقرب من نصف قرن.

والى الشمال الغربي من **خيجو** كان مسلمو **خينينگ** مشغولين بخصومات محلية بين بعضهم البعض قبل عام ١٨٦٢، وأن وصول العديد من لاجئي **شانشي** الذين شقّوا طريقهم عبر **گانسو إلى** هذه المنطقة المتعددة القوميات قد زاد الطين بلّة. فالمسلمون المحليون كانوا يعرفون أن جيوش الدولة ستلاحق أولئك اللاجئين عندما يكون بمقدورها أن تشن حملة عسكرية، فاشتد الخصام حول الطريقة المناسبة للرد على عنف الدولة وظلمها. وبالرغم من مشاعر التضامن والتعاطف نحو اخوانهم في الدين القادمين من **شانشي**، فإن الخوف من الجيوش المتقدمة

باتجاههم والتي تعاونها الميليشيا المحلية غير المسلمة، قد وقف حائلا أمام تنظيم صفوف المسلمين حتى لحظة وقوع الهجوم عليهم اخيرا. ففي اللحظة التي بدأ فيها جيش **ليو جيتانگ** يقتل المسلمين في ضواحي المدينة، أصبحت المجتمعات بكاملها مفتوحة لارتكاب المذابح ضدها، حتى وإن كان السكان من المواطنين الملتزمين بقوانين الدولة. فجنود **التشينگ** لم يستطيعوا الفرز بسهولة بين المسلم "الجيد" و"الرديء." لم يكن عندهم وقت كاف لإجراء مثل هذا الفرز وسط مدنيين يُفترض أنهم مسلحون ومعادون. وكان المسلمون يعلمون جيدا أنه سيتم تصنيفهم كأعداء من قبل عسكر الدولة. وفي الأثناء استطاع جيش صغير بقيادة **ما گويان** من وقف تقدم العدو لأشهر قليلة، لكن مقاومته انهارت فتمّ اعدامه ورفاقه على يد القوات الحكومية والميليشيا المحلية وبعض أنصارهما من المسلمين. المقصود هنا هو مشاركة قوات **ما تسخانو** في هذه الحملة إلى جانب جيش الإمبراطورية ليبرهن أن **السالار** في منطقة **خونخوا** لم ينضموا إلى جيش **ما گويان** الصغير. وبإعدام **ما گويان** والمذبحة النهائية في **سوتسخو**، هرب بقايا لاجئي **شانشي** بقيادة **باي يانخو** إلى **شينيانگ** ومن ثم إلى روسيا، فأسدِل بذلك الستار على الصراع الدموي في **گانسو**. يُعوّل انتصار جيوش الإمبراطورية إلى عدة عوامل منها قدرة **تسو** الفذة واستبسال قادته الميدانيين، والى وعورة مناطق انتشار التجمعات السكانية المسلمة، أضف إلى ذلك تفوّق جيوشه من الناحية التقنية وبراعة خطط نقل الجنود وإيوائهم وتموينهم. كما أن بالإمكان أن نضيف عاملا أساسيا آخر هو أنه لم تكن لدى المسلمين استراتيجية موحدة وأنهم ما قاتلوا قط إمبراطورية **التشينگ** أو عارضوها بصوت واحد.

إن هذا التوضيح للثورات التي حدثت ما بين الأعوام ١٨٦٢-١٨٧٣ يساعدنا على فهم المسلمين في الصين، خاصة الصراع بين **التعاليم القديمة والتعاليم الجديدة**، وعلاقة المسلمين بغير المسلمين في **گانسي**. كما يمكن أن نضع أيدينا على الخوف المتبادل والصراع الاقتصادي وتأثير ثوار **تايبنگ** و**نيان** الذين ساعدوا في تأجيج الصراع والعنف، أضف إلى ذلك الفساد المستشري في أجهزة الدولة

وعدم كفاءة الإدارات الحكومية والمالية وارتباطها بالسرية التي تضرب أطنابها على المجتمع الصيني عموما. وهذا العامل الأخير كان له انعكاسه في إلصاق التهم الشريرة والخبيثة **بالجهرية**. لقد كان **تسو تسونگتانگ** يناقش بحماس خلال حلقات الدوائر الحكومية مسألة الإبادة الكاملة:

*إن السبب في منع **التعاليم الجديدة** هو الادعاء بأنها من الله وأنها تطرح تنبؤات سخيفة. فتصرف هذه الجماعة غريب وغالبا ما يستهوي الحمقى من المسلمين للقبول بعبودية طوعية. غالبا ما يقع الضحايا في فخ تآمري بدون أن يعرفوا بأن ذلك يأخذ بهم لمواجهة فرق الإعدام دون أدنى أسف......هذا يجعل **التعاليم الجديدة** خطرا متوقعا يستعر دائما ضد الإمبراطورية. (**ما خوالونگ**) يُشفي المرضى ويُنعم على العاقرات من النساء بالأطفال بعد أن يدعو لهن. هكذا! عندما نصفي أتباع **التعاليم الجديدة** فمن المتوقع أن تنعم كل من **شانشي وگانسو** بالسلام لمائة عام أخرى.*(٧١)

خسر **تسو** المعركة السياسية، إذ استردت **الجهرية** عافيتها بعد الهزيمة الرهيبة الكبرى التي حلت بها في **جنجيبو**. غير أن ذلك تمّ عن طريق تغيير سلوكها وتنظيمها كما سنرى في الفصل الخامس. توصل بعض الباحثين المحدثين إلى الاستنتاج أن التعاليم الجديدة كانت تمثل شكلا فاسدا ومضللا عن الإسلام. في الحقيقة، وكما سنرى أنها كانت جزءاً من نهضة اسلامية، ولحظة للعودة إلى نقاء القرآن والإيمان بأن المعرفة المباشرة بالله أو بالحقيقة الروحية يمكن أن تتمّ للمرء عن طريق التأمل أو الرؤيا أو النور الباطني، وبطريقة تختلف عن الإدراك الحسي العادي أو اصطناع التفكير المنطقي. وهي نهضة دعت لتطهير الإسلام من الأدران التي لحقت به بتأثير العادات الصينية. ولكن ما يجب تأكيده هو أن النهضة لا بمبادئها ولا بسلوكياتها كانت بالضرورة ضد امبراطورية **التشينگ**.

إن القسم الأساسي في معتقد **الجهرية** كحركة **صوفية** يتمحور حول الطاعة الكاملة لشيخ الطريقة الذي بيده قوة قيادة الحركة، وبأن ضريحه بعد موته يوفر للأشخاص والمجتمع ويوحي لهم بالمعرفة فيمن يرث القيادة وللأشخاص

أجمعين، فتصبح زيارة الضريح وسيلة للتقرب إلى الله. إن مثل هؤلاء القادة موجودون في كل أنحاء العالم الإسلامي بما فيه الدراويش في تركيا و**البِر** Pir في الهند و**السرجن** Serigne وبين **الولوف** Wolof و**جياجو** Jiaozhu في الصين. إن الإخلاص اللامتناهي الذي قادوا بواسطته اتباعهم كان العنصر الأساسي للخطر المتوقع الذي يمكن أن يمسّ مصالح دولة **التشينگ**. وإذا أخذنا بنظر الإعتبار التاريخ الطويل لانتفاضات الفلاحين في الصين، والطوائف الأخرى الثائرة فيها والحركات التي استمرت على مدى قرون، فإن ردّ فعل المسؤولين كان مشوبا بالعداء المتطرف ضد نشاطات هرطقة الجماعات الدينية المختلفة في وقت الاضطرابات الاجتماعية. فالإتحادات الطوعية دائما موضوع شائك بالنسبة للدول الاستبدادية، وفي نظر سلطة **التشينگ** لم تكن أقلّ من حركات انشقاقية.(٧٢) وفي القرن التاسع عشر كانت صفات **الجهرية** المتمثلة في بنائها وعقيدتها، من وجهة نظر المسؤولين مصدرا للتمرد حتى في وقت السلام، وأن **ما خوالونگ** تهديد لا يمكن تحمله ، بالرغم من أن الرجل أبدى استعداده للسلام ولإجراء مفاوضات، وحمى غير المسلمين القاطنين في المناطق التي تخضع لنفوذه.(٧٣)

يمكننا إذن أن نستنتج بأنْ الدين في الحقيقة لعب دورا في اشتعال العنف في منتصف القرن التاسع عشر في شمال غرب الصين. ولكن يجب أن نتذكر أيضا أن الاقتصاد المحلي والوضع الاجتماعي والظروف السياسية كانت لها تأثيراتها المؤكدة في حسابات مختلف الأطراف المشاركة في اللعبة. أضف إلى ذلك سياسة الحكومة اتجاه المسلمين وقرارات الدولة فيما يخص الضرائب واستعداداتها العسكرية وفساد الإدارة المحلية. إن الهوية الدينية مثالها مثل الهوية القومية لا يمن أبدا أن تكون المؤشر الوحيد لسلوكيات الأفراد، وأنه في خضم التحذيرات والصدامات رأينا أن المسلمين اتخذوا جملة من القرارات المختلفة - بعضها فعال والبعض الآخر غير فعال - في وجه غالبية المجتمع العظمى والدولة ذاتها اللتين كانتا تنظران للمسلمين بعين الشك والارتياب، وأيضا العدوانية.

لم يحدد الإسلام طبيعة الأحداث ولا مجراها بالنسبة لكتائب المسلمين المقاتلة في **شانشي**، ولا لتصرفات **ما تسخانو** أو حتى **ما خوالونگ**. لكن الجميع تصرف ضمن اطار المجتمع الإسلامي وهويته. وهاتان كانتا مختلفتين عن جيرانهم غير المسلمين. فتارة يقودهم إمام وينتظمون في ميليشيا تأتمر بأمره، وتارة أخرى يستجيبون لدعوة شيخ لغرض توحيد المقاومة، والتوجه للمعارك وهم على أتم الاستعداد للاستشهاد. كل ذلك يجعل المسلمين بعيدين من أن يكونوا صينيين. ولكن كما رأينا كانوا فعلا صينيين كغيرهم من الثوار الذين خاصموا دولة **التشينگ** وأضمروا لها العداء، فقاتلوا دفاعا عن قراهم وعوائلهم، وكانوا يصدّون تعدي الدولة عليهم ورأوا في ذلك الصّد حقا قانونيا. إن مقاومة السلطة أمر حتمي من أجل عقد هدنة محلية لإحلال السلام. كانت هذه نظرتهم خلال معظم حملاتهم التي أضفوا عليها صفة النبل لأن اهدافها كانت من أجل تحقيق الطمأنينة. وهذا هو جوهر اللغز التاريخي "لثورة" المسلمين في الصين، وهو لغز يواجهنا ثانية في تسعينات القرن التاسع عشر.

ثورة صغيرة كل ثلاثين سنة

*كان **خان نوري** مسلما من **السالار** وقائدا **للتعاليم القديمة** في **كيتسيكونگ**. تبادل سي، وهو **خان التعاليم الجديدة**، الاتهامات مع **خان نوري** بسبب ضغينة قديمة بينهما.(٧٤) وعندما وجد أن الخلاف بينهما كان عنيفا لم يكن من الممكن حله بطريقة عقلانية، أصدر الحاكم العسكري الجنرال **يانگ تشانگجون** اتهاما معينا وأمر الوالي في **شينينگ** أن ينظر في الأمر لأن **خونخوا** تابعة اداريا له. ترأس القاضي **ووشيكينگ** الجلسة التي حضرها الطرفان. أدلى **خان نوري** بدفاعه أمام المحكمة فقال إن اتباع **التعاليم القديمة** يقدرون القرآن ويجلونه، وإن **التعاليم الجديدة** بنظره ليست إلاّ نوعا من الهرطقة. أشار إلى عدة قضايا لإثبات وجهة نظره وتكلم بثقة ورباطة جأش. ثم استشهد بقول الحاكم العسكري السابق الجنرال **تسو***

*تسونكتانگ عندما صرح بأن ثورة المسلمين في **كانسو** تعود إلى الخلافات الدينية بين المسلمين انفسهم. وإذا لم تتوقف تلك الخلافات والإتهامات المترتبة عليها فإن الصدامات قادمة لا محالة! إن جذور هذا الصدام تقع بالتأكيد على عاتق **التعاليم الجديدة**.*

*إلتزم **خان سي** بالصمت خلال شهادة **خان نوري**، ولم ينبس ببنت شفة. علّق القاضي **ووشيكنگ** بأن الخلافات الدينية بين المسلمين امر معروف، وطلب من الجانبين العودة إلى **خونخوا** وايجاد حلّ للخصام بينهما ووقفه، لأنه لا يريد أن يسمع عن ذلك في المستقبل.*(٥٧)

التعاليم الجديدة القديمة والجديدة الجديدة

هل إن القضية التي أشرنا إليها في أعلاه ظاهرة تاريخية تعيد نفسها المرة تلو المرة كلما تصادمت **الجهرية** مع **الخفية**؟(٧٦) فعلى السطح تبدو قضية **خان نوري** و**خان سي** الذي كان قريبا **لخان موسى**، كما جاء في بعض المصادر أو أنه كان قريبا **لخان لاوسي**، حسبما جاء في مصادر اخرى، تبدو القضية وكأنه كان يمكن حلها عن طريق المحاكم في ستينات القرن الثامن عشر والتاسع عشر. لقد وجدنا ناسا من نوعية **خان نوري** و**خان سي** (خصومات بين المسلمين) في منطقة **خونخوا** نفسها، ممن أقاموا الدعاوى على بعضهم البعض (الاتهام بالهرطقة). لكن الأمر ليس تكرارا، لأن تلك القضية التي نظر فيها القاضي **ووشيكنگ** في **شينينگ** عام ١٨٩٤ قد جرت في وقت كانت الصين فيه تعيش تغيرات جوهرية منذ زمن ما **منگشين** في كل ارجاء امبراطورية **التشينگ**. فمنذ قرنين عندما وصلت **الصوفية** وأوجدت لها اتباعا بين مسلمي **كانسو**، تزايدت اهمية **المينخوان** وأصبح مؤسسة ذات ريادة في مختلف مراكز الكثافة السكانية المسلمة، خاصة في **خوجو** و**شينينگ** و**نينگشيا**، وحتى المدن الصغيرة مثل **ديداو** و**خونخوا**.

مثّلتّ السلالات المقدسة التي قادت اتباع **الصوفية** و**المينخوان** المركز الأساسي للقوة المدنية. وهي تشبه التنظيمات الأخرى التي تقودها السلالات المختلفة في كل أنحاء امبراطورية **التشينگ**.(٧٧) من نافلة القول، إن الانقسام بين "**القديم**"

و"**الجديد**" في **شونخوا** انطلق من داخل نفس **المينخوان**، لأن الزعيمين المتخاصمين ينتميان إلى **مينخوان خوسي** التابع **للخفية**، التي صنفها **التشينگ** بأنها جزء من **التعاليم القديمة**. كان **نوري وموسى** يقلدان شيوخا مختلفين ضمن حركة التضامن وأن **سادتهم** لم يشاركوا في حركة نهضة العالم الإسلامي التي شهدتها المناطق إلى الغرب من حدود الصين التي تتلمذ فيها **ما منگشين** و**ما خوالونگ**، لأن **تسو تسونگتانگ** أفرط في استخدام القوة لتهدئة **گانسو** في سبعينات القرن التاسع عشر.

عندما استسلم **ما تسخانو** بعد أن دحرته قوات **تسو تسونگتانگ** في عام ١٨٧٢، كان من بين أنصاره أخوان له هما **ما يونگلين** و**ما يونگرو** اللذان كانا إمامين من **مينخوان خوسي**، وينتمي الأخوة جميعا إلى اسرة من سلالة **ما لايتشر**. لعب **ما يونگرو** دورا عسكريا هاما في ستينات القرن التاسع عشر، في حين قام اخوه الآخر **ما يونگلين** بتوفير الأموال من أجل القضية من خلال اعماله التجارية الناجحة. وبعد أن تمت "التهدئة" من خلال تصفية المتمردين المسلمين، انسحب **ما يونگرو** إلى **ختسخو** في حين استمر **ما يونگلين** بدوره كقائد سياسي و**كمينخوان**. سلك **ما روبيو**، وهو ابن **ما يونگرو** مسلك والده وعمه في توجهه نحو الدراسات الدينية، وتدور قصة **التعاليم الجديدة** حوله.

لربما من خلال تأثير مبشر عربي اسمه **سليم** جاء إلى **گانسو** من بلاد غرب الصين، أو من خلال رحلة حج قام بها إلى مكة، أو بتأثير العاملين معا أصبح **ما روبيو** داعية **للشاذلية**، وهي فرع من **الصوفية** كان منتشرا في أنحاء العالم الإسلامي. وبرغم أن العقيدة الجديدة لا تختلف كثيرا عن عقيدة **الخفية** التي دان لها أجداده، فإن هذا التبشير الجديد قد أعطاه دافعا من أجل اصلاح **المينخوان** الذي ينتمي **إليه** وكان هدفه حينئذ اصلاح الممارسات الدينية وتكييف السلوك ليتفق مع "تنقية" الإسلام مما علق به. بعد أن أكمل شعائر الحج وعاد إلى بيته، جمع **ما روبيو** حوله المريدين من الأشخاص الذين يتمتعون بالكاريزما ووزع عليهم نصوصا مما أعده من الأفكار الإصلاحية، وهو أمر أدى إلى الانشقاق في صفوف **المينخوان**. استطاع

ما تسخانو عندما كان علي قيد الحياة أن يجمع بين الطرفين، الإصلاحيين والتقليديين في حركة **خوسي**، ولكن بعد مقتله في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر اندلع الخصام الداخلي مجددا حول الأحقية في القيادة وممارسة الشعائر الدينية والتصرف بأموال الحركة. وانتقل الخصام من **خنجو** إلى مراكز **الخفية** الأخرى، خاصة **شونخوا**.(٧٩) أطلق عليهم خصومهم اسم "المجددون" وألصق اللقب بالإصلاحي **ما** روبيو وأتباعه وانصبت عليهم نقمة أنصار **التعاليم** القديمة بقيادة عمه **ما يونگلين** الذي كان معارضا لأي تغيير.

في عام ١٨٨٧ حصل الانقسام في صفوف **السادة** بين جماعة **خوسي** المتناحرة في **شونخوا**، وأصبح الخوف والعنف سيدي الموقف. ونظرا لسمعة **السالار** المتسمة بالبطش، كانت الخصومات الدينية بين **السالار** في المنطقة تمثل خطرا في رأي **التشينگ**. غير أنه في هذه المرة لم تكن بداية الصراع لها علاقة **بالسالار** ولكن بين المسلمين الصينيين أنفسهم في منطقة **ختسخو**. استمرت المشاكل واستمرت معها دعاوى المسلمين ضد بعضهم البعض امام محاكم الدولة، الأمر الذي جعل السلطات في كافة أنحاء المحافظة تزداد قلقا من تزايد انتشار العنف. في خريف عام ١٨٩٤ وقف ممثلو الطرفين في **شونخوا** امام القاضي، في حين كان اتباعهم يتقاتلون في شوارع المدينة مما نجم عنه مقتل عدد من المسلمين. قرر **تانگ يانهي**، وهو القائد العسكري لمنطقة **خيجو** أن يُرسل **ما يونگلين** وأخيه **ما يونگري** للتوسط في حل القضية نظرا للمركز العالي الذي يشغلانه في **المينخوان**. ونظرا لرغبته القوية في معارضة الإصلاح في داخل جماعة **خوسي**، شجع **ما يونگلين** بطريقة سرية **خان نوري** ليهاجم أنصار **التعاليم الجديدة**. عمل **خان نوري** بالنصيحة وتسبب في مقتل اثنين من **أخونگ**. كذلك اعتقد أنصار **الخفية** أن **ما يونگلين** كان يعرف أن **التشينگ** قد سحبوا الكثير من قواتهم في شمال غرب الصين لزجها في معارك الحرب الصينية اليابانية، وأنه أخبر **خان نوري** بأنه لا توجد قوات حكومية في غرب **تونگوان** في **شانشي**.(٨٠) وعملا بتقاليد **الخفية** القائمة لوقت طويل، تقدم اتباع **التعاليم الجديدة** بطلب للمساعدة عن طريق الذهاب إلى محاكم الحكومة.

بعثوا بممثليهم إلى **لانجو** حيث قدموا دعاوى واتهامات ضد **خان نوري** وما **يونگلين** بحضور الحاكم العام الجنرال **يانگ تشانگون**.

فعل التشينگ ورد فعل المسلمين

شونخوا. في ربيع عام ١٨٩٥ بعث الجنرال **يانگ تشانگون** مسؤولا عسكريا من **شينينگ** اسمه **تشن جياجي** إلى **شونخوا** على رأس قوة عسكرية صغيرة وطلب منه أن يضع حدا للمشاكل هناك. وفي الوقت الذي وصل فيه إلى **شونخوا**، بدا أن **تشن** كان قد قرر بأن **ما يونگلين** و**خان نوري** و**التعاليم القديمة** المناهضة للإصلاح بين اتباع **مينخوان خوسي** هم الذين كانوا مسؤولين عن اثارة المتاعب. فما كان منه الّا أن يقفل بوابات سور مدينة **شونخوا** حتى لا يتمكن المسلمون الذين حضروا لتقديم دعاواهم من الفرار، وأمسك بأحد عشر من قادة **التعاليم القديمة** وقطع رؤوسهم وأمر برفعها في الأسواق كي يثير الرعب في صفوف **السالار** ويجبرهم على الاستسلام.(٨١) ثمّ قامت قوات الجنرال بإطلاق النار على الجماهير المحتشدة بالقرب من أسوار المدينة فاضطر مسلمو **التعاليم القديمة إلى** تسليم مدينة **شونخوا** له واستسلم الآلاف من المحاربين بتاريخ ٢ أبريل من عام ١٨٩٥. وهكذا بدأت سنة من الحرب دمرت جنوب **گانسو** امتدادا من **نهر تاو** حتى **شينينگ**.

تصرف **تشن جياجي** وفق ما كان يعتقد أنه طريقة ايجابية لمعاقبة الذين أخلوا بالأمن العام، وحتّى يعرض عليهم أنه لا يتوانى عن انزال العقاب المروع بهم كي يحدّوا من ارتكابهم للجرائم. ومن ناحية **السالار** من أنصار **التعاليم القديمة** ادركوا أن انزال السيف برقاب قادتهم وقتلهم بتلك الطريقة الشنيعة هو مقدمة لما سيحل بهم جميعا. ومن هنا، فإن المصادر الصينية اطلقت لنفسها العنان لوصف تحركات القوات والمعارك وخطط تنفيذها والمذابح التي جرت على ارض الواقع. وهذا الأمر يتطلب منا أن نخمن الدوافع الشخصية والجماعية للفريقين المتحاربين (وكذلك المتفرجين) من خلال درجة مشاركتهم.

وبسبب الخوف من امتداد العنف إلى مراكز الكثافة السكانية المسلمة الأخرى، وضع الحاكم العسكري الجنرال **يانگ** خطة حملة عسكرية لنجدة **تشن جياجي في شونخوا**. وبعد أيام من الكارثة التي اوقعها **تشن** بالمدينة، أمرالجنرال **دنگ تسنگ**، الذي شارك في حروب ستينات القرن التاسع عشر، أن يتحرك شرقا من قاعدته في **شينينگ**. كما كان مفترضا بالجنرال **تانگ يانخ** أن يعبر **ممر جيشي** من **خيجو** لكي يحاصر **شينخوا**، وبهذا يضعان المدينة بين فكي كماشة جيشي الإمبراطورية. وقبل أن يصل **تانگ** إلى منطقة الجبال، هاجمت قواته عددا من القرى المسلمة قرب **خيجو** وأعلن أنه سيبيد المسلمين جميعا بغض النظر عن **المينخوان** الذي يتمون اليه.(٨٢) سمع المسلمون في كافة أنحاء المحافظة هذا التهديد مباشرة وكان ردّ فعلهم في وجه تهديد **يانگ** لارتكاب المذابح بحقهم، بأن يضعوا حدّا للخلافات بين **التعاليم القديمة والجديدة** من اتباع **مينخوان خوسي** ويتخذوا موقفا موحدا تحت وطأة الخوف جراء هذا التهديد الوحشي. وهكذا لم يعد القيام بأعمال العنف محصورا **بالتعاليم القديمة** أو **السالار**، رغم أنه كان محصورا بمناطقهم.(٨٣) فالمسلمون الذين يعيشون في المناطق التي هاجمتها قوات الإمبراطورية كان أمامهم فقط خيار ضيق يحتم عليهم مقاومة مهاجميهم. وكما حدث في ستينات القرن التاسع عشر، فإن الجنود في المناطق المعادية ما كان متوقعا منهم أن يفرزوا بين "الجيد" و"الشرير" من المسلمين واعتبار الجميع عدوا متوقعا. ولكي يضع حدا للخوف، أدلى **يانگ تشانگون** بعدد من التصريحات للتعبير عن نزعة الإمبراطورية لعمل الخير وطلب وضع حد للاقتتال.

*مبدئيا لم يكن بين المسلمين في **گانسو** صدامات دينية، ولكن بدأت ظواهرها في فترة **تشيانلونگ** المبكرة، فمهدت لظهور نظريات **مينخو (مينخوان)**. ومن هذا **المينخو** ولد الصراع على السلطة والمال. انقسم الدين بين قديم جديد، يتهم كل طرف منهما الآخر، ويرتكب قتلا انتقاميا ... ما الخير الذي جاء به هؤلاء الثوار؟ ارجعوا عن غيكم في الحال وعاودوا اعمالكم مباشرة وبسلام.(٨٤)*

في اللحظة التي تعلن فيها السلطة أن قائدا مسلما أصبح "ثائرا" سيكون من الصعب أن يصدق ذلك الشخص أية وعود من الحكومة، لأن ذكرى ما جرى في سبعينات القرن التاسع عشر ما زالت ماثلة في الأذهان. فأوامر **تانگ يانخ** بإبادة المسلمين قد نُفذت اعتمادا على الحقائق والشائعات التي يتداولها الناس.

تمثل تصريحات **يانگ تشانگون** حول المسلمين مفهوم الدولة والسكان المحليين غير المسلمين عنهم. لقد ولد عنف المسلمين الذي سموه ثورة من مخاض الخصومات بين المسلمين ذاتهم. صحيح أنه يجب عدم تحمل العنف في اوساط المجتمع ووقفه. وهذا ما حصل فعلا حيث أُدين ذلك العنف كما ادينت المؤسسات التي كان يبدو أنها تغذيه، من قبيل **التعاليم الجديدة** و**المينخوان**. وإذا ما قام العنف فمن واجب الدولة أن تتدخل بالرغم أن مثل هذا التدخل عسكريا قد يخلق مشاعر معادية للدولة لزج نفسها في شؤون المسلمين الداخلية. عزز التحليل العقائدي الصريح مفاهيم يقاس عمرها بالقرون، وهو الذي قامت عليه سياسة **التشينگ** ازاء مسلمي الشمال الغربي، الأمر الذي برر العنف وعمق المأساة.

فغير المسلمين من السكان المحليين، الذين كان يملأهم الفزع من عنف المسلمين، كان يقابله فزع مماثل لدى الجانب المسلم. خزنت الجماعة الأولى المؤن وأقفلت بوابات المدن وتمترست خلف الأسوار واستغاثت بالدولة طلبا للحماية ودعتها لإبادة المسلمين **السالار**. وبعد قرن من المصادمات الدامية التي تمت المبالغة فيها عن طريق انتشار القصص والروايات بين سكان **گانسو** والجرائم التي ارتكبها المسلمون، خاصة **السالار**، بحق غير المسلمين الذين قُتلوا بشكل جماعي، ألقى الحاكم العسكري باللائمة على عاتق **المينخوان** ونظر إلى التضامن بين المسلمين بأنه لا شيء أقل من محاولات للخروج على شرعية دولة **التشينگ**. أما البعثات التبشيرية المسيحية وما لها من الآراء المستقاة عن نظرتها للإسلام من خلال تجربتها وتأثرها بفلسفة الاستشراق، فقد ركبت قطار وضع اللوم على حركة "الجهاد" في **گانسو**. ورأت أن ما يجري هو مرآة لما حدث في الشرق الأوسط إبان الحروب الصليبية ، غير أنه في هذه الحالة يستهدف الإمبراطورية الصينية. لم يتفهم

قساوسة تلك البعثات ماذا يعني الحقد الاجتماعي والذاكرة الجماعية والتعطش للانتقام والخصومات المحلية. كما لم يفهموا عجز حكومة **التشينگ** لمنع ذلك العنف أو تغذيتها له حين بدأ.(٨٥)

وحين علم **خان نوري** أنه يواجه قوة عسكرية حكومية تفوق طاقته إذا ما تحركت، عمل على الإستفادة من سيطرة المسلمين على منطقة **النهر الأصفر** كي تتسلل قواته من **شينخوا** إلى الضفة الشمالية سرّا. تمكن أن يأخذ قوات **دنگ شنگ** على حين غرة بعد أن تحركت جنوبا من ثكنتها في **باينرونگ**، فتمكن من تدميرها، في الوقت الذي تمّ فيه ايقاف تقدم قوات **تانگ يانخ** القادمة من **خيجو** في منطقة **ممر جيشي**. صحيح أن مسلمي **شينخوا** نجحوا في ردع محاولة تقدم القوات الحكومية في ربيع عام ١٨٩٥، لكنهم قطعا عجزوا من ناحية العدد والعُدد على الوقوف بوجه هجوم كاسح ومركز لقوات الإمبراطورية.(٨٦) كان المسلمون بمختلف فئاتهم في جنوب غرب **گانسو** مرعوبين من غضب غالبية الأعراق الأخرى في الصين وكما غضب الدولة نفسها، والذي عبرت عنه بقوة نشاطات الميليشيا المحلية والقوات الحكومية المتعاونة معها. ولذلك عمل المتمردون على اقناع المسلمين الآخرين أن الخطر قادم نحوهم لا محالة!

خيجو. تضم المدينة أكبر كثافة سكانية مسلمة وحيث يقود **تانگ** حاميته العسكرية داخل اسوارها بينما كان **ما يونگلين والخفية** يحظون بتأييد المسلمين في ضواحيها، خاصة في مراكزها في **بافانگ** إلى الجنوب. في منطقة **خيجو** كانت الأسواق التجارية في **خانجياجي وتونگ ونتشوان** تعج بمجموعات سكنية مختلطة. أما القرى خارجها فكان يسكنها إما المسلمون أو اخرى لغير المسلمين فقط. في وقت السلام ينشط التجار في تبادل السلع ويستمتع الجميع بالجو الرائع وحركة الأسواق التجارية الدائبة، خاصة في الضواحي التي يسكنها المسلمون. استقطبت المدن الغنية غير المسلمين من كافة أنحاء الصين كما استقطبت آخرين من ثقافات متباينة ممن يتكلمون لغات مختلفة.(٨٧) أبدى مسلمو **خيجو** الكثير من الانتباه والطاعة إزاء مؤسساتهم الدينية، وكغيرهم من أنصار **النقشبندية** في كل أنحاء العالم،

فإن الصوفيين في **خيجو** شيدوا المقامات والأضرحة الفاخرة والمساجد البهية الواسعة لتكريم شيوخهم، والتي أصبحت مراكز يؤمها الأتباع طلبا للشفاعة. شيدت الجماعات **الصوفية** المختلفة سبع أضرحة على الأقل وبُنيت حولها قاعات للصلاة، كما شُيد اثنا عشر مسجدا رئيسيا وأخرى صغيرة. كما أن مدارس **خيجو** أرسلت المبعوثين إلى التجمعات السكنية المسلمة في كافة أنحاء الصين، وقام المئات من رجال الدين المحترفين بقيادة الطقوس الدينية وقراءة النصوص المقدسة.(٨٨)

كانت أسوار مدينة **خيجو** حصينة يسهل الدفاع عنها، غير أن الضواحي لم تكن محاطة بالأسوار مما جعلها في الغالب فريسة سهلة في وقت الاضطرابات. واذا ما صدقنا التقارير فإن كل عنف بين المسلمين مع غير المسلمين كانت تصاحبه مجازر يذهب ضحيتها المسلمون وغير المسلمين والتبتيون وغيرهم من المدنيين الأبرياء، لأن الحروب العرقية غالبا ما تحرق بلهيبها الأبرياء الذين لا ناقة لهم في الخلافات ولا جمل! ورغم شهرتها التجارية ووجود التعاون الظاهر بين الجماعات الدينية والقومية المختلفة فيها، فإن **خيجو** كانت تتمتع بشهرة منحوسة لكونها مركزا لحركات **الهرطقة** الإسلامية والتجمع الرئيسي لعصابات قطاع الطرق. كانت نساء **گانسو** يرعبن أطفالهن بذكر مسلمي **خيجو** فحين يبكي طفل أو لا يطيع أوامر أمه فإنها تقول له محذرة، "عندما كنت طفلة كانت أمي تقول لي إنه عندما أبكي سيسمعني مسلمو **خيجو** وسيأتون في الحال ويقتلونني".(٨٩) وكما رأينا أنه في أواخر القرن التاسع كان باستطاعة الأمهات أن يُشرن إلى قرن من المذابح لإرعاب أطفالهن وترسيخ الخوف من المسلمين في قلوبهم وعقولهم وهم صغار يافعون.

إن قصة **تشن جياجي** ومحاولته الدموية في تهدئة **خونخوا** سرعان ما وصلت إلى **خيجو**، حين تحركت قوات الحامية العسكرية بقيادة **تانگ يانخ** لفك الحصار عن **خونخوا**. لذلك فإن بعض مسلمي **خيجو** هبوا للدفاع عن انفسهم وطلبا للانتقام من الدولة، خصوصا بعد وصول الأخبار (أو الإشاعات) عن تصريح نُسب إلى **تانگ** بأنه "سيزيل المسلمين من الوجود". تخبرنا المصادر قليلا عن وسائل تجنيد المقاتلين، لكننا نعرف أن الزعماء المحليين المناوئين للسلطة سرعان ما استغلوا

المناسبة. من بين هؤلاء، كان **ما يونگلين** الذي نجح في تأجيج الصراع وتكوين حواضن شعبية له من الناس الذين يجلونه ويقلدونه. ولم يتورع عن استخدام الأساليب الإرهابية في كتم انفاس المعارضين له من بين المسلمين. خسر المسلمون المترددون في مناصرته ديارهم وممتلكاتهم وأصبحوا هم وعائلاتهم هدفا لمحاولات الاغتيال.

أعدّ **ما تسخانو** ابنه **ما أنليانگ**، ليذهب رسولا ويعرض استسلام المدينة عام ١٨٧٢ شرط أن يكون محافظا لها، وكذلك أن يتمتع بشرف كونه جنديا في جيش الإمبراطورية! ذهب الابن إلى **شنجانگ** كضابط لكتيبة الفرسان التابعة لجيش **التشينگ** في **گانسو**. ونظرا لدوره هذا كرجل عسكري في الجيش أصبح **ما أنليانگ** عدوا في نظر العديد من المسلمين. استطاع أن يقود قسما واحدا من **مينخوان خوسي** بينما كان يتوفر للآخرين سبب معقول للشكوى من علاقته بالإمبراطورية. تمكن **ما يونگلين** من استغلال معرفته بتاريخ المنطقة والمشاعر المعادية للسلطة ليكسب إلى جانبه تأييد زعيم مسلم معارض اسمه **مين فوينگ**، الذي كان والده وجده من المعارضين الثائرين ضد **ما تسخانو** وصعود نفوذه عام ١٨٧٤، أي بعد مرور عامين على تسليم المدينة **للتشينگ**. سُحقت المحاولة واعدِم قادتها كافة. لقد انضم **مين فوينگ** واتباعه إلى **ما يونگلين** على أمل أن يقودهم للأخذ بالثأر من جيش الدولة الضعيف وخاصة للثأر من **ما أنليانگ** الذي سفك دماء أجدادهم.(٩٠)

ومن مركزه في **بافانگ** استطاع **ما يونگلين** أن يُقنع الناس أو يُخيفهم بطريقة أكثر فاعلية مما قدر عليه **ما أنليانگ**، رغم أنه ضابط في جيش الإمبراطورية المعادي. كما أن العبر التاريخية، من خلال تجربة الناس الشخصية أو من خلال ما يدور من الإشاعات، قد علمت مسلمي **خيجو** أن العنف ضد المسلمين لا يميز بين من كان عدوا للدولة أم صديقا لها. لذلك انضموا إلى صفوف الثوار دفاعا عن النفس. وتعلم الآخرون، الذين على الجانب الآخر، من عبر التاريخ أيضا أن اللجوء إلى العنف كتعبير عن المعارضة للدولة قد جلب عليهم الويل فاحترقوا هم واحترقت معهم ديارهم وممتلكاتهم في سعير الحروب. ولذلك فإنهم ملّوا تلك الحروب

وعارضوا أساليب **ما يونگلين**. إن كافة مسلمي **گانسو**، سواء كانوا من مؤيدي العنف ضد الدولة أو ضده، يعرفون جيدا أن مسؤولي الدولة المحليين يمكن أن يبادروهم بالهجوم أيّ وقت شاءوا وبدون تحذير مسبق. وفي هذا الجو المشحون بالخوف والتوجس، ما كان يتوفر لأولئك المسلمين البؤساء في **خيجو** أي خيار! قرر الناس أن يقاتلوا إلى صف هذا الجانب أو ذاك ليس حبا في القتال بل هروبا منه لعدة أسباب، منها العلاقات الشخصية بالأتباع أو القادة وتاريخ ولاء العائلة والتخمين فيمن سيجني النصر وغيرها من الأسباب. فلو أخذنا **ما يونگلين** على سبيل المثال، فإنه لم يكن مستعدا لإعلان الثورة ضد الدولة. لذلك استمر يلعب دور المفاوض الوسيط مع المسؤولين، وهو شيء يشبه ما قام به **ما خوالونگ** قبل ثلاثين عاما. وعندما وصل الجنرال **لي تسخنگوان** إلى **خيجو** على رأس قواته قادما من شرق **گانسو**، عرض **ما يونگلين** نفسه ليكون وسيطا بين المسلمين المحليين الشديدي الخوف وبين القوة العسكرية التي وصلت لتوها.

بالرغم من تشابه ذلك بالصراعات التي جرت مسبقا، فإن عنف عام ١٨٩٥ لم يكن مقدمة لحرب أوسع كما كان عليه الحال في معارك وادي **نهر وي** في ستينات القرن التاسع عشر. لم يكن هناك سيل عارم من لاجئي **شانشي** الذين اجتثوا من ديارهم ومناطقهم، الأمر الذي دفع مسلمي **گانسو** للقتال. كانت هناك حالة واحدة فقط حيث انتقل فيها عدد كبير من المقاتلين عبر المحافظة ليشاركوا في المعارك. بقي المسلمون المولوعون بالقتال في **خونخوا** و**خيجو** و**خينينگ** معزولين عن باقي مراكز الكثافة السكانية المسلمة. وبرغم أن الاتصالات كانت موجودة بشكل مؤكد بين **خيجو وتسخانگ جياتشوان** ومنطقة **خيشينگ/گويان** وكذلك **نينگشيا**، ظلت تلك المناطق هادئة وغاب فيها الشعور بالهلع الذي عمّ جنوب **گانسو** بفعل تهديدات **تشن جياجي** الدموية **للسالار** وكذلك التصريحات التي ادلى بها **تانگ يانخ ويانگ تشانگون**. وكما سنرى في أدناه، فإنه حتى مسلمي **تاوتسخو** إلى شمال شرق **خيجو** عند منعطف **نهر تاو**، كانت مصالحهم مختلفة بشكل ملحوظ عن مصالح المحاربين في محور **خونخوا- ختسخر- خينينگ** الذين أعدوا أنفسهم

للقتال. أضف إلى ذلك أن **الجهرية** و**التعاليم الجديدة** في ستينات القرن التاسع عشر قد تغيرت إلى درجة أن مراكزها في **نينگشيا** و**تسخانگ جياتشوان** وأماكن أخرى في شرق **گانسو** من التي لعبت دورا رئيسيا في المعارك السابقة، بقيت جبهة هادئة هذه المرة وكأن ما يجري لا يهمها في شيء.

خيتشنگ. بعد فترة قليلة من اندلاع العنف في **خونخوا** و**خيجو** تمكن عدد من السجناء من الهرب من معتقلهم في **خيتشنگ** فشهدت المدينة هياجا عسكريا.(٩١) تقع المدينة في شرق **گانسو** وتبعد مسافة ٢٥٠ كيلومترا شرق **خيجو**. بتاريخ ٣٠ مايو من عام ١٨٩٥ قامت مجموعة مكونة من مائة مسلم بمهاجمة مقر الحكومة في **خيتشنگ** وقتلوا القاضي وكاتبه الأول وعلى الأقل امرأتين وخادما. ثمّ نهبوا محتويات المخزن وأحرقوا البناية، وأهم من ذلك فتحوا أبواب السجن وأطلقوا سراح المعتقلين المسلمين.(٩٢) انتشر الخبر بسرعة لأن "الثوار" (كما كانوا يسمونهم) لم ينتبهوا إلى قطع اسلاك التلغراف، الأمر الذي جعل المسؤولين في المناطق المجاورة أن يأخذوا الحيطة ويعلنوا الأحكام العرفية.

قامت الميليشيا المحلية باتخاذ خطوات سريعة إثر تلك الحادثة.(٩٤) لم يصمد الثوار في السيطرة على المدينة لفترة طويلة وقرروا الهروب مع السجناء الذين أطلقوا سراحهم إلى **خيجو** قبل أن تهجم عليهم قوات **التشينگ** بمعاونة الميليشيات غير المسلمة. أشار **يانگ تشانگجون** إلى أن الاضطرابات استمرت لمدة اسبوعين فقط.(٩٥) تمّ اعدام ثمانية من المسلمين تقريبا لكن العديد منهم فقدوا حياتهم خلال فترة تمشيط المنطقة وتنظيفها من الثوار بطريقة دموية عنيفة. لا بد من التذكير بأن حادثة **خيتشنگ** لم تكشف عن مؤامرة اسلامية واسعة الإنتشار، بل لم تكن اكثر من محاولات يائسة معزولة انضم فيها قليل من المسلمين من **تاوخي** و**خوانگتسونگ** إلى صفوف الثوار. من اللافت للنظر أنه لم تظهر اية تهديدات في المناطق القريبة التي تأوي كثافة سكانية عالية مثل **تسخانگتشوان** أو**گويوان**. إن استجابة سلطات الدولة في شرق **گانسو** تشير إلى **الخوف** من عنف المسلمين، أكثر من قدرة المسلمين على التصرف بعنف ضد الدولة أو ضد الأعداء المحليين خارج

تاوخي – خوانگتسخونگ. بمعنى أن الخوف من عنف المسلمين كان مبالغا فيه، ربما لأسباب تكتيكية.

بعد أن عزز حامية **تانگ يانخ**، اقفل **لي تسخانگوان** بوابات **خيجو** في وجه محاولات **ما يونگلينگ** لتأجيج غضب المواطنين في الضواحي خارج أسوار المدينة. كان حراسه يدققون هوية المسافرين على الطريق المؤدي إلى البوابة الشرقية، وهي البوابة الوحيدة التي بقيت مفتوحة، في حين كانت دورياته القوية تحرس الأسوار المقابلة **لبافانگ**. ازدادت حدة التوتر عندما قرر **ما يونگلين** وجو **شيشانگ** ومن **فويناگ** في النهاية قيادة أنصارهم لضرب الحصار على المدينة في ٨ يونيو من عام ١٨٩٥. كانوا يريدون أن تلتحم راياتهم برايات أنصار **التعاليم القديمة** من **تسونخوا**.ولكن حين تسللت ثلة من المقاتلين المسلمين القادمين من تلك المدينة ووصلت إلى **ممر جيشي** أوقفت تقدمهم قوات مسلمة بقيادة **ما فولو** وما **گوليانگ**.(٩٦) وهذان القائدان اللذان كان أخوين لكل من **ما فوتسيانگ** وما **انليانگ**، كانا معروفين بأنهما زعيمان قبليان ومن عائلة تضم عددا من أمراء الحرب خلال فترة الحكم الجمهوري. لم يشعر هذان الرجلان بضرورة التضامن أو التعاطف مع نشاطات **ما يونگلين** وثوار **تسونخوا** المسلمين. كانت مصالحهم وبالتالي اخلاصهم تقع إلى جانب السلالة الإمبراطورية، وهو اختيار كان آباؤهم قد اتخذوه من قبل وأثبت جدواه لخدمة مصالح عائلتيهما بشكل جيد.

ديداو. بعد أن فشل في أن يتوحد مع المسلمين الآخرين إلى الغرب، التفت **ما يونگلين** وحلفاؤه نحو الشرق قصد التحالف مع المجتمع الإسلامي الكبير الحجم في **ديداو**. تقع المدينة على الضفة الشرقية لنهر **تاو** وتتحكم بهذا على طرق النقل المائي الحيوية التي تصل ما بين **تاوشي** التي تسكنها أغلبية مسلمة **وتاودونگ** التي تسكنها غالبية غير مسلمة. شكل المسلمون ما يقارب ١٠-١٥٪ من مجموع سكان مدينة **ديداو** وكان فيها عدد من مراكز **المينخوان**. لم يهاجم مسلمو **خيجو** مدينة **ديداو** بل شجعوا بدلا من ذلك بعض مسلميها على التمرد والثورة. استجاب **المفتي** وهو رئيس **مينخوان ديداو** والذي يرجع بأصوله إلى **هداية الله**، بالسيطرة على

حصون الميليشيا غير المسلمة غرب نهر **تاو** ثم عبر النهر وحاصر المدينة. بالنسبة إلى **ما يونگلين**، كانت تلك المدينة هدفا عسكريا بالغ الأهمية. فجسرها الطافي قد مكن المهاجمين أن يعبروا شرقا باتجاه قسم كبير من مناطقها الخلفية ومنطقة أعالي **وادي وي** بكاملها. ونظرا لعدم وجود قلاع لحماية الطرق الجبلية من **ديداو** إلى **ويوان**، فإن عبور القوات الناجح للنهر قد جعل الوديان حتى **تيانشو** مفتوحة أمام هجوم قوات المسلمين الثائرة.(٩٧)

إضافة إلى ثوار **المفتي**، تطوع أنصار **ما يونگلين** لتأسيس عصابات مسلحة بين المسلمين الذين يتحدثون المنغولية في منطقة التلال شرق **خيجو**. بلغ عدد هؤلاء ١٥٠ ألفا حسب احصاء عام ١٩٥٣، وهو أكثر من عدد **السالار** بكثير، غير أن قراهم كانت منتشرة على مساحات واسعة.(٩٨) وحتى اربعينات القرن الماضي لم يتكلم أولئك المسلمون (الذين يسمون انفسهم **سانتا**) اللغة الصينية، الأمر الذي يظهر درجة انعزالهم ثقافيا. لا نعرف الا القليل عن طرق حياتهم سوى أنهم يعاملون الضيوف من المسلمين بمنتهى الأدب وكانوا بموجب المصادر الصينية يقدمون الأموال لقادتهم بشكل ملتزم.(٩٩) كتب أحد الرحالة اليابانيين قائلا إنه بخلاف اغلبية المنغوليين فإن هؤلاء لا يشربون الخمر التزاما منهم بالعقيدة الإسلامية.(١٠٠)

انتشر الخوف من عنف المسلمين في **دونخيانگ** بسبب سمعتهم بأنهم خارجون على القانون، والتي تستند جزئيا على صفاتهم الجسمانية والفقر المدقع الذي يضرب بأطنابه على مناطق سكناهم في التلال الواقعة إلى الشرق من **خيجو** والى الغرب من نهر **تاو**. كانو يتسوقون في المدينة وعبر النهر في المناطق "الغير مسلمة" إلى شرق النهر. ولكي يكسبوا قوتهم اليومي، تطلب الأمر منهم أن يعبروا النهر في **تانگونگتشوان** وديداو. واذا استطاع غير المسلمين الذين يسكنون على ضفة النهر الشرقية أن يغلقوا العبارات والجسور الطافية، فإن الناس في **دونگخيانگ** لن يتمكنوا من السفر شرقا للتسوق أو للقيام بالأعمال الموسمية التي يعتمدون عليها في تأمين الدخل لمساعدة تلالهم ذات الإنتاج الزراعي الضئيل. (١٠١) إن العنف الذي يُلصق بالمسلمين كان يدور حول مناطق العبور تلك والطرق المؤدية اليها.(١٠٢) كما أن

مناطق التلال الفقيرة لعبت دورا رئيسيا في تغذية نزعة الناس نحو العزلة.(١٠٣) نحن لا نعرف إلى اي حد لعبت الثقافة المنغولية واللغة في انفصالهم عن كل المجتمعات التي تتحدث الصينية أو حتى المسلمين الذين يتحدثون التوركية.

تحمل التقارير الصحفية عن المعارك المحلية الدليل تلو الدليل بأن المسلمين اشتركوا في المعارك المحلية عام ١٨٩٥، وهو أمر يشير إلى أهمية حسن استعمال **التشينگ** للمدن المسورة لدحر محاولات المسلمين لأخذ المبادرة العسكرية. فمحاصرة المدن المسورة لم تكن امرا سهلا دون وجود المدفعية، وإن سرعة تحرك المسلمين على ظهور جيادهم جابهت مهمة مستحيلة.(١٠٤) وهكذا استطاع قاطنو مدينة **ديداو** أن يقفوا في وجه هجمات القوات المسلمة، غير أن المحنة كانت من نصيب غالبية غير المسلمين الذين يسكنون في تجمعات غير محمية. ولذلك فإنهم طلبوا أموالا من **لانجو** من أجل تسليح المقاتلين الشجعان لكي يهبوا للدفاع عن مناطقهم. تصف احدى المجلات حرب **ديداو** التي استمرت منذ منتصف يونيو حتى شهر اغسطس من عام ١٨٩٥.

*أعدّ الثوار بقيادة **المفتي** بدلاتهم العسكرية وراياتهم.(١٠٥) تمكنوا من اقناع الثوار السابقين من **تونگجي** ومن الذين فروا من العقاب من اللصوص وقطاع الطرق من **دونگشيانگ** وهاجموا حصن **سيواشان**. وبتحالف المجموعتين قتلوا وجرحوا ما يزيد على ٦٠٠ **خان**. اتحدوا من أجل أن يضطروا الخطوط الدفاعية لكل من **شيكانگتشا** و**سونگمينگاي** للاستسلام، ومن ثم هاجموا **جنگوتشنگ**. (تقع كل هذه المناطق على الجانب الغربي من **نهر تاو** المقابل لمدينة **ديداو**) لقد أثار ذلك المخاوف في **شينينگ** و**خيجو** في ذلك الوقت.*

*بتاريخ ٢٩ يونيو عبروا النهر بعد أن تجمعوا في معمل للأخشاب. حاصروا المدينة لمدة شهر لم ينالوا خلاله راحة لا في الليل ولا في النهار وقتلوا الكثير من خصومهم. بذل الحاكم وكاتبه والجنرالات جلّ جهدهم في الدفاع عن مدينتهم، مما أفشل مخطط الثوار. سمع الثوار أن الجنرال **خي جيانوي** سيأتي لنجدة المدينة. قام الثوار بقطع الجسر الطافي وهربوا تحت جنح الظلام. عندما وصل الجنرال أمر*

*جنوده أن يتقدموا ويحرروا **جينگو**، مركز تجمع الثوار الذين حاصروا المدينة في منطقة **گاوجياجي**. صدرت الأوامر من القصر الإمبراطوري للقائد **دونگ فوشيانگ** في التقدم نحو النهر ومهاجمة تجمعات الثوار في **گاوجياجي** وإبادتهم بالكامل. دمرت قوات **التشينگ** مساجد المسلمين ونقلت "الأوغاد" إلى **يونگداوجيا جوانگ** وأمرت بعدم السماح لهم بالوقوف في وجه الغالبية العظمى من الصينيين غير المسلمين، أو تأسيس **مينخوان**، وهكذا أسدل الستار على القضية.*(١٠٦)

إن قيام الثورة ونتائجها في **ديداو** قد قوّت مفاهيم **التشينگ** على المستويين الأعلى والمحلي بأن **المينخوان** والمساجد كانت سبب المشاكل في **گانسو**. كان لمسؤولي الدولة على المستويين المحلي والمركزي أحكام سابقة فيما يتعلق بالتضامن الفئوي واعتباره خطرا، خصوصا إذا كان يقوم على أسس دينية عقائدية يمكن تسميتها بأنها نشاطات تخريبية. ورغم أن الإسلام نفسه لم يكن ضد سلطة **التشينگ**، كما أعلن الإمبراطور **تشيانلونگ** نفسه، فإن بعض الجماعات الإسلامية يمكن اعتبارها معادية، كما وصفتها الجهات المحلية.(١٠٧)

تاوجو القديمة. نظرا لأنهم كانوا محاصرين من الشمال والشرق، لم يستطع الثوار توسيع نشاطاتهم جنوبا حيث تقيم أكبر كثافة سكانية مسلمة ممن تتمتع بالغنى في مدينة **تاوجو القديمة**. واكثر من ذلك أن هؤلاء المسلمين قد انضموا إلى جانب الصينيين والتبتيين للدفاع عن مدينتهم. تقع المدينة في منطقة انحناء نهر **تاو**، وتعزلها عن بقية **تاوشي** سلسلة جبال ومنطقة واسعة من وديان الرعي الغنية بالحشائش ويسكنها التبتيون شبه الرحل. اقتصاديا، تعتمد حياة المدينة على الطرق التي تربطها شمالاً **بلانجو** مرورا **بلابرانگ** و**خيجو** والى الجنوب باتجاه **سيتشوان** و**يونان**. لم تكن الملاحة في النهر ممكنة باتجاه الجنوب والشرق، رغم أنه بالإمكان تطويف الأخشاب في النهر مع تيار المياه الجارية. كان هناك جسر طاف واحد يربط بين ضفتي النهر الشمالية والجنوبية في منطقة **تشوني**. والى الغرب من ذلك تطل سلسلة جبال **التبت** التي تصل ذروتها في **آمني ماتشن** حيث يُقدر ارتفاعها (خطأ) بأنه ضعف قمة جبال **أفرست**.(١٠٨)

ومثلها مثل **خيجو** و**شونخوا** و**شينينگ** وغيرها من مدن الجنوب الغربي **لگانسو**، فإن **تاوجو** تشكل الحدود الإثنية الصينية - التبتية من جهة، مع الأسواق التي يسيطر عليها المسلمون من جهة اخرى. كان المسلمون في موقف ضعيف ازاء الآخرين من غير المسلمين المعادين لهم. في مطلع القرن العشرين كان لمسلمي **تاوجو** ١٣ مسجدا و٣١ إماما و٥ أضرحة لشيوخهم.(١٠٩) تأثرت الجماعات القومية في **تاوجو** بالحركة السياسية التبتية أكثر من تأثرها بتلك الموجودة في **خيجو**. فمنصب القائد المحلي لمنطقة الحدود في **تشوني** كان من نصيب رجل تبتي عينته سلطة **التشينگ**، ويقع مركزه على مسافة ٢٥ كيلومترا على ضفة **نهر التاو**. وهكذا فإن سلطة الدولة في المنطقة تستمد العون من **منجو**، و"المدينة الجديدة" **تاوجو** التي كان لها دورها أيضا. ولذلك يمكن القول إن **تاوجو** كانت مركزا لثلاثة عوالم، حيث لعب كل من الصينيين غير المسلمين والتبتيون والمسلمون أدوارا متوازية من غير أن يسيطر أحد منهم على الفريقين الآخرين. ولكن بالتأكيد فإن التحالف بين أنصار الإمبراطورية وحلفائهم من التبتيين كانوا قادرين على ممارسة السلطة من بعيد على سكان المدينة، رغم مظاهر التعاون بين النخبة من الجماعات الثلاثة المتعايشة هناك.

وبشكل عام فإن مجتمعات **تاوجو القديمة** كانت تقوم بأدوار مختلفة في العملية الاجتماعية/الاقتصادية. فالزراعة والرعي كانت بشكل أساسي من حصة التبتيين، رغم أن الفلاحين المسلمين وغير المسلمين كانوا يسكنون حول المدن التي تعتبر مراكز للتسوق.(١١٠) وكغيرهم من الجماعات الدينية المختلفة التي تعيش في منطقة واحدة في **گانسو**، كانت مهمة استيراد البضائع وتوزيعها وتسويقها إلى **تاوجو** بيد المسلمين، بلا منازع. كان الصينيون من غير المسلمين يمارسون الزراعة والأعمال الحرفية المعدنية والخزفية. أما أعضاء الطبقة العليا من مسلمي **تاوجو** فكانوا كغيرهم من أعضاء النخبة في مدن **گانسو** الأخرى، يقومون بالمهام الدينية والمدنية. كان بينهم الأئمة والتجار وأولئك الذين نجحوا في امتحانات الدولة والعسكريين. وفي أواخر القرن التاسع عشر أصبح الأئمة من ملاكي الأرض وتجارا وحتى قادة للميليشيات. وعليه فإن ولاءاتهم انقسمت بين طاعة التعاليم الإسلامية

من جهة والاستمتاع بالفوائد التي جنوها لقاء تعاملهم مع دولة **التشينگ** والمجتمعات غير المسلمة.(١١١)

فهم من الناحية الجغرافية والاجتماعية منفصلون عن مراكز المسلمين في الوسط والشمال، ويقعون بشكل حساس ما بين سلطة **التشينگ** شرقا والتبتيين غربا وجنوبا، حيث يحيط بهم الرعاة الرحل والجبال من ثلاث جهات. فلا غرابة أن يجد مسلمو **تاوجو** أن من مصلحتهم أن يجنحوا للسلام. ونظرا لمركزهم كوسيط تجاري فإن ذلك جعلهم في موقع ضعيف أيام الأزمات. وهناك عامل آخر هو أنه لم تكن أعدادهم كبيرة للحد الذي يهدد التبتيين، كما أنهم لم يفلتوا حقيقة من ظل سلطة **التشينگ** المخيم عليهم. لذلك كان عليهم أن يختاروا المساومة بدلا من المصادمة حتى في رد فعلهم ازاء أحداث العنف التي جرت في **شونخوا** و**خيجو** عام ١٨٩٥. بقيت عمليات قطاع الطرق محدودة ذلك الصيف، وكان ذلك علامة على أن الطبقة العليا من المسلمين كانت فعلا تهيمن على مجريات الأمور لدى العامة منهم.

*في الشهر الخامس من عام ٢١ من فترة **گوانگشو** (أي شهر مايو ١٨٩٥) ثار مسلمو **خيجو** و**خوانگجونگ**. بدأت بعض العناصر المستاءة من بين مسلمي **تاوجو** تنشر الإشاعات وتحرك الاضطرابات وتثير الفتنة وتقوم بعمليات الحرق والنهب. انتشرت القصص الغريبة بين الصينيين من غير المسلمين الذين أصابهم الذعر فهربوا من ديارهم. جاشت نفوس الناس غضبا وخلت الأسواق من روادها. غيرأن الطبقة العليا من الصينيين غير المسلمين والمسلمين الصينيين تشبثت بمواقفها ....واتخذت الخطوات السليمة بعدم السماح للذعر أن يتحكم بها.*(١١٢)

استطاعت الطبقة العليا لمختلف الأديان أن تُحكم سيطرتها، رغم استفزازات الرعاع المحليين. وعندما قاد رجل من مسلمي **خيجو** رجاله وعبر مناطق الحشائش متعقبا جنود **التشينگ** الفارين من المعارك، فإن الطبقة العليا أمسكت به وأعدمته. وهكذا بقيت مدينة **تاوجو** في حالة دفاع ولم تشهد موجة عنف عام ١٨٩٥.

حدود العنف

لقد رأينا كيف اتقدت شرارة العنف في **شونخوا** و**خيجو** و**خايتشنگ** و**ديداو** و**تاوجو** عام ١٨٩٥. استطاعت القوات الحكومية من اخماد الاضطرابات في **خيتشينگ** خشية امتدادها أبعد إثر حادثة الهروب من السجن. لقد عملت الغالبية غير المسلمة بالتعاون مع مسؤولي **التشينگ** بجدّ وساعدتها بعض القوات القادمة من مناطق اخرى في إضعاف الإنجرار نحو العنف الذي قادته جماعة **المفتي** وحلفاؤها الموجودون في **دونگشيانگ**. لم تحدث قلاقل في مدينة **تاوجو القديمة** باستثناء الإشاعات وبعض التهييج المحلي المحدود الذي تمت السيطرة عليه من قبل الطبقة العليا. ولكن في **تاوشي** و**خوالگجونگ** وفي مراكز **خيجو** و**شونخوا** و**شينينگ**، تمكنت الجماعات المعادية للدولة من القيام بأعمال عنف منظمة. فشل هؤلاء في الإستيلاء على أية مدينة رئيسية، لكنهم نجحوا في تحريك قواتهم أو التجمع في حصون صغيرة تحيط بالحاميات العسكرية لجنود الإمبرطورية.

بعد أن فشل حلفاؤه من فك الحصار المضروب على **شولخوا**، قاد **دنگ زنگ** رتلا من قواته في **شينينگ** وتحرك عن طريق **بيانرونگ** في مطلع شهر يونيو. لم يستطع **السالار** تجميع قوات كافية إلى الشمال والغرب من حصارهم **لشونخوا** لرد ذلك الرتل الذي وصل إلى المدينة بتاريخ ١٢ يونيو معلنا بذلك انتهاء حصار المدينة الذي دام مدة شهرين. تمكن **خان ونشو**، الذي برز كقائد رئيسي **للسالار** خلال مدة الحصار، من الفرار عبر النهر باتجاه أحد روافده الشمالية. ولو تمكن **دنگ** من الإستمرار بتقدمه والسيطرة على ما تبقى من قوات **السالار** بين **لي جونگران** وحاميته وجنوده في **خيجو**، لكان استطاع القضاء على تهديد **شونخوا**. لكن **دنگ** أدرك أن العنف كان يمكن أن يمتد إلى قاعدته في **شينينگ**. لذلك رجع إلى **بيانرونگ**، بدلا من الاختراق عميقا داخل مناطق الثوار.

وفي **خيجو**، أمر **ما يونگلين** وغيره من القادة المعادين لسلطة **التشينگ** باستمرار مهاجمة أسوار المدينة وقرى غير المسلمين في المناطق التي تزود المدينة بالمؤن.

وخلال شهري يونيو ويوليو وقعت بعض الحصون ومناطق تخزين المؤن إلى الجنوب من المدينة في يد المسلمين الذين قتلوا الآلاف ممن كانوا يدافعون عنها، واستولوا على مزارعهم وممتلكاتهم. تحدثت الصحف الدورية الصينية وعبرت عن إعجابها ببطولة المدافعين عن مقاطعة **خيجنگ** حيث استطاعت سبع وحدات من الميليشيا صدّ المسلمين المهاجمين وتعقبهم خارج تحصيناتهم، الأمر الذي شلّ قدرة القوات المحاصرة التي تفوقهم عددا.(١١٤) وخلال شهر يوليو تمكن قائد **شونخوا** المسمى **خان ونشو** من دفع قواته إلى منطقة **شينينگ** واستطاع بمساعدة المسلمين المحليين من السيطرة على الحصون في شمال الوديان وجنوبها التي تقود إلى المدينة. استمرت **گانسو** تحترق امتدادا من **ديداو** حتى شمال **شينينگ**. غير أن بقية المحافظة كانت تنعم بالهدوء، نوعاً ما باستثناء حركة القوات الحكومية والمؤن نحو مناطق الاضطرابات.

خطط الحاكم الجنرال **يانگ تشانگجون** لكسر حصار **خيجو** باستخدام الوحدات العسكرية تحت قيادة **تانگ يانخي** التي ما زالت معسكرة إلى جنوب المدينة بالتنسيق مع هجمات تقوم بها حامية **لي جينگوان** داخل أسوار المدينة. تمكنت قوات **يانگ** بمساعدة من المسلمين بقيادة **ما فولو وما گوليانگ** من إحكام السيطرة على **ممر جيشي** ضد هجمات **السالار** المسلمين، ثم تحركت شمالا عن طريق **لاوياگوان** في مطلع شهر أغسطس. واستنادا إلى مصادر عديدة، فإن الجنرال **تانگ** قد اقتنع بوعد لاستسلام المقاتلين ورشوة من القادة المسلمين بأن يمضي الليلة في **شوانگتشنگ**، حيث أعدوا لقواته فخا أدى لتشتتها في وجه الأعداء (١١٥). من جهة أخرى لم يستطع **لي جينگوان** المحاصر في **خيجو** من التحرك ضد القوات المحاصِرة دون وصول الإمدادات المتوقعة، فاستمر ارتكاب المجازر في المناطق الريفية.

وجد **ما يونگلين** وغيره من زعماء مسلمي **خيجو** أنفسهم في موقفين متناقضين. كانوا يحتاجون أن يبسطوا سيطرتهم على **خيجو** وتقوية قاعدتهم وإبادة قوات الدولة والسيطرة على مؤنها لأنها لا زالت تشكل خطرا على امنهم محليا. وفي نفس

الوقت كانوا يحتاجون إلى أن ينطلقوا من **تاوشي** باتجاه **شينينگ** أو التوجه شمالا وشرقا لتأمين حلفاء لهم في المجتمعات الإسلامية قبل وصول قوات الدولة التي ستتولى "تهدئة" تلك المناطق. وفي النهاية فشلوا في تحقيق كلتي المهمتين. تمكن **ما يونگلين** أن يناور لعبور **نهر تاو** في مطلع شهر أغسطس، لكن تقدمه أوقف بسهولة على يد فرقة من فرسان جيش **التشينگ** بقيادة **ما أنليانگ** الذي صمد في الميدان وقاد هجوما معاكسا باتجاه **خيجو**. ورغم أن **ما أنليانگ** كان يكنّ شعورا للتضامن مع المسلمين الآخرين، لكن ذلك **لا** يشمل قطعا **ما يونگلين** الذي فعل ما فعله في قاعدة **ما أنليانگ** الرئيسية.(١١٦)

في شهر أغسطس من عام ١٨٩٥ كان **دونگ فوشيانگ** في بكين ممثلا **لشينينگ** في حفلة عيد ميلاد الإمبراطورة الستيني. وبسبب القلق عن العنف المتزايد في **گانسو**، وبناء على توصية من الوزير المنشوري القوي **رونگلو** تمّ تكليف الضابط الشاب بأمر من البلاط بالعودة ثانية ليقود الحملة ضد مسلمي **گانسو**. يبدو أن الوزير كان قد خلط بين شخص **دونگ فوشيانگ** وشخص آخر اسمه **دونگ زنگ**(١١٧)، الذي كان يسمى "المسلم"(١١٨)، والذي كان **الأوربيون** قد وصموه بأنه "مجرم عتيد". حصل هذا الرجل على شهرة خلال ثورة المسلمين في فترة ستينات القرن التاسع عشر عندما تمكن هو ووالده من بناء بعض التحالفات للدفاع عن مناطقهما. وفي نهاية الحرب أصبح الإبن ضابطا برتبة كولونيل في جيش الإمبراطورية بقيادة **لو جنتانگ**.(١١٩) كان **ما أنليانگ وما فولو** وغيرهما من مسلمي **خيجو** المنتمين إلى جيش **دونگ فوشيانگ** يأملون بعد استسلام **ما جانئو** أن يتقدموا في صفوف جيش الإمبراطورية ويحصلوا على درجة اجتماعية أفضل مع قدر من الإستقلال المحلي للنخبة المسلمة الصينية.(١٢٠)

عندما عاد **دونگ** من بكين إلى شرق **گانسو** عام ١٨٩٥ جلب معه شيئا جديدا إلى ميدان معاداة المسلمين، ألا وهو زيادة كفاءة الأسلحة الأوربية الصغيرة على القتل. رغم أن جنود **دونگ** لم يكونوا مدربين على الطريقة الأوربية وأنهم نفس القوة المعادية لقوات **التايپنگ** في منتصف القرن التاسع عشر، لكنهم الآن مزودون

ببنادق رمنكتون الأمريكية والماوزر الألمانية. استعمل **دونگ** هذين السلاحين الجديدين اللذين يفوقان بدرجة عالية بنادق المسلمين البدائية ورماحهم وسيوفهم.(١٢١) لم يحدث من قبل أن اعترف المسلمون في **خيجو** بتفوق جيش الإمبراطورية عليهم. إن تجربتهم في ستينات القرن التاسع عشر قد جعلتهم يعتقدون أن **نهر تاو** وجبال **دونگشيانگ** وقواتهم السريعة التحرك وفرسانهم الشجعان سيوقفون أي غزو لمناطقهم. لم يكن نجاح **دونگ** مقتصرا على الجانب العسكري، فهو نجح ايضا في استعمال السياسيين المحليين لوقف حركة المسلمين من **نينگشيا** حتى جنوب غربي **گانسو**. إن مسلسل الأحداث كان دليلا على الاتصال والتعاون بين المسلمين في كافة أنحاء **گانسو**، غير أن هذا الأمر يجب أن يخضع للتدقيق. لقد حدث في خريف عام ١٨٩٥ خلال موسم الحصاد.

*لما وصل **دونگ فوشيانگ** إلى **بنگليانگ** ..... رحب به (مثقفان محليان) من **جينجيبو**. سألهما **فوشيانگ** "كيف الموسم الزراعي؟" كان ردهما "حُصدت كافة الحقول ما عدا حقول المسلمين." استغرب **فوشيانگ** وسأل ثانية "أين ذهبوا؟" قالا "أكثرهم ذهبوا إلى **خيجو**." قال **فوشانگ** "سأبعث بمن سيأتي بهم إلى بيوتهم".*

*وبعد أن غادر الكاتبان، أمر الجنرال سكرتيره أن يعدّ بسرعة بيانا تُطبع منه آلآف النسخ ... يقول بإيجاز "في هذه اللحظة ثارت **خيجو** فردت **شينينگ**. أنا القائد المفوض بأمر الإمبراطور أن آخذ ٤٠ كتيبة من الفرسان الخيالة والمشاة لمهاجمة **خيجو وشينينگ**. لقد استمعتم وتم انقيادكم للشائعات، وسولت لكم أنفسكم أمرا فتركتم حقولكم الناضجة لتنعم بها الطيور! تقع **خيجو** في الجنوب و**نينگشيا** في الشمال والفرق بينهما كاختلاف الخيول عن البقر. إن القصر الإمبراطوري يفرز بشكل واضح بين الجيدين (من الناس) والأشرار (منهم). هل من الممكن تصفيتهم جميعا دون أي تمييز؟ سأمنحكم فرصة شهر ليعود كل منكم إلى حقله وألاّ تخافوا ثانية مما خطر في بالكم بهذه الطريقة." .... الخ.*

*اختار الجنرال من بين الحرس ثلاثة عرفاء معروفين بقدراتهم الخطابية، وعهد لكل منهم قيادة احدى الوحدات. غادر هؤلاء **بنكليانگ** إلى **گويوان** وعلقوا نسخا من بيان القائد وهم يتقدمون من مكان إلى مكان آخر. كما تم تدوين اسماء المسلمين الشجعان الذين استجابوا لدعوة الجنرال فعادوا إلى بيوتهم وصُنفوا حسب الاسم والعمر ومكان السكن. أرسِلت القوائم أولا إلى **نينگلينگ**، وكُتب تقرير تم ارساله إلى عاصمة المحافظة. عندما شاهد **يانگ تشانگجون** ذلك التقرير الذي ذكر بأن عدد المسلمين الذين عادوا من **خيجو** إلى مناطقهم كان أكثر من ١٠ آلاف مقاتل، قال لأحد مسؤولي المحافظة ساخرا "لم يتقدم **دونگ فيوشانگ** نحو **خيجو** بعد، لكن جيشها توارى عن الأنظار!"* (١٢٢)

كانت محاضرات **دونگ** المتنقلة أكثر فاعلية من تحذير **يانگ تشانگجون**. فهي أضعفت فعلا تعزيزات **نينگشيا** وأعادت المقاتلين إلى حقولهم التي لم تُحصد بعد. كانوا في خشية من جيش **دونگ** وسمعته، الأمر الذي جعلهم يتخلون عن فكرة التضامن مع اخوانهم في الدين في وجه تهديد قمع **التشينگ**. ولربما اقتنع المسلمون بفكرة **دنگ** لحل القضايا محليا، لأنه رجل من عامة الشعب وربما استعمل معهم نقاشا مقنعا. لم يكن لدلائل التعاون هذه التي أيدها المسلمون تأثير على العنف في جنوب **گانسو**. لربما يكون المزيج بين مهارة **دونگ فيوشيانگ** وخوف المسلمين والشعور المحلي وربما حتى العداوة هي التي حالت دون توحد مسلمي جنوب **گانسو** وشمالها ضد **التشينگ**. لم يبذل بعدها مسلمو **نينگشيا** أي جهد للتعاون مع المسلمين المعادين **للتشنگ** في **خيجو**. أقام **دونگ فيوشيانگ** مركز قيادته في **أندنگ** وهي قاعدة **زو زونگتانگ** السابقة شرق **لانجو** ليستعد لغزو **تاوشي**.

كان هدفه الأول هو عبور **نهر تاو** ليفك حصار **ما يونگلين** المطبق على **خيجو**، وتخفيف الضغط عن حامية **لي جنگوان**. وحين تقدمت قوات **دونگ** نحو النهر عاودت القوات المحاصرة **لخيجو** هجومها لاحتلال المدينة لأنه لم يكن بمقدورها أن تكثف جهودها لصد تحركات قوات **دونگ** إذ كانت حامية **لي جنگوان** في

خيجو تقع خلفها. لكن الهجوم فشل. ومع مطلع نهار ١٧ نوفمبر ١٨٩٥ بدأت قوات **دونگ** بقتل الآلاف من المسلمين في **كانگجياي** ثم عبرت النهر عند مدينة **ديداو** وأنهت الحصار المفروض على **جنگوتشنگ** وشقت طريقها عبر **دونگشيانگ**. قامت كتيبة الفرسان بقيادة **ما أنليانگ** بدحر مقاومة المسلمين عند سفوح جبال **أوشهارت** وكسرت بعد اسبوع من القتال العنيف الحصار المفروض على **خيجو** وحررت المدينة بتاريخ ٤ ديسمبر. تمّ إلقاء القبض على ٤٠٠ من قادة المسلمين وجرى إعدامهم - أعدم **ما ويخان** قائد قوات **المفتي** في **ديداو** بصحبة **ما جانئو** المساعد السابق **لجو تيشي** وابيدت أسرة **ما يونگلين** بكاملها. وهكذا انتهت انتفاضة **خيجو**، التي كلفت عشرات الآلاف من الأرواح وجلبت الخراب والدمار على **بافانگ**، بانتصار كامل لدولة **التشينگ**. وما دام القائد المسلم **ما أنليانگ** في موقع المسؤولية فإن باستطاعة الإمبراطورية أن تنعم باستتباب سلطتها على جنوب **گانسو** للمدة المتبقية من حكمها والبالغة ١٥ عاما.

شينينگ. قاومت حامية المدينة بقيادة **لي جنگوان** القوات المحاصرة لها مثلها مثل **خيجو**. وكان لمثل هذه المقاومة أثر في بقاء أعداد كبيرة من جيش الإمبراطورية في عمق المناطق المسلمة. الحياة في هذه المدينة تشبه **تاوجو القديمة** و**خيجو** من حيث البيئة والجماعات الثقافية والقوى العسكرية-السياسية، واشرافها على الطريق الرئيسي بين منغوليا والتبت. وهو طريق مهم في التاريخين الديني والسياسي في هاتين المنطقتين. تقع المدينة في نهاية امتداد سلطة الإمبراطورية غربا ويوصلها الطريق **بأمدو**، المدينة التجارية التي يغلب عليها المسلمون وتشغل الأرضية الثقافية الوسطى بين الصين والتبت.(١٢٣)

كانت أسوار **شينينگ**، التي تعتبر من أهم الأسوار في الصين قبل فترة الحداثة، تشرف على الوديان الواسعة حيث تتلاقى ثلاثة أنهار. كما كانت حاميتها العسكرية تسيطر على مناطق التموين القريبة وعلى طرق القوافل التي تمر قريبا منها.(١٢٤) وإذا كان امبراطور **التشينگ** قادرا على بسط السيطرة على **شينينگ**، يمكنه حينئذ أن يمد سيطرته على الوضع السياسي في **أمدو** وطرق الاتصال بمنغوليا وعلى طرق

التجارة معها. لكن الطرق من **لانجو** وممر **كانسو** باتجاه **شينينگ** وطرق الإمدادات الحيوية للصين تمر عبر عدة سفوح شديدة الإنحدار ومنعطفات ضيقة ومناطق يمكن لقوة عسكرية صغيرة فيها أن توقف تقدم قوة أخرى أكبر منها، وهو الأمر الذي جعل وضع المدينة وقت الأزمات في حالة من الحرج.

تظهر أوجه الحياة الاجتماعية-الاقتصادية في **شينينگ** تداخل الطرق الصينية مع التبتية. فالصينيون في المدينة بنوا بيوتهم وفق طراز التبت، في حين كانت عادات الزفاف تشبه إلى حد كبير ما يجري في المناطق الصينية.(١٢٥) ورغم هذا التكيف المحلي فإن غالبية سكان المدينة من الصينيين كانوا ينظرون إلى التبتيين على انهم بدائيون أقل قدرا منهم وغير متحضرين تفصلهم نزعتهم البربرية عن الحضارة. غير أنهم مفيدون حين يصبحون مرتزقة ومتعاونين مع جيش الإمبراطورية في مناطق التخوم. كانت المدينة تموج أحيانا في بحر من غير الصينيين الذين أذعنوا لسيطرة الدولة ما داموا يجنون الفوائد ويحافظون على مسافة لأجل تفادي التصادم مع قواتها العسكرية. بحلول القرن العشرين كان العديد من الجماعات الإثنية يسكن في ضواحي المدينة أو المناطق التي تمدّها بالمؤن ويشمل الصينيين والتبتيين والمنغول والمنگور والمسلمين الصينيين والسالار المسلمين. وفي الحقيقة إنه لم يكن بالإمكان وضع خارطة سكانية لأن سكن تلك الجماعات كان متداخلا مع بعضها البعض في قرى ومحلات متقاربة.

تطل أسوار المدينة على أماكن سكن المسلمين في ضواحيها في **دونگونگ** التي تقع على بعد عدة أمتار. أما الوديان التي تقود إلى المدينة فكانت تزدحم بالحصون التي بناها المسلمون وغير المسلمين. كان يمكن أن تكون **داتونگ** و**بيانرونگ** وغيرهما من المدن الصغيرة القريبة، محاطة بالمتمردين المتواجدين في الحصون على قمم التلال القريبة. وفي مثل هذا الجو كان مسؤولو **التشينگ** يستخدمون بشكل مستمر القوة المفرطة التي قد تصل إلى حدّ الوحشية في تعاملهم مع السكان المحليين. كانت كل الجماعات قد سلحت نفسها للدفاع ضد عسكر الدولة وسلحي الجماعات الأخرى. وخلال عام ١٨٩٥ كانت الميليشيات المحلية

وقوات الحكومة مستعدة للرد على العنف المتزايد حول **خيجو** و**شونخوا**. كان مسلمو **شينينگ** عرضة للتفتيش في الطرقات ومُنع عليهم الإقتراب من أسوار المدينة خوفا من قيامهم بأعمال التجسس. كما كانوا ضحايا التمييز على يد المسؤولين وغير المسؤولين. وعندما بدأت هجمات الزعيم المسلم **خان وانشو** من **شونخوا** تقترب أكثر فأكثر صوب المدينة انضم إليها المسلمون من سكنة الضواحي، كما هاجمت القوات المسلمة جميع حصون القرى في كافة أنحاء **خوانگجونگ**.

خلال هذه "الحرب المصغرة" بالقرب من **شينينگ**، حلت الهوية الدينية محل هوية الانتماء الصينية، وخلقت عاملا لتوحد سكان قرية أو عدة قرى مع بعضهم البعض، فرسموا حدودا ضد الخطر الداهم من **الآخرين**. ويشير فيلب كون أن العديد من مسلمي قرى **شينينگ** قد شاركوا في عمليات قتل ثأرية ضد غير المسلمين والتبتيين.(١٢٦) إن تأمين الأموال بغية شراء السلاح والمؤن لتلك النشاطات كانت تأتي من ميزانية المساجد التي ساهم في دفعها جميع المسلمين، خاصة عائلات التجار الغنية في **گانسو**. ولكن لابد من التذكير أن الهدف لم يكن اسقاط دولة **التشينگ** أو تأسيس كيان مسلم مستقل، لأن قابلياتهم على التنظيم لا تتعدى حدود قراهم والقرى المجاورة. كما أن الاتفاقات بين المسلمين وغير المسلمين ومناطقهم ذات الطبيعة الجبلية القاسية لم تشجع هؤلاء على التعاون مع من يناصرهم. أضف إلى ذلك الانقسامات المختلفة بين ساكني المدينة من المسلمين. ساهمت كل هذه العوامل في تقليل فرص توحيد الجهود المناهضة للسلطة. وفي الحقيقة إن القتال بين المسلمين انفسهم لم يكن أقل ضراوة عند مقارنته بالقتال ضد غير المسلمين.

ازدادت حدة التوتر حين هاجم **السالار** معسكر **دنگ تسنگ** بالقرب من **بيانرونگ** وألقوا القبض على القائد **لي شيجيا** فأخذوه مخفورا إلى **جنگنينگو**. كانت مهمة جيش **دنگ** الأساسية هي ردّ هجمات **السالار** المنطلقة من **شونخوا**، لكنه لم يستطع منع هجمات المسلمين المحليين على بعد امتار خارج اسوار مدينة **شينينگ**.

بتاريخ ١ سبتمبر تسلق المسلمون المسلحون أسوار **دونگوان** وبدأوا قصف **شينينگ** لعدة أيام.(١٢٧) خشي **دنگ تسنگ** أن تكون النتيجة أسوأ - وستنتهي بسيطرتهم على الحصن الرئيسي، فأمر قواته بالإنسحاب الكامل إلى داخل المدينة فالتحمت مع قوات المسلمين في معركة كبيرة نجمت عنها خسائر هائلة في صفوف الطرفين، دون أن يحرز أي منهما نصرا مشهودا.(١٢٨) ورغم أن جنود حامية المدينة قد خرجوا لملاقاة المسلمين في حركة كماشة، لكنهم فشلوا، فدخل **دنگ** المدينة دون أن ينجح في فكّ الحصار عنها. قرر مسلمو **شينينگ** مهاجمة المدينة بنفس الطريقة التي اتبعت في **خيجو** و**ديداو**. خاف المسلمون المحليون من هجوم دموي قد تقوم به الميليشيا غير المسلمة أو قوات الحكومة، فأخذوا المبادرة على أمل إحراز نصر سريع والسيطرة على المدينة التي تحيطها الأسوار. إن أصل هذا العنف قام على مشاعر الخوف وعدم الثقة وليس على حلم كبير بسيطرة المسلمين المسلحين بالعقيدة الدينية. ولربما كان ضعف حامية **التشينگ** في **گانسو** وانسحابها للاشتراك في الحرب الصينية اليابانية، قد شجع بعض قادة المسلمين وزاد من حماسهم لاستغلال الفرصة دون أن يقدروا أحسن تقدير قوة الحكومة العسكرية ولا ارتفاع أسوار المدينة.

استمرت المعارك على محور **تاوشي- خوانگجونگ** طيلة شهر سبتمبر حين كان جيش الإمبراطورية والميليشيا التي تسانده في موقف دفاعي جيد ونجحت في بسط سيطرتها على الحصون والمؤن في **خيجابو** على الجانب الآخر من النهر في **ديداو** غربا، والجانب "المسلم" من **نهر تاو** وكذلك **بيتاسي** في تقاطع **النهر الأصفر** الاستراتيجي شمال **خيجو** وأيضا **ننگخيبو** إلى الجنوب منها. تمكن **دنگ زنگ** و**لي جنگوان** من الصمود العنيد والبسالة النادرة إلى حين بدأت التعزيزات من مدن **شانشي** و**نينگشيا** و**شينجانگ** بالوصول.(١٢٩)

القوة الساحقة في شينينگ

توزع المسلمون في المدينة على عدد من القرى التي تفصل بينها حاميات عسكرية لقوات **التشينگ** والميليشيا المناصرة لها والتي استحدثت مركزا لها في

دوبا إلى الغرب من المدينة. تقاطر على هذه المدينة المسورة، التي تعتبر مركزا للتسوق وتسكنها غالبية مسلمة وتشتهر بجوامعها العديدة، المقاتلون والقرويون الذين خشوا البقاء في المناطق المفتوحة. استعمل القادة العسكريون في **دوبا** حصن المدينة ليكون نقطة انطلاق الهجوم باتجاه **شينينگ** ومعاقل الأعداء الأخرى. حين حاولت القوات بقيادة **لي بيينگ** الإنضمام إلى قوات **دنگ زنگ**، تمكن المقاتلون المسلمون من قطع الطريق عليها عبر الممرات الضيقة المؤدية إلى المدينة وأوقفوا تقدمها مدة تزيد على الشهر، رغم محاولات **دنگ** المتكررة لمساعدتها من داخل حصنه.(١٣٠)

وخلال انتظاره لوصول القوات المساندة وشيوع أجواء الفوضى داخل **شينينگ**، استطاع **دنگ** أن يحصل على مساندة **تشينغاي** التبتيين، تماما كما فعل **آگو** في **لانجو** عام ١٧٨١. انضم التبتيون بابتهاج لأنهم كانوا ينتظرون الفرصة لضرب المسلمين وسلب ممتلكاتهم. عمّق هذا التحالف بين قوات **التشينگ** والميليشيا المحلية لغير المسلمين والتبتيين الأحقاد والخصومة بين التبتيين والمسلمين رغم العلاقات النفعية بين الطرفين في تجارة الأصواف. قادت هذه العداوة إلى جولات من القتال المرير البربري والعنف الذي تفجر فجأة بين فترة واخرى. إن مساهمة التبتيين في تلك الحروب اظهرت لمسؤولي **التشينگ** الحكمة من استخدام جماعة لقتال جماعة أخرى من سكان مناطق الحدود.

كان الصينيون عامة يعتبرون ثقافة التبت أدنى من ثقافتهم، لكن التبتيين حافظوا على لغتهم وطرق معيشتهم ودينهم، وحتى اقتصادهم بشكل جيد نوعاً ما في وجه خصومهم الشديدي الثقة بالنفس.(١٣١) فالتبتيون وحدهم كانوا قادرين على العيش وجني الثروة في منطقة الهضاب. وقد ساعدهم في تحقيق ذلك شهرتهم بأنهم مقاتلون أشداء وسراق لا يضاهيهم أحد! إن خبرة الصينيين والأوربيين والمسلمين الذين غامروا في السفر إلى مناطق سكن التبت، أكدت تبرير تلك الشهرة.(١٣٢) حافظت جماعة **آمدو**، التي تدير المعابد في مناطق التبت على استقلالها حتى في أماكن سيطرة قوات **التشينگ** والمسلمين والصينيين وتأثيرها الثقافي. كان لدير

الرهبان التبت تأثير على حياة السكان المدنية والاقتصادية غالبا ما يفوق سلطة الحكومة التي حاولت أن تستميلهم بضرائب أقل من تلك المفروضة على المواطنين الآخرين. أضف إلى ذلك أن بعض التبتيين، خاصة أبناء العائلات المتنفذة في مناطق التخوم، كانوا يتمتعون بسلطة موروثة أسبغها عليهم البلاط الإمبراطوري.(١٣٣) لقد ادى ذلك النوع من "المغازلة" الثقافية والسياسية إلى دفع التبتيين لتعلم اللغة الصينية والتكيف الجزئي للثقافة الصينية رغم محافظتهم على هويتهم القومية.(١٣٤) أما المسلمون فلعبوا دورا وسيطا في هذا الوضع المعقد باستيراد المحاصيل الصينية والأدوات الزراعية إلى مناطق التبت التي كان دورها تأمين الجلود المدبوغة والأصواف وغيرها من منتجات مناطق الهضاب.(١٣٥)

والى جانب التجارة، لعب التبتيون دورا في القضايا العسكرية لمحافظة **گانسو**. فحين دعا الرهبان السكان للتطوع في الخدمة العسكرية استجابت كل عائلة تقريبا بإرسال أحد أبنائها. كما كانت الأديرة تحتفظ بترسانة من الأسلحة، وقام الرهبان التبت بتنظيم الميليشيا وخزن المؤن من أجل الدفاع عن النفس ضد انتشار الصراعات الدموية على امتداد مناطق الحدود من وادي **نهر تاو** حتى **شينينگ** و**كونكور**. ويمثل كل ذلك الخوف والكراهية التي تطبع العلاقات المجتمعية في محافظة **گانسو**.

كان جل اهتمام رهبان التبت كغيرهم منصبا على اقتناء الثروة وتقوية النفوذ السياسي. استمر الأتباع في تقديم الهبات الثمينة إلى الرهبان واقامة الصلوات عند قدمي **الرمبوتشه** عند أداء فرائض الحج إلى معابدهم المقدسة. وكان ذلك من أسباب توحيد سكان التبت ولمّ شملهم. كان أهم **الرمبوتشه في لابرانگ** يجلس متربعا على عرش ذهبي تحيط به المقتنيات الثمينة ويلبس ثيابا مرصعة بالجواهر، في تناقض صارخ مع الفقر والبؤس المرتسمين على هيئة الحجاج الذين يؤدون الصلوات في باحة المعبد. قام الرهبان من الدير المركزي في **كومبوم** بالقرب من **شينينگ** بالسفر إلى كافة ارجاء التبت لتقوية التآزر وقيادة الشعائر الدينية. كما كانت مهامهم تركز على النفوذ السياسي وعلاقة **الرمبوتشه** ووكلائهم مع السلطة. استخدم

قادة التبت نتائج خبراتهم الطويلة في التعامل مع **التشينگ** والآخرين وتشخيص الأصدقاء والأعداء بعناية باهرة يُحسدون عليها. ففي عام ١٨٩٥ أعلنوا تحالفهم مع الدولة وأوعزوا إلى فرقة الفرسان المكونة منهم في منطقة **شينينگ** أن تنضم إلى جانب القوات الحكومية في قتالها مع المتمردين المسلمين.

بدا واضحا أن النصر سيكون حليف الدولة في مطلع خريف عام ١٨٩٥. كان **وي گوانگتو** يتقدم على رأس قوة كبيرة من جيش **خونانگ** الذي قاده سابقا **تسو تسونگتانگ**. كما كان **دونگ فوشيانگ** قد سيطر على **خيجو** وكان بإمكانه أن يضرب منطقة **السالار** في طريقه إلى **شينينگ**. وكان **نيو شيخان** قد ترك **نينگشيا** ليشارك في إحراز النصر النهائي. غير أن قسوة فصل الشتاء في **گانسو** ومقاومة المسلمين العنيدة قد تدخلا في حسم المعارك. كان المسلمون يعرفون جيدا أن الاستسلام في المعارك يعني الموت الدموي المحقق على أيدي القوات الحكومية (التي تضم بين صفوفها بعض القادة المسلمين مثل **ما أنليانگ**) وحلفائهم من ميليشيات جيرانهم غير المسلمين. بعد أن نجح **السالار** في ايقاف تقدم قوات **نيو شيخان** إلى الشرق من الممر الضيق **لنهر شينينگ**، عرضوا بشكل مفاجئ استعدادهم للاستسلام وفق الشروط التي تمليها قوات **التشينگ**! غير أن القادة العسكريين الذين كان أغلبهم من **گانسو** قد ملّوا من السلب والنهب وأصروا على "تهدئة" المنطقة بشكل نهائي. لم يكونوا ميالين لارتكاب نفس الخطأ الذي وقع فيه **تسو تسونگتانگ** عندما ترك الكثير من القوة في يد المسلمين.

لذلك اندفعت قوات الحكومة نحو**شينينگ** وحاصرتها من الشمال والشرق والجنوب. وقامت الوحدات التي كانت بقيادة **وي گوانگتو** بمهاجمة القرى بقسوة بمساعدة من قوات **دونگ فوشيانگ**. غير أن المسلمين تشبثوا بمواقعهم. وحتى أواخر شهر فبراير وبرغم مساعدة قوات **التشينگ** المتمركزة في القرى، لم يستطع **دنگ تسونگ** ومساعدوه من حماية الميليشيا غير المسلمة، التي وضع المسلمون لها فخا وأبادوها عن بكرة ابيها في وضح النهار على مرأى القوات المتواجدة عند أسوار **شينينگ**. ورغم ذلك، فإنه عند تحسن الطقس تحسنت معه فرص هجمات

الفرسان والمشاة بمساعدة من بعض وحدات مدفعية **التشينگ**. وأخيرا في شهر مارس كانت أعداد مسلمي **دوبا** تتناقص بشكل ملحوظ بسبب الهجمات غير الناجحة وتناقص المؤن، فأعلنوا استسلامهم غير المشروط. أُعدم قادتهم وفرّ الأحياء من الجنود إلى قراهم الخالية التي حلّ بها الخراب. توجه الآلاف من المسلمين من أتباع **البك يانخو** غربا نحو منطقة تجمع اللاجئين المسلمين. كان أنصار **البك** في سبعينات القرن التاسع عشر قد نجحوا في الفرار إلى روسيا. غير أن هؤلاء اللاجئين الجدد فشلوا في الوصول إلى المناطق الروسية، واستمرت القوات الحكومية وحلفاؤها تطاردهم فقتلت بعضهم وقضى الآخر نحبه متجمدا من شدة البرد أو مات جوعا في المناطق القاحلة التي قادهم قدرهم السيء إليها. أما من وقع أسيرا فقد تمّ نقله وأُسكن في منطقة **كورلا** في محافظة **شينجيانگ**، ولم يكن العدد أكثر من ألفين!

الدروس وعبرها

دمر العنف بين بعض المسلمين والمؤيدين لسلطة الإمبراطورية وحلفائهم من مختلف القوميات ما يقارب من ربع المحافظة وقتل عشرات الآلاف وزرع أسوأ أنواع الخوف في قلوب الناس وعقولهم من بعضهم البعض. استمر مسؤولو **التشينگ** بقناعاتهم أن خلافات المسلمين الداخلية، خصوصا تلك التي سببها أنصار **التعاليم الجديدة** و**المينخوان** قد قادت إلى الحريق الهائل وسفك الدماء.(١٣٧) لقد تأكد الصينيون من غير المسلمين ما كان شائعا في تقاليدهم بأن جيرانهم المسلمين متطرفون متعطشون للدماء. وتأكد للمسلمين من الجهة الأخرى أن التمييز ضدهم سيستمر وسيتمّ ذبحهم لا لجريمة اقترفوها بل لأنهم مسلمون يختلفون عن الآخرين. إن انتصار **التشينگ** الكاسح لم يأتِ بالسلام المنشود وأن عمليات "التهدئة" الوحشية لم تضع حدّا للكره والشك بين مختلف فئات الشعب. وما دام المسلمون وغير المسلمين يعيشون في جيرة، وأن الدولة عاجزة عن الحفاظ على النظام فإن المشاكل ستستمر في طحنها للجميع.

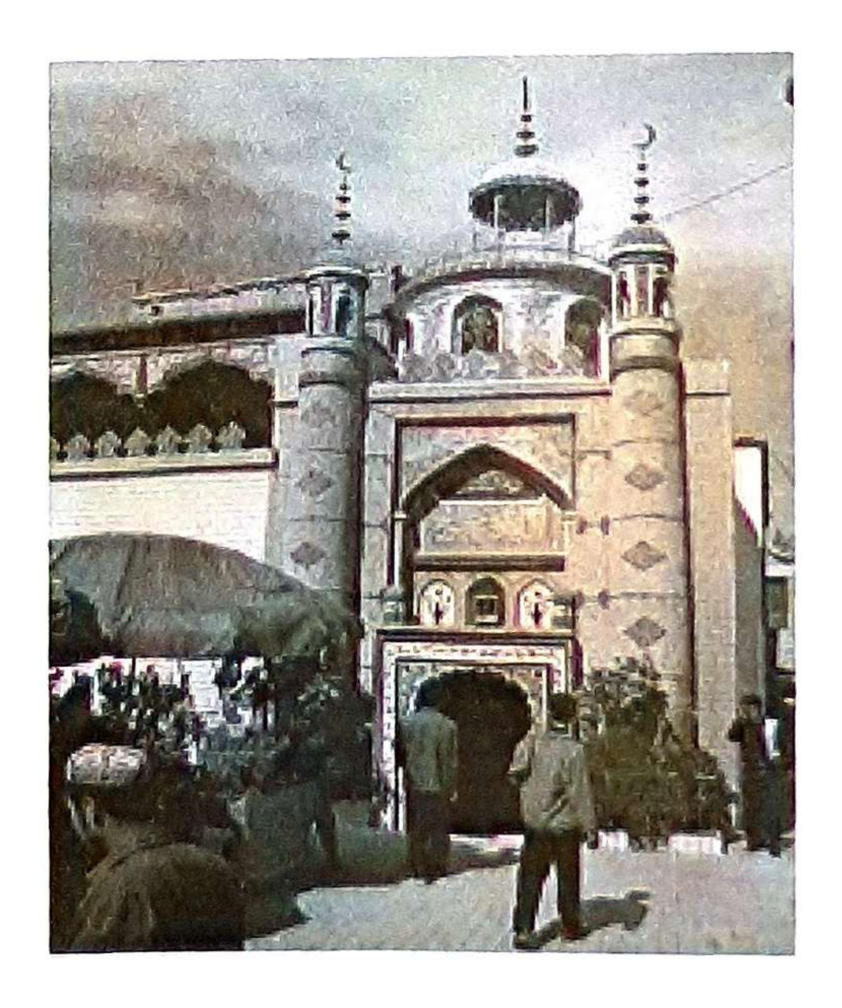
كما أوضحت أحداث عام ١٨٩٥ مرة اخرى أن عدم وحدة مسلمي **گانسو** قد جعلهم في وضع ضعيف حتى في أوقات السلام. كما تأكد خوف المسؤولين والسكان المحليين من تضامن المسلمين المفترض، في حين أن المسلمين لم يكونوا قادرين على توحيد مجتمعاتهم حتى على المستوى المحلي، دعك من توحدهم على مستوى الإقليم أو المحافظة! فبالرغم من جهود المقاتلين المسلمين في **شونخوا** وخيجو و**شينينگ** ودعواتهم العامة لرفع السلاح، لم يستجب معظم سكان **گانسو** لتلك الدعوات، بل اعلنوا معارضتهم لها. وخلال عملية تهدئة **گانسو** عام ١٨٧٢ و**خيجو** عام ١٨٩٥ كان على المسلمين أن يواجهوا قدرة **التشينگ** لبسط سيطرتهم والتأقلم لذلك الوضع، وأصبح الكثير منهم قوادا في جيش الإمبراطورية أو متعاونين معها بهدف المحافظة على ما يتمتعون به من الامتيازات على المستوى المحلي، أو كما اعتقدوا المحافظة على وجود مجتمعاتهم.

ونظرا لوجودهم على حدود الثقافة الصينية، يعارضونها تارة ويتأقلمون معها تارة أخرى، جاهد سكان **گانسو** للمحافظة على أنفسهم. فالعنف المتأتي من جيرانهم أو من حكومتهم غالبا ما كان يهدد حياتهم وممتلكاتهم. ولذلك بقي الحقد والخوف ضاربين اطنابهما ويتحكمان بذكرياتهم وعملية اتخاذهم للقرارات وقت الشدة. وحين قتل **تشن جياجي** أحد عشر من قادة **التعليمات القديمة** وأمر بعرض رؤوسهم على الملأ في **شينخوا**، اضطر الكثير من المسلمين أن يردوا على تلك العملية دفاعا عن النفس وطلبا للانتقام. لم تتغير أوضاعهم الفقيرة ولا ظروفهم البائسة، لكن ضغط السلطة ازداد شدة وإلحاحا، رغم أن تلك السلطة بدأت توحي "بالعصرنة" في طلبها للتعاون وفي القوة التي تمارسها. كما حدث تغير في طبيعة المجتمعات المسلمة ذاتها، لأن أغلب **المينخوان** النابع من كونها تدعو إلى بعث المؤسسات **الصوفية** أصبحت بالضرورة محافظة تسعى لتنظيم المجتمع من أجل المحافظة على قوة العائلات المتنفذة التي تقود **الطريقة** وتضمن تدفق الثروة عليها.

تجدر الإشارة إلى أن كلا من **ما انليانگ** قائد كتيبة الفرسان في جيش **التشينگ** ولا **ما يونگلين** المخل بالنظام، لم يقعا ضمن تصنيفات سلطة **التشينگ** عن "رداءة"

المسلمين! كما أنهما لم يكونا من "متمردي **الطريقة الجديدة**" ولم يهدفا إلى تأسيس كيان مستقل معاد لسلطة **التشينگ** وأنهم محاربون مقدسون. فشل **ما يونگلين** لأن تحالفه مع معارضي الحكومة ومع معارضي حركة الإصلاح من المسلمين لم يمكنه من بناء حركة مقاومة ضد سلطة الدولة. أما **ما أنليانگ** فقد نجح لأنه خدم سلطة **التشينگ** بإخلاص متناه ضد بعض اخوانه من المسلمين، ولأنه تمكن من جلب اسلحة جديدة لمناطق الصراعات الحدودية. كانت مكافأته مثل مكافأة والده، أي أنه مُنح سلطة محلية رغم أنها كانت من الناحية العملية تحت تحكم المسؤولين العسكريين المحليين ورقابتهم. وهي سلطة أصبحت جزءاً من نظام **گانسو** الفريد من نوعه الذي أبقى على سلطة امراء الحرب ونفوذهم حتى القرن العشرين.ج إن عائلات **ما** من أمراء الحرب تمثل تطورا جديدا في عالم مسلمي شمال غرب الصين، وكذلك بروز مفهوم الدولة الحديثة من خلال استقطاب النخبة المتواجدة في المجتمع. يتناول الفصل التالي حياة أربعة اشخاص من مسلمي الصين في **گانسو**، ممن سلكوا مسالك شتى أدت بهم جميعا إلى علاقة أقوى مع الصين الجديدة.

الفصل الخامس
استراتيجيات تكيف المسلمين اجتماعيا في الصين الجديدة أمراء الحرب في تشكيلة الشعب الصيني الجديد



مسجد مدينة هوتان

<http:/www.Google Couretsy>

١. ما فوشيانگ (١٨٧٦-١٩٣٢)

يأخذ حزبنا مسائل تطوير المقاومة الضعيفة الصغيرة ونقلها إلى موقع القوة والعنف مأخذ الجد، باعتبار ذلك من مهامنا الأساسية الأكثر الحاحا. ويصدق هذا على توثيق العرى مع الجماعات الأخرى التي لا تشبهنا.(١) *إن الناس (الميتسو المنغوليين والتبتيين قريبون جدا الينا ونتبادل معهم العواطف. وجودنا المشترك وشرفنا المشترك لهما تاريخ يمتد على مدى ألف عام ..... حياة منغوليا والتبت وموقعهما هما حياة الصين وموتها. الصين لا يمكن أن تتسبب في انفصالهما، ومنغوليا والتبت لا يمكنهما أن يرفضا الصين مقابل الاستقلال. وفي هذا الوقت لا يوجد شعب على وجه هذه الأرض بإمكانه أن يطور التبت ومنغوليا بإخلاص غير شعب الصين.*(٢)

كيف أصبح أمير حرب

كان ما **تشيانلينگ** عام ١٨٩٥ قائدا عسكريا معاديا لإمبراطورية **التشينگ** مثله مثل **ما يونگلين**. كان أصلا تاجرا صغيرا وفلاحا قاتل ضد الإمبراطورية تحت قيادة **ما جانئو**، وبعد الاستسلام عام ١٨٧٢ حظي باعتراف من سلطة الحكومة فأصبح تاجرا ثريا. رجع إلى صفوف الخدمة العسكرية لفترة قصيرة عندما انضم ثانية إلى **ما جانئو** لاجتثاث مجموعة من المقاتلين المسلمين الأشداء من تلال **خيجو** عام ١٨٧٧. كان له أربعة أبناء من ثلاث زوجات، تحول واحد منهم إلى الإسلام. أطلق **ما تشيانلينگ** على أولاده أسماء صينية هي، **فوكاي** و**فولو** و**فوشو** و**فوشيانگ**. ولد الأخير عام ١٨٧٦ في مدينة صغيرة قريبة من **خانجياجي** في محافظة **خيجو**.

حصل الولد **ما فوشيانگ** كغيره من أبناء النخبة المسلمة الصينية على ثقافة مزدوجة وفق تعاليم كونفوشيوس والإسلام وأنه قرأ القرآن و**سجلات تاريخ الربيع والخريف** (التي فضلها على **الكتب الأربعة**).(٣) في مرحلة الرجولة اهتم بالكتابة الأدبية والخط، لكنه عندما كان شابا كانت مطامحه قريبة من جذوره. برز أخوه ما

فولو في التدريب العسكري، ولذلك زار **خيجو** تحت تأثير **يانگ تشانگجون** عام ١٨٨٩ ليشاهد قواته. انضم **ما فوشيانگ** بعدها إلى أخيه في قاعدة التدريب العسكري. وبعد ثلاث سنوات من التدريب المحلي، التحق هو وأخوه الآخر **ما فوشو** في المدرسة العسكرية.

حين اندلع القتال عام ١٨٩٥ كان عمر **ما فوشيانگ** عشرين عاما ويتمتع بروح عسكرية عالية. تحالف مع قوات **التشينگ** عن طريق أبيه ووقف هو وأخوته جميعا معترضين على خطط **ما يونگلين** والثوار المسلمين من ابناء مدينتهم. قام أخو **ما أنليانگ** المدعو **ما گوليانگ** وما **فولو** وأخوه **ما فوشيانگ** بقيادة وحدات **التشينگ** المتمركزة في **ممر جيشي** ضد وحدات المسلمين المقاتلة التي كانت تتقدم من **شونخوا** والتي حصلت على سمعة عالية في كافة أرجاء المحافظة لبلائها في القتال. وحين وقعت قوات **تانگ يانخي** في الفخ وتمّ دحرها في **شوانگتشنگ** هرب الأخوان **ما فولو** وما **فوشيانگ** جنوبا بصحبة قائدهم، ثم رجعوا جميعا إلى **لانجو**. قام **يانگ تشانگجون** بتكريمهما لإخلاصهما المتفاني للإمبراطور، وتمّ ارسالهما إلى **خيجو** برفقة الجنرال **دونگ فيوشانگ**. حصل الإثنان على المديح من الجنرال لنجاحهما في استعادة المناطق القريبة من مدينتهما ولمساهمتهما في ايقاع المذابح التي حلت بالمسلمين في **ماينگ** و**ميلاكو** ومدن **خيجو** الأخرى، إذ قدما لقادتهما سلالا ملأى بالآلاف من رؤوس ضحاياهم من المسلمين وآذانهم.(٤) واستنادا إلى تقرير نُسب إلى مصادر **ما تونگ** أن مسلمي **خيجو** قالوا عن ولدي **تشيانلينگ** إن مركزي **ما فولو** وما **فوشيانگ** قد بُنيا بجماجم المسلمين، وإن قبعة **ما أنليانگ** الحمراء قد صُبغت بدماء المسلمين.(٥)

بعد انتصار عام ١٨٩٦ استمر **ما فوشيانگ** بدراسته العسكرية فحصل على دبلوم عسكرية بعد اجتياز الإمتحان على مستوى المحافظة عام ١٨٩٧، بينما نال أخوه **ما فولو** دبلوما عسكرية عالية. لم يكن هناك ما يعيق هذين العسكريين المسلمين من الخدمة تحت امرة جنرالات **التشينگ**، كما فعل والدهما. كما أن عسكرة الإمبراطورية بكاملها دفعهما أن يختارا الخدمة إلى جانب العسكريين الأقوياء بغض

النظر عن أصلهم أو دينهم. فعندما كان الجنرال **دونگ فوشيانگ** مسؤولا عن **كانسو** ذهب **ما فولو** و**ما فوشيانگ** مع عدد من أقاربهما الشباب بصحبة الجنرال إلى بكين وكانوا وقتها ضباطا برتب واطئة. وعندما تحولت مهام الجنرال إلى قوات مسؤولة عن الدفاع عن المناطق الآهلة بالسكان عام ١٨٩٨، قاتلا ضد الأجانب خلال انتفاضة **البوكسر**. قُتل **ما فولو** مع اربعة من ابناء عمومته في مقاومة تلك الإنتفاضة.(٦) تولى **ما فوشيانگ** قيادة كتيبة أخيه القتيل وقام مع كوكبة من أبناء **كانسو** الشجعان بتأمين الطرق العامة ومرافقة الأسرة الحاكمة عندما هربت إلى **شيئان**. تسلم على إثر ذلك مكافآت عدة منها تعيينه قائدا لحامية في شرق **كانسو**. وبمباركة من الإمبراطور والإمبراطورة شخصيا حصل **ما فوشيانگ** على مناصب عليا في **شينينگ** ومن بعدها في **شينجيانگ**. وخلال السنوات العشر التالية، وسع قاعدة قوته العسكرية وأسس روابط وتحالفات سياسية في كافة منطقة الشمال الغربي مستفيدا من شهرته العسكرية وتضحية والده واخيه وشهرتهما.

وإضافة إلى ولائه لدولة **التشينگ** أظهر **ما فوشيانگ** ميلا نحو الكونفوشية والثقافة الصينية. وقد قادت دراسته في **كانسو** وبكين إلى ايمانه بنوع من التوحد العقائدي بين الكونفوشية والإسلام(٧) واعتمادا على ترجمة **كتب الخان** والتعليقات عليه أكد **ما** على التشابه بين الأخلاقية الكونفوشية ومبادئ الدين الإسلامي. خلط هذا الاقتناع الفكري مع تقييم واقعي للمواقف العسكرية والسياسية في **كانسو** تحت سلطة **التشينگ** إلى وهم بالتزام مدى الحياة عن مساهمة المسلمين في النظام السياسي للدولة ومن بعدها لحكومة الصين الجمهورية. كما أن مثل هذا الولاء السياسي تناسب تماما مع رغبة ما لجني الثروة من خلال العلاقات بين شمال غرب الصين مع وسطها. وانضم إلى ارستقراطي غير مسلم لتأسيس مشاريع صناعية حديثة في المنطقة منها معمل للثقاب، كما ساهم في تمويل تجارة الأصواف بين التبت و**تيانجن**.(٨) إن حبه للثقافة الصينية وخاصة الخط والنثر الممتاز، قد أثر على خياراته السياسية والاجتماعية. كتبت احدى سكرتيراته تقول في مذكراتها إن **ما فوشيانگ** كان يستمتع بجلسات الشرب مع القادة العسكريين والمسؤولين الكبار

ويراها فرصة للكسب على كافة المستويات. درس هذا الجنرال المسلم دين الداوية Daoism والنصوص القديمة كما شرع في وضع النصب التذكارية لتكريم أسلافه الموتى. كانت آخر زوجاته ابنة احد مسؤولي المسلمين في **لانجو** وعُرف عنها ولعها بالخط الصيني وإجادتها له، وهذا شيء غير متوقع من امرأة مسلمة في **گانسو**. ولكنها كانت الزوجة المناسبة جدا **لما فوشيانگ**.(٩)

وجدت العلاقة الحميمة بين قادة المسلمين في **گانسو** وامبراطورية **التشينگ** تعبيرا عميقا عنها خلال ردّ فعل قيادة المحافظة لحادثة **ووتشانگ** التي تمثل بداية ثورة ١٩١١. عبّر القائد العسكري **تشانگنگ** وحاكم **شانشي** المدعو **شنگون** عن ولائهما للسلالة المنشورية وتصميمهما على مقاومة التيار المتزايد للنشاطات المعادية **للتشينگ** والداعية إلى تأسيس حكم جمهوري في البلاد.(١٠) كان **ما أنليانگ**، الأشد محافظة من **ما فوشيانگ**، قد أعرب عن تأييده للنظام الإمبراطوري ولعب دورا رئيسيا في خططه العسكرية. كانت بشائر الخطر الداهم قد بدأت على يد الجيش الثوري بقيادة **جانگ فنگخو** في **شانشي**. كان أمام الموالين للإمبراطورية اختياران، أولهما أن يتمترسوا في **گانسو** أو يتقدموا شرقا لضرب قوات **جانگ** الوطنية الثائرة. ونظرا لوجود **ما أنليانگ** على رأس القيادة فقد حُسم الأمر على مواجهة الثوار ومقاتلتهم. اقترح **ما** تأسيس ٢٠ كتيبة من الفرسان المسلمين الموالين للإمبراطورية، فدعا الجنرال **تشانگنگ** إلى اجتماع عاجل لقادة الوحدات في المحافظة ليناقشوا القضية. أعرب المجتمعون عن قلقهم حول تأسيس هذه القوة الضاربة من المسلمين وتسليحها، حتى في مثل تلك الظروف. غير أن **ما أنليانگ** استمر بطرح صيحة الولاء للعرش بالرغم من أن الطبقة الأرستقراطية وعامة الناس في **گانسو** ظلوا متحفظين على تسليح المسلمين حتى وإن كان ذلك تحت راية الإمبراطور!

هاجم **أنليانگ** مدينة **شانشي** بنجاح، مما دعا **يوآن شيكاي** أن يأخذ ذلك الهجوم مأخذ الجدّ ويحذر القوات في الشرق للتحرك ضده. وعندما كانت قوات **أنليانگ** تقترب من **شيئان** حدث أمر غير متوقع إذ جاءه رسول وأقنعه أن الإمبراطور قد

تنازل عن الحكم وأن سقوط دولة **التشينگ** أصبح لا محالة أمرا واقعيا. انسحب **ما أنليانگ** وغيّر ولاءه عندما أعلن تأييده للقوات الجمهورية الثائرة. وكان بذلك قد وضع نهاية للمقاومة في شمال غرب البلاد ضد الحكومة الجديدة، وكرر خطوة والده في السابق عندما انتصر **ما جانئو** في معركة **نايتسي** عام ١٨٧٢. كان بصحبته الكثير من مسؤولي المحافظة **التشينگ**. وبعد أن ثبت قوة مركزه محليا بدأ يلعب دور الوسيط والحكَم بين ممثلي العلاقات المجتمعية والحكومة المحلية. ساعد ذلك على تأمين العديد من المراكز والوظائف للمسلمين في دوائر المحافظة على المستوى المحلي. لكن المقاتل العنيد **شنگيون المنشوري** استمر في مقاومته الباسلة للنظام الجمهوري الجديد حتى عام ١٩١٨. وقد ورد أنه حتى ذلك التاريخ كان يحاول أن يقنع **ما أنليانگ** ليكون إلى جانبه كي يعملا سوية على إعادة السلطة لسلالة **التشينگ**.(١٣)

تختلف المصادر في تقييمها لرد فعل **ما فوشيانگ** حول غزو **شانشي** عام ١٩١١ الذي أشرنا اليه، لكنها تتفق أنه لم يلعب أي دور. دافع عن حلفائه المحليين ضد ردّ الفعل العنيف لكل من **تشانگنگ** و**شنگيون المنشوري** وانضم إلى الأرستقراطيين من غير المسلمين لإعلان استقلال المحافظة وترشيح عدد من الأشخاص لتولي الدوائر المحلية.(١٤) بعد تنازل الإمبراطور أصبح **ما فوشيانگ** عضوا في المجلس التأسيسي لمحافظة **گانسو**.(١٥) كما أنعم عليه **يوآن شيكاي** من الجيش الجمهوري بمنصب نائب قائد حامية **نينگشيا** لقاء تعاونه ولجدارته العسكرية. تقع الحامية على حدود **گانسو** مع منغوليا. بدأ **ما فوشيانگ** بتوسيع نفوذه في شمال المحافظة حتى امتدت سيطرة جيشه ليس إلى **نينگشيا** فقط بل إلى محافظة **سويوان** (غرب وسط منغوليا) والى **الأشان** والسهول الغنية إلى الجانب الشرقي من **خوانگ** بين النهر وصحراء **أوردوس**. أتاحت له تلك المهمة الفرصة لتوسيع قاعدته العسكرية والاقتصادية ليصبح عضوا مهما في "عائلة أمراء الحرب من أبناء **ما**" وهي الأسر الثلاثة المسلمة من **گانسو** التي سيطرت على شمال غرب البلاد امتدادا من **نينگشيا** (عائلة **ما فوشيانگ**) إلى مدينة **شينينگ** (عائلة **ما تسي**) والى **خيجو** وممر **گانسو** (عائلة **ما أنليانگ**) طيلة فترة الحكم الجمهوري.(١٦)

أضحت السلطة في شمال غرب البلاد التي تفشت فيها العسكرة والانقسامات الاجتماعية والفقر المدقع وقطع الطرق والسرقة بواسطة العصابات المسلحة، سلطة احتلال من نوع آخر في رأي الفلاحين وسكان المدن. وعلى الرغم من أن معظم جنود **ما فوشيانگ** وضباط جيشه ربما كانوا لصوصا وقطاع طرق بين فترة واخرى، فإنه كان يأمل أن يحتل موقعه في السلطة المركزية للصين. ودفعه ذلك أن يقف بحزم في وجه نشاطات السلب وقطع الطرق. وبصفته العسكرية ونظرا للتأييد الذي حظي به على المستويين المحلي والمركزي، فقد نال **ما** سمعة طيبة لقضائه على النشاطات الخارجة على القانون حول **نينگشيا** والى الشمال منها. القى القبض على **المنغولي** الذي كان قد شغل مناصب ملكية عالية عام ١٩١٣ في **باوتو**. وبعد أربع سنوات ألحق الهزيمة بقوات **دارلوجو** وأعدمه. والأخير هو أمير منغولي أعلن نفسه امبراطورا وغزا **نينگشيا**. كما تولى ابن **ما فوشيانگ** البكر المسمى **ما هونگو** وابن اخيه **ما هونگبن** (ابن **ما فولو**) قيادة كتيبتين وتوجها إلى المنطقة الممتدة بين ممر **گانسو** و**سويوان** للقبض على قطاع الطرق وتصفيتهم.

صعود نجم ما فوشيانگ ليصبح شخصية وطنية

برز **ما فوشيانگ** في نهاية مطلع فترة الجمهورية التي تميزت بالفوضى كحاكم **لنينگشيا** وكقائد عسكري لقوة منظمة بشكل جيد لعب الفرسان المسلمون فيها دورا مركزيا. وفي القضايا السياسية والعسكرية اتبع خطوات **ما أنليانگ**، الذي كان أبوه تحت قيادة أبي **ما فوشيانگ**. وبعد موت **ما انليانگ** عام ١٩١٨ لعب **فوشيانگ** دور الوسيط بين المسلمين وغير المسلمين على مستوى المحافظة. كان موقع قيادته في **نينگشيا** قد اعطاه مسافة مريحة ليكون بعيدا عن قذارة السياسة في عاصمة المحافظة. كما اعطته كوكبة الفرسان التي بإمرته وزنا لكي يفرض طروحاته على الجنرالات المسلمين وغير المسلمين الذين قاتلوا في منطقة شمال غرب البلاد خلال السنوات الاثنتي عشرة القادمة.

كانت أكثر الصراعات شدة بين مختلف الجماعات في **كانسو** وفي الصين عامة، تدور حول الحدود الجغرافية للمناطق ونسبة الضرائب المفروضة على السكان. فالحاكم **جانگ كونگجيان**، المعين من قبل الرئيس الجديد **يوآن شيكاي** قد اختلف مع **ما أنليانگ** حول مصادر الثروة الاقتصادية لمنطقة **كانسو**. وبعد وفاة **ما أنليانگ**، لم يكن لدى **يوآن** الخيار غير أن يعطي **ما فوشيانگ** بعض الاستقلال في **نينگشيا**. وعلى الجانب الآخر من المحافظة، أحكم **تسانگ** قبضته الإدارية على **خيجو**، مركز المسلمين في **كانسو** وحكومة المحافظة في **لانجو**. وفي المقابل فإن قادة الحامية العسكرية من المسلمين، الذين غالبا ما اختلفوا مع بعضهم البعض، حققوا قدرا من التوحد كان وراء برقية أرسلت عام ١٩٢٠ إلى الحكومة المركزية الجديدة في بكين طالبوا فيها بإقالة **جانگ**.(١٨) كان اقتصاد المنطقة التي يسيطر عليها **جانگ كونگجيان** من **كانسو** قد بدأ بالتدني الأمر الذي جعله يطلب الإحالة على التقاعد تاركا الأمر لبكين كي تتخذ القرار في اختيار بديل له. كان من المحتمل أن يكون **ما فوشيانگ** هو الحاكم القادم للمحافظة لأنه خدم بإخلاص وقاتل إلى جانب الحكم الجمهوري وله قاعدة صلدة بين صفوف المسلمين. وإذا كانت القوة والكفاءة والخبرة تعني أي شيء، فإن الرجل كان المرشح الأفضل!

ولكن حين وصلت الشائعات إلى المحافظة، هبّ غير المسلمين معلنين معارضتهم العنيدة. فحاكم مسلم للمحافظة يعني سيطرة المسلمين على مقاليد الأمور حيث يشكل ذلك وضعا مرعبا لهم نتيجة التضامن بين المسلمين. ففي نظر الناس الذين تشربوا بفكرة الخوف وذكريات قرون من العنف الإسلامي، كان مثل هذا التعيين تهديدا لا قبل لهم على تحمله. تتالت البرقيات على **لانجو** وبكين، خاصة من شرق **كانسو** تحمل الإحتجاج على ترشيح **ما فوشيانگ** بأقوى صورة ممكنة إلى حد تكرار القول بأن "الصينيين والمسلمين أعداء إلى الأبد!"(١٩)

اقتنعت بكين بأن تعيين **ما فوشيانگ** سيكون قرارا غير حكيم. ولذلك اختارت **لو خونگتاو**، الذي كان مساعدا **لجانگ كونگجيان**، للمنصب. ورث **لو** وضعا اقتصاديا كارثيا وجيشا ضعيفا وخزينة فارغة ولحمة اجتماعية متهرءة بسبب تفشي

استعمال الأفيون والجفاف الذي حلّ بالمنطقة، والعملة المتذبذبة وانشقاقا في صفوف القوات المقاتلة. لم تصل سلطة حاكم الولاية العسكري أبعد من موقع آخر حامية تكن له الإخلاص، وأن مناطق **كانسو** تحت سلطة ثمانية قواد عسكريين، أربعة منهم مسلمون. بقيت **كانسو** منطقة سلبية محافظة تحت الحكم "الوطني" لجمهورية الصين، ولم تتقبل التغيير نحو الحداثة إلاّ بشكل محدود. ويجدر التذكير بأن الكثير من النخبة في **لانجو** قد شعر بالغصة والألم عندما دحرت الحكومة الجديدة حركة تمرد وألقت القبض على الزعماء الذين حاولوا استعادة سلطة **التشينگ** عام ١٩٢٠، وأعدمتهم بعد أن هاجمت مركز المحافظة.(٢٠)

لم يكن **لو خونگتاو** أفضل حظا من سابقه في تحقيق التوازن بين القوى المتناحرة في **كانسو**. وعندما ترك المحافظة عام ١٩٢٥ كان أمراء الحرب الصغار في شرق **كانسو**، الذين كانوا من غير المسلمين، منشغلين بمعارك مع سلطة **لانجو**. أصدر الرئيس **دوان تشيرو** أمرا بتعيين "جنرال مسيحي" معروف اسمه **فنگ فوشيانگ** ليكون قائدا عسكريا لشمال غربي البلاد عام ١٩٢٥. كان **فوشيانگ** هذا قد سمع عن **فوشيانگ** المسلم وعن نجاحاته في مطاردة قطاع الطرق، فأصدر أمرا بتعيينه مساعدا له لشؤون الدفاع عن مناطق الحدود، وهو منصب عزز مكانة **ما** وقوته. استغل **ما** موقعه الجديد ليحصل على مواقع عسكرية أعلى على المستوى الوطني منها قائد الطيران.(٢١) رحب المسلمون المسلحون في **كانسو** بوجود **فنگ** كقائد للجيش الوطني في منطقتهم ما دام هو وجنراله **ليو يوفن** يركزان هجومهما شرقا باتجاه أمراء الحرب من غير المسلمين في شرق **كانسو وشانشي**. لكن هدف المسلمين في تأييد **فنگ** هو المحافظة على النظام والتمتع بحذر بشيء من الاستقلال لا يمكن تحقيقه علنا. استنزف **فنگ** وليو موارد **كانسو** المالية والبشرية عن طريق المشاركة في الحملات الرئيسية ضد **جانگ تسولين**، أمير الحرب ذي السطوة في شمال الصين. لم تكن المعارك المتوقعة تسمح بوجود قوات عسكرية مستقلة خلف قوات **فنگ** المسلحة، كما أنه لم يكن يسمح أن تقع موارد المحافظة في أيدي فئات قد تكون معادية.

جلبت الأحداث ما بين الأعوام ١٩٢٧-١٩٣١ والتي شملت الاستغلال العسكري الطويل الأمد والجفاف والهزات الأرضية والمجاعة والكره المتنامي بين مختلف القوميات، كلها جلبت على المنطقة موجة أخرى من الحرب المحلية الوحشية. أُجبر السكان المحليون في **گانسو** على دفع ضرائب لا طاقة لهم عليها، وسُرقوا وأُهينوا وعوملوا بوحشية، ويجب عليهم الآن أن يتحملوا موتا بطيئا بسبب المجاعة وغيرها من أمارات غضب السماء عليهم!(٢٢) كان بإمكان المسلمين المشربين بالروح العسكرية أن يستغلوا فظاعة الأوضاع إن كان بإمكانهم أن يُلقوا باللائمة على عاتق **فنگ يوشيانگ** وغيره من خصومهم المحليين. كان من أشد المعادين **لفنگ** شخص اسمه **ما تنگرانگ**، من منطقة **ممر گانسو**. وهو الابن الثالث **لما أنليانگ**. تمكن هذا الرجل عام ١٩٢٧ من اعداد الإجراءات لتسلم شحنة من الأسلحة المنشورية بالإتفاق مع عدو آخر للجنرال اسمه **جانگ تسولين**، واستعد للتحرك ضد الحاكم العسكري حال وصول الأسلحة.

كما تحرك قائد مسلم آخر ضد الحاكم العسكري، رغم أن استعداداته لم تكن كافية. كان **ما جونگينگ** هو ابن عم **ما تشي**، القائد المسلم لمدينة **شينينگ**. تحرك **جونگينگ** برفقة عدد من الشباب المتهور عام ١٩٢٨ بهدف السيطرة على **خيجو** وتحرير مناطق المسلمين الصينيين من القوات الخارجية. وفي تلك الأوقات الاستثنائية من حيث البؤس والحرمان، فإن نشاطه وميله للعنف قد جلبا إلى صفه الآلاف من الأنصار امتدادا من **خوانگجونگ** حتى **تاوشي**. استمرت حملة **ما جونگينگ** على **گانسو** ثلاث سنوات وشملت فرض الحصار على **خيجو** ثلاث مرات، كما شملت هجمات انطلقت من أعلى **وادي وي** حتى **رواق گانسو** ومن حدود **سيتشوان** حتى **نينگشيا**.(٢٣)

رغب **ما فوشيانگ** في استغلال الفرصة لزيادة نفوذه، فأرسل أحد أبنائه لإجراء مفاوضات في **خيجو** خلال الحصار الذي فرضه **ما جونگينگ**.(٢٤) كما انضم **ما فوشيانگ** إلى مسلم آخر من الطبقة العليا هو **ما يوانتشو** من جماعة **الجهرية**، وكتبا بيانا يدعو كافة مسلمي المحافظة بأن يجنحوا للسلام.(٢٥) لكن القائد العسكري

وقادة المسلمين المحليين فشلوا في المحافظة على النظام في **گانسو**. لذلك بدأ **ما فوشيانگ** يبحث عن حلفاء من خارج المحافظة ليؤمن سيطرته وليخلص المنطقة من تأثير **فنگ** عن طريق التحالفات السياسية وليس عبر القوة العسكرية. في عام ١٩٢٧ كانت فاعلية حملة الشمال ضد امراء الحرب في الجنوب وكذلك الشيوعيين قد آتت ثمارها. فالقائد العسكري للحزب الوطني **تشان كاي تشك** ازداد قوة بسرعة وتقدم بخطا واثقة لمواجهة امراء الحرب الشماليين اثر انتصاره وتقدمه نحو **يانگتسي**. وبعد ثلاث سنوات من تقدمه السياسي التدريجي باتجاه المناطق المؤيدة للقائد العسكري، أعلن **ما فوشيانگ** انفصاله عن **فنگ فوشيانگ** معتمدا على خطاب من الحماس الوطني ليبرر تحالفه مع **تشان كاي تشك**. أسرع أمراء الحرب إلى تبني الخطاب الجديد "من أجل الشعب" و "وحدوا الشعب" لتبرير نزعتهم العسكرية. ورغم سطحية الشعارات المصطنعة التي طغت على تلك الفترة، فقد كانت لها أهمية خاصة، قدر تعلق الأمر بالمسلمين. فبالنسبة لهم، كان هذا الشعور الوطني الطاغي يتناقض مع فكرة الإخلاص للسلالة الحاكمة، وعزلة المسلمين والشعور بخصوصية منطقة **گانسو**. وفوق ذلك كان يعني نهاية حقبة الإمبراطورية وبروز فجر ضبابي يبشر بقيام دولة صينية وطنية متعددة القوميات.

كان **ما فوشيانگ** أول أمير حرب من **گانسو** يعلن تأييده للدولة الجديدة ممثلة بشخص القائد العسكري في المنطقة، فحصل على اعتراف مرموق على مستوى التحالف الوطني. وفي ظروف ذهاب **فنگ يوشيانگ** وبروز **تشينگكاي** و**نينگشيا** كمحافظتين جديدتين عام ١٩٢٨، شارك **ما** في اعتراف حكومة محافظة **گانسو**. ونظرا لأنه جمع بين يديه القوة على المستوى الوطني والإقليمي والمحلي، فقد انضم إليه المسلمون الذين نجحوا في الإمتحانات الحكومية في السابق من الذين تركوا بيوتهم ومناطقهم ليشغلوا وظائف في مناطق الإمبراطورية المختلفة بعيدا عن مسقط رأسهم، لكي يضمنوا مكانة ومستقبلا أفضل لأجيالهم القادمة. تتالت الألقاب الرسمية العالية على **ما فوشيانگ**، فأصبح عمدة لمدينة **تشنگداو** وحاكما لمدينة **أنوشي** وعضوا في مجلس القيادة العسكري وعضوا في مجلس الولاية

ورئيسا للجنة العسكرية لشؤون منغوليا.(٢٦) ونظرا لحذقه في اللعبة السياسية -العسكرية في تلك الأيام، استطاع أن يعد العدة لهزيمة **فنگ يوشيانگ** واستسلام العديد من مساعديه بما فيهم **ما** ابن القائد **ما هونگخو**. ورغم أن **ما فوشيانگ** لم يشغل منصبا مدنيا في **گانسو** بعد أن انتقل شرقا ليكون حاكما عسكريا، فإنه استمر بإظهار اهتمامه النشط والمباشر بما يجري في شمال غرب البلاد وحافظ على اتصالاته المباشرة بمساعديه في **نينگشيا**.

كما أنه اتخذ موقعا قياديا في تأسيس المنظمات المسلمة الوطنية بتأييد من الحاكم العسكري العام في المنطقة. ولغاية عشرينات القرن العشرين كانت **الجهرية**، وليست الدولة الصينية ولا أي من الأحزاب الوطنية، هي التي عملت على أخذ مثل هذه المبادرة لتوحيد المسلمين بشكل تنظيمي. والآن في عام ١٩٢٨ وفي ظل حكومة وطنية (ليست امبراطورية ولا إقليمية)، أصبح يتعين على المسلمين أن يتعاونوا مع الوطنيين الآخرين والجماعات ذات المصالح الخاصة لكي ينضووا جميعا تحت راية واحدة ويكون لهم قادة معترف بهم وليسوا مجهولين أو خارجين على القانون أومتمردين. ساعدت الحكومة الجديدة هذه الجماعات عن طرق إمدادها بالمال والاعتراف بقادتها كشخصيات سياسية. هذا وكان **ما فوشيانگ** قد أظهر اهتمامه بالمؤسسات الثقافية الإسلامية فأسس مكتبة عامة في **نينگشيا**. كان قبل ذلك في عام ١٩١٧ قد جمع عددا من المستثمرين وصرف من ماله الخاص لتأسيس مدرسة إسلامية - منغولية وعددا من المدارس الإبتدائية في كافة أنحاء المنطقة تحت رعايته. وبعد انتقاله إلى القيادة العسكرية في الشرق، انضم ما إلى عدد من افراد الطبقة العليا المسلمين من عدة محافظات وأسسوا **اتحاد مسلمي الصين**، وشغل منصب مدير للمناهج وطرق التدريس في المدرسة الثانوية الإسلامية في بكين.

كما قام المثقفون والأئمة المسلمون التقدميون بتأسيس كلية **تشنگدا** في مدينة **جينان** في محافظة **شاندونگ** عام ١٩٢٥. كانت مناهج هذه الكلية التي تُعتبر أول مؤسسة تربوية عالية للمسلمين في الصين مزيجا من المواضيع الصينية والحديثة

(الغربية) والإسلامية في نفس الوقت. ونظرا لخلفيته الثقافية في الكونفوشية والإسلام، كان **ما فوشيانگ** مؤيدا لمثل تلك المبادرة وساهم فيها بشكل فعال، خاصة أن مشاكل ١٣ مايس قد جلبت **ما سونگتنگ** ليكون إماما للكلية.(٢٧) لم ينس **فوشيانگ** للحظة التأثير الثقافي **لكتب الخان**، وعليه أدخل على مناهج الكلية عددا من المصادر الرئيسية التي أشرنا اليها في الفصل الثالث. لقد مكنت جهوده كلا من **وانگ دايو** وما جو وخاصة **ليو جي** أن يجدوا من يقرأ كتاباتهم ويدرسها بين المسلمين الصينيين في القرن العشرين. كما أن العديد من المخطوطات التي لم تُنشر أو تُطبع من قبل قد أُضيفت إلى مناهج الكلية.

انتمى **ما فوشيانگ** إلى جيل جديد من الوطنيين الكونفوشيين "الثوريين المحافظين" والأيديولوجية التي تهدف إلى تغيير المؤسسات الصينية والقوة الوطنية والنظام العام، وفي نفس الوقت المحافظة على القيم الثقافية وتقاليد النخبة. كان يستمتع في أوقات فراغه بلقاء المثقفين غير المسلمين والقادة العسكريين، لكنه في نفس الوقت كان حريصا على دفع الشباب المسلمين الواعدين الذين يؤمنون بأفكاره ومواقفه في كيفية تحقيق النجاح.(٢٨) نال **ما** مديح غير المسلمين "لحسه الوطني" الذي جعلهم يفرقونه عمّا كان سائدا من الأفكار النمطية حول المسلمين وأولئك الذين ينزعون للعنف والروح العسكرية. ففي العلن، أبدوا إعجابهم بتحليلاته وكيف جمع بين مبادئ الكونفوشية والإسلام والتي طُبعت عبر عدد من الأعمال مثل **كتب الخان** والأعمال الأدبية الصينية الكلاسيكية. كانوا يشعرون بالارتياح لتركيزه على تحقيق الوحدة الوطنية، في الوقت الذي كانوا فيه يزيدون من قوة قواعدهم المحلية في مدنهم ومحافظاتهم.

في عام ١٩٣٢ برز **ما فوشيانگ** كنجم في المجلس المركزي العسكري الذي كان القوة الأساسية للقيادة في شمال غرب البلاد. وفجأة أُصيب أشهر مسلم في الصين بمرض ومات عندما كان مسافرا من **خانكو إلى بيبنگ**. لقد ترك بموته مجموعة واسعة من المشاريع التي كان يأمل تحقيقها لاستكمال رؤاه حول الاندماج الحقيقي للمسلمين في الجمهورية الصينية ليصبحوا مساهمين فعّالين في الثقافة

الصينية. لقد كان خطط بالتعاون مع **ما جنوو** شيخ الطريقة **الجهرية** في **نينگشيا** لترجمة القرآن للغة الصينية. وفي عام ١٩٣١ قام بدور رئيسي لتأسيس **الجمعية الإسلامية للثقافة التقدمية** على أن تقوم الدولة بدعمها. وعندما تحقق ذلك عام ١٩٣٣ شرعت هذه الجمعية بتشجيع المسلمين على دراسة التربية الصينية. ومنذ أيام العسكرية كان **ما فوشانگ** قد قاد قواته التي بطشت بالمسلمين من الثوار الذين عارضوا ما كان يرى أنه من مصلحة المسلمين وطالب بأن يتحالفوا مع امبراطورية **التشينگ** ليكون لهم مركز مستقر ضمن سلطتها. في آخر حياته كانت الصين قد تغيرت بشكل راديكالي، فالمسلم الثوري أصبح تربويا ومثقفا على مستوى المحافظة، وضابطا في المؤسسة العسكرية لحماية مناطقه ونفوذ عائلته، كما كان يعمل في نفس الوقت ليكون لمسلمي **گانسو** والصين عامة دور في دولة وطنية قوية. لقد عمل **ما فوشيانگ** جلّ وقته ليكون "ذلك الصنف من الصينيين مثلنا". أصبح ابنه وابن اخيه من أشد مناصري المؤسسة العسكرية ومن المعادين للشيوعية وحكما **نينگشيا** - قال معظم الناس المحليين إنه حكم اتسم بالسوء - لما تبقى من فترة حكومة الجمهورية.

٢. ما يوانجانگ (١٨٥٣-١٩٢٠) بعث الطريقة الجهرية

*لم يكن **ما يوانجانگ** يحمل غضاضة على أي دين من الأديان الأخرى. والحقيقة أن قواته قد انضمت إلى الميليشيا لملاحقة الخارجين على القانون، ويمكن أن نطلق عليه أنه رجل ذو حسّ وطني يقوم على **المنتسو**!* (٢٩)

الذي قام من الرماد

كان الانصهار العقائدي في الصين الجديدة خلال السنوات الأخيرة من عمر امبراطورية **التشينگ** ومطلع الحكم الجمهوري أمرا متوقعا في رأي **ما فوشيانگ**. وهو ابن **ما جانئو** الذي يمثل طائفة من نخبة مسلمي **گانسو** المرتبطين بالطريقة

الخفية الذين كانوا يبحثون عن نوع من التسوية منذ ما قبل ثورة ١٨٧٠. ولكن لم يتوقع أحد بما فيه غير المسلمين في **كانسو** أن تخطر الفكرة على بال شيخ الطريقة **الجهرية** ذاته. فمنذ العنف الذي قام به **سو الثالث والأربعون** عام ١٧٨١ وانتفاضة **ما خوالونگ**، فإن **الجهرية** واسمها **التعاليم الجديدة** كانت مدانة وتنزل الخوف بقلوب الناس في كافة أنحاء المحافظة. وبرغم المذبحة التي حلت بأنصار **الجهرية** في **جنجيبو**، فإن الحركة بدأت بالانتعاش تحت قيادة شيخ صوفي هو **ما يوانجانگ**. سلك هذا الشيخ طريقة اسلافه بتكريس تضامن أنصار **الجهرية**، لكن تعرضه للثقافة الصينية وتشبعه بها وتغير الأوقات قد غيرت مفهومه عن مكانة المسلمين عامة و**الجهرية** خاصة في الصين، ولم يفعل ما فعله العديد من أسلافه في السابق.

لقد تطرقنا إلى النتائج الدموية التي نجمت عن وصول الطريقة **الصوفية** إلى شمال غرب الصين، والصراعات المسلحة بين الجماعات المسلمة مما أدى إلى تدخل عسكر امبراطورية **التشينگ** والثورات التي أعقبت ذلك والمذابح التي كانت حصيلتها. ويجب ألّا ننسى أنه ما بين الحوادث التي تشبه الحروب وخلالها، فإن **الصوفية** كنظام ديني وإيمان وممارسة وتجربة عقلية عاطفية، لعبت دورا أساسيا في حياة الناس المؤمنين بها. ورغم أن النصوص التوفيقية في **كتب الخان** قد كتبت في شرق الصين، وهي منطقة ليست أقل عددا ولا أقل ثقافة مما هو عليه الواقع في الشمال الغربي المسلم، فإن قصص **ما تونگ** التاريخية قد أظهرت الثقافة الدينية الغنية والحياة الثقافية مما حرك الصوفيين في **كانسو**. كان الأئمة يقرأون النصوص الدينية ويفسرونها، وتناقل المعلمون والناس عموما حكايات عن معجزات الأولياء الصوفيين وشرور الأعداء، وكان كل شخص "يتذكر" أمجاد أجداده الخيرين وشيوخه ومؤسسي الحركة الصوفية ، التي تعني تمجيد الماضي ليتفق مع ظروفهم الحاضرة. كانت أضرحة مؤسسي الطريقة وأتباعهم تخلق أجواء دينية مؤثرة وأن الاحتفالات التي تجري فيها مثل ميلاد النبي كانت مناسبات لتجديد الولاء للجماعة وفرصة للتبرع السخي بالأموال.(٣٠) كانت التكيات نُزلا للمسافرين والفقراء واللاجئين لأسباب دينية. قام فرنسوا أوين بوضع وصف لهذه التكيات ودورها في

حياة **الجهرية** في الصين وركز فيه على العلاقة بين الأولياء الصالحين والأتباع وأهمية احتفالات الذكر وفهم الطريقة المناسبة لتحقيق التواصل مع الذات الإلهية.(٣١) بُعثت الحياة الدينية والفكرية **للجهرية** في **كانسو** خلال حياة **ما يوانجانگ** بعد تجربتها الدموية والفوضى التي رافقت ذلك في القرن التاسع عشر لتنتقل إلى علاقة جديدة مع الحياة الثقافية في الصين.

ونقلا عن أحد أحفاد **ما يوانجانگ**، فإنه يعود بنسبه إلى **ما منگشين**.(٣٣) لا بد من التذكير هنا أنه عندما هزم **أگو** شيخ التعاليم الجديدة **سو الثالث والأربعين** عام ١٧٨١ فإنه نكّل بأفراد عائلة **ما منگشين** وارسلهم إلى المنفى في **يوننان**. انضم هؤلاء للمجتمع المسلم النشط في غرب تلك المحافظة مهتدين **بالجهرية** وفي خدمة شيوخها في جنوب غرب البلاد. سافر **ما شيلين**، وهو والد **ما يوانجانگ** من **يوننان** إلى **نينگشيا** مرتين لزيارة **ما خوالونگ** وأقام مدة سنتين في **تونگشين** إلى الجنوب من **جنجيبو** باعتباره إماما. وعندما أعدّ **دو ونشيو** منطقة **بنگنان** لتكون سلطة مستقلة في عام ١٨٥٠ في **يوننان**، انضم إليه **ما شيلين** كقائد للحامية العسكرية وكموظف مدني. استطاع أن يحافظ على حصنه في **دونگوجاي** مدة سنة ضد الحصار الذي فرضته عليه قوات **التشينگ**. وعندما هُزمت قواته أقدم على الانتحار بدلا من تسليم نفسه. أُرسل أبناؤه جميعا، بما فيهم **ما يوانجانگ** إلى **سيتشوان** لأنهم سيكونون أكثر أمنا هناك. تنكر هؤلاء بملابس تجار وانتقلوا إلى **كانسو** بعد عام اثر سقوط **جنجيبو** وموت شيخ الطريقة فيها.

عندما رجع **ما منگشين** إلى **كانسو** من اليمن في مطلع ستينات القرن الثامن عشر انتقد بشدة **الخفية** لأنها سمحت لابن **ما لايتشر** المسمى **ما گوباو** ليرث منصب والده كشيخ للطريقة بدلا من اختيار أقرب الأولياء إلى الشيخ الراحل. وخلال السنوات التي فصلت بين اعدام **ما منگشين** ووصول **ما خوالونگ** إلى **جنجيبو**، تغيرت المبادئ السامية هنا شأنها شأن كل العالم الإسلامي، لقبول فكرة وراثة شيوخ الطريقة. كان الشيخان اللذان قادا الطريقة بعد مقتل **ما منگشين** يمثلان الجيلين الثاني والثالث لشيوخ الجهرية في **كانسو**. لقد تمّ اختيار هذين الشيخين من

قبل الشيوخ السابقين أو لصفات منها تمكنهما من فهم القرآن وتفسيراته وكفاءتهما في اللغتين العربية والفارسية وحسن سيرتهما وإيمانهما.(٣٣) غير أن الشيخ الرابع **ما يدي** (١٧٧٠- ١٨٤٩) كان ابن الشيخ الثالث، ومنذ ذلك الوقت تحولت **الجهرية** إلى نموذج **الصوفية** الشائعة في شمال غرب الصين التي تقوم على **المينخوان**. ورغم أن هذا التغيير لم يكتمل حتى وصول **ما يوانجانگ إلى** المنصب، فإن الخطوة المهمة كانت قد بدأت بعد موت **ما ييدي** عام ١٨١٧.

الآن وقد أصبحت **الجهرية** تتبع النظام الوراثي في اختيار مشايخها، حاول **ما يوانجانگ** أن يجد ما تبقى من عائلة **ما خوالونگ** الذين فروا إثر مذبحة **جنجيو**. تمكن من تحديد وجود اثنين من أحفاد **ما خوالونگ** وهما **ما جينتشنگ** و**ما جنشي**، حيث كانا يعيشان تحت رقابة حرس **التشينگ**. كان قد حُكم عليهما بالخصاء عندما يبلغا سن الثانية عشرة. كان وصول **يوانجانگ** متأخرا بالنسبة لإنقاذ الولد الأكبر من ذلك المصير المحزن بسبب "ثورة جده". ولكن عندما أُرسل الولد المسكين إلى **كايفنگ** ليُباع كعبد، تمكن **ما يوانجانگ** أن يؤمن وجود عدد من أنصار **الجهرية** ليكونوا بقربه ويهتموا به حتى وافته المنية عام ١٨٩٠. إلّا أن **ما يوانجونگ** تمكن من إنقاذ الولد الثاني قبل عملية الإخصاء فتم تهريبه من بيت لآخر من بيوت المسلمين في **خانگجو** حيث يوجد مجتمع مسلم صغير يتمتع بحياة غنية في القسم الأسفل من وادي نهر **اليانگتسي**. كان **ما يوانجانگ** يعمل في تجارة الجلود، الأمر الذي مكنه من الانتقال في شرق الصين ويزور المسلمين من أتباع **الجهرية في** عدد من المدن وينال ثقتهم وتأييدهم باعتباره إماما صالحا، وأن يعود إلى شمال غرب البلاد ليسكن هناك بعد انقضاء أعمال العنف عام ١٨٩٥.

أسس **ما يوانجانگ** قاعدته في داخل مدينة **جانگجياتشوان** وحولها في شرق المحافظة حيث أسكن **تسو تسونگتانگ** الآلاف من مسلمي **شانشي** بعد فشل ثورتهم. ونظرا لبعدها عن تاريخ الخصومات والعنف الذي عاشته **خيجو** و**ديداو** و**شينينگ** و**نينگشيا**، أصبحت **جانگجياتشوان** مقاطعة للمسلمين فقط. كان غير المسلمين يعيشون على بعد أميال من المدينة باستثناء بعض الحرفيين القلائل الذين

التزموا بقواعد الطعام الحلال عند المسلمين. كانت الطريقة **الجهرية** تقود المدينة والوديان المجاورة لها، وهنا بدأ **ما يوانجانگ** يبني مجتمعه بهدف تحقيق الكفاية الزراعية والنجاح التجاري والتركيز على التربية الإسلامية ووضع حدّ للخلافات والخصومات في **جانگجياتشوان**.(٣٤)

نذر **ما يوانجانگ** نفسه لخدمة الطريقة **الجهرية** وتركيز جهوده لتحقيق التضامن بين المسلمين كافة. تزوج **ما** امرأة من عائلة **ما خوالونگ**، وفي نفس الوقت طور العديد من الصداقات مع المسلمين من غير اتباع **الجهرية** ومع العائلات المتنفذة الغير مسلمة.(٣٥) كما أنه حصل على ثقافة كلاسيكية صينية وتتلمذ على يد ثلاثة من معلمي **الخان** في شمال غرب البلاد ومعلما من العائلة الحاكمة المنشورية. ونظرا لكفاءته الفائقة في الخط العربي والصيني فقد خطّ ووزع الكثير من اللوحات الفنية التي تحمل الآيات القرآنية التي عُلقت على جدران العديد من البيوت والتكيات في شمال غرب البلاد. أضف إلى ذلك أنه كتب ثلاث نسخ كاملة من القرآن بخط يده، كما ألف عددا من المقالات والقصائد عن موضوعات مختلفة حول طبيعة الصلاة ومستلزمات الوطنية الحقة. كان أتباعه يتوافدون على أضرحة شيوخ الطريقة يزورونها ويتبركون بها ويمارسون الشعارات الصوفية المعروفة في كافة أنحاء العالم الإسلامي بين جدرانها وفي قاعاتها خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.(٣٦)

خسر **دونگ فيوشانگ** مركزه كقائد عسكري **لگانسو** وكذلك مركزه كأعلى عسكري في عائلة **فيوشانگ** لأي منصب وطني بعد الفشل الذريع في معركة **البوكسر**. ومن وجهة النظر الأوربية، اعتُبر **دونگ** من أشد الأشخاص عنادا وأكثرهم رجعية في معسكر المخلصين لدولة **التشينگ**. وكان جنوده المسلمون في **گانسو** من أشدّ المقاتلين بأسا ضد الجيوش الأجنبية خلال الحصار المفروض على بكين. كتب أحد المقاتلين المحاصرين يقول:

*إن أولئك المقاتلين في الشمال والغرب – وهم من **گانسو** بقيادة **تونگ فوشيانگ** – عنيدون ومشكوك في ولائهم. كان بالإمكان الحصول على بعض المؤن القليلة مثل البيض والخضروات التي يمكن الحصول عليها من كل الجهات، خاصة*

الجانب الشرقي الذي كان تحت سيطرة قوات جونگ لو. كان تهريب تلك المؤن يتم عبر خطوط القوات الصينية بالرغم من أوامر ضباطهم المشددة، وأنه من خلال تلك الفجوة كانت الرسائل تأتينا بآخر الأخبار. وفي الحقيقة إنهم أعلنوا أنه لا يمكن اختراق صفوفنا على الجبهة الغربية لأنهم سيتعرضون لإطلاق نار كثيف.(٣٧)

إن الضجة العالمية ضد إعدام **دونگ** قد مكن محكمة **التشينگ** من المراوغة لأنها كانت أصلا غير راغبة في معاقبته لأنه كان قد أدى واجباته بكل إخلاص. وبسبب الضغط الذي مارسه البلاط الإمبراطوري، فقد جُرد من رتبته العسكرية وأُبعد إلى منطقة معزولة في محافظة **گانسو** حيث استمر تأثيره ومكانته يلعبان دورا أساسيا في قلق المجتمع الأوربي في الصين منه وسخطه عليه حتى وافته المنية.

يتذكر **دونگ فوشيانگ** جيدا كلا من **ما خوالونگ** وجنجيبو، وكان يرغب في السيطرة على مصادر الثروة في شمال **گانسو**، ولذلك فإنه كان مستاء من بعث الروح في الحركة **الجهرية**.(٣٩) توالت الإشاعات أن **دونگ** كان يخطط للقضاء على أتباع **الجهرية** بواسطة الميليشيا التابعة له، ولذلك كان على **يوانگجانگ** أن يأخذ الحيطة والرد على مثل تلك الخطة. كتب أولا إلى **دونگ** ليخبره أن الوقت قد تغير وأن الفترة ليست فترة **تونگجي**، وأنه ليس **تسو تسونگتانگ**، ثم أضاف يقول "إنك إن تجرأت على المس **بالجهرية** فإن المسلمين في كافة أنحاء البلاد سينقلون اخبار خيانتك للأجانب. وفي هذا تكون نهايتك."(٤٠) كان **ما يوانجانگ** قد اتصل بالمنشوريين ليحصل على عفو عن **ما جينشي** ولذلك فإن **دونگ** قد اقتنع بأن ما سينفذ ما هدد به. ونظرا لأنه كان على علم بأن الأوربيين لا يحبونه وأن سلطة **التشينگ** قد وعدت بمعاقبته، تراجع **دونگ** عن خططه وبقيت المنطقة آمنة. وبعد سنوات شاقة من معاناة التمييز والعنف الذي كانوا ضحيته، أصبح بمقدور أتباع **الجهرية** أن يلبسوا غطاء الرأس الأبيض المتميز في شوارع **گويوان** و**خايجينگ** ويمارسوا أعمالهم دون خوف، بفضل ما عمله **ما يوانجونگ**. وهكذا فإن سمعته كقديس وولي قد تسارعت وبدأ الحجيج يتوافدون على **جانگجياتشوان**.

تقبل فكرة الصين الجديدة

انطلق العنف ضد السلطة المنشورية في **نينگشيا** عام ١٩١١ على يد مجموعة سرية بقيادة **الأخوة الكبار**.(٤١) أرسلت حكومة المحافظة **ما تشي** لإقرار النظام في حين أرسل الثوار **يو يورن** إلى **جانگجيا تشوان** لمقابلة **ما يوانجانگ** لإقناعه بعدم مساندة سلطة **التشينگ**. أعلن **يو** تأييده للثورة ضد المنشوريين وترك **لما** بعض الكتب لتوزيعها على المواطنين، لكن **ما** لم يكن يرغب في تعريض علاقته للخطر مع العاصمة الإقليمية وأسيادها **التشينگ** البعيدين. بعث **ما** الميليشيا المسلحة في شرق **گانسو** بقيادة أحد أبنائه لمساعدة **ما تشي** لمقاتلة Gelaohui **الأخوة الكبار**، بما فيه أنصارهم من المسلمين في **نينگشيا**. وبعد فشل غزو **شنگيون** و**تشانگنگ** و**ما أليانگ** لمدينة **شانشي** عام ١٩١٢، غيّر **يوانجانگ** موقفه بسرعة ليصبح بين ليلة وضحاها من مناصري "الجمهورية" (كما فعل أمراء الحرب) وإعطاء سلطة أكثر للقوى المحلية! اعترف **ما** بحكومة **يوآن شيكاي** الجمهورية التي أصبح بمقدورها تعيين موظفي المحافظة باعتبار ذلك مفتاحا لاستقرار الوضع في **گانسو**.

لمّا غزا القائد العسكري القوي **باي لانگ** محافظة **گانسو** ومعه الآلاف من القوات "الخارجة على القانون" عام ١٩١٤، كان الحاكم **جانگ گوانگجيان** قد عُين لتوه من قبل الحكومة المركزية وكانت القوة الفعلية بيد السلطة المحلية، وليس في عاصمة المحافظة **لانجو**. تمّ اعتقال **ما جنشي** حفيد **ما خوالونگ**، الذي تمّ الصفح عنه ثانية بعد اتهامه من قبل الأرستقراطيين في شرق **گانسو** بأنه متواطئ مع **باي لانگ**. ذهب **ما يوانجانگ** مباشرة إلى **لانجو** فقابل **جانگ گوانگجيان** وقدّم له رشوة لكي يطلق سراح حفيد **ما خوالونگ**. في مطلع العهد الجمهوري، وعلى العكس مما جرى في منتصف حكم **التشينگ**، قامت حكومة المحافظة باستعمال **الجهرية** والتعاون معها للمحافظة على النظام العام. ومنذ عام ١٩١١ والسنوات التي تلت ذلك بدأ الأشخاص الطموحون للسلطة في شمال **گانسو** وشرقها يبعثون بالرُسُل إلى **جانگجياتشون** بدلا من المخاطرة بغضب **الجهرية** عليهم. تمكن **ما يوانجانگ**

من تحقيق نوع من الشرعية لنفسه وللطريقة التي كانت محرمة إلّا أن الميليشيا التابعة له لم تستطع صد **باي لانگ** من السيطرة على **جانگجياتشون**، لكنها قاتلت دفاعا عن **تيانشو** فحصلت على رضا المسلمين وغير المسلمين وشكرهم لها ولقائدها.(٤٢)

وجد **ما فوشيانگ** وغيره من المسلمين في **كانسو** أن سيطرة الجنرال **جانگ گوانگجيان** على **لانجو** أمرا مثيرا للسخط ومكلفا في نفس الوقت. وبحلول عام ١٩١٦ كانوا يتناقشون حول قائد عسكري جمهوري تحت شعار "إن أهل **كانسو** يجب أن يحكموها." تقدموا بطلب إلى **ما يوانجانگ** باعتباره "أخا مسلما" من أهل المحافظة، كما دعوا **ما فوشيانگ** الذي كان يطمح في الحصول على ذلك المنصب، لإرسال طلب إلى **يوآن شياكي**. وبدلا من التعاون مع تلك الجماعة، بعث **ما يوانجانگ** برقية إلى بكين فحواها أن **جانگ** هو افضل شخص مناسب ليكون قائدا عسكريا. وهكذا حصل بفعل تلك البرقية على عداء **مو فوشيانگ** لكنه حصل على موقع مؤثر في **لانجو** وشرق الصين لشعوره "الوطني" البعيد عن الأنانية والطموح الشخصي. وعندما زار **ما يوانجانگ** مدينة **لانجو** عام ١٩١٨ استقبله الناس بحفاوة ورفعوا الرايات واللافتات ترحيبا به فأطلق عليه لقب "رجل الساعة والزورق الملائم لكل المياه!"(٤٣)

بتاريخ ١٦ ديسمبر من عام ١٩٢٠ ضربت هزة ارضية كبيرة ومدمرة منطقة **خايتشنگ - گويان** في شرق **كانسو**. ونظرا لأن الناس في تلك المنطقة الرسوبية سكنوا (ولا زالوا) في كهوف حفروها بشكل أفقي على جوانب التلال الشديدة الانحدار، فإن قرى بكاملها قد دُفنت وهي حية في تلك الليلة الرهيبة. انزلقت جوانب الجبال نحو الوديان وسدت مجاري الأنهار مما تسبب في حدوث فيضانات غمرت المناطق المنخفضة، كما أن شقوقا واسعة في القشرة الأرضية تسببت في ابتلاع بعض الحقول والمزارع. بلغت تقديرات الضحايا، رغم الشك فيها في الصين، ما يقارب ٢٠٠ ألف. كما أن قطعة من الطريق العام يبلغ طولها ربع ميل بين

شيئان و**لانجو** والتي زرع فيها **جو جونگتانگ** من قبل صفين من أشجار الصفصاف على جانبيها، أصبحت جزءاً من تلة جديدة تكونت بفعل الكارثة.(٤٤)

تسببت تلك الهزة الأرضية في موت **ما يوانجانگ** وواحد من أبنائه، حيث قُضي عليهما تحت أنقاض مسجد قريب من **جانگجياتشوان**.(٤٥) كان **ما** في منتصف الستينات من عمره وأنه خصص حياته لبعث **الجهرية** ولكن ليس بشكلها السابق ولا بأهدافها المعروفة - وتحت قيادته لم تعد **الجهرية** تعمل **كتعاليم جديدة**، المتطرفة، ضد الاندماج، ضد **المينخوان** التي أسسها **ما مينگشين** وحوارييه في القرن الثامن عشر. وفي الحقيقة إنها فقدت اسمها هذا وانقسمت إلى مجموعات صغيرة ضمن **الخفية** خلال الاضطرابات عام ١٨٩٥. لقد أصبحت **الجهرية** تحت قيادة **مينخوان** جديد منشق بسبب العداء بين الجماعات التي تقودها بعض العوائل الثرية المتنفذة التي وضعت لنفسها أهدافا محافظة ضمن المجتمع الصيني - النمو الروحي الإسلامي مصحوبا باقتصاد إسلامي ناجح. وبدلا من الموت من أجل **الجهرية** والإسلام تعلّم اتباعه أن يقرأوا العربية والصينية والقيام بمشاريع اقتصادية في كافة مناطق الصين الشمالية والغربية.

إن هذا النوع من الشرعية والتعاون لم يكونا نتيجة لسقوط دولة **التشينگ**، رغم أن الحكم الجمهوري وسلطته غير المركزية جعلت **ما يوانجانگ** حليفا مفضلا لقادة محافظة **گانسو**. كما أن تلك المشاعر كانت نتيجة للمبادرات التي جاءت بها الصين إلى مناطق الحدود في أواخر القرن التاسع عشر ونتيجة لاعتماد شمال غرب الصين المتزايد على بقية الصين بدفع من النمو الحديث للدولة الصينية واقتصادها. ففي منتصف فترة حكم **التشينگ** لم يكن قائد **التعاليم الجديدة** أقل من خارج على القانون ومتمرد غير شرعي ضد سلطة الدولة. في مطلع العصر الجمهوري شرع سكان **گانسو** من غير المسلمين يسمون **ما يوانجانگ** "الولي الصالح"، وامتدحت الطبقة الأرستقراطية "ضميره الوطني القومي" كما مدحوا من قبله **ما فوشيانگ**. وفي مقابل ذلك أعلن **ما يوانجانگ** بشكل علني ولاءه للصين حتى وإن تضمن ذلك الخلاف مع البلدان الإسلامية الأخرى. فعندما تحالفت الدولة العثمانية مع

ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، كانت ألمانيا من الناحية التكنيكية عدوا للصين. بعث ما بالبرقية التالية إلى بكين:

إننا مثل الصينيين في كل شيء ما عدا الدين. ونحن غير مرتبطين بالعرب بأي شكل من الأشكال (ما علاقة العرب بالموضوع؟ هم ثاروا ضد العثمانيين !– المترجم) إن حياتنا ومعيشتنا وقبور اسلافنا في الصين. لماذا نلحق الأذى بوطننا من أجل الأجانب؟ بالرغم من أن المسلمين قد قُتلوا على يد الصينيين خلال فترة حكم **التشينگ**، فإنه منذ أن طلّ فجر الجمهورية التزمنا بالسلام وقمنا بواجبنا ولم نعارض الحكومة ولم نخطط بالسر ضدها. لقد أثبتنا أننا مواطنون جيدون من بين الجماعات القومية الخمس المتآلفة!(٤٦)

إن بعث **الجهرية** لم يأت بنتائج ايجابية بسيطة. فمثلا **ما جنشي**، حفيد **ما خوالونگ**، اعتبر نفسه الوريث الشرعي لمنح "البركة" كشيخ للطريقة. ومن الناحية الأخرى قام **ما يوانجانگ** ببعث **الجهرية** من رماد **جنجيبو**، وأنه تزوج امرأة من سلالة **ما خوالونگ** ليشد وشائجه إلى مصدر الشرعية. ورغم أنه لم يتحدَ **ما جنشي** وادعاءه بأنه وريث مجد **ما خوالونگ**، فإنه ادعى من جانبه بأنه يسلك طريقة **ما منگشين**، ويكون بهذا قد شقّ الجيل السابع من شيوخ **الجهرية** إلى قسمين متخاصمين. كانت قاعدة **ما يوانجانگ** تتمركز حول **جانگجياتشان** وأصبح يُسمى بسليل **شاگو** نسبة إلى تكية قريبة من **نينگشيا**. أما **ما جنشي** الذي رجع إلى منطقة **نينگشيا** وأسس قواعده بالقرب من **جنجيبو** واتخذت سلالته اسم **بانتشيو**. وفي الجيل الثامن الذي جاء بعد ذلك ظهر ما يقارب ستة قادة **للجهرية** وكلهم يدعي أنه من سلالة **ما يوانجونگ**، في حين تنافس اثنان من ابناء **ما جنسي** على قيادة أسرة **بانتشيو**. وبإيجاز، أصبحت **الجهرية مينخوان** يضم كل الأوجه المركزية والجانبية لهذه المؤسسة المعقدة والتزامها بالاستقرار وضمان الديمومة داخل المجتمع الصيني.(٤٧)

توضح وظيفة **ما يوانجانگ**، مثلها مثل وظيفة ما **فوشيانگ**، مغزى مهما لكنه

مضحك في نفس الوقت عن تاريخ الصين الحديث. فعلى السطح نرى شعبا جديدا يريد أن يؤكد شرعيته السياسية والثقافية، وتحويل مناطق الحدود التي كانت حدودا عازلة للإمبراطورية كما تعاملت معها حكومة **التشينگ**، إلى أجزاء من رقعة الوطن ضمن "حدود دولتنا القومية." لقد كان ذلك مغزى الكلام الذي قاله **گو جيگانگ** عام ١٩٣٨، بأن الحدود والتخوم شيء واحد. غير أن العملية استغرقت وقتا طويلا، شمل دحر منطقة شمال غرب البلاد ومن ثم شرق تركستان. والهزيمة التي ألحقها **أگوي** بكل من **سو الرابع والثلاثين** وتيان **وو** هي التي جعلت **تسو تسونگتانگ** يخطط بحذر لإعادة قهر منطقة الشمال الغربي بكاملها، بما فيه جعل **شينجيانگ** كمحافظة جديدة، وتعاون **دونگ فوشيانگ** مع **ما أنليانگ** وكتيبة الفرسان المسلمين لإلحاق الهزيمة **بما ويخان** وما **يونگلين** والثوار الآخرين عام ١٨٩٥. دفعت هذه العمليات العسكرية إلى ضم الحدود الشمالية الغربية ضمن حدود الدولة الصينية التي مركزها في الشرق.

إنه من السخرية أن يكتشف القارئ بأن التفتيت الجزئي للوضع السياسي في الصين قد حدث فعلا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين. فحين كانت سلطة **التشينگ** ومن ثم الحكم الجمهوري يحاولان السيطرة على حكم مركزي، كانت الحركات الانفصالية تحدث في اقسام كبيرة من مناطق الصين بينما كان النسيج السياسي قد تمزق بعد عام ١٩١٦، حين أصبح شمال غرب البلاد أقرب إلى الصين. لقد لعب **ما فوشيانگ** وما **يوانجانگ** وغيرهم من قادة المسلمين في شمال غرب البلاد أدوارهم في حركة متناقضة لكنها برغم ذلك غير انفصالية وتتجه نحو المركز. إن قبول شرعية **التشينگ** ومن بعدها حكومة الجمهورية ومساعدتهما بشكل فعال، جعل المسلمين يعملون معهما ويتولون مواقع مسؤولية ويبنون مجتمعاتهم كجزء من الشعب الصيني. لقد أكد هؤلاء القادة الجدد وحدتهم مع الفقراء والمناطق المنكوبة والصين الجديدة ومراكزها الثقافية في الشرق.

٣. ما تشيشي (١٨٥٧ -١٩١٤) وحركته الصينية الإسلامية التعاونية في جنوب گانسو

*في عام ١٩١٤ وبعد أن قُتل **ما تشيشي** على يد **ما أنليانگ** تم أخذ ٤٠ امرأة من أنصار حركة **شيداوتانگ** سبايا إلى **خيجو**، حيث احتجزن في محل لصنع العربات في انتظار أن يُمنحن لبعض الرجال. مرّ إمامان من **مينخوان** آخر قرب بوابة المحل فشاهدا ما يجري. ولذلك سألا "تقولون إن حركة تضامنكم تقوم على طريقة **تاوجو القديمة**، ولكن في نظر من يراكم فأنتم هراطقة! قد يكون ما تسمعه الآذان لا أساس له من الصحة، ولكن ما تشاهده الأنظار هو الحقيقة بعينها. ولذلك سنقوم باستجوابكن اليوم. هل يمكنكن الإجابة؟ بدأ الإمامان يسألونهن عن إيمانهن والمبادئ الستة التي يقوم عليها، وأركان الإسلام الخمسة، ثم استمرا إلى تفسير كل جزء من أجزاء القرآن والشريعة والوسائل الثلاث (للصوفية) وأشياء غيرها. استخدمت النسوة اللغتين العربية والصينية واستشهدن بسور من القرآن واقتبسن بعض الآيات وأجبن عن كل سؤال مُوجّه إليهن بكل سهولة ويسر. تأثر الإمامان بما سمعا وشاهدا فذهبا إلى **ما أنليانگ** وأخبراه بأنه "ارتكب خطأ فاحشا، فإيمانهن لا يرقى إليه الشكّ ولا غبار عليه،" وطلبا منه أن يطلق سراح تلكم النسوة في الحال.*(٤٨)

قائد محلي ذو نظرة قومية وطنية

أعاد **ما يوانجانگ** بناء **الجهرية** مستندا إلى وجود قواعدها الفاعلة، والتجارة بين مختلف المحافظات ونزعتها إلى التضامن الداخلي في وجه العداء الذي يظهره الآخرون لها ويضمرونه على المستويات الاجتماعية والدينية والسياسية. لقد أمّنت له خبرته في إجادة الخط الصيني والعلاقات الاجتماعية والسياسية إعجاب المسؤولين **التشينگ** والأرستقراطية المحلية. وفي نفس الوقت فإن ثقافته الإسلامية وخطه العربي وقدرته على التفاوض بين الأطراف المتخاصمة، حققت له الإحترام والطاعة من كل أتباع **المينخوان** ليكون قائدا صوفيا ناجحا. قام بتأسيس ملاذ آمن ذي اكتفاء ذاتي

بالقرب من **جانگجياتشوان** ليكون مكانا يعيش فيه المسلمون ليس بمعزل عن المجتمع الصيني، ولكنه بعيد عن الخطر الحقيقي نتيجة الخصومات القومية وما يترتب عليها من التمييز والتحيز. كما أنه كان شريكا **لما فيوشيانگ** في قيادة القوات المشتركة لأمراء الحرب التي اتخذت من **نينگشيا** مقرا لها. وهو صاحب الرأي لإعادة وضع المسلمين على الخارطة السياسية في العالم السريع التغير للصين الجديدة. وعلى المستوى المحلي، كان على الإثنين أن يتعاملا مع **ما أنليانگ** الذي كانت **خيجو** مركزا عسكريا وسياسيا لنفوذه. إن كافة اللاعبين في الحياة العامة في **گانسو** يعرفون جيدا أن **ما أنليانگ** سيركن إلى استخدام جيشه وعلاقته القوية مع سلطان **لانجو** ضد خصومه. وهو الأمر الذي بدا واضحا من هجومه على **الشيداوتانگ**، وهم جماعة مسلمة مسالمة مركزها في **تاوجو القديمة**.(٥٠)

نمت جماعة **الشيداوتانگ** وتطورت وسط جو متعدد القوميات في مدينة تجارية على تخوم الثقافة الصينية من جهة وثقافة التبت من الجهة الأخرى. وهي مدينة اختلط فيها التجار المسلمون الذين يتحدثون لغات مختلفة مع غير المسلمين من الصينيين القادمين من جهات اخرى. أضف إلى ذلك التبتيين المقيمين منهم والرحل حيث يحتشد الجميع لتبادل السلع التجارية. كانت مدينة **تاوجو القديمة** تنعم بالثراء وقت السلم ومعرضة للخطر وقت الحرب. وهي مكان لالتقاء الثقافات المختلفة منذ فترة السلالة السادسة (٢٢٠ – ٥٨٩ الميلادية) حيث أسست لتحرس الحدود مع **تويوخون** قبل أن يتم إجلاؤهم على يد **جو الأخير**. وبعد ألف عام تقريبا قاد **ما ينگ**، وهو أحد المقربين إلى **جو يوانجانگ**، جيشا للقضاء على "السليل الثامن **لتوفان**" عام ١٣٧٩. ظل أغلب الجنود المسلمين في **تاوجو** وبنوا أول مسجد فيها وشرعوا في التجارة بين السكان الرحّل والمقيمين في **وادي تاو** و**خيجو** وفي مناطق أخرى شمالا وشرقا.(٥١)

وكما ناقشنا أعلاه، فإن **تاوجو** لم تقم بأي دور خلال معارك المسلمين المهلكة بين مختلف الجماعات و**المينخوان** التي أوقعت السيف والنار في مدن **شينينگ** و**شونخوا** و**نينگشيا** وخيجو بعد عام ١٧٦٠. بقي سكانها على العموم مدينين بمذهب **القديمو** وكانت تنظيماتهم تتخذ المسجد مقرا لها وتقوم النخبة في تكثيف

جهودها على التضامن المحلي مع طبقة المثقفين من **الخوي**، التي تشمل الأئمة والتجار وخريجي المدارس العسكرية وملاكي الأرض. ونظرا لبعدها عن الاتصال المباشر بآسيا الوسطى وتوسطها بين التبت والصين، كان مسلمو **تاوجو** ممن يتكلمون الصينية، أكثر استعدادا لتقبل الصين بدلا من زواغ بصرهم نحو قلب العالم الإسلامي. فهم ادّعوا أنهم من أسلاف **نانجنگ** وأنهم السكان الأصليون للبلاد، وأن أجدادهم المسلمين قاتلوا في صفوف **مو ينگ**. وعليه فإن ثقافتهم بقيت شرقية في توجهها وترتبط بالصين بدلا من ارتباطها بالتخوم.(٥٢) وشرع اثنان من أتباع **الخفية**، وهما **مينخوان الخوسي** و**بيجوانگ**، بالتبشير وحققا بعض النجاح وأسسا مساجد دون أن يخلق ذلك خصومات دينية هامة ولا صراعا عنيفا بين مختلف العائلات المتنفذة، فظل المسلمون ينعمون بالسلام في **تاوجو**.

وُلد **ما تشيشي** لأسرة إمام **تاوجو** و**مينخوان بيجوانگ**. **أظهر ما في** مطلع حياته المدرسية ذكاء ملحوظا ولذلك قرر والده شيئا لم يكن متوقعا من رجل دين في گانسو. بعث ابنه البالغ من العمر أحد عشر عاما ليدرس مع الأولاد غير المسلمين في أكاديمية خاصة. ونظرا لقدرات هذا الولد العقلية الفائقة، دفع المعلم تلميذه النجيب ليدرس على يد معلم آخر مشهور اسمه **فان شنگو**، الذي أسس مدرسة خاصة في **تاوجو الجديدة**.(٥٣) وبعد أن أكمل **ما تشيشي** منهج الخدمة المدنية ونال شهادته فيه، وحصل على المرتبة الثانية في امتحانات **تاوجو** وعلى المرتبة الرابعة في امتحانات **گونگتشانگ**، نال المديح من معلمه وكذلك من مجلس الإمتحانات، وهو أمر نادر لمسلم من شمال غرب البلاد.

بالرغم من أن **ما تشيشي** قد أمضى الكثير من وقته في دراسة النصوص الكونفوشية الكلاسيكية، إلا أنه توسع أيضا في قراءة **كتب الخان** ووجد في ذلك جوهر المعرفة الإسلامية الصينية. وفي تحليله يقول إنه لا الكونفوشية ولا **الداوية** تمثلان قمة المعرفة. وبدلا من ذلك فإن **وانگ دايو** و**ما جو** و**لو جي** وآخرين غيرهم قد تمكنوا من مزج مبادئ الكونفوشية فيما يتعلق بالفضيلة والأخلاق والطبيعة مع مبدأ التوحيد المجيد في الإسلام من أجل الوصول إلى الطريق القويم.

واستنادا إلى قناعته، فإنه يتوجب على المسلمين الصينيين أن يستخدموا الثقافة الصينية كطريقة لفهم الإسلام. رجع **ما تشيشي** إلى **تاوجو القديمة** وافتتح مدرسته الخاصة التي سماها **قاعة الكوكب الذهبي** في مقر **المينخوان**، وقام هناك بتدريس الإسلام والمنهج الصيني وكتاب **الخان** لأتباعه المؤمنين الذين زاد عددهم على أكثر من مائة طالب. تعلم طلابه المفردات الأساسية لتوجيه النفس إلى الفضيلة، وكان هدفهم من ذلك هو معرفة فرائض الله ونموذج حياة النبي.

يبدو من ذلك أن قناعاته تختلف عن قناعات زملائه من الصوفيين الذين تأثروا بآسيا الصغرى، فانشق عنهم وأصبح معلما مستقلا ركّز على دراسة ما كتبه **لو جي**. اتهمه صوفيو **الخفية** بالهرطقة، وأنه ملحد لنجاحاته المادية ومنهجه غير التقليدي. ووصل الأمر بهم أن يطلبوا من أتباعهم الامتناع عن أكل لحوم الحيوانات التي يُشرف **ما تشيشي** على ذبحها.(٥٤) ونظرا لأن مسلمي **تاوجو** لم يقعوا ضحايا للصراعات الدينية قبل تلك الفترة، فإن كل الاضطرابات التي وقعت قد أُلقيت على عاتقه وعاتق **التعاليم الجديدة**. وبحلول عام ١٩٠٢ كان العنف على أشده، الأمر الذي جعل أتباع **المينخوان** و**الخوسي** يذهبون إلى المحكمة واتهام **ما تشيشي** وأتباعه بالهرطقة. حكمت المحكمة في **تاوجو** بمنع **ما تشيشي** من التدريس وقضت على أتباعه بالسجن حيث تعرضوا للضرب والإهانة.(٥٥) غير أن قرار المحكمة هذا قد نُقض بعد عام، وافتتح **ما تشيشي** مسجدا في **تاوجو**، الأمر الذي نتج عنه تنامي موجة من الغضب هددت باندلاع العنف. أدرك **ما تشيشي** خطورة الوضع فعمل ما عمله **لاوتسي**، أحد أقطاب **الداوية** حين اعتزل في منطقة **الممر**، وقرر أن يذهب إلى مكة لأداء فريضة الحج مع اثنين من مريديه عام ١٩٠٥.

لم يتمكن الحجاج الثلاثة من تحقيق غايتهم بسبب الحروب المحلية والإقليمية وبسبب الظروف السياسية غير المستقرة في مناطق وسط آسيا الخاضعة لسيطرة روسيا. أمضى **ما تشيشي** ثلاث سنوات في سمرقند يدرس ويدرّس أتباع **الصوفية** من **البيشان**.(٥٦) وحين أدركت الوفاة أحد مريديه قفل راجعا إلى **تاوجو** وهو أكثر تصميما على أن يفهم المسلمون الصينيون الإسلام من خلال الثقافة الصينية،

وبالذات ما اقترحه كتاب **الخان**. فتح ثانية مدرسة أخرى سماها **شيداوتانگ** التي يمكن أن تترجم إلى **تكية** أو **قاعة الداوية الغربية**.(٥٧) وبسبب اسمها ونظرا لتلائمها مع نظرة **ما** الفريدة حول حياة المسلمين الصينيين، فإن هذه المدرسة أضحت عنصرا للتضامن. ونظرا لارتباطه الشديد بالثقافة الصينية، فإن **ما تشيشي** قد كرّس الكثير من الاهتمام للتطورات السياسية في الصين. وعليه عندما سقطت سلطة **التشينگ** عام ١٩١٢، تمتع الرجال والنساء في **تاجو القديمة** بقدر متساو من الحرية.

ترسيخ مبدأ الفلسفة التعاونية (المبدأ الإشتراكي القائل بسيطرة الدولة على وسائل الإنتاج)

بالنسبة لشاب عاش في بيئة تجارية، تصرف **ما تشيشي** ودرس بطريقة تركز على الديني والدنيوي في الإسلام. صرف اهتمامه للتصرفات الاجتماعية والحياة الاقتصادية، وهما شرطا النجاح في الجانبين المادي والروحي. ولتحقيق ذلك حوّل **التكية/الزاوية** إلى منظومة تعاونية حيث اختلطت فيها الحيوات الاقتصادية والثقافية والدينية وتداخلت مع بعضها البعض. كان رأس المال المرصود لتلك المنظومة يأتي من ممتلكات العائلة نفسها وممتلكات أتباعه. توجب على كل من ينضم إلى **التعاونية** أن يتبرع بكافة عقاراته وأشيائه الخاصة وكل أمواله لخزينة **التعاونية**، ليصبح بمقدور الشيوخ/القادة أن يستثمروا ذلك في نشاطات مختلفة. كان في مقدمة تلك النشاطات في منطقة **تاوجو** هو التجارة بين مناطق الرعي التبتية والمناطق الزراعية في الصين. توسعت نشاطات **التعاونية** للتجارة في المنتجات الزراعية وتربية المواشي واستثمار الغابات ودبغ الجلود. أسست **التعاونية** شركة تجارية باسم **تيان شنگ لونگ**، فأصبحت لاعبا مهما في عمليات الإنتاج والسمسرة والنقل وبيع مختلف البضائع من قبيل الحبوب والخل والأعشاب الطبية النادرة.

كانت المنافسة الرئيسة لنجاح شركة **تيان شنگ لونگ** تأتي من مصادر محلية أهمها **مينخوان خواسي** وشركته المسماة **يي شنگ گونگ** التي يملكها رجل مسلم معروف في **تاوجو**. وفي رأي **مينخوان خواسي** فإن جماعة **التعاونية** ليسوا فقط

يدرسون الهرطقة ويجذبون الناس نحوهم بدلا من **المينخوان**، فإنهم يحرمون الشركات ذات السمعة الطيبة من موارد مالية كثيرة في ميدان الأعمال التجارية. ولسوء الحظ فإن **ما تشيشي** وجماعته وأمير الحرب في **خيجو** التابع **لمينخوان خواسي** المسمى **ما أنليانگ** قد استمر الكثير من الأموال في شركة **يي شنگ گونگ** - جاء في أحد المصادر ذكر مبلغ ثلاثين ألف قطعة فضة.(٥٨) وإضافة إلى الجانب الاقتصادي الواضح، فقد كان **لما أنليانگ** المزيد من الأسباب ليكره **ما تشيشي وتكيته**، أو على الأقلّ عدم الثقة به. وفي عالم **گانسو** المسلم، كان **ما أنليانگ** يكن الولاء **لمينخوان خواسي**، ويعارض الأفكار "المختلفة" التي جاء بها **ما تشيشي**. تحالف **ما أنليانگ** مع الحاكم المنشوري السابق المحافظ جدا الذي اتهم **التعاونية** بأنها تدعو للإخلاص للحكم الجمهوري ومساندته. كان أكثر الأمور وضوحا هو رغبة أمير الحرب في **خيجو** للسيطرة على اقليم **تاوشي** الذي كان مصدرا غنيا للموارد المالية التي كانت تأتي لخزينة **التعاونية**. لقد وجد **ما أنليانگ** أن حله المفضل للمسألة برمتها هو غزو **گانسو** من قبل جيش **باي لانگ** في ربيع عام ١٩١٤.

وباي **لانگ** هذا هو قائد عسكري كارزمي من **خينان** يملك المهنية والتطلعات الإمبريالية الرومانسية، ولصوصية مختلطة بالسياسة الوطنية خلال مطلع فترة الحكم الجمهوري. لقد أشير إليه أنه متمرد وقاطع طرق يطوف في المدينة كثوري اجتماعي، فأصبح يُنظر إليه بأنه سيكون الإمبراطور القادم، وهذا انطباع لم يتردد **باي لانگ** في استغلاله. لقد عمل أولا على اعادة سلطة **التشينگ** للحكم، ثم وافق أن يكون حاكما **لخينان** في العهد الجمهوري، وانتهى بمقارنة نفسه **بليو بانگ**، مؤسس سلالة **الخان**. لقد أصبحت خطط حملاته العسكرية في **خينان وأنخوي وخوبي وشانشي** تُدرس، غير أن نجاحاته العسكرية قد انتهت بهزيمته في **گانسو**.(٥٩) فشل أولا في فك الحصار عن **شيئان** كما فعل **ليو بانگ** سابقا، ودخل جيشه عندما كان في أوج قوته إلى **گانسو** عن طريق **شانشي**، وربما كان عديده ١٠٠٠٠ مقاتلٍ ليتقدموا باتجاه **سيتشوان** ليؤسس قاعدة جديدة. وبعد ستة أسابيع

خرجت فلوله في مجموعات مهزومة غير منتظمة وهي تفرّ باتجاه الشرق نحو مواقعها الأصلية. كان ذلك الفشل نتيجة للمقاومة العنيدة للقوات المحلية والتي تبعتها ملاحقة ناجحة على يد القوات الحكومية التي قطعت الممر المؤدي إلى الجنوب بمساعدة من جيش محافظة **سيتشوان**، فكانت آخر وقفة **لباي لانگ** في **تاوجو القديمة**.

بعد أن سيطر على مدن شرق **گانسو** في ربيع عام ١٩١٤، خسر **باي لانگ** معركة هامة أمام قوات محافظة **گانسو** على الطريق العام بين **شيئان** و**لانجو**.(٦٠) تحركت قواته جنوبا لتجد أن **نهر بايشو** يصعب عبوره بسبب ذوبان ثلوج التبت، وأن الممرات المجاورة يسيطر عليها المقاتلون من **سيتشوان**. ونظرا لأن القوات الوطنية وقوات محافظة **گانسو**، كانت تسعى لملاحقته لم يكن أمامه مجال غير التحرك نحو شمال غربي **مينجو** حيث ارتكبت قواته جرائم نهب واغتصاب وقتل في المدينة طوال فترة الليل.(٦١) وهنا لم يستطع أن يتحرك وفق خططه الأصلية. وجد **باي لانگ** أنه وقع في فخ دائري في منطقة **تاوخي**. فهو لا يستطيع أن يتراجع أو يتحرك جنوبا، وأن جيش **ما أنليانگ** قد أغلق الطريق المباشر إلى **لانجو** عن طريق **ديداو**، فلم يكن أمامه إلا أن يسلك طريق **تاوجو- خيجو** أملا في الهروب. وبعد أن ألحق الهزيمة بقوات التبتي **يانگ جتسينگ** اتجه نحو **تاوجو الجديدة** ثم القديمة اللتين سيطر عليهما. لم تظهر **تاوجو الجديدة** أية مقاومة وتعرضت لسلب طفيف. استعدت الطبقة الأرستقراطية وميليشيا **تاوجو القديمة** للدفاع عن أسوار المدينة القوية في حين تحصن جماعة **الشيداوتانگ** داخل قلاعهم في جبل **شيفينگ**.

في آخر أسبوع من شهر مايس نزل **باي** ليواجه بأعداد هائلة مقاتلي **التعاونية** في **تاوجو القديمة**. ونظرا لأن المدينة معروفة بغناها وأن غالبية سكانها من المسلمين، فإن القوات الغازية القادمة من **خينان** و**شانشي** أوقعت في المدينة دمارا لا مثيل له من قبل وبقسوة متناهية وهي تشق طريقها. وبعد معركة قصيرة كسر الغزاة دفاعات المدينة وبدأوا سلبا كاملا لها، بحيث خلت المدينة من ساكنيها حتى بعد مرور عام على تلك الواقعة.

*إن الجدران الأربعة التي تحيط بالمدينة قد هُدمت، وتم إحراق المدينة على يد ثوار الذئب الأبيض (**باي لانگ**) قبل عام. خلال رحلتنا شاهدنا عددا من مدن **كانسو** التي أصابها الخراب. وفي الحقيقة أن الدمار قد حلّ بالمحافظة بكاملها. ولكن لا شيء يمكن مقارنته بالدمار الذي نزل **بتاوجو القديمة**.(٦٣)*

كان ركنار فالار يجمع الزهور البرية في جبال التبت عندما كانت المعركة تدور. سمع عنها من السيد كرستي والسيد بردوم اللذين كانا في **تاوجو** بعد أيام قليلة من ذلك.

*حلت العاصفة **بتاوجو** فانطلقت **الذئاب** لتخرب المدينة عمدا وتدمر كل شيء حي بين أسوارها الأربعة. لم يقتصر ذلك على البشر بل شمل أيضا المواشي والخيول، بل حتى الكلاب والقطط في أزقة المدينة. كانت بوابات الأسوار ملقاة تحت الأقواس على أكداس القاذورات، وكانت الشوارع مغطاة بالجثث.(٦٤)*

تجمّع أغلب مسلمي المدينة من **مينخوان الخواسي** و**البيجوانگ** في منطقة الجامع الكبير للمقاومة. وعندما أدركتهم الهزيمة أقدموا على الانتحار أو تمّ إحراقهم على يد رجال **باي لانگ**. وتقول التقديرات إنه عند سقوط مدينة **تاوجو**، لقي مابين ٨ آلاف و١٦ ألفا من الناس حتفهم.(٦٥) وتقول بعض المصادر الموالية **لباي لانگ** إن المذبحة كانت خطأً جسيما، في حين تجاهل البعض الآخر وقوعها.(٦٦)

تعطينا الأصول الاجتماعية لأغلب الرجال الذين ضمهم جيش **باي لانگ** دليلا عن العنف الرهيب الذي أنزلوه بمسلمي **تاوجو**. كانوا أعضاء في جمعية **گالوخي** السرية، التي أصبحت بفعل الجو المتقلب في **خينان** وجنوب **شانشي** ضد المنشوريين وضد المسلمين بشكل خبيث.(٦٧) يؤيد المتخصصون بقضايا الصين المعاصرة ما ذهب إليه فارار ومراسل صحيفة (نورث جاينا هِرالد) في اتهام **ما أنليانگ** بخيانة مواطنيه من أهل **تاوجو** لأنه رفض أن يقاتل **باي لانگ**. غير أن هدف **ما أنليانگ** الرئيسي كان حماية **خيجو** و**لانجو**، وليس المدن الصغيرة في جنوب **كانسو**، وأن عدم تحركه لمواجهة جيش غاز قوامه ١٠٠٠٠ من المقاتلين الأشداء

أمر يمكن بالتأكيد فهمه أو ربما مسامحته. ورغم أن استراتيجيته كانت سلبية في طبيعتها إلا أنها أثبتت فاعليتها. ونظرا لأنه سدّ بالسبل الدفاعية الطريق الشمالي عند **خيجو**، فإن جيش **باي لانگ** رجع شرقا باتجاه **مينجو**. وفي نفس الوقت قام التبتيون بتدمير الجسر العائم على **نهر تاو** مما تسبب في غرق عدد كبير من جنود **باي**. وبرغم الخراب الذي حلّ بمدن جنوب **گانسو**، تمكنت هذه المرة من إبداء بعض المقاومة وأخفى سكانها المؤن والأطعمة. وهو الأمر الذي وضع النهاية لحياة **باي** المهنية العسكرية، فتشرذم جيشه وهرب وبطونه خاوية بسبب الجوع الذي أصابه، واتجه نحو مناطقه الأصلية وسط فوضى منعته من أن ينظم نفسه ثانية ليصبح قوة ضاربة، مما جعل **باي** يقدم على الإنتحار بعد ذلك بوقت قليل. غير أن أحد قواده أصبح حاكما **لشانشي** واستطاع آخرون من العودة والإندماج ثانية في مناطقهم الأصلية.

ماذا حل بأعضاء **التعاونية** أو ما سمي **الشيداوتانگ**؟ استطاعوا الصمود في تحصيناتهم ضد هجوم قوات **باي لانگ**. وفي الحقيقة قاموا بمهاجمة القوات الغازية التي كانت ترتكب أعمال السلب حتى بعد أن سقطت المدينة بيوم واحد. انسحب هؤلاء مع عوائلهم باتجاه التبت وتكبدوا القليل من الخسائر في المعركة وحافظوا على قواتهم. وهنا توفرت **لما أنليانگ** الفرصة ليضرب ضربته عندما أيّد الشائعات بأن **ما تشيشي** كان قد عقد حلفا مع **باي لانگ**، القاتل الذي تلطخت يداه بدماء الكثير من المسلمين الأبرياء ودمر المجتمعات الإسلامية الكثيرة المغلوبة على أمرها. كان **ما يوانجانگ** قد قاوم **باي لانگ** في شرق **گانسو**، واستطاع **ما أنليانگ** أن يحافظ على مواقعه، وقال إن شهداء **الخفية** في **تاوجو** قد قُتلوا من أجل قضية نبيلة، لكنه اتهم **ما تشيشي** بخيانة القضية ذاتها.(٦٨) وتحت ستار ملاحقة قطاع الطرق بعث **ما أنليانگ** في منتصف شهر يونيو كتيبة من المقاتلين إلى **تاوجو** حيث دخلوا مركز **الشيداوتانگ** في جبل **شينينگ** وألقوا القبض على ٢٥ رجلا بينهم **ما تشيشي** واثنين من اخوانه الأصغر سنا منه، وابنه وعددا آخر من أعضاء الجماعة

التعاونية. أخذ رجال ما أنليانگ أولئك الأسرى إلى جرف نهر قريب وأطلقوا النار عليهم فأردوهم جميعا.(٦٩)

ورغم أن قيادة ما تشيشي ونظرته الثاقبة أمران لا يمكن تعويضهما، إلا أن الرجل كان قد وضع الأرضية لمؤسسة متكاملة سهّلت على من جاء بعده أن يكمل المشوار. فبعد خمس سنوات من مصرعه قام أتباع الشيداوتانگ بجمع الأموال واقامة الدعوى تلو الدعوى في لانجو وبكين ضد ما أنليانگ واتهامه بجرائم قتل زعيمهم وأفراد أسرته ورفاقه. أعيدت كل دعوى إلى جانگ گوانگجيان في لانجو وفي كل مرة تقرر المحكمة المركزية أنها لا تتدخل في الموضوع. وحتى بعد وقوع مذبحة صغيرة ضد رجال الشيداوتانگ في تايتسي التي تُسمى الآن خيجنگ خلال احدى الاحتفالات، فإن سلطات المحافظة لم تتدخل، أو ربما لم تقدر على مواجهة بعض المسلمين الميالين لإثارة المشاكل والنزاعات المسلحة.(٧٠) وأخيرا وبعد موت ما أنليانگ عام ١٩١٩، قام الجنرال المسلم ما لن بجمع سلطات لانجو وقادة الشيداوتانگ لغرض التفاوض في خيجو، واتفق حينها على أن جماعة ما تشيشي التعاونية منظمة مُعترف بها كمؤسسة إسلامية، وليست عصابة خارجة على القانون.

كيف تحافظ على حياتك في عشرينات القرن العشرين

بعد أن اكتسبت تعاونية الشيداوتانگ صفة الشرعية أصبح لزاما عليها أن تجتاز المحن والحرمان في گانسو خلال فترة أمراء الحرب. كانت المحافظة فقيرة وعانت الكثير تحت سطوة الظروف الصعبة والوجود العسكري القوي والإبتزاز الرسمي. الحقيقة أن عشرينات القرن العشرين لم تجلب عليها صنوفا جديدة من المعاناة، بل زادت حجم ما كان موجودا منها. فغياب الحكومة الفاعلة ممزوجا بالكوارث الطبيعية النادرة الحدوث قد جلب على المنطقة أوقاتا عصيبة وخلّف في أنحائها فقرا مدقعا. فانتشار زراعة الأفيون على نطاق واسع في العديد من المقاطعات قد حرمها من ريعها السنوي من إمدادات الحبوب، وأصبح مألوفا أن أبسط المعاملات

التجارية في الأسواق يتم فيها تبادل أنواع مختلفة من العملات! أضف إلى ذلك أن الزلازل قد أوقعت الخراب في مناطق واسعة في شرق **كانسو** عام ١٩٢٠، ومرة ثانية في الجزء الشرقي من ممر **كانسو** عام ١٩٢٧. كما تسبب الجفاف في إحداث المجاعة في عدد من المحافظات في أواخر عشرينات القرن العشرين.(٧١)

وحتى في ظل مثل هذه الأوقات العصيبة، تمكنت **الشيداوتانگ** من تحقيق النجاح على المستويين الديني والتجاري. كانت التعاونية تُعتبر واحدة من "العائلات الثلاث الكبيرة" في شرق **كانسو**، إلى جانب **يانگ جيتسينگ** (التبتي من **تشوني**) والرئيس **رمبوتشي** كاهن المعبد البوذي التبتي في **لامبرانگ**. كان هناك ما يقرب من ٤٠٠ شخص يمثلون جوهر المنظمة ويعيشون معا في مجمع كبير في **تاوجو**، مهمتهم ادارة شؤون التعاونية وامبرطوريتها التجارية ومالها العام. كانت المسؤولية مناطة بالأشخاص وفق كفاءة كل منهم، فاستطاعت المنظمة أن تستفيد من قدرات اعضائها وتحسنها في آن واحد. كان هناك ما يقرب من ١٠٠٠ عضو آخر يعيشون بعيدا عن **تاوجو** ويعملون على الطرقات التجارية ووسائل الإنتاج والدباغة ومراكز البيع. اشترت تعاونية **الشيداوتانگ** أراضي زراعية ومناطق رعي وغابات استثمرتها بشكل بارع فحققت لأعضاء المنظمة كفاية غذائية فيما يتعلق بالحاجة إلى الحبوب والمواشي وأصبحت من مصدري المنتجات الخشبية. أضف إلى ذلك أن بعض المسلمين فضلوا ألّا يكونوا اعضاء مشاركين بشكل فعال في نشاطاتها وانصرفوا إلى إدارة أعمال تجارية مستقلة بالتعاون مع مشاريع **الشيداوتانگ**. وتشير الإحصاءات أن عدد هؤلاء كان بحدود ٣٥٠٠ تاجر من أصل ٥٠٠٠ تاجر في المنظمة.(٧٢) وهذا العدد الكبير من التعاونيات المتضامنة قد جلب عليهم فوائد كبيرة وأدى إلى انتعاش المنظمة حتى في سنوات العشرينات من القرن العشرين.

لكنها على أية حال لم تنجُ من شرور معارك أمراء الحرب التي عمّت المنطقة. فبعد أن أصبح **فنگ يوشانگ** قائدا لمنطقة شمال غرب البلاد تسارع قادة الجماعات الإثنية للتنافس على الترحيب به وبجيشه الجرار الذي قدم إلى المنطقة. حاول ما **جونگينگ** المسمى القائد الصغير، وهو مسلم مغامر من **شينينگ** يرجع أصله إلى

عائلة **ما تسي**،(٧٣) أن يشنّ هجوما كاسحا على كل مقاطعة **خيجو** في أواخر عشرينات القرن العشرين. كان يهدف إلى طرد **فنگ** من **تاوشي** و**خوانجونگ**. هاجم **ما** منطقة **خيجو** ثلاث مرات وعندما فشل فرّ هاربا نحو الجنوب باتجاه **تاوجو** برفقة الآلاف من المسلمين الشباب الذين كانوا مستعدين لأعمال النهب والسلب.(٧٤) اشتبكت قوات **ما جونگينگ** مع المسلمين المحليين ومع التبتيين قرب **تاوجو القديمة**. لذلك اضطر أعضاء **الشيداوتانگ** إلى هجر محلاتهم التجارية ومخازنهم وبيوتهم وفروا إلى مناطق التبت ناجين بأنفسهم. قامت قوات **ما جونگينگ** باحتلال المجمع الرئيسي **للشيداوتانگ** واتخذته مركزا لها.

وخلال الثلاث السنوات التالية من المعارك المعقدة، فقدت تعاونية **الشيداوتانگ** قسما كبيرا من ثروتها، لكنها حافظت على رصّ صفوفها واحتفظت ببراعتها. وحتى حين أصبح مركزها في المنفى وسط التبتيين، فإن فروع المنظمة استمرت تعمل بانتظام وافتتحت لها مكتبا جديدا في **جانگجياكو**، في شمال غرب **بيبنگ**.(٧٥) وحين استتب السلام ثانية بعد عام ١٩٣٢ أقامت قيادة المنظمة علاقات قوية مع حكام شمال غرب البلاد ومع **القومندان** فانتعشت نشاطاتها نحو المزيد. ومثلهم مثل **ما فوشيانگ**، رأى القادة أن من مصلحتهم أن يتحالفوا مع قوة **القومندان** الوطنية التي ستسمح بكثير من الإستقلال المحلي وتضمن السلام والإستقرار من أجل انتعاش التجارة. وحين اندلعت الحرب مع اليابان كانت **الشيداوتانگ** في موقع مثالي من الناحيتين الاقتصادية والتنظيمية لإمداد الحكومة الوطنية في **تشونگتشينگ** بمنتجات إقليم **تاوجو**، خاصة الجلود. في عام ١٩٤١ سافر **ما مينگرن**، وهو ثالث شيخ **للصوفية** في تعاونية **شيداوتانگ**، إلى **تشونگتشينگ** حيث قُدّم إلى الرئيس والقائد العام **جيانگ جيشي** من قبل **باي تشونگي** القائد العسكري المسلم لمحافظة **گونگشي**.(٧٦)

في قمة نشاطها عام ١٩٤٦ كانت **الشيداوتانگ** تمتلك حوانيت تجارية ولها وكلاء في **تشنگدو** و**سيتشوان** و**شيئان** و**جانگجيگو** و**بيبنگ** و**تيانجين** و**شنغهاي** وداخل منغوليا. وفي جنوب **گانسو** كانت تمتلك ٢٠٠٠ من الحيوانات لحرث

الأرض و٧٠٠٠ مو (المو يعادل ما يقارب ١٠٠٠ هكتار) من الأراضي الزراعية. كانت تمتلك أيضا خمسة مزارع لتربية المواشي فيها ٣٠٠٠ رأس وأيضا ١٣ محطة لقطع أخشاب الغابات، وكان لها ١٨ مصنعا لنشر الأخشاب تُدار بقوة اندفاع الماء. كما تملكت معملين لصناعة الطابوق والخزف ومصنعين لاستخراج الزيوت النباتية وحوانيت للصناعات الجلدية ومطاحن للحبوب ومعامل لصناعة الخل. قام أعضاؤها بالإتجار في الملابس والمعادن والحبوب والطحين والزيوت والسكر والأعشاب الطبية والشاي مع سكان التبت من أجل الحصول على الجلود غير المدبوغة للحيوانات الوحشية والعقاقير الطبية النادرة (خاصة المسك) وجلود الحيوانات والصوف. كما ساقوا المواشي إلى أسواق **مينشيان** والخيول إلى **شانشي** وتاجروا بالمرجان والخيول غير الأصيلة في دواخل منغوليا. كانوا قبل ذلك وعلى وجه الدقة في عام ١٩٢٧ قاموا بتأسيس شركة مساهمة مع إحدى المؤسسات المالية في بكين لبيع منتجات مناطق الحدود في العاصمة ونقل ما تنتجه العاصمة من البضائع إلى أسواق جنوب **گانسو**.(٧٧)

كيف تكون مسلما وصينيا في نفس الوقت

كانت **الشيداوتانگ** منهمكة في الأعمال التجارية لدرجة أن المرء ينسى طابعها الديني والثقافي. ونظرا لأنها تُعتبر من أكثر التعاونيات نجاحا في الصين الحديثة، فإنها تستحق الاعتراف بها ودراستها كمؤسسة اجتماعية اقتصادية إلى جانب كونها منظمة للتضامن الإسلامي. وبعيدا عن التصنيفات العنصرية المألوفة في الصين، والتي يساهم فيها المسلمون أنفسهم، فإن مسلمي الصين تجار حاذقون وإن تاريخ **الشيداوتانگ** يكشف عن مرونة الثقافة الصينية كوسيلة لانتشار الإسلام.

لقد قاد ما **تشيشي** ومن خلفه أتباعهم نحو حياة من الإيمان، يأخذونهم للصلاة خمس مرات في اليوم، ويأمّوا صلوات الجمعة ويصوموا شهر رمضان...الخ. إن إبداعهم الديني تركز في جعلهم **الصين** محورا لتفسير فروض الإسلام ونشره. وعن طريق ما كتبه **ليو جي** وغيره من مؤلفي **كتب الخان**، فقد وضعوا في يد أتباعهم

الأداة لفهم الإسلام ضمن الصين، وأن يعملوا بوعي "لاستخدام الثقافة الصينية لتوضيح الحقائق الإسلامية."(٧٨) ترك **ما تشيشي** تعليقا على فلسفة **ليو جي** أكّد فيه التحليل الإسلامي- الصينيِ في اللغة والمحتوى بأن "الطريقة التي تُنظم فيها فروض الإسلام الخمسة حياة الشخص تتجلى في السيطرة على النفس وقهر الأنانية وبعث الأخلاق الفاضلة، بحيث يصبح الإنسان في حالة مستديمة من النزاهة الكاملة".(٧٩)

وخلافا لما قامت به كل من **الخفية والجهرية**، لم تجلب **الشيداوتانگ** أية نصوص من الجزيرة العربية ولم تأت بأية طقوس جديدة لتصبح في صُلب العبادات. وبدلا من ذلك صبّت جل اهتمامها على التربية والتعليم باستخدام الصينية والعربية والفارسية، وهو تناقض صارخ لما كان يجري في دور التعليم في مختلف الأوقات. لقد حصل الرجال والنساء من أعضاء **الشيداوتانگ** على تربية إسلامية رفيعة كما كشف ذلك الإقتباس الذي وضعناه في مطلع هذا القسم من الفصل الخامس عن **ما تشيشي**. ونظرا لتأكيده وتأكيد من قاد الجماعة بعده فقد انصرف الأتباع لدراسة **كتب الخان** وتعلم اللغة الصينية ليصلوا إلى مستوى عال من الكفاءة فيها. كما أن الكثير منهم تعلموا لغة التبت لكي يضمنوا نجاح مشاريعهم التجارية في مناطق الحدود. ومنذ أن وضعت **الشيداوتانگ** أسسها قامت في نفس الوقت بإنشاء المدارس وواصل الكثير من خريجيها دراستهم للمرحلة الثانوية في **لانجو**، ومن بعدها إلى المرحلة الجامعية. وهذا انجاز لم يحققه المسلمون المتعطشون للدراسة في **كانسو**.(٨٠)

مزجت مناهج مدارس **الشيداوتانگ** بين الكتب المدرسية الصينية والتربية الإسلامية واللغتين العربية والفارسية والثقافة الصينية- الإسلامية ممثلة في **كتب الخان**. وهكذا حصل الطلاب على سابقة لم تتوفر لغيرهم والتي تعني اهتمام الصين وتوسع ذلك الاهتمام نحو مناطق الحدود. بالتأكيد، لم يهمل أولئك الطلاب ولا معلموهم دينهم الحنيف، **فما تشيشي** نفسه ادّعى أن حقيقة الإسلام هي في جوهر الحقيقة ذاتها وأن **الشيداوتانگ** المسلمين اهتموا اهتماما كبيرا بواجباتهم الدينية.(٨١) لكن **ما تشيشي** أكد على تدريس **كتب الخان**، وهو الأمر الذي تسبب

أحيانا في أن تُلصق بهم تُهم وتُطلق عليهم أسماء غير لائقة، لكي يتمّ التفريق بينهم وبين مسلمي الشمال الغربي الآخرين. واعتمادا على قول نُسِب إلى **ما مينكشين**، فإن **ما تشيشي** اعترف بتأثير كل من **الصوفية** وكتب **الخان** في تكوين أفكاره وشكل حركته، حين قال"لقد بذر **ليو جي** بذور أفكار **ما مينكشين** التي تفتحت وأعطت ثمارها التي جنيتها بنفسي."(٨٢) إن روح التضامن التي طغت على التعاونيات ونجاح المشاريع التجارية والإعتزاز بالتراث الإسلامي والدوافع العالية للإنتماء إلى الصين، قد جعلت أعضاء **الشيداوتانگ** يتأقلمون بسرعة مع تقدم الصين السريع نحو الحداثة.

وكما ذكرنا أعلاه، وفي تلك الفترة التي بدأت فيها البلاد تتحرك صوب الحداثة وحين يمكن القول بأن سيطرة المركز قد تلاشت عمليا، توسعت الصين نحو الخارج من خلال العسكرة والتحديث والتمركز الثقافي في غياب التمركز السياسي مصحوبا بمحاولة البلاد ضمّ مناطق حدودها أكثر مما انجزه **التشينگ** وتمنوه. شعر **ما فوشيانگ** و**ما يوانجانگ** و**ما تشيشي** بالضغط يأتيهم من مصادر عديدة، وعملوا جميعا لتأمين النجاح في مجتمعاتهم - وفق مبادئ أصل العائلة والتضامن الديني والمجتمع المحلي والإقليمي أو فكرة المسلمين الصينيين بشكل عام، مما جعلهم يقتربون من **الصين الجديدة**. تمثلت معايير إيمانهم بهذا الهدف في قراراتهم لتعلم الخط الصيني كفنّ للتعبير عن الثقافة وكوسيلة للتواصل الاجتماعي مع النخبة غير المسلمة. فأصبح **ما فوشيانگ** مشهورا بمقدماته و**ما يوانجانگ** برسائله ومقالاته و**ما تشيشي** بمخطوطاته الفنية.

يمثل **ما وانفو** من **دونگشيانگ** آخر القادة الذين نتناولهم في هذا الفصل. لقد نحا **وانفو** منحى معاكسا، وحاول حماية الإسلام والمسلمين في الصين باتباعه استراتيجية قديمة تقوم على تنقية الدين من الشوائب وممارسة الشعائر الدينية على طريقة النصوص "الأصلية" والشعائر التي جيء بها من الأرض العربية. ويمثل فكره الأصولي آخر فصل في تاريخه، لأن حركته لم تكن بمعزل عن تأثير الصين الجديدة لاستيعابها ثقافيا ضمن الدولة الوطنية. ورغم أن **ما وانفو** نفسه لم يصبح

خطاطا فإن الجيل الثاني في سلّم حركته التضامنية قد شمل عددا من الرجال الذين انصرفوا إلى هذا الفن.

٤. ما وانفو (١٨٥٣ – ١٩٣٤) بروز حركة "الإخوان الصينيون"

اللهم احم حكومتنا وشعبنا وادحر الغزاة وافن أعداءنا. احمنا من شرور أعمال اليابانيين القساة. لقد احتلوا مدننا وقتلوا أهلنا. اللهم أرسل عليهم ريحا عاتية تُسقط طائراتهم في البراري وتُغرق سفنهم إلى أعماق البحار. اللهم شتّت شمل جيشهم وخرب اقتصادهم وأعطهم ما يستحقون. إلهنا العظيم، تقبل دعاءنا، آمين.(٨٣)

الحياة المبكرة للحاج ما وانفو

لقد رأينا كيف أتت التيارات الإسلامية من غرب آسيا ووسطها إلى المجتمعات الصينية في موجات متتابعة. وصلت الموجة الأولى لانتقال الإسلام على يد التجار في الجيوب التي سكنوا وتواجدوا فيها اعتبارا من القرن السابع حتى القرن الرابع عشر. غير أن المدّ الأكبر قد حدث بوصول الفتح المغولي وسيطرته على مختلف المناطق وتوحيدها. كانت فترة **المنگ** قد شهدت عزل التأثير القادم من غرب آسيا، إلا أنه في نفس الوقت لوحظ ظهور المعالم الإسلامية في الصين بما فيه مدارس المساجد التي وفرت التربية الدينية باللغتين العربية والفارسية وبداية ظهور مؤلفي **كتب الخان**. أما الموجة الثانية فقد تمثلت بوصول الطرائق **الصوفية** التي استمرت من القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر، والتي قادت إلى ظهور **المينخوان** في شمال غرب البلاد. وفي نفس الوقت استمرت الجماعات غير الصوفية **القديمو** بوجودها ممثلة للتيار الأصلي للمسلمين الصينيين خارج الشمال الغربي وبعض الأقسام من منطقة **يوننان**.

كان لتدفق الأفكار **الصوفية** ومؤسساتها علاقة معقدة وخبيثة بالتغيرات العنيفة التي جرت في فترة حكم **التشينگ**، وهي تغيرات جعلت بعض المسلمين الصينيين في صدام مع السلالات الحاكمة. وهي الصدامات التي قادها **ما منگشين** وما

خوالونگ ودو ونشيو، في حين وقف البعض الآخر مثل **ما گوباو** و**وانگ داگوي** و**ما أنليانگ إلى** صف الإمبراطورية وقاتلوا إخوانهم في الدين. أما بالنسبة لجيرانهم من غير المسلمين فقد شعروا بدرجات متفاوتة من القلق نتيجة تأثير ضعف السلالات ووصول التوسع التدريجي للتأثير الأوربي الأمريكي متمثلا بالجانبين السياسي والاقتصادي، وبالذات في الفترة التي ازدادت فيها حدة الضغوط على دولة **التشينگ** في تسعينات القرن التاسع عشر. وصلت إلى الصين موجة ثالثة من التأثير الإسلامي عن طريق وصول الأصوليين وحركتهم التي وجدت طريقها إلى الحدود البرية للصين. أطلقوا على أنفسهم أسماء معروفة لدى مؤرخي العالم الإسلامي، واكتسبت هذه الحركة الجديدة قوة بتحالفها مع المسلمين الميالين للنزعة العسكرية، وكذلك مع الحركة الوطنية الصينية. وفي أواخر القرن العشرين استمرت الحركة في كسب المزيد من القوة في المجتمعات الصينية المسلمة، الأمر الذي أدى إلى تأسيس أقوى حركة تضامن دينية في الصين.

جاءت **الصوفية** إلى الصين من خلال نوعين من القادة. فالبعض مثل **هداية الله (الخوجه آفاق)** صاحب **النقشبندية** كانوا من مسلمي غرب آسيا ووسطها من الذين جاءوا إلى الصين كدعاة للإسلام، في حين سافر النوع الآخر مثل **ما لايتشر** و**ما منگشين**، وهما مسلمان صينيان لأداء فريضة الحج واطلعا على النصوص الدينية الأصلية وانضما للدراسة في معاهد التعليم الإسلامية. في أواخر القرن التاسع عشر، ترتب عن عمليات الحج هذه وصول حركة فكرية دينية جديدة أصولية في طبيعتها على يد رجل هو الحاج **گويوان** (١٨٥٣-١٩٣٤) الذي كان يُسمى بالصينية **ما وانفو** واسمه المسلم **نوخاي**، وهو الذي حمل هذه الأفكار الجديدة.(٨٤)

لُقب **ما وانفو** باسم **گويوان** استنادا إلى المدينة التي انحدر منها والتي تقع إلى الشرق من **دونگشيانگ** في محافظة **خيجو**. وكغيره من المسلمين الكثيرين في تلك المنطقة فقد نشأ **ما وانفو** يستعمل اللغة المنغولية كلغة الأم. ومن المعروف عن أهل **دونگشيانگ** انهم شديدو الترابط وعنيدون لا سبيل لفهمهم يخاف المواطنون غير المسلمين منهم كخوفهم من **السالار**، ولا يمكن التنبؤ بسلوكهم. وهم شديدو التآزر

ويتلذذون بخلق العداوات. كان والد **ما وانفو** وجده عضوين في نفس **مينخوان البينجوانگ** الذي انضم إليه **ما تشيشي** مؤسسة تعاونية **الشيداوتانگ**. يقول **ما تونگ** الذي قام بإجراء بحث ميداني خلال فترة الخمسينات أن اتباع **البينجوانگ** يدعون أنهم يرجعون دينيا إلى صوفي أفغاني كان يسكن **يارقند** خلال القرن الثامن عشر. قام العديد من قادة **المينخوان** بزيارة **شينجيانگ** بحثا عن المعرفة وأن الشيخ، عندما كان **ما وانفو** صبيا، كان قد قام بأداء فريضة الحج.

كان والد **ما وانفو** وجده رجلي دين محليين، ولذلك فإن الولد ارتاد المساجد بمواظبة وانتظام وبدأ دراسة العربية والفارسية في عمر مبكر وأثبت براعة في تعلم اللغتين. وفي سن الثانية والعشرين حصل على وظيفة معلم للتربية الدينية حيث أدى عمله برباطة جأش وعزم لا يفتر.(٨٦) وخلال عشرين عاما قضاها في التدريس في منطقة **گانسو**، أصبح **ما وانفو** تدريجيا أقل قناعة بالنصوص التي يدرّسها وأداء الناس في المجتمع لفروضهم الدينية. وفي عام ١٨٨٨ قرر أخيرا أن ينطلق هو ومعلمه ومسلم ثري حاصل على شهادة من المحافظة اسمه **ما خويسان** متوجهين جميعا رغم المخاطر ومشقة السفر إلى مكة. التحق **ما وانفو** في مدرسة دينية وأمضى أربع سنوات في دراسة عليا لمواضيع اللغة والشرع والفروض الدينية.

يتوجب هنا أن نتعرض بشكل مختصر لمناقشة الوضع الديني والسياسي في شبه الجزيرة العربية خلال فترة وجود **ما وانفو** هناك في تسعينات القرن التاسع عشر. كانت المناطق الساحلية ومكة والمدينة تحت الحكم العثماني، في حين كانت مناطق الداخل ساحة للنزاعات والاضطرابات بين القبائل التي أدت في النهاية إلى وصول أسرة ابن سعود للسلطة. منذ أواخر القرن الثامن عشر عُقد حلف لتبادل المنافع بين تلك الأسرة في نجد لتحقيق أهدافها السياسية مع عالم دين اسمه محمد ابن عبد الوهاب لتحقيق طموحاته الدينية، له ولمن سيخلفه. كان هذا الحلف قويا بحيث تمت السيطرة على المناطق الساحلية. ولكن في تسعينات القرن التاسع عشر انحسر التأثير السياسي ليعود ثانية إلى مناطق الداخل، فيما استمر التأثير الديني في مناطق السواحل.

ينتمي محمد بن عبد الوهاب إلى مذهب أصولي صغير هو المذهب الحنبلي الذي يدعو إلى التوحيد بأشد صوره ويتطلب الخضوع إلى مبادئ القرآن "الأصلية" ويعترض على التفسيرات التي جاءت متأخرة وعلى الأحكام الشخصية. وجد ابن عبد الوهاب وأتباعه أن الصوفية ومبادئها التأملية، وخاصة ما يتعلق منها في الاتصال المباشر في الخالق، ليست سوى هرطقة مقيتة.(٨٧) فالاعتقادات التي تقول بقدسية الأولياء وزيارة أضرحتهم أو مقاماتهم وأداء فروض العبادة فيها خروج على مبادئ التوحيد وإشراك في الدين. كان ابن عبد الوهاب وأتباعه مستعدين للذهاب إلى الحرب دفاعا عن نقاء الإسلام وأصوليته، وادعوا فوق ذلك أن رؤيتهم هي الرؤية الحقيقية للإسلام وتطبيقاته، متهمين المسلمين الآخرين بالشرك والخروج على دينهم، حالهم حال الكفار. ومن الجدير بالذكر أنه تمّ تعميم هذا الموقف بشكل خاطئ على المنظمات الأصولية الإسلامية لتصبح في رأي المؤرخين الأوربيين حركة واحدة أطلقوا عليها "الوهابية" التي سرعان ما تمثلت في جذور العنف الإسلامي ووراء ممارساته الدموية في كافة أرجاء آسيا خلال القرن التاسع عشر.

وبين الأعوام ١٨٨٨ – ١٨٩٢ التي قضاها ما وانفو في شبه الجزيرة العربية، درس واستوعب الكثير من التعاليم الإسلامية التي كان من المؤكد بينها الأفكار الأصولية لمحمد بن عبد الوهاب. ورغم تأثره بها فإن ما وانفو لم يعش في كنف الحكام السعوديين ولا رعايتهم في مكة، ولم يشجب فلسفة التشريع الحنفي الذي درسه. وعلى العكس من ذلك رأى أن مهمته هي الإصلاح السريع وليس حث الناس على ممارسة الشعائر الحنبلية. وخلال تلك السنوات أقام صداقة وقوّى علاقاته بعدد من المسلمين الصينيين الذين ذهبوا معه لأداء مناسك الحج. كان بينهم عشرة أئمة من دونگشيانگ عادوا إلى الصين وكلهم إعجاب بشخصية ما وانفو فأصبحوا لدى عودتهم من مريديه وشكلوا جوهر حركته الإصلاحية. لقد اقتنع ما وانفو بنصيحة أحد معلميه الذي قال له إن مهمته الحقيقية هي في الصين،

وليس في استمرار الدراسة في مكة. ركب **ما وانفو** إحدى البواخر المتجهة إلى شرق آسيا عام ١٨٩٢ فوصل إلى **گوانجو** في نفس العام.

استطاع القليل من المسلمين الصينيين أداء فريضة الحج بسبب الفقر وطول المسافة والمخاطر المحفوفة بها. وعليه فإن الكتب والمصادر الدينية التي كانت متوفرة لهم فيها الكثير من الأخطاء لأنها استُنسخت من قبل أئمة لا يملكون الكفاءة اللغوية العالية. أضف إلى ذلك ندرة الكتب الجديدة التي تأتي من بلدان قلب العالم الإسلامي. ولذلك فإن الأشخاص الذين يؤدون فريضة الحج ويعودون إلى بلادهم يُنظر إليهم بكثير من الاحترام، خاصة أولئك الذين يعودون ومعهم كتب إسلامية، كما لاحظنا سابقا في حالتي **ما لايتشر** و**ما منگشين**. وحدث نفس الشيء بالنسبة إلى **ما وانفو**.

*في طريقه إلى بيته قادما من **كانتون** توقف **ما وانفو** في **لاوخكو** في مقاطعة **يوننان**، وكان ذلك خلال شهر رمضان فأقام في المسجد. عبّر المسلمون في المنطقة عن ترحيبهم الحار به لدى عودته من الحج، وكان برفقة الحاج واحد من المعلمين. سمح إمام المسجد له أن يأم المصلين فلاحظ أنه قد ركع أربع مرات قبل أن يجلس ويستذكر بعض الآيات القرآنية، ويختتم بالدعاء إلى الله بصوت عال. قال الإمام والمصلون له "منذ أيام الوقاص هنا، علّمنا أن نركع مرتين ثم نستذكر سور القرآن ونختتم بالدعاء. فعلى أي أساس أديت أربع ركعات؟" أجابهم "على أساس القرآن الكريم." بقي **ما وانفو** في المنطقة عاما كاملا وهو يقوم بتدريسنا فترك أثرا فعالا على مسلمي المنطقة."* (٨٩)

كان **ما وانفو** مشربا بفكرالإصلاح ومبادئ الأصولية، أضف إلى ذلك شخصيته القوية وحضوره المؤثر، رغم صغر سنه. وكان بذلك يشكل تهديدا للممارسات السائدة، وبالتالي المؤسسات القائمة. لم يجد **ما وانفو** في مجتمع **يوننان** ذي الثقافة العالية أي ضير أو مقاومة للتبشير بأفكاره. لكن الأمر في **گانسو** كان مختلفا. فالنخبة المسلمة هناك وطرقها التقليدية والمعروفة القوية لم تتجاوب معه بسرعة.

قبل **ما وانفو** لدى عودته إلى شمال غرب البلاد عام ١٨٩٣ وظيفة إمام في مسجد قرية **ما خويسان**، رفيقه في رحلة الحج. أصبح المسجد الصغير بحضوره مركزا مهما للتربية الإسلامية في منطقة **دونگشيانگ**، وتوافد المعلمون من كل أنحاء **گانسو** للدراسة على يديه. ونظرا لعدم توفر الكتب الأصلية القادمة من أرض العرب قبل وصوله، أصبح المعلمون من مريديه، وانضموا إليه وإلى "رفاقه العشرة في رحلة الحج" فتأسست حركة جديدة. أخذ **ما وانفو** عن ساكني الصحراء من أتباع محمد بن عبد الوهاب فكرة "أهل السنّة" فأطلقها على نفسه وعلى أصحابه. وبعد أن نجح عبد العزيز في توحيد الجزيرة العربية وجعلها تحت حكمه سياسيا، سيطرت الوهابية دينيا على المنطقة. أطلق المسلمون الصينيون على أنفسهم اسما جديدا هو "الإخوان المسلمون". أصبح هذا الاسم يشير إلى الأصولية التي أصبحت لها تأثيرات واسعة في العالم الإسلامي.(٩٥)

النص والمحتوى: انتشار الإخوان في الصين

إن قبول هذا الواعز الأصولي لدى المجتمعات المسلمة في الصين كان مرهونا بعدد من الأمور الثقافية المحددة. وكما الوضع في طرح الحركات الدينية والسياسية والأكاديمية، لم تختلف حركة الوهابية الصينية عن ذلك في شيء. كان لزاما على الداعين إليها أن يظهروا أنهم حملة أفكار موجودة في أماكن أخرى من العالم الإسلامي من جهة، ومن جهة أخرى أنهم مساهمون في حياة الصين، خاصة في شمال غرب البلاد. إن قدر حركة **ما وانفو** الإخوانية تعطي نموذجا قويا لتلك الأفكار. وخلال جيل واحد من الفكر الأصولي المعادي للتكيف الثقافي، وجدت الحركة نفسها حليفا للحركة الوطنية الصينية فبنت جسورا من التواصل بين المجتمعات الإسلامية وتلك الحركة.

عارض **ما وانفو** الحركة **الصوفية** وكل المؤثرات الخارجية الدخيلة على الإسلام. رفض أن يقرأ الصينية أو يكتب بها. ومنع أولاده من أن يتعلموها، وأن يركزوا بدلا من ذلك على تعلم العربية والفارسية باعتبارهما الأساس للتربية

الإسلامية. صحيح أنه تكلم الصينية، لكن مدرسته قامت على نقاء الإسلام وتميزه وقداسة لغته وواجبات اتباعه الذين يعيشون مع غير المسلمين. وكغيره من مصلحي المذهب الحنفي في الجزيرة العربية، **ادعى ما وانفو** "حقيقة" تخص الإخوان في التعاليم الإسلامية. فاستخدامه لعبارات من قبيل قدّسوا كلام الله وأصلحوا من عاداتكم هي التي قادت إلى تسميتهم "عصبة القرآن".

ضمّ برنامجه لإصلاح الإسلام في الصين عشر وصايا أساسية، يقوم أكثرها على ممارسة الشعائر المعادية **للصوفية والقديمو**. ركز جلّ اهتمامه على **المينخوان** وهو المؤسسة التي جمعت الثروة وأرست وراثة القيادة لأتباع الطريقة وشجعت ممارسة تقديس أماكن الأولياء والشعائر المرتبطة بها، وحلقات الذكر والاحتفالات لتكريم شيوخ الطريقة وجعلها مناسبات لجمع التبرعات الهائلة التي يدفعها أتباع الطريقة لشيوخهم. وإذا ما قُدر **لما وانفو** أن ينجح في برنامجه فإنّ مصدر تلك الثروة سيجف. كما دعا **ما وانفو** المسلمين أن يتلوا القرآن بأنفسهم، لأن ذلك يعني حرمان الشيوخ من الأموال التي كانوا يتلقونها لتلاوة القرآن على أسماع أتباعهم في المناسبات الدينية. فمن أهم شعارات الإخوان في ذلك الحين هو "إذا قرأت القرآن فلا تأكل، ولا تأكل وأنت تقرأ القرآن." والقصد من ذلك هو عدم تقديم الطعام (أو المال) للإمام أو الشيخ لقاء تلاوة القرآن. وفي الحقيقة فإن تعويض من يقوم بأداء الفروض الدينية التي يتطلبها الإسلام هو برأي **ما وانفو** خروج على الإسلام في الصين. كما أنه رفض ارتداء الملابس البيضاء اعلانا للحداد على الأموات وقال إن ذلك بدعة مخالفة للإسلام تحطّ من منزلته.

في رأي **ما وانفو** أن الإخوان المسلمين يجب أن يعزلوا أنفسهم بشكل جدي عن غير المسلمين، وأن معرفتهم العامة للنصوص يجب أن تقود إلى توحدهم. واعتمادا على طبيعة اقتراحاته للإصلاح، فإن معارضتها بشكل قوي شيء يجب ألّا يثير الدهشة في النفس. ورغم أنه هاجم عادات **القديمو والصوفية**، فإن المعارضة القوية والمباشرة لأفكاره جاءت من **المينخوان** لأن قادته وجدوا أن **الإخوان** يشكلون خطرا مباشرا وقويا على سيطرتهم، لأنهم كانوا يرون بأمّ أعينهم المعلمين

المتحمسين وهم يتوافدون على **دونكشيانگ** ليدرسوا على يد **ما وانفو**. وهذه الظاهرة دفعت أعداءه للتخطيط لوضع حدّ لتأثيره. وما بين عامي ١٨٩٥ - ١٨٩٦ مات الآلاف نتيجة لعنف الحركات الإسلامية التي جلبت على أتباعها سخط دولة **التشينگ** خاصة في **خيجو** و**شونخوا** و**شينينگ**. وكان ردّ فعل المسلمين قد أدى إلى نتائج كارثية فيما يتعلق بتوسع شقّ الخلافات بين الجماعات الإسلامية نفسها. إلا أن **ما وانفو** توصّل إلى استنتاج معاكس، فأعلن أن هدفه هو توحيد كل الجماعات الإسلامية المتباينة في شمال غرب البلاد. وكان رأيه أن إراقة دم المسلمين يجب أن تكون محصورة بحرب ضد غير المسلمين، وهذا هو الجهاد والاستشهاد، وليس قتل المسلمين بعضهم البعض.

ورغم أنه وجه حركته بشكل مبدئي ضد **المينخوان** وكذلك مساندة الصراع ضد سلطة **التشينگ**، فإنه جلب على نفسه عداء قواد مسلمين مهمين في **گانسو**، خاصة **ما أنليانگ**، الذي كان يكنّ العداء أيضا **لما تشيشي** وحركة **الشيداوتانگ**. كان **ما أنليانگ** قد درس المنهج الإسلامي والمنهج الصيني وأشرف والده **ما جانئو** بنفسه على تعليمه ليكون حلقة وصل بين الثقافة الإسلامية والثقافة الصينية، بمعنى التعاون بين سلطة **التشينگ** وعائلته ذات النفوذ في مقاطعة **خيجو**. وعندما بدأ **ما وانفو** بناء حركته، ردّ **ما أنليانگ** بإعلان المواجهة معها لخنقها وهي في المهد مستخدما جيشه الخاص لتحقيق اهدافه الدينية والسياسية. شعر **ما وانفو** بالخطر فهرب إلى **شانشي**، ليس باتجاه الغرب بل اتجه شرقا ليكون بعيدا عن المنطقة التي كانت مركز الحركة الإسلامية حيث رحبت به الجماعات الموالية **للقديمو** والتي كانت أكثر استعدادا لتقبله مقارنة بالجماعات **الصوفية** ومراكزها في **گانسو**. تجول الحاج **ما وانفو** مدة السنوات العشر القادمة منفيا وهو يتنقل من منطقة لأخرى بين **شانشي** وحتى **شينجانگ**، لكنه لم يكن في الحقيقة بعيدا عن مطاردة **ما أنليانگ** له. ورغم أنه كان يعيش ويعمل متخفيا فإنه تمكن من تحقيق هدفه بإلحاق الهزيمة بمؤسسة **المينخوان** وفتح الطريق لإصلاح الدين الإسلامي والحياة اليومية للمسلمين.

وأخيرا في عام ١٩١٧ تمكن **ما أنليانگ** من وضع يده على **ما وانفو** عندما كان يسكن في منطقة **خامي**. وفي وسط ذلك الجو الفوضوي الذي شهد سقوط امبراطورية **التشينگ**، تمكن **ما أنليانگ** بالتعاون مع حاكم **گانسو** غير المسلم **جانگ گوانگجين**، من تأمين المساعدة التي طلبها أمير من أمراء الحرب غير المسلمين في منطقة **شنجيانگ** المسمى **يانگ تسنگشين** لكي يقضي تماما على جماعة **الإخوان**. لقد قاتل **ما أنليانگ** إلى جانب **يانگ تسنگشين** ضد الثوار المسلمين عام ١٨٩٥، في حين كان **ما وانفو** يمدّ أولئك المتمردين بالعون. ولذلك لم يجد **ما أنليانگ** ضيرا في التعاون مع غير المسلمين للانتقام من **الإخوان** والعمل بجد لإلقاء القبض على قائدهم. استطاعت وحدة من جماعة **يانگ تسنگشين** من إلقاء القبض على **ما وانفو** وعلى ابنه وبعض معاونيه فوضعوهم وهم مقيدون بالأغلال في عربة سلكت طريق الحرير القديم متجهة نحو **لانجو**، حيث لقي الجميع موتا مؤكدا.(٩٢)

التحالف مع ما تشي

من مفارقات القدر أنه خلال تلك المرحلة تدخلت بعض الأمور الأساسية التي لولاها لكانت الحركة الأصولية قد عاشت لوقت قصير في شمال غرب الصين. كان **ما تشي** واحدا من الجنرالات المسلمين الذين تحالفوا لبعض الوقت مع **ما أنليانگ** لغرض تأسيس قاعدة مستقلة له في **شينينگ** التي تقع على حافة التقاء الثقافة الصينية مع ثقافة التبت على الطريق الحيوي الموصل بين منغوليا والتبت. وبعد سقوط امبراطورية **التشينگ**، تمكن **ما تشي** من بسط نفوذه على **شينينگ** وبدأ يبني نفوذ عائلته المتمثل بالقوة والثروة في تلك المنطقة المعزولة المعروفة بغناها النسبي. وبالرغم من نجاحاته، لم يكن **ما تشي** ندّا مساويا لقوة **ما أنليانگ** العسكرية ولا علاقاته الدينية والسياسية. لكن **ما تشي** وجد الفرصة مواتية للاستفادة من نفوذ **الإخوان** والاستعانة بهم لمنافسة **ما أنليانگ** و**مينخوان خواسي** التابع له.

أرسل **ما تشي** قوة عسكرية عبر **ممر بياندو** باتجاه الطريق العام، وتمكن أفرادها من السيطرة على حرس **الإخوان** وجلبوا قائدهم إلى **شينينگ**، حيث قضى بقية

حياته معتمدا على حماية **ما تشي** ومن خلفهُ. ومن جهته أعلن **ما تشي** أن مبادئ **الإخوان** هي مبادءه. فمثلا أصدر أوامر مشددة ضد الأفيون وأضعف نفوذ **المينخوان** في المنطقة. غير أنه لم يتقبل برنامج **ما وانفو** بأن يعزل المسلمين عن المجتمع الصيني. استمر في المشاركة في النظام العسكري الصيني مما خلق له الحلفاء والأعداء بين الجنرالات المسلمين وغير المسلمين، كما أنه شارك في حركة الصراع الوطني في البلاد خلال الفترة من ١٩١٦ - ١٩٣٠. وهكذا يتبين أن **ما تشي** بدأ عملية تغيير **الإخوان** من حركة أصولية راديكالية إلى جماعة لا تتبنى التفريق والعزلة وتركز على أنها حركة إصلاح صينية.

ومع أن حركة **الإخوان** قد استرعت انتباه رجال الدين الراغبين في إعادة النظر في النصوص الدينية، إلا أنها لم تنجح في تغيير مشاعر ولاء المسلمين لمؤسساتهم القائمة. وحتى بين صفوف **القديمو** في **شانشي** حيث أمضى **ما وانفو** السنوات العديدة يعمل بينهم، لم تصبح المنطقة مركزا للحركة الأصولية. لم ينجح **الإخوان** الأصوليون إلى أية درجة تُذكر في المجتمعات التي تعتبر نفسها صينية محترمة، وأن أغلب المجتمعات المسلمة في شمال غرب البلاد لم تكن ترغب أو تريد الظهور بأنها غير صينية. أضف إلى ذلك أن شبكة نشاطات **المينخوان** القائمة لعدد من القرون وفق أفكار **القديمو** كانت تتمتع بالقوة بين صفوف المسلمين الصينيين. إن قيادة رجال مثل **ما أنليانگ** وما **تشي** قد أرسَت على قدرتهم على حماية مجتمعاتهم من تسلط دولة **التشينگ** ومن العنف الذي ارتكبه إخوانهم في الدين ضدهم ومن العنف المتولد من عداوات الجماعات الإثنية الأخرى مثل التبتيين والصينيين غير المسلمين. لم يستطع **ما وانفو** ولا مريدوه أن يحلوا محل أولئك القادة المعروفين مما اضطرهم إلى الإنخراط تحت راية **ما تشي** ودعوته للسلطة المدنية بدلا من السلطة الدينية من أجل حماية أهدافه ونفوذه. كان لا بدّ لهم من الابتعاد عن الشعارات التي تدعو إلى العزلة، وأن يساندوا برنامجا ذا طبيعة محافظة. وعندما تمّ لهم ما أرادوا، وجد **الإخوان** أن من مصلحتهم أن يدعوا إلى وحدة المسلمين التي أصبحت أكثر وضوحا. وعلى الطرف الآخر وبسبب العداوات

المتواجدة بين **المينخوان** ضد بعضهم البعض، فإنهم عجزوا عن تحقيق توحيد المسلمين، وأن مساجد **القديمو** كان ينقصها ارساء العلاقات وتطويرها بين الجماعات المسلمة. وهكذا استطاع **الإخوان** أن يسدّوا الفراغ في حياة مسلمي الصين بعد عام ١٩١٧ ليدعوهم للتوحيد والتضامن. وبفضل ذلك اختفت تدريجيا دعوتهم لعزلة المسلمين عن واقعهم الحياتي. كان نجاح **ما تشي** للاستعانة **بالإخوان** ودفع برنامجهم للتوحيد بدون الإنفصال قد اقنع عائلة **ما فوشيانگ** في **نينگشيا** من الانضمام إليه بهدف الاستفادة من الدعوة لوحدة المسلمين. ورغم أنهم استمروا في عضوية **مينخوان** العائلة الأصلي فإن **ما فوشيانگ** وابنه **ما خونگكوي** وابن أخيه **ما خونگين** قد عملوا على مساعدة انتشار فكر **الإخوان** في مناطقهم التي تستمر من صحراء منغوليا حتى **وادي نهر وي**.(٩٣)

الإخوان والحركة الوطنية الصينية

نتيجة للتضامن مع **ما تشي** **وما فوشيانگ** ومن تبعهم، تخلى **الإخوان** عن غالبية برنامجهم الأصولي، خاصة ما يتعلق بالجانب السياسي. وفي الحقيقة أنه نظرا لحاجتهم في أن يكون لهم مركز سياسي موثوق به بين زعماء الحرب المحافظين، فقد عمد **الإخوان** إلى حذف أية إشارة إلى محمد بن عبد الوهاب من مناهجهم. وبدلا من ذلك أكدوا أنهم سنة حنفيون، وهو المذهب الشائع بين المسلمين الصينيين. اضطر **الإخوان** إلى قطع علاقتهم بالمذهب الحنبلي وهو مذهب **إخوان** الجزيرة العربية، إلا أنهم استمروا بادعائهم بأنهم معادون **للصوفية** بكل مظاهرها المعروفة لدى الناس.(٩٤) دعونا نضرب مثلا على تغيرهم من خلال مراجعة حياة **خو سونگشان**، وهو معلم إخواني أصبح شخصية هامة خلال الحرب ضد الغزو الياباني. كان والد خو إماما في **گانسو** وكان عضوا في **مينخوان الخفية**. نشأ خو ليستمر بعمل والده وتأمين التحالفات مع الجماعات المسلمة. وعندما بلغ عمره ١٨ عاما كان قد تجاوز منزلة والده وبدأ يدرس على يد إمام آخر اسمه **وانگ نايبي**

من **خيشينگ**. تقدم خو بدراسته سريعا وأصبح الطالب المفضل لدى معلمه **وانگ** فانضم إليه في قراءة النصوص "الجديدة" التي جاء بها **الإخوان** وقائدهم **ما وانفو**.

أصبح **خو** على يقين بضرورة إصلاح نظام **المينخوان**، فأكمل المنهج الدراسي الذي وضعه له معلمه **وانگ** وقفل راجعا إلى **نينگشيا** وهو في سن ٢١ ليصبح أول إمام **إخواني** في هذه المنطقة المكتظة بالمسلمين. استطاع أن يتخطى العقبات التي وضعها أمامه أتباع **المينخوان** المحليين، بضمن ذلك تحاشي أعمال العنف الجسدي ضده. وخلال فترة عشر سنوات أصبح **للإخوان** أعضاء وأتباع في مقاطعة **تونگشين**، ومعلمون ينشرون فكر **خو سونگشان** ومدرسة **ما وانفو** الأصولية. كان يرفض المكافآت المالية لرجال الدين لقاء خدماتهم. وهذا يعني تخريب أسس نظام **المينخوان** من الناحية الاقتصادية. كما أنه اعترض على إقامة الشعائر الدينية المبالغ بها والاحتفالات التي تكلف صرف الأموال، خاصة ما يتعلق بإقامة مجالس التعازي، وكذلك محاربة العادات الصينية لارتداء الملابس البيضاء إعلانا للحداد على وفاة شخص ما. وأخيرا اعترض على **الصوفية** بكل أشكالها وحرّم تقديس شيوخها والصلوات عند قبورهم، وكذلك التأمل ومسألة التواصل مع الخالق. وبغية توضيح موقفه **كإخواني** ضد **المينخوان**، قام **خو سونگشان** بعمل لم يقدم عليه أحد من قبل، ألا وهو تهديم ضريح والده في **تونگشين** بعد عام ١٨٩٩.

إن مسرى حياة **خو سونگشان** يمكن أن يمثل حياة **ما وانفو** بدرجة كبيرة لو كان ذهب إلى مكة في مطلع القرن. لكن خو أجّل ذلك حتى عام ١٩٢٥ عندما كان عمره ٤٥ عاما. إن تجربته التي عاشها هناك قد غيرت مفاهيمه عن الإسلام والصين وعن دور **الإخوان**. وخلافا لما عاشه **ما وانفو**، فإن **خو سونگشان** قد تعرض لكثير من التحيز والتحامل والتفريق خلال رحلته إلى مكة وفي طريق العودة منها، ليس لكونه مسلما، ولكن لكونه قادما من الصين. لقد استنتج من تلك التجربة المؤلمة أن الصين القوية هي التي تضمن لمسلمي الصين الحرية الجماعية والشخصية ليمارسوا شعائر دينهم ويضمنوا سلامتهم ومكانتهم خارج حدود البلاد. لذلك أصبح صينيا وطنيا متحمسا. وعندما رجع إلى **نينگشيا** استمر في تدريس مبادئ

الإخوان ولكنه أضاف إليها التطرق للأحداث الجارية وتركيزه على وحدة الصين في وجه التهديدات الإمبريالية الخارجية، وعلى المستوى الداخلي مقاومة أمراء الحرب.

لاحظ خو في ثلاثينات القرن العشرين أن الموقف الوطني والعالمي يتطلب أن تكون وحدة الصين قوية لأن ذلك هو الذي سينقذ المسلمين في الصين، وأن الطريقة الوحيدة هي التركيز على التربية والعلوم الحديثة لضمان قوة الوطن ومستقبله. لذلك فإنه اتفق مع عدد كبير من اعضاء النخبة المسلمة في **كانسو**، ومن ضمنهم **ما فوشيانگ** وما **يوانجانگ** وما **تشيشي** ومن جاء بعدهم، بأن مدارس المسلمين يجب أن تدرّس اللغة الصينية والمواضيع الحديثة مثل العلوم واللغات الأجنبية، إضافة إلى منهج التربية الإسلامية. ولإثبات التزامه بتلك الفكرة، تخلى **خو سونگشان** عن عمله كإمام وأصبح مديرا للمدرسة العربية- الصينية المتوسطة التي أسستها النخبة المسلمة في مقاطعة **ووجونگ** بالقرب من **نينگشيا**.

وعقب الغزو الياباني للبر الصيني عام ١٩٣٧ كان **خو سونگشان** في طليعة من آمن بقضية الصين الوطنية بحماس منقطع النظير.أصدر أوامره بأن تكون صلاة الفجر مصحوبة بتحية رفع العلم الصيني وقراءة الأناشيد الوطنية التي تمجد الوطن، الصين. وعندما كان يلقي خطبة الجمعة كل أسبوع كان يستذكر آيات من القرآن تدعو إلى التضحية في الصراع ضد اليابانيين. ولكي تنتشر رسالته على مدى واسع كان يبدأ صلواته بالدعاء بالعربية والصينية. (يجد القارئ نص الدعاء في مطلع هذا القسم من الفصل الخامس) تمّ طبع هذا الدعاء باللغتين العربية والصينية وعُلقَ على جدران كافة المساجد والمدارس وغيرها من أماكن تجمعات المسلمين في المنطقة. ونرى من خلال هذا الدعاء الإرتباط بالصين كوطن ودمج ذلك بعقيدة الإيمان بالله التي نجدها في الأدبيات الإسلامية، وهي تمثل القول السائد "الصلاة من أجل الوطن". ولا شكّ أن من وضع النصّ كان مسلما وصينيا في نفس الوقت، وأن عضويته بالحركة الأصولية هي تأكيد لأهمية دمج قضيتي الوطن والدين معا.

في الحقيقة أن **الإخوان** قد ابتعدوا كثيرا عن أهداف **ما وانفو** الأصلية. فبدلا من مقاومته لأن يكون الشخص ذا كفاءة عالية في اللغة الصينية، قام **خو سونكشان** وغيره من معلمي **الإخوان** في **نينگشيا** بترجمة النصوص الإسلامية الهامة إلى اللغة الصينية. اتبع **خو** منحى المؤلفين المسلمين الصينيين الذين تأثروا بحركة كونفوشيوس الجديدة وألفوا **كتب الخان** عندما كتبوا عن فرائض المسلم الثلاث الأساسية كأساس لدراسة المسلمين لقضايا الإيمان والشعائر الدينية وحياتهم اليومية. ورغم أن مساجد **الإخوان** مثلها مثل مساجد **القديمو** في شمال غرب الصين لم تكن بينها وحدة مؤسساتية صلدة، فإنها حسّنت إلى درجة ما تشتت الجماعات لأنهم كانوا يصرون على ممارسة شعائرهم في مساجدهم الرئيسية. كانت تلك المساجد تدعو اتباع **الإخوان** من المناطق المجاورة الصغيرة، وهو الأمر الذي أدى إلى خلق حركة تضامن أكبر.(٩١) كما كانت الكتب والنصوص التي جاء بها **ما وانفو** معه بعد أن أدّى فريضة الحج، من أسباب قوة تضامن **الإخوان**. أضف إلى ذلك شعورهم القوي بنقاء إيمانهم واستقامة أفكارهم الإصلاحية.

لا يمكننا القول إن **خو سونكشان** يمكن أن يُعتبر نموذجا للمعلم **الإخواني**، لأنه تميز بمواقفه الليبرالية وأفكاره الحديثة وتطبيقاتها. لقد سمح للمصورين مثلا أن يلتقطوا صورا له ولمسجده وشجع طلبته على ممارسة الرياضة، كما أنه حاول أن يكشف أن علم الفلك الإسلامي يتطابق في أسسه مع العلم الحديث. درس **خو** الأعمال الكلاسيكية الصينية من أجل حث المسلمين على زيادة ارتباطهم مع الصينيين غير المسلمين لأهداف وطنية، ولم يتهاون في تأكيد وحدة المسلمين في دولة صينية قوية. وعن طريق ذلك قام بربط أهداف **الإخوان** التوحيدية مع تلك التي جاءت في **كتب الخان**، بهدف جعل الإسلام موضوعا يفهمه جميع الصينيين ويعترفون بأخلاقيته بحيث يكون للمسلمين مجال في الحياة السياسية والعقلية والثقافية على المستوى العالمي، دون التعرض إلى لبّ مبادئ الإسلام الأساسية. وفي محاولة بينة لإظهار التناقض مع **ما وانفو** وسياسة معاداة **التشينگ** وسياسة التعليم المناوءة للتكيف الثقافي، عمل **خو سونكشان** على الانضمام لجهود **ما**

فوشيانگ وما **يوانجانگ** وما **تشيشي** الذين حاولوا أن يخلقوا مكانا آمنا ومناسبا للمسلمين في **كانسو** الحديثة. لقد اختار **ما فوشيانگ** أن يساهم في الحركة السياسية الوطنية **والقومندان**، وقام **ما يوانجانگ** ببعث التغيير في الحركة **الجهرية**، في حين انصرف **ما تشيشي** لخلق حركة تضامن جديدة سماها **شيداوتانگ**. أصبح كل من هؤلاء قائدا لجماعة أخذت على عاتقها معالجة موضوع أن تكون مسلما في الصين. والحلول المختلفة التي طرحوها، حتى في اطار محافظة واحدة في شمال غرب البلاد، قد كشفت مسائل معقدة ما زالت قائمة حتى الآن لكنها خفية وغنية في عالم المسلمين الصينيين.

الفصل السادس

غرباء مألوفون



طلاب مسلمون صينيون

<http:/www.Google Couretsy>

*لم يكن (**منتسو الخيويخيوي**) يخص سكان البلاد الأصليين الذين عاشوا منذ قديم الزمان على تربة الصين مثل **الخان والمياو والتشينگ**. ولم يكن كذلك لجماعة مهاجرة أصيلة جاءت من خارج الصين وقررت البقاء فيها مثل الكوريين والروس. وهو ليس **منتسو** لناس من مناطق الثغور من الذين كانوا على اتصال دائم مع السكان الآخرين مثل **القزاق والداي**. وبدلا من ذلك اعتمد **منتسو الخيويخيوي** إلى درجة كبيرة على توحد ثقافة إسلامية قوية، وتركز على مسلمين جاءوا من أقطار عديدة مختلفة فأصبح **المنتسو** مكوناً من مزيج من عناصر أجنبية انضم إليها عدد من السكان المحليين، ليخلقوا صنفا جديدا من الناس. وفي أرض الصين الواسعة، ضربوا جذورهم ونموا وازدهروا وأعطوا ثمارا جعلتهم عنصرا لا يمكن فصله عن عائلة **منتسو** الصين.* (١)

تعدد التكافؤ والقيم

تميز جزء من الحركة الأكاديمية في أواخر القرن العشرين أولا بظاهرة غياب مجموعة أصوات، ثم بعد ذلك الاهتداء إلى تلك الأصوات المكتومة. فتمت مراجعة تاريخنا ليشمل بصورته الحديثة ذكر النساء والأفارقة الأمريكيين والهنود من سكان البلاد الأصليين والغجر، وغيرهم من الناس في هذه البلاد الشاسعة. وقد فرض ذلك نفسه لأنه كان لأفعال هؤلاء الناس دور في رسم شكل الماضي وصورة الحاضر. وكما أسلفنا فإن وجود هؤلاء وقوتهم قد كان تمّ تجاهلها عند كتابة تاريخ هذه البلاد في صورته الأولى. يصدق نفس الشيء على مسلمي الصين. فلقد وُضعوا على هامش تاريخ الصين، ولم يظهروا إلاّ كشيء غريب دخيل، كما ورد فيما كتبه مؤرخو فترتي **التانگ والسونگ**، أو كفاتحين وأوغاد في فترة حكم **اليوآن**. ثمّ ظهروا كبرابرة متوحشين، وعادوا للظهور ثانية ناشطين ضد **التشينگ** إمّا كثوار وأصحاب قضية مشروعة أو كقتلة متوحشين لا يلتزمون بالقوانين. كلّ تلك الروايات اعتمدت قطعا على من قام بتدوين التاريخ. استمر الحال على هذا المنوال حتى طفت الجماعات الإسلامية إلى السطح على شكل نخبة مسلمة متدينة أو

مدنية الاتجاه وذلك في عشرينات القرن العشرين، فأصبح للمسلمين صوت وطني يتحدث نيابة عن "أقلية وطنية" وحولها. وهذا التسلسل التاريخي يشير إلى أن فكرة المتنسو لجماعة معينة من البشر قد ظهرت ضمن " **متنسو عائلة الصين الكبيرة**." وترتب على ذلك أن صوت أية مجموعة لا يمكن أن يُسمع إذا لم يكن مُعترفا به داخل الصين ذاتها.(٢) وحتى تلك اللحظة، فإن المفاهيم الصينية لحضارة البلد (ووجود الآخرين الأغيار) كانت تتطلب من المسلمين إمّا أن يتغيروا ويتكيفوا، أو يبقوا كبرابرة لا أمل في تحضّرهم. بكلمة أخرى كان عليهم أن يعملوا على التآلف بين الإسلام والموروث الثقافي، أو الثقافة التقليدية.

هذا المبدأ الأيديولوجي المتسم بالبلاغة الحمقاء لم يكن من الممكن طبعا وضعه موضع التنفيذ. فصوت المسلمين كان يهدر في الصين منذ فترة **التانگ** وما تلاها، عندما كانوا يتكلمون لغات مختلفة من ضمنها اللغة الصينية. استهوت الحياة في الصين أكثر المسلمين فأصبح الكثير من مناطقها وطنا لهم، إلّا أنهم لم يكونوا إطلاقا راغبين في التخلي عن دينهم. وعندما تثقفوا في اللغة بالكلام أولا ثم الكتابة بها، بدأوا يألفون طرق الحياة والعادات والتقاليد وفي نفس الوقت يؤثرون فيها ضمن البيئات التي عاشوها. وهم في ذلك لم يكونوا يمرون في عملية خاصة بالصين فقط، إنما يمكن أن يجري الأمر في أية ثقافة أخرى. لقد حدث نفس الشيء بالنسبة للمسلمين في العوالم الآسيوية والأوربية والأفريقية. لقد أصبحوا الثقافة السائدة الحاكمة كما هو الحال في **جاوا**، وكنخبة تحكم الأكثرية غير المسلمة كما كان الحال في الهند وإسبانيا، أو كقوة تجارية فعالة وفي ذات الوقت كأقلية على محيط دائرة المجتمع، كما الحال في الفلبين وشرق أفريقيا والصين.

في الحقيقة أن المسلمين لم يرفعوا صوتا ولم يحققوا موضعا شرعيا في نظر "آلة" صنع التاريخ في الصين ونخبتها المثقفة، سواء كانت داخل دائرة السلطة القائمة أو خارجها. فقضية **خاي فورون** وتعلقيات محرر صحيفة **سيكو تشوانشو** على كتاب **تيانفانگ ديانلي** تشير بكل وضوح إلى أن المسؤولين الصينيين رفضوا تماما الاعتراف بالكتابات العربية والفارسية، بل حتى النصوص التي كتبها

المسلمون بلغة صينية بليغة. وقصدهم من ذلك الإنكار أن يقطعوا المسلمين عن مصادر إلهامهم وجذور معرفتهم ونصوصهم المقدسة، وبالتالي أية خبرة لهم بما هو جار خارج الصين. والحقيقة هي أن المسلمين في جنوب شرق البلاد قد تعرضوا لعملية "خنق ثقافي" عندما أغلقت امبراطورية **المنگ** طرق المواصلات البحرية فعزلت بذلك المسلمين عن مناطق الجنوب والغرب، مما أدّى إلى فقدان المسلمين لهويتهم على ممر الأجيال. هذا وكانت باربرا بلزبري قد أوضحت كيف تمّ إعادة تثقيف عائلة **گو** في شمال تايوان إسلاميا. كما تمّ نفس الشيء بالنسبة لعائلة **دنگ** الكثيرة العدد، والتي كانت أصلا من مسلمي **تشوانجو**. تحدثت درو گلاني عنها وقالت إنها قُطِعت عن جذورها الإسلامية الخارجية.(٤)

وبموجب السرد الرسمي، مرّ المسلمون بفترات تحوّل، فكان يُطلق عليهم خلال فترتي حكم **التانگ** و**السونگ** اسم **فانكي**، أي التجار الأجانب. ثمّ تغير الاسم إلى **سيمو** خلال فترة حكم **اليوآن**. تبدل الإسم ثالثة إلى **خويخوي** خلال فترتي حكم **المنگ** و**التشينگ**. الواقع هو أن المسلمين الذين عاشوا في الصين قد أصبحوا صينيين في مختلف مناطق البلاد وامتهنوا حرفا متنوعة. فأحفاد التجار والحرفيين والعلماء والجنود أصبحوا فلاحين ومسؤولين حكوميين وأئمة وعمالة مهاجرة وبائعة متجولين وأطباء وأصحاب قوافل تجارية. في القرون الأولى كان الرجال يتزوجون من نساء غير مسلمات وكانوا يطلقون على أبنائهم وبناتهم اسماء صينية وأسماء إسلامية وعاشوا حياة معقدة ضمن الواقع السياسي المحلي في قراهم وفي الأسواق وفي مختلف مقاطعات سكناهم. كانت حياتهم المادية لا تختلف كثيرا عن حياة جيرانهم الغير مسلمين، باستثناء التزامهم بقضايا الأكل الحلال والتضامن على أساس الدين المشترك. غير أن تجمعاتهم تميزت عن غير المسلمين فيما يتعلق بمركزية المسجد في حياتهم اليومية وتربيتهم الإسلامية وشعائرهم الدينية ومقام كبار السن والأئمة (سواء كانوا من أتباع **القديمو**) أو شيوخ الطريقة (عند **الصوفيين** و**المينخوان**). لا تتوفر لدينا أية أدلة على وجود تنظيمات تتعدى نشاطاتها المنطقة المحلية، قبل وصول الطرائق الصوفية في القرن الثامن عشر، باستثناء أن **ما جو** قد

حاول أن يحصل على لقب رسمي كسيد تعترف به الدولة خلال فترة امبراطورية التشينگ.

ولو كانوا واعين لحياة المسلمين الآخرين في الصين، فقد كان لأنهم مسلمون يعرفونهم شخصيا. وعندما يسافرون لم يكن صعبا عليهم في مجتمع مسلم آخر أن يجدوا الأكل الحلال وأن يستخدموا المفردات الشائعة للتفاهم وأن يجدوا مسجدا للصلاة وللإقامة المؤقتة فيه. وهنا يكمن أحد العناصر الأساسية فيما يُشار إليه بعزلة المسلمين عن المجتمع الصيني! صحيح أن المسلمين قادرين على التواصل مع بعضهم البعض عن طريق الدين، وهذا أمر لا يقدر عليه غير المسلمين في الصين. إشترك المسلمون الصينيون مع بعضهم البعض عن طريق التربية الإسلامية وممارسة الشعائر والطقوس الدينية التي ميزتهم كأشخاص عن غيرالمسلمين. كان بإمكانهم أن يستعملوا الكلمات العربية والفارسية للتفاهم رغم وجود اختلاف في اللهجات بين منطقة واخرى، لكنها كمؤشر كانت كافية لأن تظهر تعامل المسلمين الصينيين وتواصلهم مع بعضهم البعض كإخوة في الدين. وفي الحقيقة إن إمكانية تواصل المسلمين قد تجاوز الحدود الجغرافية واللغوية ليخلق بينهم رابطة تقوم على مكان الولادة وصلة القربى، وهما أمران يعطيان لكل صيني الركيزة الأساسية للعلاقات الشخصية في الحياة الاجتماعية. وهكذا يمكن أن يقع المسلمون ضمن تعريف جورج سميل حول الشخص الغريب - ورغم أنهم استقروا، إلاّ أنهم لم يتخلوا تماما عن حرية التنقل والذهاب والإياب. وفي نظر الصينيين غير المسلمين، هذا أمر يدل على وحدة هؤلاء الناس وأن تضامنهم أجنبي في مظهره ومخيف في نفس الوقت، رغم وجودهم المألوف. يمكن لأي منا أن يتخيل لماذا يقول غير المسلمين "إنهم متكاتفون دائما." فهذا يدل على شعور الغالبية عندما يكون أحدهم وسط مجموعة متجانسة، حتى وإن كانت أقلية.

لكن الواقع يكشف أن المسلمين لم يكونوا متكاتفين. فعلى العكس انقسمت مجتمعاتهم وفق المذهب والولاء السياسي والطبقة الاقتصادية والجنس وغيرها من مكونات الشخصية التي ترسم الاختيارات التي يسعى إليها الناس في حياتهم

اليومية.(٥) وكما رأينا، أن كل شخص في شمال غرب الصين كان يعرف على الأقل "حقيقة" أو بالأحرى صورة واحدة مؤكدة في ذهنه عن المسلمين - أنهم ناس عنيفون وغالبا ما يكون عنفهم ضد بعضهم البعض. "فعندما يتخاصم أصحاب التعاليم القديمة مع أصحاب التعاليم الجديدة فإن القضايا عادة ما تُحسم بالسيف والقوة والقتال." واستنادا إلى ما أشرنا إليه، يمكننا الإستنتاج أنه في وقت المجابهات كون الفرد مسلما لا يكون مؤشرا عن كيفية تصرفه، رغم أن الجميع قد اكتوى بنارها من قبل. وإذا تجاوزنا موضوع العنف، نجح بعض المسلمين في أعمالهم التجارية وأنظمة الإمتحانات وانضموا للخدمة في الجيش، في حين لم يحقق البعض الآخر أي شيء من هذا القبيل. أيّد بعضهم السلطات القائمة ولم يُظهر البعض الآخر مثل ذلك الولاء، بل رفع السلاح ضدها. اختار البعض أن يتعلم أولادهم الصينية بينما اختار البعض الآخر أن يقتصر تعليم اللغات على العربية والفارسية. إلّا أن فئة ثالثة لم تكن قادرة على تأمين التعليم لأطفالها أبدا. وخارج الجهرية والإخوان، كانت غالبية جمعيات التضامن الإسلامية قد وحّدت وفي نفس الوقت شقّت صفوف المسلمين في شمال غرب البلاد في منطقة كانسو فقط. وحتى في عموم تلك المنطقة، فإن تحركات المسلمين على نطاق واسع كانت استثناء وليس قاعدة. ففي حياتها اليومية، لم يكن للمجتمعات المحلية أي ترابط وما وُجد منه اقتصر على العلاقات التجارية والعلاقات بالأئمة. ولذلك لا يمكن القول إنه كان ينتشر بينهم أي وعي واسع من أجل التوحد قبل إطلالة الفترة الحديثة من تاريخ الصين.

وهنا تكمن الخطورة والصعوبة معا في تطبيق نموذج المنتسو على تاريخ مسلمي الصين. (يمكنني التعميم على تاريخ أية مجموعة بشرية). لقد اختُلق هذا المفهوم في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ليُطبق كأداة سياسية لمصلحة حكومة مركزية بعد عام ١٩٤٩. وفكرة المنتسو تؤكد أن الجماعات موجودة بدواعي الضمير وبوحي منه وخلقت روح التضامن قبل أن تأتي التغيرات التكنولوجية وما رافقها من التغيرات الاجتماعية. لكن قدرة الدولة الحديثة هي التي

جعلت ذلك ممكنا. لا شك أن منتسو **الخوي** موجود في كافة أنحاء الصين، إلا أنه لم يكن موجودا في فترة **المنگ** عندما بدأ المسلمون يتكيفون للحياة كصينيين. والسؤال إذن هو هل أن قيام الحركة الوطنية الصينية بأشكالها المختلفة واهتماماتها الخاصة هو الذي خلق ذلك؟ وكما شرحتْ درو گلادني، فإن ما عرضناه في هذا الكتاب يؤيد الرد على هذا التساؤل بالإيجاب.

إن **منتسو الخيوي** بانتشاره الواسع وفحواه المتنوع يمكن أن يكون متواجدا في مجتمع خيالي لناس يجمعهم التضامن وتصبح لهم قيادة وطنية ووعي وطني وإحساس بالانتماء إلى الصين حتى على المستوى المحلي. ويصدق هذا بشكل خاص على طبيعة العلاقات التي تتحكم بالمسلمين الصينيين وحياتهم قبل حلول الفترة الحديثة.(٧) ولذلك فإنني تحاشيت استخدام كلمة **خيوي** واستعملت بدلا منها كلمة "مسلم"، كما تحاشيت كلمة **خان** واستخدمت بدلا منها "الصينيين غير المسلمين." إن فكرة **المنتسو** التي جاءت بها حكومة جمهورية الصين الشعبية كانت موجودة قبل الفترة الحديثة، ولكنها لم تكن تعني ما تعنيه الآن. وكما قال جيمس واتسون وآخرون غيره إن **الخيوي** أو **الخيويخيوي** يعني المسلم **والخان** يعني "الشخص الصيني ثقافيا". لكن هذه التسميات لا تعني أن تصنيفات **المنتسو** منغلقة على نفسها. في الحقيقة أن التسميات الشائعة لمسلمي الصين، إضافة إلى "مسلمي آسيا الوسطى الذين يتكلمون الصينية"، كان يوجد **خان خيوي** أي **الخان المسلم**، في حين أن اعضاء منتسو **دونگشيانگ** الذين يتكلمون المنغولية يجب أن يطلق عليهم **خيوي المنگ** أي المسلمين المنغوليين. وهذه الأسماء المركبة لا يمكن أن يسمح بها تصنيف **المنتسو** ، لأن مثل هذا التصنيف يتطلب عضوية مقصورة محددة، في حين أن هذه التسميات تصف بدقة الظروف الثقافية للناس.(٨)

مشكلة العنف

يتوجب علينا هنا أن نواجه السؤال الذي تركه موت جوزف فلتشر دون إجابة. لماذا أدى الانقسام بين أتباع **الصوفية** الذي يُشار إليه بالفرق في ممارسة شعائر

الذكر (**الخفية ضد الجهرية**) قد أدى إلى حروب دموية في شمال غرب الصين دون غيرها من بقية مناطق العالم؟ فكما رأينا أنه في الجزيرة العربية خلال القرن الثامن عشر كان يمكن للمرء أن يمارس كل أنواع الذكر دون الشعور بأنه يرتكب عملا مخالفا. لقد وجدنا أن الصراعات الدموية الشرسة بين الصوفيين قد اقتصرت على وسط آسيا بين **الآفاقية** و**العشاقية** مثلا، كانت بدوافع السيطرة السياسية على المناطق وطبيعة الحكام وسياسة الدولة. ولكن في شمال غرب الصين فإن سيطرة من هذا الصنف لم تكن تخطر ببال أي شخص مجنون، باستثناء الفترة التي كانت فيها الدولة آيلة للسقوط. وحتى في مثل تلك الظروف فإن **ميلايين** و**دنگ گودونگ** قد تحالفا مع من ادّعى بوراثة سلطة **المنگ**، وليس مع المسلمين الفاتحين. فما الذي دعا مسلمي **گانسو** أن يهاجموا بعضهم البعض بتلك الصورة الدموية الفظيعة؟

إن ما طرحناه أعلاه يتطلب النظر في عدة مسببات وفحص ما اقترح لتوضيح القضية. يجب أولا أن نعطي وزنا لبعض العوامل الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت سائدة في المنطقة، والتي مارست الضغط في مناطق الثغور وظروفها الطبيعية. بقي شمال غرب البلاد من أفقر مناطق الصين وأن سكانها كانوا يستغلون بمشقة أراضيها القليلة الخصوبة. كان معدل سقوط الأمطار بالكاد يكفي حاجة المنطقة للمياه، وأن المرافق والطرق العامة كانت عرضة لتقلبات المناخ والهزات الأرضية والزلازل. كما لا بد من الإشارة إلى وجود عدة جماعات متباينة في منطقة محدودة، وكل منها يتباهى بهويته وثقافته ودينه ولغته وخلفيته وولائه، والجميع يتنافس على الموارد النادرة. وبشكل خاص يجب الانتباه إلى تقارب سكان المناطق الزراعية مع سكان المناطق الرعوية وموقع المسلمين كوسيط اقتصادي يسعى للحفاظ على التوازن والتوافق بين الثقافة الصينية وغير الصينية، وبين المتطرفين والساعين لتحقيق السلام والهدوء. وحتى في **تاوجو** القديمة التي قاومت النخبة فيها الإنقسام بناء على العنصر القومي، فقد كان هناك المزيد من الضغوط لإحداث القلائل وتحقيق مثل ذلك الانقسام. إن مناطق الحدود غالبا ما

تخلق الضرورة فيها أن تتسلح المجتمعات وتكون مستعدة لاستعماله، حيث ينام الرجال وأيديهم على الزناد.

خلقت هذه الظروف درجة من التوتر الغريب بين مكونات مجتمع المسلمين، وزاد غياب النخبة المثقفة، التي اقتصرت على وجود رجال الدين، في انجرار تلك الجماعات نحو خلق الخصومات أحيانا من لا شيء يستحق الذكر! في الشرق الأوسط أو غيره من البيئات الثقافية المسلمة تتحول الاختلافات الدينية إلى صراعات تُحلّ أحيانا عن طريق المحاكم أو تقود إلى عراك وعداوات أو حروب. كل هذه الأشكال من الصراعات جميعا يُمكن أن تُحلّ وفق قواعد تقبلها الأطراف كافة، وقد تقود في النهاية إلى نوع من الحوار والتبادل الفكري. أما في مناطق التخوم في **گانسو** فكان يوجد نوع من الجمود والتطرف اللذين حالا دون وجود أي حوار حول الدين. وبسبب غياب الثقة حول وضوح القومية، خاصة في القضايا الإسلامية، كان المتوقع من مسلمي الصين أن يطيعوا القواعد والأحكام، خاصة ما يأتي منها من قلب العالم الإسلامي. لم يكن بمستطاعهم اثارة الأسئلة حولها أو تغييرها بما يتفق مع أساليب التفكير المعروفة. بدلا من ذلك كان موقفهم ميالا إلى الاختلاف ثم العنف الذي غذّى فيهم روحه الشريرة أحيانا بعضُ قادتهم الدينيين.

كما يمكننا الإشارة إلى عوامل خارجية شجعت على وقوع العنف. من هذه، الفساد وسوء كفاءة موظفي دولة **التشينگ** والإجراءات الحكومية التي استهدفت المسلمين دون سواهم، والحذر الزائد عن اللزوم في منطقة شمال غرب البلاد بعد سقوط **شينجيانگ**. كل هذه الأمور زادت من حدة التوتر في **گانسو** في أواخر القرن الثامن عشر. والحقيقة هي أن مسلمي الصين لم يكونوا وحدهم فقط هم من تصرفوا بعنف ضد امبراطورية **التشينگ** لأن دراسات تايبنگ ونيان ومياو وبوكسر، التي انصبت على الحركات الواسعة النطاق المعادية للدولة، قد أشارت إلى أن للعنف جذوره المحلية، وليس من الضروري أن يكون نتيجة لاختلافات ثقافية وايديولوجيات متناحرة أو نشاطات ثورية لقادة غير مقتنعين بواقعهم.(٩)

لم تبدأ حركة التجديد داخل المجتمعات الإسلامية في القرن الثامن عشر في منطقة **كانسو**، بوصول **الجهرية** لأنها في الحقيقة قد بدأت على يد **الخفية**. وهي الطريقة الصوفية الأولى التي أصبح لها الكثير من الأتباع في المنطقة. إن نجاح **هداية الله** و**ما لايتشر** في بناء صرح متكامل وحلقة شبكات في مختلف المجتمعات قام على الولاء الشخصي لهما ولمن جاء بعدهما، خاصة بين **السالار**. وهذا بلا شك كان تهديدا مباشرا لشرعية نظام **القديمو** ومؤسساته وقوته والنخبة المتمثلة بالأئمة وكبار السن. كما حقق مفتي **ديداو** الذي ينحدر بأصوله من **هداية الله** بعض النجاح ولكن ليس بين **السالار** الذين كانوا يعتبرون دائما بأنهم من أخطر سكان الثغور. والشكوى التي أقامها **ما يونگخوان** قد تمت صيغتها على أساس اختلاف الرأي بين جماعة "الإفطار ثم الصلاة" ورأي جماعة "الصلاة ثم الإفطار". لم تتسبب تلك الشكوى في قيام حرب طويلة. ولكن بوصول الحركة **الجهرية** والتحامها بالمسلمين الذين يتحدثون الصينية والمنغولية وكذلك **السالار** الذين يتحدثون التوركية برزت للوجود حركة تنافس **الخفية** بشكل مباشر. وهنا حدث اقتتال الشوارع بشكل عام ومتكرر في **شونخوا**، وهو الأمر الذي حدا بإدارة **التشينگ** أن تأخذ القضية على محمل الجد وتبادر إلى ممارسة مسؤوليتها في حفظ النظام العام.

وهذا هو ما شكل أحد الأسباب الرئيسية "لثورة المسلمين" في شمال غرب الصين وغيرها من أجزاء الإمبراطورية. وبرغم البيانات الحكومية التي كانت تحاول تخفيف لهجة الإتهام، كان يُنظر للمسلمين بأنهم أغيار وخطرون في رأي مسؤولي **كانسو** المدنيين منهم والعسكريين. لم يقف المسلمون مكتوفي الأيدي بل هبوا لمواجهة الهجوم الشرس والوحشي ضدهم وقاوموا عنف الدولة الذي لم يفرق بين مسلم وآخر بل عامل الجميع بأنهم متمردون يجب سحقهم. كانت الشائعات تنتقل كالنار في الهشيم حول الهجمات المروعة الدموية لقوات الحكومة التي لم تترك للمسلمين خيارا سوى الوقوف بعناد لصد تلك الهجمات في معارك ضارية. وعندما التقى **سو الرابع والثلاثون** عام ١٧٨١ **بشينجو** في مدينة **بايجوانگزي**، وعندما جاء **جانگ في** لإجراء مفاوضات في جنوب شرق **شانشي** عام ١٨٦٢، وعندما نهب

تانگ ينهي قرى غرب **خيجو** عام ١٨٩٥، سمع المسلمون تلك الأخبار وصدقوها ونقلوها وبالغوا فيها ونشروا بأن فحواها كان أن سلطة **التشينگ** تطبق سياسة لإفناء المسلمين والقضاء على آخر فرد منهم. سارع الأشخاص الذين تربوا على الروح العسكرية لتنظيم أنفسهم في ميليشيا (في منطقة **شانشي**)، في حين نظم أنصار **الطريقة** أنفسهم (في منطقة **گانسو**) وأدّى المثقفون والأئمة وشيوخ **الطريقة** أدوارهم في قبول التحدي، خاصة بعد أن أدركوا أن قوات الحكومة المحلية قد وهن عزمها وضعفت نتيجة حرب **التايبنگ** والحرب الصينية اليابانية.

وهذا يأتي بنا إلى الجواب الثاني للسؤال الذي طرحه الإمبراطور **تشيانلونگ** الذي أدان فيه نفسه وهو "لماذا ثاروا؟" لقد جمعت الحكومة قواتها ضد الأعداء المحليين – المسلمين أو في **شانشي** غير المسلمين. حوصر المسلمون في قلاعهم وما زالت شاخصة في أذهانهم المذابحُ السابقة أو سمعوا عن مذابح جديدة، مما جعلهم يردون على هجمات العنف بالعنف ضد الدولة أو الميليشيا المساندة لها. وبهذا أصبحوا ثوارا في عيون الحكومة، رغم أنهم لم يفصحوا عن خطط للسيطرة على مناطق معينة بذاتها ولم يعلنوا "الجهاد" ضد الدولة. وباختصار يجب أن ننظر إلى "الثوار" باعتبارهم فئة خلقتها الحكومة في أغلب الحالات، وليس حالة كان المسلمون يريدون تحقيقها. ونستثني من **ذلك** عام ١٧٨٤ حين أعدّ **تيان وو** اللافتات وخطط لانتفاضة. كان هناك قصد وتبرير لاستخدام العنف ردًا على وسائل التهدئة الدموية التي قامت بها السلطة ومحاولتها للقضاء على الحركة **الجهرية** عام ١٧٨١.

كما يمكننا أن نضيف استنتاجا آخر، وهو أنه لم يكن هناك إجماع كامل بين صفوف المسلمين لمحاربة سلطة **التشينگ**. نحن نعلم أن البعض قد رفضوا ذلك الاتجاه، ومن بينهم أنصار **الخفية** عام ١٧٨١، وبعدهم **وانگ داگوي** وكثيرون آخرون غيره في ستينات القرن التاسع عشر، **وما جانو** بعد أن استسلم إلى **تسو تسونگتانگ**، وكذلك كافة الضباط والجنود المسلمين في جيش الإمبراطورية في تسعينات القرن التاسع عشر. ونعرف القليل عن الذين رفضوا القتال تماما أو فرّوا

أو اختفوا من مواجهة قوة الدولة العسكرية أو غضب القوات العسكرية العائدة لإخوانهم في الدين. ربما كانوا يكرهون سلطة **التشينگ** لأساليب العنف التي مارستها ضد إخوانهم، وربما كانوا لا يثقون بالزعماء الذين بدأوا المشاكل. لكن بإمكاننا الحدس أن الكثير من الناس لربما كانوا اختاروا الطريق السلمي لو أتيحت لهم الفرصة. لا نعرف إن كانوا فعلوا ذلك نتيجة للخوف أو كقضية مبدأ، نتيجة ولاء لسلطة **التشينگ** أو مساندة هادئة لإخوانهم المسلمين. لم يترك هؤلاء لنا أثرا تاريخيا، وما وصلنا سجل تطغى عليه الأعمال العسكرية والتعميمات السائدة والتوصيفات المنحازة الجاهزة. يمكن القول بكل ثقة إن صفة العنف لم تكن مقتصرة على مسلمي شمال غرب الصين دون سواهم من الناس الآخرين.

مشكلة الأسماء

لقد أشرنا سابقا إلى صعوبة فهم معنى بعض الكلمات وأوردنا مثلا لذلك كلمة **منتسو** و"ثائر" فيما يتعلق بالأجواء التي كانت سائدة شمال غرب الصين. كما أن بعض المصطلحات التي أوردناها في عرضنا في هذا الكتاب كانت مشوشة ومربكة أحيانا لوصف الناس أو الحوادث التي جرت في فترة ما. من هذه المصطلحات **التعاليم الجديدة** وعكسها **التعاليم القديمة**. وكما رأينا فإن هذه الكلمات لم تكن ثابتة فيما تعني بل تغيرت من وقت لآخر ومن مكان لآخر. أمكن الإشارة إليها خاصة عندما تطرقنا إلى الجماعات الإصلاحية والجماعات المحافظة داخل المجتمع الصيني المسلم. ولو كان الإصطلاحان غير متحيزين لأمكننا القول إن الأمر لا يتعدى قضية من جاء أولا من الناحية التاريخية. أيّ من هاتين الطريقتين وصلت إلى الصين قبل الأخرى؟ ولكن في وضع ثقافي سياسي كان يتطلب نظاما اجتماعيا هادئا والحصول على وظيفة رسمية والعيش في أوقات متهرئة تعمّها الفوضى، كان من المستحيل أن نقول إن **التعاليم القديمة** أو **التعاليم الجديدة** كانا مصطلحين محايدين. ورغم أنه لم تحدث إدانة أو إنزال عقوبة بأحد، خاصة قبل

عام ١٧٨١، فإن جماعة **التعاليم الجديدة** كانت قد فقدت الشرعية لدى مجتمع مسلمي الصين. وبعد وقوع المعارك الضروس والقمع السلطوي في عام ١٧٨١ وثانية عام ١٧٨٤، فإن **التعاليم الجديدة** التي كانت تعني **الجهرية** قد وُصمت بالعنف وتفكيك اللحمة الاجتماعية عن طريق البدع والهرطقة وخداع الناس. أما **التعاليم القديمة** التي تعني **الخفية** و**القديمو** فيمكن أن يوصف أتباعهما بأنهم مؤمنون بشرعية السلطة والسلالة الإمبراطورية. فهم الذين تحالفوا مع **آگوي** وقواته المتعددة القومية وقاتلوا إلى جانبهم ضد الثوار المسلمين بقيادة **سو الثالث والأربعين**.

كما استُعمِلت بعض الكلمات لوصف العنف عند الحديث بالصينية عن - **منتسو دوجينگ** و**شنگجان** - إشارة إلى "**منتسو العنف**" أو "الحرب المقدسة". وبناء على ما توفر لدينا من الأدلة يمكننا القول بأن مثل هذه المصطلحات تعميمات لا يمكن تطبيقها على أية حادثة بالذات. فلو كان "**منتسو العنف**" قد حرّض فعلا أتباعه على مقاومة سلطة غاشمة أو ضد اتباع **منتسو** آخر، فكيف يمكن القول إن ذلك ينطبق على مسلمي الصين، وهم الذين قاتلوا إلى جانب الفئتين المتناحرتين، كما لاحظنا في المعارك التي تطرق اليها هذا الكتاب؟ وإذا كان **ما خوالونگ** يخوض حرب جهاد حقا، فكيف يمكننا أن نفهم قراره بالإستسلام وقبول لقب من بلاط إمبراطورية **التشينگ**، وكذلك عدم توحده مع مسلمي **شانشي**؟ بدأت تلك الحروب بخصومات محلية بين المسلمين مع بعضهم البعض في **گانسو** أو بين المسلمين وغير المسلمين في **شانشي**. إلا أن رقعة تلك الخصومات اتسعت بعد تدخل الدولة فاتخذت الحروب صبغة دينية وقومية وجغرافية، وأن العوامل الثلاث المشار إليها قد لعبت بالتأكيد دورا في قرارات الناس للإنضمام إلى هذا المعسكر أو ذاك، فضاعت فرص ايجاد مكان للسلام في عالم ايقاعه لاهث! يشير بعض المؤرخين بحذر بالغ إلى استعمال المصطلحات وتطبيقاتها، إلا أن الكثير الآخر قد أهمل هذا الجانب. ولا يسعنا هنا إلا التحذير من إطلاق الأحكام والتوصيفات السطحية الجاهزة.

خلاصة القول هي أن الحكومة تقرر في النهاية معاني تلك الكلمات. إن توصيفات مثل "ثوار" أو "هرطقة" أو "التعاليم الجديدة" أو "قطّاع طرق"، ليست صفات طبيعية موروثة، بل إنها تصنيفات ذات صبغة قانونية أو سياسية تستطيع الحكومة من خلالها أن تضع تحت هذه المسميات مجموعات مختلفة من الناس وأساليب تصرفاتهم. حقا إن عبارة "الرابح ملك والخاسر قاطع طريق" تلخص الحكمة الشعبية حول الموضوع بالنسبة للأفكار الدينية. وهناك قول آخر متقارب في فحواه هو "الرابح مذهب والخاسر هرطقة." في منتصف القرن التاسع عشر قرر مسؤولو **التشينگ** أن **المينخوان** وأضرحة شيوخ الطريقة- بمعنى طرائق **الصوفية** والسلالات المباركة والأضرحة المقدسة – تقع في لب التاريخ المتعطش للدماء في **گانسو**. لكن الدولة لم تحاول اطلاقا وبطريقة رسمية أن تصادر الأموال العائدة **للمينخوان** ولا أضرحة شيوخ الطريقة، ولم تعمد رسميا على حرمانها من حماية الدولة. وعلى العكس، قامت الدولة باختيار أولئك القادة والتعاونيات والمنظمات التي ظهر فيما بعد أنها من أشدّ الأمور خطرا على النظام الاجتماعي. عندها بدأ المسؤولون يستعملون عبارات من قبيل "أعشاب ضارة" ومسلمين أشرار مهنتهم خداع الناس وبقية المسلمين "أخيار". هذه التصنيفات لم تكن واقعية في جو مشحون بالخوف والذكريات الدموية المريرة والرغبة في الانتقام. فبالنسبة لغير المسلمين في **گانسو** ومسؤولي **التشينگ** كان المسلم"الجيد" هو المسلم "الميت"، أو على الأقل المسلم الذي يسكن بعيدا عن ظهرانيهم. والمقصود هنا غير المسلمين، خاصة الصينيين منهم. منذ القرن السابع عشر كانت هناك توصيات سياسية بفصل المسلمين عن بقية المجتمع المتحضر حتى تستطيع خطة تحويلهم إلى مزارعين مستقرين أن تحقق نتائج "سحرية"، إلاّ أنه كانت هناك محاولات بسيطة لوضع تلك السياسة موضع التنفيذ. وفي نهاية القرن التاسع عشر شهدت المنطقة مذابح مروعة عامة راح ضحيتها آلاف المدنيين المسلمين حول مدينة **شينينگ**.

التناقض في مناطق الثغور

إن تسمية الأماكن، مثلها مثل الجماعات البشرية، تحمل ثقلا سياسيا متميزا. لقد غطى هذا الكتاب بشكل موسع مناطق "الثغور" باعتبارها اسما لمحافظة **گانسو** ولكل منطقة شمال غرب البلاد. لقد شعر **گو جيگانگ** بالخجل من حقيقة أن تلك المناطق تقع قريبا من المركز الجغرافي لدولته الصينية. من الواضح جدا أن **گانسو** كانت تمثل منطقة الثغور للصين، ومن الطريف أنها زاوية يجد الصينيون أنفسهم فيها غرباء ثقافيا وسياسيا. لكن **گانسو** كانت أيضا ثغرا للتبت ومنغوليا ووسط آسيا. فهي منطقة تلتقي فيها الثقافات. وأننا ربما سنكتب تاريخا مختلفا لو نظرنا للتبتيين والمنغوليين وسكان آسيا الوسطى بأنهم الشخصيات الرئيسية في سرد من هذا القبيل.

وحين نتحدث عن الحدود يجب أن ننظر إلى جانبيها وأن نأخذ بنظر الاعتبار الناس الذين يسكنون ذلكما الجانبين ويعتبرونهما أرضهم. وحين نتحدث عن المراكز والمحيط والحدود فإنه يجب أن نتفحص جيدا القوة التي يتمتع بها ساكنو تلك المناطق ومقدار انتاجيتهم التي حققوها. عندما رسم وليام سكنر وآخرون غيره خرائط لمختلف المراكز والزوايا في الصين، كان الفضاء الذي شغله مسلمو الصين غائبا عن تلك الخرائط. لو نظرنا إلى المشهد الصيني لوجدنا أن **نينگشيا وخيجو وشونخوا** و**شينينگ** تقع على محيط المحيط. لكنها كانت في لب اهتمام مسلمي الصين والسكان المحليين من غير الصينيين. بالتأكيد أن المسلمين قد تعاونوا مع مراكز النظام في **لانجو وشيآن** وفي عواصم أخرى مثل **تيانشو وديداو**، كما شاركوا في النشاطات التجارية في تلكما المدينتين اللتين تعتبران مركزين لها. وينبغي ألا يغيب عن ذهن القارىء أن المسلمين ساهموا في النشاطات الاقتصادية والسياسية والدينية الاسلامية وأنهم أثروا وتأثروا بالنماذج الصينية "المسيطرة". كانت العاصمة الرمزية تعجّ بالمجتمعات الاسلامية والأفراد والآراء التي جاءت على لسان الأئمة وشيوخ الطرائق **الصوفية** التي تناقلها الطلاب والحجاج، في حين

كانت البضائع تترى على مناطق الثقافة الصينية وغير الصينية ومراكزها على يد التجار المسلمين.

إن التحدي الذي واجهته في إعداد هذا الكتاب هو تحديد النماذج والمواقف المتوازية مع السرد التاريخي لوقائع حدثت فعلا في حياة المسلمين في الصين. لا يمكننا الادعاء بأننا توصلنا إلى مصدر بسيط يبين كيفية وصولهم وكيف تغيروا وتكيفوا للواقع الجديد، مع علمنا أنهم وصلوا فعلا، وأن مسلمي فترة **التشينگ** يختلفون اختلافا كليا عن مسلمي فترة **السونگ**. لكن التكيف كان متبادلا وتدريجيا وتطوريا ولم يمكن التنبؤ به. إن مفاهيم الصينيين عن أنفسهم وثقافتهم قد تأثرت بشكل عميق بوجود ثقافة **الأغيار** ضمن دوائرهم المحلية وفي مناطق حدود بلادهم. ومن المؤكد أن منطقة شمال غرب البلاد لم تصبح ما أصبحت عليه بدون وجود المجتمعات الإسلامية التي حاولت باستمرار التوسط لإصلاح ذات البين. لكنه يجب التذكير بأن تلك المجتمعات لم تتصرف دائما بشكل يسعى للمحافظة على الديمومة والاستقرار، أو أنها كانت تتصرف بطريقة واحدة متماثلة.

ورغم أن حركة الحجاج والدعوة والتجارة قد ساعدت منطقة شمال غرب البلاد من التواصل مع قلب العالم الإسلامي فإنها تأثرت بالأفكار التي ترد إلى الصين. وحتى في شرق البلاد حيث كان المسلمون أكثر تأثرا بالثقافة واللغة والحياة الصينية من إخوانهم في **گانسو**، فإنهم استمروا بممارسة شعائرهم الدينية خصوصا ما يتعلق منها بالأكل الحلال والزواج من الأقارب حتى يومنا هذا.(١٠) ولذلك لا يمكننا الإستنتاج بالقول إن مسلمي الصين لم يكونوا مسلمين بالقدر الذي جعلهم فئة متميزة. ومع ذلك ما كانوا بعزلة عمّا يجري على المسرح السياسي. والدليل على ذلك إن **لاو خيويخيوي** قد أمدّ **لي تسيتشينگ** بالعون للفترة من ١٦٣٠-١٦٤٤، وأن **ميلاين ودنگ گودونگ** قد وقفا إلى جانب المطالب بعرش **المينگ** وساعداه عام ١٦٤٨، وأن قادة **الخفية** قد عززوا تحالفهم مع سلطة **التشينگ** بشكل يضمن مصالحهم عام ١٧٨١ وقاتلوا ضد إخوانهم المسلمين. وفي الحقيقة، إن هذا التاريخ يظهر بشكل جلي بأن بعث الحركة الإسلامية في القرن الماضي قد تركز

على اعتبار المسلمين جزءاً من النسيج الصيني. إن الإخوان الذين فشلوا كحركة متأثرة بالوهابية قد أحرزوا النجاح بعد تحالفهم مع الحركة الوطنية الصينية، وأن خا نشو قد ركز على كتب الخان للتعبير عن المفاهيم الإسلامية في الصين الحاضرة، وهي حركة بدأت وانتعشت في نانجنگ وبكين وسوجو وجينان قبل أن تصل إلى كانسو.

يقودنا التاريخ الحديث إلى الإستنتاج النهائي فيما يتعلق بالمكان ذاته. لقد ضمت الصين ثغورها الشمالية الغربية بشكل فعال، في وقت كانت الحكومة المركزية فيه ضعيفة جدا. فخلال أقوى فترات سلطة التشينگ، سمح نظام رئاسة القبائل في مناطق الثغور بإعطاء النخبة في تلك المناطق درجة عالية من الاستقلال الذاتي، وهو الأمر الذي مكن الشخصيات ذات النفوذ الديني مثل الكهنة في معابد التبت وشيوخ الطريقة مثل ما لايتشر وما خوالونگ من أن يؤسسوا لأنفسهم قواعد محلية أعطتهم نفوذا مشابها لنفوذ السلالة الحاكمة البعيدة في بكين، ومن يمثلها على المستوى المحلي. وحتى في الفترة التي فتحت فيها سلطة التشينگ منطقة شينجيانگ بين تسعينات القرن السابع عشر وخمسينات القرن الثامن عشر لم يؤد ذلك التغيير إلى فرض حكم مركزي شامل على منطقة كانسو. ولم يتمكن إلاّ تسو تسونگتانگ من إعادة فتح المنطقة وما تبعه من اخضاع النخبة من عائلات ما الذين أصبحوا جنرالات في جيش التشينگ، ثم أصبحوا فيما بعد أمراء حرب. فهم الذين ضمنوا أخيرا تبعية المنطقة للحكم المركزي في الشرق. وبدون المساندة الفعلية التي قدمها كل من ما أنليانگ وما تشي وما فوشينگ، لما استطاع التشينگ في نهاية حكمهم ولا السلطة الجمهورية التي تلت ذلك من السيطرة على كانسو.

إن طرق إعادة بناء الوطن التي تمّ تعلمها أو ابتُدعت أصلا في دوائر العالم الأوربي الاستعماري، قد أفادت الأنظمة القديمة والجديدة في شمال غرب البلاد. ولذلك فإن تاريخ كانسو يعكس بالضبط عملية التحول من الحكم الإمبراطوري إلى حكم الدولة، ومن الثغور إلى الحدود ومن الصبغة الإمبريالية إلى السيادة الوطنية. ويجب أن يأخذ تاريخ مسلمي الصين بالاعتبار الموجات والتيارات القادمة من

وسط آسيا والشرق الأوسط، خصوصا نمو وازدهار الحركات **الصوفية** والأفكار **الأصولية** التي كانت شديدة الإرتباط بالكتب الإسلامية المقدسة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. فهي التي أثارت من جهتها رياح التغيير في شمال غرب الصين بشكل متواز واحيانا بشكل متعارض مع تغير الأوضاع في أواخر حكم **التشينگ** وولادة الصين الجديدة.

تعارض الهوية

ردد هذا الكتاب صدى ما قاله **كونگوسون لونگ**، عندما طرح السؤال التالي "متى يكون الصيني غير صينيّ؟" والجواب عندي هو "عندما يكون الصيني مسلما." ماذا يعني أن ينتمي الشخص إلى ثقافتين في آن واحد، خاصة عندما يطلب كل منهما قدرا من التسلط على حياة الفرد والأفراد بشكل عام؟ لقد حلل المؤرخون وعلماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء الأجناس البشرية العناصر المتعددة التي تكون هوية الشخص. وفي هذه الدراسة لمسلمي الصين ركزتُ خاصة على عوامل اللغة والدين والمكان وتوصلت إلى الاستنتاج إنه لا يمكن فصل أحدها عن الآخر، وأن هذه العوامل مجتمعة تعمل في نفس الوقت. وإذا كنت قد أخطأت في جانب اختياري للأشخاص أو لقرراتهم الجماعية باعتبارها الدليل على هويتهم، فإن ذلك يعود إلى تعقد المصادر وأحيانا تناقضاتها التي لا تسمح بالتوصل إلى تعميمات بسيطة.

تشير سلافنكا داركوليتش في مقالة مثيرة للعاطفة عن كيفية اكتشافها لهويتها القومية/الوطنية وسط المذابح التي شهدتها دولة يوغسلافيا بعد أن تفككت.

إلى جانب الملايين من أبناء كرواتيا، أصبحتُ شديدة الإلتصاق بجدار القومية، ليس فقط نتيجة الضغط الذي فرضه الصرب والجيش الفدرالي علينا، ولكن بسبب التجانس داخل كرواتيا نفسها. هذا ما تعمله الحرب بنا. تحولنا إلى أشخاص لهم ُبعد واحد فقط، هو الوطن أو القومية. والمشكلة في هذه الهوية أنها تختلف عن هويتي السابقة التي كانت خليطا من تربيتي وثقافتي وعملي وأفكاري وشخصيتي

وأيضا قوميتي. أما الآن فإنني جُردت من كل ذلك. أنا لا شيء الآن، لأني لستُ شخصا. أنا فرد من ٤.٥ مليون كرواتي.(١١)

يبدو أن ذلك هو ما حدث لبعض مسلمي شمال غرب الصين، رغم أن القليل جدا منهم قد عبّر عن هذه الحيرة بشكل واضح في أوقات معينة وأماكن معينة. أصبح هؤلاء الناس في نظر القوى الأخرى لا شيء سوى أنهم مسلمون، رغم أن الإسلام كان يمثل بُعدا واحدا فقط من شخصية أيّ منهم. وعندما بدأ القادة الصينيون غير المسلمين من أمثال منگ تشيافانگ وشينجو وجانگ في ويانگ تشانگجون وتانگ يانهي ودونگ فوشيانگ، وحتى المسلمان ما فوشيانگ وما أنليانگ، أو هددوا بقتل المسلمين، تطايرت الأخبار وانتشرت الإشاعات بأنهم سيقضون على الخيوي، بمعنى قتل المسلمين وإبادتهم لأنهم مسلمون في ذلك المكان، أينما كان ذلك المكان. وفي شمال غرب الصين ذات الذاكرة الغنية بالمذابح والخصومات، كان الناس مستعدين لتقبل تلك الإشاعات وتصديقها ، وإن البعض منهم شرع فعلا بقتل بعض الآخرين الأغيار دفاعا عن النفس أو بدوافع الانتقام.

غير أنهم لم يتحركوا لأنهم "مسلمون" فقط، خصوصا بعد وصول الحركة الصوفية إلى منطقة گانسو. عندما بدأت المجتمعات المحلية بالاستعدادات العسكرية في گانسو وشانشي، فإن الناس تحركوا أيضا باعتبارهم أعضاء في تنظيمات محلية في وجه تنظيمات اخرى معادية اسلامية كانت أم غير اسلامية. تحركوا كسكان مجتمعات معينة أو كأعضاء ينتمون إلى سلالات معينة، سواء كانوا صينيين أو منغوليين أو تركيك أو من التبت. ولم يتصرف أي من هذه المجموعات بطريقة متماثلة كل الوقت. قالت داركوليتش إن يوغسلافيا تفككت فتقاسمتها الفرق السياسية المتناحرة التي استطاعت تحريك الشعور القومي واستعملته كسلاح ضد الآخرين للتشبث بوحدة "الوطن" فأصبحت القومية هي مركز الثقل. استخدم بعض قادة مسلمي گانسو نفس تلك الوسائل ولكن مع فارق واحد هو عدم الإشارة إلى استقلال ذاتي لأية منطقة. وبدلا من ذلك تجمعوا تحت راية الطريقة والقوة

الشخصية للأئمة والنخبة، يجمعهم الخوف من العنف الذي لا يميز بين فرد وآخر، والعبارات الرنانة حول وحدة المسلمين ليشجعوا بعضهم البعض على العنف دفاعا عن بيوتهم وممتلكاتهم أو بدافع الانتقام من **الأغيار** الأشرار.

في مثل هذه الظروف، هل كان للمواطنين المسلمين في شمال غرب البلاد أي خيار آخر؟ ربما لم يكن لهم أي خيار في **شانشي** عام ١٨٦٢. ربما كان عليهم أن يقاتلوا أو يهربوا أو يموتوا، فقد كانوا أعداء في نظر ميليشيات جيرانهم من غير المسلمين وفي نظر جيش **التشينگ**. ولكن في **گانسو** قاتل المسلمون إلى جانبي المتحاربين. وفي بعض المجتمعات مثل **تاوجو**، قرر الناس ألّا يقاتلوا أحدا، لو توفرت لهم الفرصة. وفي مركز كل هذه الخيارات كانت فكرة مكان الشخص الذي ينتمي إليه تشغل حيزا بالغ الأهمية في القرار. في منتصف القرن التاسع عشر، استعاد مسلمو **شانشي** حماسهم بعد أن هربوا فتجمعوا ثانية للقتال من أجل العودة إلى بيوتهم وممتلكاتهم. أما مسلمو **نينگشيا** و**خيجو** و**تاوزو** و**شونخوا** و**شينينگ** فقد برهنوا على ارتباط شديد وقوي بمناطقهم، واستخدموا معرفتهم بجغرافيتها من أجل تحقيق أهداف لدفع الجنود والمدنيين للقتال. وعلى الجانب الآخر عمد الكثير من غير المسلمين للدفاع عن قراهم ومخازن محاصيلهم بشراسة، وأوقع المسلمون بهم مذابح أو تعرضوا لحصار امتد لبعض الوقت.

هل كان بإمكان المسلمين أن يتركوا مناطقهم ويتوجهوا غربا للسكن بين ناس يشتركون معهم بنفس الدين؟ لا شك أن البعض قد فعل ذلك. **الباي يانخو** هرب نحو **شينجيانگ** أولا ثم توجه إلى روسيا عام ١٨٧٠. وعمل نفس الشيء أولئك الذين نجوا من مذبحة **دوبا** عام ١٨٩٠. وبعد ما يقارب الأربعين عاما لحق بهم **ما جونگينگ**. لكن الذين فعلوا ذلك كانوا قلائل. ومهما كانت شدة العداء وانتشار العنف، فإن **گانسو** و**شانشي** كانتا "بيتا" ووطنا لمسلمي الصين. هي المناطق التي رغبوا أن يسكنوا فيها، وفيها مصادر رزقهم وأعمالهم ومساجدهم ومزارات أوليائهم وقبور أجدادهم. كل القادة الأربعة الذين تعرضنا لحياتهم في الفصل الخامس، أمضوا جلّ حياتهم يبنون للمسلمين "بيتا" في شمال غرب الصين. حاول **ما**

فوشيانگ أن يربط **گانسو** و**نينگشيا** بالدولة الموحدة الجديدة. كما حاول **ما تشيشي** و**ما بوانجانگ** أن يؤسسا منظمات وتعاونيات إسلامية تضمن الإستقرار لحياة المسلمين على المستوى الديني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي. أمّا **ما وانفو** فقد قاد أتباعه من المسلمين لكي يعيشوا حياة دينية خالصة من الشوائب. وقبل أن يصبح تحت رعاية **ما تشي** وحمايته، فشل **ما وانفو** أن يحقق الأمن لمن آمن بأفكاره من الأتباع، فكان على الجيل الثاني من **الإخوان** أن يعدل مساره ويتبع الطريق الذي سلكته عوائل أمراء الحرب و**الجهرية** و**الشيداوتانگ**. لقد تقبلوا الأمر الواقع الذي جاءت به **الصين الجديدة**، ووضعوا مجتمعاتهم الدينية تحت جناح الدولة الجديدة.

غرباء مألوفون

كتب **ليو جي** في مطلع القرن الثامن عشر **كتب الخان** في مدينة **نانجينگ**. وبعد عدة عقود وصل **هداية الله** و**ما مينگشين** و**عبد الله** صاحب **الطريقة القادرية** إلى شمال غرب الصين وبدأوا في تكوين مؤسسات اجتماعية هي **الطرائق الصوفية**. إن هذين التيارين اللذين ارتبطا مع بعضهما البعض من الناحية التاريخية، تصادما وتطورا وتغيرا وأثر كل منهما بالآخر طوال قرنين من الزمن مما نجم عنه الكثير من الصراع والتبصر. وبعد أن أصبح الشمال الغربي جزءاً من البلاد تحت سلطة امبراطورية **التشينگ**، وبعد أن تمّ فتحها ثانية على يد **تسو تسونگتانگ**، توجه قادة مسلمي الصين نحو مركز العاصمة شرقا. إلاّ أن ذلك لم يشمل إهمال علاقتهم بقلب العالم الإسلامي، وكان الكثير منهم مفتوحا من الناحية الذهنية لتقبل أفكار جديدة ونصوص متنوعة وتجارب مختلفة آتية اليهم من جهة الغرب. ومع ذلك فإنهم ربطوا قدرهم بالصين واتخذوا **كتب الخان** مرشدا لهم. إن فلسفة **ليو جي** كانت تنادي بالجمع بين الكونفوشية والإسلام، لكن هذه النظرة لم تحقق نصرا نهائيا لأنه كان راغبا أن يخلق هوية **لا** تفصل المسلمين عن الصين بل توحدهم معها. وتلك مهمة مستحيلة ما داموا باقين كغرباء بأي شكل من الأشكال. لكن

أولئك الذين كانوا قادرين على قراءة الصينية، وجدوا في كتبه مفردات مألوفة عن الإيمان والعبادة ونقاشا يهدف إلى جعل الصين وطنا للمسلمين المؤمنين.(١٢)

إلاّ أن مؤلفي **كتب الخان** وقراءهم كانوا وما زالوا مسلمين أتقياء وليسوا خليطا من الأجناس الجاحدين لدينهم إذا ما قارناهم بأفكار ومعايير **ما وانفو** أو **ما خوالونگ**. وفي مواجهة الضغط الثقافي، يتوجب على أي غريب أن يتعلم اللغة ويأكل الطعام ويلبس الملابس ويصبح شخصا عاديا ومألوفا. خضع البعض لتلك الضغوط فيما قاومها البعض الآخر طبقا لما كانت ثقافتهم تتطلب منهم. فمثلا حاول الكثير من المسلمين الصينيين تجنب أكل لحم الخنزير حتى بعد أن تخلوا عن بعض الطقوس الإسلامية وأصبحوا مواطنين صينيين ولم يعودوا فقط رعايا مخلصين للإمبراطورية. إن قصتهم بعد فترة ثلاثينات القرن الماضي تحتاج إلى دراسة أخرى، لكننا نستطيع أن نقول بكل ثقة إنهم بقوا مختلفين عن جيرانهم من غير المسلمين. يحتفظ البعض منهم بذكريات فقط عن **الأغيار**، فيما احتفظ الآخرون بعزلتهم في الوقت الذي عملوا فيه كل ما في وسعهم ليخلقوا لأنفسهم مكانا في الصين، الوطن الوحيد الذي يعرفونه.

نستنتج ختاما بالتحذير من التصنيفات الجاهزة وإطلاق الأحكام الشخصية المتحيزة والتعميمات السطحية. فالمسلمون حالهم حال أصناف البشر الأخرى قد تعرضوا إلى العديد من التحليلات التبسيطية حدّ التشويه. إن سلوكيتهم قد قيست وفق معايير ضيقة أو كان مصدرها بعض الأفكار المزعومة المدعومة من جهات عالمية الصبغة. إن السرد الذي جاء في هذا الكتاب لا يمكن تبسيطه بدقة، إلى الحد الذي يجعله ناجحا في تصوير الفوضى لما حدث فعلا في شمال غرب الصين خلال الألفية الماضية. وسردنا التاريخي هذا يجب ألّا يقتصر على خلق فئات (هل هناك غالبية مسلمة أم صينية) أو الإستعانة بمقولة "**عائلة منتسو الصين الغير قابلة للتقسيم**." ولا بدّ من أن نأخذ بنظر الإعتبار ما قاله هارولد اسحق عن "الفوضى الضرورية لكل حقيقة."(١٣) وعلى المستوى الإنساني، فإن التاريخ الأقل إقناعا يسمح بالتقسيمات ويتقبل القرارات التي يتخذها الأفراد وحركات التضامن في

مواقف معينة. ولكن من خلال دراسة عشرات الآلاف من القصص وتحليلها، يمكننا فقط أن نتوصل إلى ماذا كان يعني أو ماذا يعني الآن أن يكون الشخص مسلما في الصين.

المراجع

GNQSL Mu Shouqi, *Gan Ning Qing shilue* (Outline history of Gansu), Ningxia and Qinghai Taibei: Guangwen shuju reprint, 1970), in ten volumes.

HMQY Bai Shouyi (ed.), *Huimin qiyi* (Righteous Uprisings of the Hui People) (Shanghai: Shenzhou guoguang chubanshe, 1953), in four volumes.

HSG Yang Huaizhong, *Huizu shi lungao* (Essays in Hui History) (Yinchuan: Gansu renmin chubanshe, 1991).

HSJ Zhongguo shihui kexue yuan minzu yanjiusuo and Zhongyang minzu xueyuan minzu yanjiusuo (eds.), *Huizu shi lunji (*1949-1979 *nian)* (Essays on Hui History, 1949-1979) (Yinchuan: Ningxia renmin chubanshe, 1983).

QTNSH Feng Zenglie, Li Dengdi, and Zhang Zhijie, *Qingdai Tongzhi nianjian Shaanxi Huimin qiyi yanjiu* (The Righteous Uprisings of the Hui People of Shaanxi, 1862-1875) (Xi'an: Sanqin, 1990).

QZYL Ningxia zhexue shehui kexue yanjiusuo (eds.), *Qingdai Zhongguo Yisilan jiao lunji* (Essays on Islam in Qing China) (Yinchuan: Ningxia renmin chubanshe, 1981).

XSJ Qinghai minzu xueyuan minzu yanjiusuo and Xibei minzu xueyuan xibei minzu yanjiusuo (eds.), *Xidaotang shiliao ji* (Historical Materials on the Xidaotang) (n.p., 1987).

XYY Gansu sheng minzu yanjiusuo (eds.), *Xibei Yisilanjiao yanjiu* (Islam in Northwest China) (Lanzhou: Gansu renmin chubanshe, 1985).

YZZ Gansu sheng minzu yanjiusuo (eds.), *Yisilan jiao zai Zhongguo* (Islam in China) (Yinchuan: Ningxia renmin chubanshe, 1982).

ZYSC Bai Shouyi, *Zhongguo Yisilan shi cungao* (Essays on Chinese Islamic History) (Yinchuan: Ningxia renmin chubanshe, 1983).

ZYSCZX Li Xinghua and Feng Jinyuan, *Zhongguo Yisilanjiao shi cankao ziliao xuanbian* (Selected reference materials on the history of Islam in China) (Yinchuan: Ningxia renmin chubanshe, 1985), in two volumes.

al-Din, Rashid (trans. by John A. Boyle), *The successors of Genghis Khan* (New York: Columbia University Press, 1971).

Algar, Hamid, "Silent and vocal *dhikr* in the Naqshbandi order," in *Akten des VII. Kongresses für Arabistik und Islamwissenschaft* (Proceedings of the Seventh Conference on Altaic and Islamic Studies) (Göttingen: Vandenhoeck & Ruprecht, 1976), pp. 39-46.

Allsen, Thomas, "Mongolian princes and their merchant partners, 1200-1260," *Asia Major*, 3rd series, Vol. 2, Part 2 (1989), pp. 83-126.

Andrew, George F., *The crescent in northwest China* (London: China Inland Mission, 1921).

Armijo-Hussein, Jacqueline, "The Sinicization and Confucianization of a Muslim from Bukhara serving under the Mongols in China," paper presented at "The Legacy of Islam in China," Harvard University, April 1989.

Aubin, Francoise, "En Islam Chinois: Quel Naqshbandis?" ("In Chinese Islam: Which Naqshbandis?") in M. Gaborieau, A. Popovic, and T. Zarcone (eds.), *Naqshbandis: Cheminements et situation actuelle d'un ordre mystique musulman* (Naqshbandis: Historical Development and Contemporary Situation of a Mystical Islamic Order) (Istanbul, Paris: Editions Isis, 1990), pp. 491-572.

Bai Shouyi (ed.), *Huimin qiyi* (Righteous Uprisings of the Hui People)(Shanghai: Shenzhou guoguang chubanshe, 1953), in four volumes. (**HMQY**)

Bai Shouyi, et al. (eds.), *Huizu renwu zhi (Ming dai)* (Biographical Dictionary of the Hui People: The Ming Period (Yinchuan): Ningxia renmin chubanshe, 1988).

Bai Shouyi, et al. (eds.), *Huizu renwu zhi (Qing dai)* (Biographical Dictionary of the Hui People: The Qing Period (Yinchuan): Ningxia renmin, 1992).

Bai Shouyi, et al. (eds.), *Huizu renwu zhi (Yuan dai)* (Biographical Dictionary of the Hui People: The Yuan Period (Yinchuan: Ningxia renmin, 1985).

Bai Shouyi, "Ma Wanfu," *Zhongguo Musilin* (China Muslim) No. 39 (May 1984), pp. 2-6.

Bai Shouyi, "Sai Dianchi Shan Siding kao" ("Sai Dianchi Shams ad-Din"), in ZYSC, pp. 216-298.

Bai Shouyi, *Zhongguo Yisilan shi cungao* (Essays on Chinese Islamic History) (Yinchuan: Ningxia renmin, 1983). (**ZYSC**)

Bonin, Charles-Eudes, "Les Mahometans du Kan-sou et leur derniere revolte" ("The Muslims of Gansu and Their Most Recent Rebellion"),

Revue du monde musulman (Review of the Muslim World) 10:2 (1910), pp. 210-233.

Boorman, Howard (ed.), *Biographical dictionary of Republican China* (New York: Columbia University Press, 1967), in four volumes.

Botham, Mark, "Islam in Kansu," *Moslem world* 10:4 (1920), pp. 377-390.

Broomhall, Marshall, *Islam in China: A neglected problem* (London: Morgan and Scott, 1910).

Cai Meibiao, *Yuandai baihua bei jilu* (Yuan Period Vernacular Inscriptions)(Beijing: Kexue chubanshe, 1955).

Chen Shaoxiao, *Xibei junfa ji* (The Northwestern Warlords)(Hong Kong: Zhicheng, 1974).

Chen Yuan (Ch'ien Hsing-hai and L. Carrington Goodrich, tr.), *Western and Central Asians in China under the Mongols* (Los Angeles, 1966).

Chen Ziyi, "Songren lixue you Huijiao tuihua er chu" ("The Islamic Origins of Song Neo-Confucianism"), in ZYSCZX, Vol. II, pp. 1257-1279.

Chongxin xian zhi (Chonxin County Gazetteer) of 1926 (Taibei: Xuesheng shuju reprint, 1957).

Chongxiu Gaolan xian zhi (Gaolan County Gazetteer, 2nd Edition) of 1892.

Chu, Wen-djang, *The Moslem rebellion in northwest China: A study of government minority policy* (The Hague: Mouton, 1966).

Clark, Leonard,*The marching wind* (New York: Funk and Wagnall, 1954).

Close, Upton, and E. McCormick, "Where the mountains walked," *National Geographic Magazine* 41:5 (May 1922), pp. 445-464.

Cong Enlin, "Zhongguo tese de Yisilanjiao--Zhongguo chuantong wenhua yu Yisilan wenhua de zhuangji" ("Islam with Chinese Characteristics: Traditional Chinese Culture and Islamic Culture"), *Ningxia shehui kexue* (Ningxia Social Science) No. 55 (1992), pp. 48-55.

Crossley, Pamela, "Thinking about ethnicity in early modern China," *Late Imperial China* 11:1 (1990), pp. 1-34.

Crossley, Pamela, *Orphan warriors: Three Manchu generations and the end of the Qing world* (Princeton: Princeton University Press, 1990).

Curwen, Charles, *Taiping rebel: The deposition of Li Hsiu-ch'eng* (Cambridge: Cambridge University Press, 1977).

Da Ming lü jijie fuli (The Ming Code: Statutes and Commentaries) (Taibei: Taiwan xuesheng, 1970), in five volumes.

Daqing Gaozong (Qun) Huangdi shilu (The Veritable Records of the Qianlong Emperor).

Dazai Matsusaburo, *Shina kaikyoshi no kenkyu* (Studies on the History of Islam in China)(Dairen: Mantetsu, 1924).

de Groot, J.J.M., *Sectarianism and religious persecution in China* (Amsterdam: J. Miller, 1903-4), in two volumes.

Dennerline, Jerry, *Qian Mu and the world of Seven Mansions* (New Haven: Yale University Press, 1988)

Didao zhou xu zhi (Didao Prefectural Gazetteer, 2nd Edition) of 1909.

d'Ollone, H.M.G., *Recherches sur les musulmans chinois* (Studies on the Chinese Muslims) (Paris: Leroux, 1911).

Dols, Joseph, "La vie chinoise dans la province de Kan-sou" ("Chinese Life in Gansu Province"), *Anthropos* 10:11-12:13 (1915-1918), in five sections.

Drakulic, Slavenka, *The Balkan express: Fragments from the other side of war* (New York: Harper Collins, 1993).

Dreyer, June T. *China's forty million* (Cambridge: Harvard University Press, 1976).

Dwyer, Arienne, "Altaic elements in the Linxia dialect," *Journal of Chinese linguistics* 20:1 (1992), pp. 160-179.

Eberhard, Wolfram, "Notes on the folklore of Ch'inghai," in *China und seine westlichen Nachbarn* (China and Its Western Neighbors)(Darmstadt: Wissenschaftliche Buchgesellschaft, 1978), pp. 306-310.

Ekvall, Robert, *Cultural relations on the Kansu-Tibetan border* (Chicago: University of Chicao Press, 1939).

Endicott-West, Elizabeth, "Merchant associations in Yuan China: The *Ortoq*," *Asia Major*, 3rd Series, Vol. 2, Part 2 (1989), pp. 127-154.

Esherick, Joseph and Mary Rankin, "Introduction," in Joseph Esherick and Mary Rankin (eds.), *Chinese local elites and patterns of dominance* (Berkeley: University of California Press, 1990), pp. 1-24.

Esherick, Joseph, *The origins of the Boxer uprising* (Berkeley: University of California Press, 1987).

Ewing, Katherine, "The politics of Sufism: Redefining the saints of Pakistan," *Journal of Asian Studies* 42:2 (1983), pp. 251-268.

Fan Changjiang, *Zhongguo de xibei jiao* (China's northwest corner)(Tianjin: Dagong bao, 1936).

Fan Manyun, "Liu Yufen yu Hezhou shibian" (Liu Yufen and the Hezhou incident),*Gansu wenshi ziliao xuanji* (Gansu historical materials) No. 9 (1981), pp. 110-127.

Farrer, Reginald,*On the eaves of the world* (London: Arnold,1917), in two volumes.

Feng Jinyuan, "Zhongguo Yislanjiao jiaofang zhidu chutan" (The independent mosque system in Chinese Islam), in XYY, pp. 142-159.

Feng Jinyuan, "Cong Zhongguo Yisilanjiao Hanwen yizhu kan Rujia sixiang dui Zhongguo Yisilanjiao de yingxiang he shentou" (The influence and permeation of Confucian thought in Chinese Islam as seen in the *Han kitab*), in YZZ, pp. 257-281.

Feng Zenglie, "'Gedimu' bayi" (Eight points on the Gedimu), in XYY, pp. 130-141.

Feng Zenglie, "'Xiaoerjin' chutan" (On the xiaoerjin script), (n.p., 1982).

Feng Zenglie, Li Dengdi, and Zhang Zhijie, *Qingdai Tongzhi nianjian Shaanxi Huimin qiyi yanjiu* (The righteous uprising of the Shaanxi Hui people, 1862-1875)(Xi'an: Sanqin, 1990). (**QTNSH**)

Feng Zenglie, "Liu Zhi yu *Tianfang dianli*" (Liu Zhi and the *Tianfang dianli*), in YZZ, pp. 301-318.

Feng Zenglie, "Ming Qing shiqi Shaanxi Yisilanjiao de jingtang jiaoyu" (Islamic mosque education in Shaanxi during the Ming and Qing), in QZYL, p. 217-251.

Fields, Lanny, *Tso Tsung-t'ang and the Muslims: Statecraft in northwest China*, 1865-1880 (Kingston, Ontario: Limestone Press, 1978).

Filchner, Wilhelm, *Wissenschaftliche Ergebnisse der Expedition Filchner nach China und Tibet*, 1903-1905 (Scientific findings of the Filchner expedition to China and Tibet, 1903-1905) (Berlin: Mittler u. Sohn, 1908-1912), in ten volumes.

Fletcher, Joseph (Jonathan Lipman, ed.), "The Taylor-Pickens Letters on the Jahri Branch of the Naqshbandiyya in China," *Central and Inner Asian Studies* III (1989), p. 1-35.

Fletcher, Joseph, "A brief history of the Chinese northwestern frontier," in Mary Ellen Alonso (ed.), *China's inner Asian frontier: Photographs of the Wulsin expedition to northwest China in* 1923 (Cambridge: Peabody Museum, 1980), pp. 21-52.

Fletcher, Joseph, "Ch'ing Inner Asia c. 1800," in John K. Fairbank (ed.), *The Cambridge history of China* (Cambridge: Cambridge University Press, 1978), Vol 10, Part 1, pp. 59-90.

Fletcher, Joseph, "China and Central Asia, 1368-1884," in John K. Fairbank (ed.), *The Chinese world order: Traditional China's foreign relations* (Cambridge: Harvard University Press, 1968), pp. 206-224.

Fletcher, Joseph, "China's northwest at the time of the Ming-Ch'ing transition," unpublished manuscript, Harvard University, 1974.

Fletcher, Joseph, "Les 'voies' (*turuq*) soufies en Chine" (The Sufi orders (*turuq*) in China), in A. Popovic and G. Veinstein (eds.), *Les ordres*

mystiques dan l'Islam (The mystical orders in Islam)(Paris: Edition de l'Ecole des Hautes Etudes en sciences sociales, 1986), pp. 13-26.

Fletcher, Joseph, "The Naqshbandiyya in northwest China," in Beatrice Manz (ed.), *Studies on Chinese and Islamic Inner Asia* (London: Variorum, 1995), sep. pag.

Forbes, Andrew, *Warlords and Muslims in Chinese Central Asia: A political history of Republican Sinkiang,* 1911-1949 (Cambridge: Cambridge University Press).

Ford, Joseph, "Some Chinese Muslims of the seventeenth and eighteenth centuries," *Asian affairs* (New Series) V:2 (1974), pp. 144-156.

Franke, Herbert, "Ahmed: Ein Beitrag zur Wirtschaftsgeschichte Chinas unter Qubilai" (Ahmed: A chapter in China's economic history under Qubilai),*Oriens* 1:2 (1948), pp. 222-236.

Franke, Herbert, "Eine mittelalterliche chinesische Satire auf die Mohammedaner" (A medieval Chinese satire of the Muslims), in W. Hoenerbach (ed.), *Der Orient in der Forschung: Festschrift für Otto Spies zum* 5. *April* 1966 (The Orient under research: Festschrift for Otto Spies)(Wiesbaden: Harrassowitz, 1967), pp. 202-208.

Franke, Herbert, "Siege and defense of towns in medieval China," in F. Kiernan and John K. Fairbank, *Chinese ways in warfare* (Cambridge: Harvard University Press, 1974), pp. 151-201.

Frick, J., "Hochzeitssitten von Hei-tsuei-tzu in der Provinz Ch'ing-hai" (Wedding customs at Heizuizi in Qinghai province), *Folklore studies* Supplement No. 1, pp. 1-102.

Frolic, B. Michael, *Mao's people: Sixteen portraits of life in revolutionary China* (Cambridge: Harvard University Press, 1980).

Fu Yiling, "Taiping tianguo shidai Huiluan lingdao renwu chushen kao" (The social origins of important leaders of Hui rebellions in Taiping times), *Fujian wenhua* (Fujian culture), 2:3 (1945), pp. 1-12.

"Gansu dudufu dang'an" (Gansu provincial military governor's office archives), excerpted in Du Qunhe (ed.), *Bai Lang qiyi* (The righteous uprising of Bai Lang)(Beijing: Zhongguo shehui kexue, 1980), pp. 262ff.

Gansu jiefang qian wushi nian dashi ji (Important events in Gansu, 1900-1949)(Hong Kong?: n.p., 1981).

Gansu sheng minzu shiwu weiyuanhui and Gansu sheng minzu yanjiusuo (eds.), *Gansu shaoshu minzu* (Minority nationalities of Gansu) (Lanzhou: Gansu renmin, 1989).

Gansu sheng minzu yanjiusuo (eds.), *Xibei Yisilanjiao yanjiu* (Islam in Northwest China) (Lanzhou: Gansu renmin, 1985). **(XYY)**

Gansu sheng minzu yanjiusuo (eds.), *Yisilan jiao zai Zhongguo* (Islam in China) (Yinchuan: Ningxia renmin, 1982). **(YZZ)**

"Gansu Tianshui xian gaikuang" (Conditions in Tianshui county, Gansu), *Kaifa xibei* (Develop the northwest), 1:2 (1934), pp. 61-72.

Gansu xin tongzhi (Provincial gazetteer of Gansu) (An Weijun, comp.) (n.p., 1909).

Gao Wanxuan, "Linxia Qingzhen 'Haiyi' zhi de jianli ji qi bianqian" (The establishment and evolution of central mosques in Linxia), *Gansu wenshi ziliao xuanji* (Gansu historical materials) No. 2 (1980), pp. 197-200.

Gao Wenyuan, *Qingmuo xibei Huimin zhi fan Qing yundong* (The anti-Qing movement of the northwestern Hui people in the late Qing) (Taibei: Xuehai, 1988).

Gao Zhanfu, "Guanyu jiaopai zhi zheng zai Qingdai xibei Huimin qiyizhong xiaoji zuoyong de tantao" (The negative functions of factional struggles during the righteous uprisings of the Hui people under the Qing), in XYY, pp. 245-262.

Gao Zhanfu, "Yuandai de Gansu Huihui ren" (The 'Huihui' in Gansu during the Yuan), *Ningxia shehui kexue* (Ningxia social science), No. 52 (1992), pp. 58-62.

Ge Chifeng, *Zangbian caifeng ji* (Colors and customs on the Tibetan frontier)(Chongqing: Shangwu, 1942).

Geertz, Clifford, *Islam observed* (New Haven: Yale University Press, 1968).

Gilbert, Rodney, "Remarkable development in Mohammedanism in western China," *The Far Eastern Review* 15:11 (1919), pp. 703-706.

Gladney, Dru, *Muslim Chinese: Ethnic nationalism in the People's Republic* (Cambridge: Harvard University Press, 1991).

Gladney, Dru, "Muslim tombs and ethnic folklore: Charters for Hui identity," *Journal of Asian Studies* 47:3 (1987), pp. 495-532.

Goodrich, L. Carrington and Fang Chaoying (eds.), *Dictionary of Ming Biography,* 1368-1644 (New York: Columbia University Press, 1976), in two volumes.

Gu Jiegang *Xibei kaocha riji* (Diary of a northwestern investigation)(n.p.: Hejia tushuguan, 1949).

Gu Jiegang, "Kaocha xibei hou de ganxiang" (My feelings after investigating the northwest), *Xibei shidi* (Northwestern history and geography) No. 2 (1984), pp. 12-16.

Guan Lianji and Liu Cihan, "Yibajiuwu nian He-Huang shibian chutan" (The Hezhou-Huangzhong incident of 1895), *Xibei shidi* (Northwestern history and geography) No. 4 (1983), pp. 46-54.

Guan Lianji and Wang Jin, "Huasi menhuan de xingshuai" (The rise and fall of the Huasi menhuan), *Xibei shidi* (Northwestern history and geography) 1982:1, pp. 56-62.

Guan Lianji, "Xidaotang lishi gaishu" (A brief history of the Xidaotang), in XSJ, pp. 75-96.

Guyuan zhou zhi (Guyuan prefectural gazetteer) of 1909.

Haicheng xian zhi (Haicheng county gazetteer) of 1908.

Harrell, Stevan, "Introduction," in Jonathan Lipman and Stevan Harrell (eds.), *Violence in Chinese society: Studies in culture and counterculture* (Albany: SUNY Press, 1990), pp. 1-25.

He Yan, "Ma Fuxiang nianpu gailue" (A chronological life of Ma Fuxiang), *Gansu wenshi ziliao* (Gansu historical materials) No. 11, pp. 32-54.

Hedin, Sven, *The flight of 'Big Horse': The trail of war in Central Asia* (New York: E.P. Dutton, 1936).

Hegel, Charlotte, "The White Wolf: The career of a Chinese bandit, 1912-1914," unpublished M.A. thesis, Columbia University, 1969.

Hezheng xian zhi (Hezheng county gazetteer) of 1930 (Taibei: Chengwen reprint, 1970).

Hirth, F. and W.W. Rockhill, *Chau Ju-kua: His work on the Chinese and Arab trade in the twelfth and thirteen centuries, entitled* Chu-fan-chi (St. Petersburg, 1911).

Ho, Peng-yoke, "The Astronomical Bureau in Ming China," *Journal of Asian history* 3:2 (1969), pp. 137-157.

Hodgson, Marshall,*The venture of Islam: Conscience and history in a world civilization* (Chicago: University of Chicago Press, 1974), in three volumes.

Huc, Abbe, *High road to Tartary* (New York: Charles Scribner's Sons, 1948).

Huizu jianshi (A brief history of the Hui *minzu*) (Yinchuan: Ningxia renmin, 1978).

Ignatieff, Michael, *Blood and belonging: Journeys into the new nationalism* (New York: Farrar, Straus and Giroux, 1993).

Iqbal, Afzal, *The life and work of Jalal-ud-din Rumi* (London: Octagon, 1956).

Isaacs, Harold, *Idols of the tribe: Group identity and political change* (Cambridge: Harvard University Press, 1975).

Israeli, Raphael, *Muslims in China: A study in cultural confrontation* (London: Curzon, 1978).

Israeli, Raphael, "The Muslim revival in nineteenth century China," *Studia Islamica* 43 (1976), pp. 119-138.

Iwamura Shinobu, "Kanshuku Kaimin no niruikei" (Two types of Gansu Muslims), *Minzokugaku kenkyu kiyo* (Ethnological research bulletin) No. 1 (1944), pp. 119-165.

Iwamura Shinobu, "Kanshuku sho no kaimin" (The Muslims of Gansu), *Moko* (Mongolia) 10:2 (1942-1943), pp. 39-51.

Iwamura Shinobu, "Koga joryu no hibatsu" (The hide rafts of the upper Yellow River), *Minzokugaku kenkyu* (Ethnological research)(new series) 2:1 (1944), pp. 21-36.

Jen, Yu-wen,*The Taiping revolutionary movement* (New Haven: Yale University Press, 1973)

Jin Yijiu, "Sufei pai yu Zhongguo menhuan" (Sufism and China's menhuan), in XYY, pp. 187-202.

Kang Jianguo, *Xibei zuijin shinian lai shiliao* (Historical materials on the past ten years in the northwest)(n.p., 1931).

Kataoka Kazutada, "Keian shiryo yori mitaru Seicho no Kaimin seisaku" (Qing policy toward Muslims, as seen in legal case records), *Shigaku kenkyu* (Historical research) 136 (June 1977), pp. 1-24.

Kataoka Kazutada, "Shinkyo no karokai" (The Gelaohui in Xinjiang), in *Rekishi ni okeru minshu to bunka* (Ethnicity and culture in history)(Tokyo: Kokushu kankyokai, 1982), pp. 845-858.

Kawamura Kyodo, "Ba Gensho" (Ma Yuanzhang), *Kaikyo* (Islam) 1:2 (1927), pp. 28-33.

Khan, Sardar Ali Ahmad, *The Naqshbandis* (Sharaqpur: Darul-Muballeghin Hazrat Mian Sahib Sharaqpur Sharif, 1982).

Köhler, Günther, "Die Bedeutung des Huang Ho innerhalb des nordwest-chinesischen Verkehrsnetzes" (The significance of the Yellow River within the northwestern Chinese transport network), *Petermanns Geographische Mitteilungen* (Petermann's geographical journal) No. 96 (1952), pp. 85-89.

Kuhn, Phillip, *Rebellion and its enemies in late imperial China: Militarization and Social Structure*, 1796-1864 (Cambridge: Harvard University Press, 1970).

Lai Cunli, *Huizu shangye shi* (Commercial history of the Hui *minzu*)(Beijing: Zhongguo shangwu, 1988).

Lattimore, Owen, *Inner Asian frontiers of China* (Boston: Beacon reprint, 1962).

Le Strange, Guy (tr.), *Clavijo: Embassy to Tamerlane*, 1403-1406 (London: Routledge, 1928).

Leslie, Donald D., *Islam in traditional China: A short history* (Canberra: Canberra College of Advanced Education, 1986).

Leslie, Donald D., *Islamic literature in Chinese, late Ming and early Qing: Books, authors, and associates* (Canberra: Canberra College of Advanced Education, 1981).

Leslie, Donald D., *The survival of the Chinese Jews: The Jewish community of Kaifeng* (Leiden: Brill, 1972).

Levy, Howard S., *Biography of Huang Ch'ao* (Berekeley: University of California Press, 1961).

Li Gengyan and Xu Likui, "Qinghai diqu de Tuomaoren ji qi yu Yisilan jiao de guanxi" (The Tuomao people of the Kokonor region and their relationship to Islam), in XYY, pp. 357-367.

Li Gengyan and Xu Likui, "Yisilan jiao zai Kaligang: Guanyu Kaligang diqu bufen qunzhong xi Zang jin Hui de diaocha" (Islam in Kargang: An investigation of the members of the Hui *minzu* in Kargang who were formerly of the Zang *minzu*), in YZZ, pp. 417-426.

Li Songmao, "Qing Xian-Tong nianjian Huimin qiyi pinglun" (A critical evaluation of the mid-nineteenth century righteous uprisings of the Hui people), in QTNSH, pp. 23-35.

Li Wujin, "Gansu Linxia dili zhi" (The geography of Linxia, Gansu), *Xibei lunheng* (Northwest debates) 7:11-7:13 (1939).

Li Xinghua and Feng Jinyuan, *Zhongguo Yisilanjiao shi cankao ziliao xuanbian (1911-1949)* (Selected reference materials on the history of Islam in China, 1911-1949) (Yinchuan: Ningxia renmin, 1985), in two volumes. (**ZYSCZX**)

Li Xinghua, "Zhongwen Yisilanjiao yuzhu pingshu" (Evaluating the *Han kitab*), in YZZ, pp. 281-300.

Li Xudan, "Xibei kexue kaocha jilue" (A scientific investigation in the northwest), *Dili xuebao* (Geography report) No. 9 (1942), pp. *****

Liao Kaitao, "Gansu zhi minzu wenti" (The *minzu* problem in Gansu), in Zhongguo Guomindang zhongyang shunlian weiyuanhui, Xibei ganbu shunlian tuan, Xibei wenti yanjiusuo (eds.), *Xibei wenti luncong* (Collected essays on problems of the northwest) Vol. I (1941), p. 81-96.

Lin Song and He Yan, *Huihui lishi yu Yisilan wenhua* (History of the Hui people and Islamic culture)(Beijing: Jinri Zhongguo, 1992).

Linxia Huizu zizhizhou wenshi ziliao weiyuanhui (eds.), *Ma Zhongying shibian shimuo* (The Ma Zhongying incident), unpublished manuscript, Linxia, 1963.

Lipman, Jonathan, "Ethnic conflict in modern China: Hans and Huis in Gansu, 1781-1929," in Jonathan Lipman and Stevan Harrell (eds.), *Violence in China: Studies in culture and counterculture* (Albany: SUNY Press, 1991), pp. 65-86.

Lipman, Jonathan, "Ethnicity and politics in Republican China: The Ma family warlords of Gansu," *Modern China* 10:3 (July 1984), 285-316.

Lipman, Jonathan, "Patchwork society, network society: A study of Sino-Muslim communities," in Raphael Israeli and Anthony Johns (eds.), Islam in Asia (Jerusalem: Magnes, 1984), pp. 246-274.

Lipman, Jonathan, "The border world of Gansu, 1895-1935," unpublished Ph.D. dissertation, Stanford University, 1981.

Liu, K.C. and Robert Smith, "The military challenge: The northwest and the coast," in J. K. Fairbank (ed.), *The Cambridge history of China* (Cambridge: Cambridge University Press, 1980), Vol. XI, Part 2, pp. 202-273

Luo Wanshou and Wu Wanshan, "Lun Qingdai Tongzhi nianjian xibei Huizu de bianqian" (The Tongzhi period rebellion of the Hui minzu in the northwest), *Xibei shidi* (Northwestern history and geography) No. 3 (1990), p. *****.

Ma Changshou, (ed.), *Tongzhi nianjian Shaanxi Huimin qiyi lishi diaocha jilu* (An investigation into the history of the Tongzhi period Shaanxi Hui rebellion)(Xi'an: Shaanxi renmin, 1993).

Ma Chen, "Ma Yuanzhang yu Zhehelinye jiaopai de fuxing" (Ma Yuanzhang and the revival of the Jahriyya), in QZYL, pp. 290-307.

Ma Chen, "Mu Shenghua ahong kangqing shilue" (Ahong Mu Shenghua's anti-Qing resistance), in YZZ, pp. 245-256.

Ma Fuqun, "Liu Jielian xiansheng de zongjiao yizhu dui yihou Yisilanjiao de yingxiang" (The influence of Liu Zhi's religious writings on Islam), in XSJ, pp. 171-186.

Ma Fuqun, "Xidaotang Ma Qixi xingban jiaoyu ji" (Educational activities under Ma Qixi of the Xidaotang), in XSJ, pp. 144-153.

Ma Fuxiang, *Meng Zang zhuangkuang* (The situation in Mongolia and Tibet)(Ningxia: Meng Zang weiyuanhui, 1931).

Ma Hetian, *Gan Qing Zang bianqu kaocha ji* (An investigation of the Gansu-Qinghai-Tibetan frontier region)(Shanghai: Shangwu, 1947).

Ma Kexun, "Zhongguo Yisilanjiao Yiheiwanipai de changdaozhe--Ma Wanfu (Guoyuan)" (Ma Wanfu (Guoyuan)--The founder of the Ikhwan in Chinese Islam), in YZZ, pp. 439-458.

Ma Peiqing, "Changgeng Shengyun jingong Shaanxi minjun shimuo" (Changgeng and Shengyun's attack on the Shaanxi People's Army), *Gansu wenshi ziliao xuanji* (Gansu historical materials) No. 11 (1981), pp. 190-197.

Ma Qicheng, "Jianlun Yisilan jiao zai Zhongguo de zaoqi chuanbuo" (Early transmission of Islam to China), *Minzu yanjiu lunwen ji* (Collected essays in ethnology) No. 1 (Beijing: Zhongyang minzu xueyuan, 1981), pp. 184-188.

"Ma Qixi xiansheng chuangjiao xunnan shi" (The obstacles faced by Ma Qixi in establishing his teaching), in XSJ, pp. 130-134.

Ma Ruheng, "Cong Hai Furun anjian kan Qianlong dui Huizu de tongzhi zhengce" (The Qianlong Emperor's policies for control over the Hui *minzu* as seen in the Hai Furun case), *Huizu yanjiu* (Research on the Hui *minzu*) No. 1 (1992), pp. 8-12.

Ma Shouqian, "Mingdai houqi de Huimin qiyi yu Huizu nongmin yingxiong Ma Shouying" (The late Ming righteous uprisings of the Hui people and the Hui *minzu*'s peasant hero Ma Shouying), *Minzu yanjiu* (Ethnological research) No. 1 (1980), pp. 36-40.

Ma Shouqian, "Qing Tongzhi nianjian de Ningxia Huimin qiyi--jianlun dui Ma Hualong de pingjie" (The Tongzhi period righteous uprising of the Hui people of Ningxia, with a critical evaluation of Ma Hualong), in QZYL, pp. 108-123.

Ma Songting *ahong*, "Zhongguo Huijiao yu Chengda shifan xuexiao" (Islam in China and the Chengda Normal School), *Yugong* (Tributes of Yu) 5:11, pp. 4-7.

Ma Tingxiu, "Ma Fuxiang shishu" (On Ma Fuxiang), *Gansu wenshi ziliao xuanji* (Gansu historical materials) No. 21 (1984), pp. 173-191.

Ma Tong, "Alabuo de Wahabiyapai yu Zhongguo de Yihewani" (The Arabian Wahhabiyya and China's Ikhwan), unpublished, undated manuscript.

Ma Tong, *Zhongguo Yisilan jiaopai menhuan suyuan* (The origins of China's Muslim solidarities and *menhuan*)(Yinchuan: Ningxia renmin, 1986).

Ma Tong, *Zhongguo Yisilan jiaopai yu menhuan zhidu shilue* (The history of China's Muslim solidarity and *menhuan* system)(Yinchuan: Ningxia renmin, 1983).

Ma Xuezhi, *Zhehelinye daotong shi xiaoji* (A history of the Jahriyya orthodox path)(Yinchuan: Xibei Wusheng(qu) Yisilanjiao xueshu taolun hui, 1980).

Ma Zikuo, "Musilin zai Linxia" (Muslims in Linxia), *Xibei tongxun* (Northwest bulletin) 3:1 (1948), pp. 15-18.

Maejima, Shinji, "The Muslims in Ch'uan-chou at the end of the Yuan dynasty (II)," *Memoirs of the Research Department of the Toyo Bunko* No. 32 (1974), pp. 47-71.

Manz, Beatrice F., *The rise and rule of Tamerlane* (Cambridge: Cambridge University Press, 1989).

Martin, B.G., "A short history of the Khalwati order of dervishes," in Nikki Keddie (ed.), *Scholars, saints, and Sufis: Muslim religious institutions since* 1500 (Berkeley: University of California Press, 1972), pp. 275-305.

Mei, Y.P., "Stronghold of Moslem China," *Moslem world* 31:2 (1941), pp. 178-184.

Mi Yizhi, *Salazu zhengzhi shehui shi* (A political and social history of the Salar *minzu*)(Hong Kong: Huanghe wenhua, 1990).

Mian Weilin, *Ningxia Yisilan jiaopai gaiyao* (The Muslim solidarities of Ningxia)(Yinchuan: Ningxia renmin, 1981).

Mills, J.V.G. (tr. and ed.), *Ma Huan Ying-yai sheng-lan, 'The overall survey of the ocean's shores* (Cambridge: Cambridge University Press, 1970).

Millward, James, "Beyond the Pass: Commerce, Ethnicity and the Qing Empire in Xinjiang, 1759-1864," unpublished Ph.D. dissertation, Stanford University, 1993.

Millward, James, "The Chinese border wool trade of 1880-1937," unpublished manuscript, Stanford University, 1987.

Min Shengzhi (comp.), "Hezheng Taizijie Qingzhen Xidasi lishi gaikuang" (A history of the Xidasi mosque, Taizi Street, Hezheng county [Gansu]), in XSJ, pp. 166-170.

Ming shi.(Official history of the Ming)(Zhang Dingyou, comp.) (Hankou: Hubei zhongwen, 1877).

Moore, Robert W., "Raft life on the Huang Ho," *National Geographic Magazine* 61:6 (1932), pp. 743-752.

Moule, A.C., *Quinsay, with other notes on Marco Polo* (Cambridge: Cambridge University Press, 1957).

Mu Shouqi, *Gan Ning Qin gshilue* (A history of Gansu, Ningxia, and Qinghai)(Taibei: Guangwen shuju reprint, 1970), in ten volumes. **(GNQSL)**

Nakada Yoshinobu, "Chugoku Musurimu to shuzoku soshiki: Zokufu o chushin to shite mitaru" (China's Muslims and the lineage system: A view from clan genealogies), *Toyo gakuho* (Oriental journal) 38:1 (1955), pp. 89-114.

Nakada Yoshinobu, "Dochi nenkan no San-Kan no Kairan ni tsuite" (The Tongzhi period Muslim uprisings in Shaanxi and Gansu) *Chugoku kenkyu* (Chinese researches) No. 3 (Tokyo: Tokyo University Press, 1959), pp. 71-159.

Nakada Yoshinobu, *Kaikai minzoku no shomondai* (Questions regarding the Huihui *minzu*)(Tokyo: Ajia Keizai Kenkyujo, 1971).

Naquin, Susan, *Shantung Rebellion: The Wang Lun Uprising of* 1774 (New Haven: Yale University Press, 1981).

Nayancheng, *A Wenchenggung nianpu* (Chronological biography of Agui)(1813).

Ningxia zhexue shehui kexue yanjiusuo (eds.), *Qingdai Zhongguo Yisilan jiao lunji* (Essays on Islam in Qing China)(Yinchuan: Ningxia renmin, 1981). **(QZYL)**

Nishi Masao, "Kanshuku Seikai shojo ni okeru Kaikyoto no seikatsu" (The lives of Muslims in Gansu and Qinghai) *Kaikyoken* (Muslim circles) 5:12 (1941), pp. 8-21 and 41.

North China Herald, Sept. 27, 1895; July 3, 1901; January 8, 1902; March 12, 1902; April 9, 1902; June 27, 1914; August 13, 1924.

Overmyer, Daniel, *Folk Buddhist religion: Dissenting sects in late traditional China* (Cambridge: Harvard University Press, 1976).

Pei Jianzhun, "Bai Lang rao Long" (Bai Lang disturbs Gansu), *Gansu wenshi ziliao xuanji* (Gansu historical materials) No. 1 (1978), pp. 40-43.

Pei Zhi (pseud.), "Hai Rui shi fou Huizu?" (Was Hai Rui a Hui?), in HSJ, pp. 274-275.

Pelliot, Paul, "Une ville musulmane dans la Chine du nord" (A Muslim village in north China), *Journal asiatique* (Asiatic journal) 211 (1927), pp. 261-279.

Perry, Elizabeth, *Rebels and revolutionaries in North China*, 1845-1945 (Stanford: Stanford University Press, 1980).

Perry, Elizabeth, "Social banditry revisited: The case of Bai Lang, a Chinese brigand," *Modern China* 9:3 (1983), pp. 355-379.

Pillsbury, Barbara, "No pigs for the ancestors: Pigs, mothers, and filial piety among the 'Taiwanese Muslims,'" paper presented at the Symposium on Chinese Folk Religions, University of California at Riverside. 1974.

Ping Hui jilue (Pacifying the Muslims), in HMQY, Vol. III, pp. 7-14.

Pollak, Michael, *Mandarins, Jews, and missionaries: The Jewish experience in the Chinese empire* (Philadelphia: Jewish Publication Society, 1980)

Polo, Marco, (John Frampton, ed., with introduction, notes, and appendixes by N. M. Penzer), *The most noble and famous travels of Marco Polo together with the Travels of Nicolo de' Conti* (London: Argonaut Press, 1929).

Poppe, Nicholas, *The Mongolian monuments in Hp'ags-pa script* (Wiesbaden: Harrassowitz, 1957).

Qinding Lanzhou jilue (Imperially commissioned military documents on [the campaigns around] Lanzhou)(annotated and punctuated by Yang Huaizhong) (Yinchuan: Ningxia renmin, 1988).

Qinding pingding Shaan Gan Xin Huifei fanglue (Imperially commissioned compendium of military documents on the pacification of the Muslim bandits of Shaanxi, Gansu, and Xinjiang) (Chen Bangrui, comp.) (n.p., Guangxu period).

Qinding Shifengpu jilue (Imperially commissioned military documents on [the campaigns around] Shifengpu)(annotated and punctuated by Yang Huaizhong) (Yinchuan: Ningxia renmin, 1987).

Qinghai minzu xueyuan minzu yanjiusuo and Xibei minzu xueyuan xibei minzu yanjiusuo (eds.), *Xidaotang shiliao ji* (Historical materials on the Xidaotang)(n.p., 1987). (**XSJ**)

Ray, Haraprasad, *Trade and diplomacy in India-China relations: A study of Bengal during the fifteenth century* (New Delhi: Radiant Publishers, 1993).

Rehaimude, "Sufei pai ji qi yu Gaderenye menhuan de guanxi" (Sufism and its relationship to the Qadiriyya *menhuan*),*Xibei shidi* (Northwestern history and geography) 1982:3, pp. 65-71.

Rijnhart, Susan, *With the Tibetans in tent and temple* (Cincinnati: Foreign Christian Missionary Society, 1901).

Rizvi, S.A.A., *Muslim revivalist movements in northern India* (Agra: Agra University, 1965).

Rock, Joseph,*The Amnye-Ma-chhen range and adjacent regions* (Rome: Istituto Italiano per Il Medio ed Estremo Oriente, 1956).

Rockhill, William W. "The Dungan rebellion and the Muhammedans in China," *Asiatic quarterly review* (3rd series) III, pp. 414-418.

Rossabi, Morris, *Khubilai Khan: His life and times* (Berkeley: University of California Press, 1988).

Rossabi, Morris, "Ming China and Turfan, 1406-1517," *Central Asiatic journal* 16:3 (1972), pp. 206-225.

Rossabi, Morris, "Muslim and Central Asian revolts," in Jonathan Spence and J. E. Wills (eds.), *From Ming to Ch'ing* (New Haven: Yale University Press, 1979), pp. 167-199.

Rowell, Galen, *Mountains of the Middle Kingdom: Exploring the high peaks of China and Tibet* (San Francisco: Sierra Club Books, 1983).

Saguchi Toru, "Chugoku Isuramu no shinpishugi" (Mysticism in Chinese Islam) *Tohogaku* (Oriental studies) 9 (1954), pp. 75-92.

Saguchi Toru, "Chugoku Musurimu shakai no issokumen" (One facet of Chinese Muslim society) *Nairiku Ajia no kenkyu* (Inner Asian research) (1955), p. 123-165.

Saguchi Toru, *Shinkyo minzoku shi kenkyu* (History of the *minzu* of Xinjiang) (Tokyo: Yoshikawa kobunkan, 1986).

Saguchi Toru: *Juhachi-jukyu seiki Higashi Torukisutan shakaishi kenkyu* (Social history of eastern Turkestan in the 18th-19th centuries)(Tokyo: Yoshikawa Kobunkan, 1963).

"Sai Dianchi Shan Siding" (Sayyid Adjall Shams ad-Din), in Bai Shouyi, et al. (eds.),*Huizu renwu zhi (Yuan dai)* (Biographical Dictionary of the Hui People: The Yuan Period), pp. 12-27.

Salazu dang'an shiliao (Historical archives on the Salar *minzu*) (Xining: Qinghai minzu xueyuan, 1981).

Salazu jianshi (A brief history of the Salar *minzu*) (Xining: Qinghai renmin, 1982).

"Sara Kai oyobi Moko Kaikai" (The Salar Hui and the Mongol Huihui) *Kaikyo jijo* (Notes on Islam) 1:3 (n.d.), p. ****.

Sauvaget, Jean, *'Ahbar as-Sin wa 'l-Hind: Relation de la Chine et de l'Inde* (Paris, 1948).

Schneider, Laurence, *Ku Chieh-kang and China's New History: Nationalism and the quest for alternative traditions* (Berkeley: University of California Press, 1971).

Schram, Louis, *The Monguors of the Kansu-Tibetan frontier* (Philadelphia: American Philosophical Society, 1954), in three fascicles.

Schurmann, Franz, *Economic structure of the Yuan dynasty: Translation of Chapters* 93 *and* 94 *of the* Yuan shih (Cambridge: Harvard University Press, 1956).

Shan Huapu, "Shaan-Gan jieyu lu" (The tragedy of Shaanxi and Gansu), *Yugong* (Tributes of Yu) 5:11 (n.d.), pp. 95-102.

Shan Huapu, "Shuo Shaan-Gan 'Huiluan' chuqi shi zhi dili guanxi" (On geographical relationships in the initial phase of the 'Muslim uprising' in Shaanxi and Gansu), *Yugong* (Tributes of Yu) 5:11 (n.d.), pp. 91-94.

Shao Hongmuo and Han Min, *Shaanxi Huimin qiyi shi* (History of the righteous uprising of the Shaanxi Muslims)(Xi'an: Shaanxi renmin, 1992).

Shuofang dao zhi (Shuofang [Ningxia] gazetteer) of 1926.

Song shi (Official history of the Song)(Tuo Tuo, comp.) (Taibei: Ershiwu shi biankan guan, 1956).

Struve, Lynn, *Voices from the Ming-Qing cataclysm: China in tigers' jaws* (New Haven: Yale University Press, 1993).

Sutton, S.B., *In China's border provinces: The turbulent career of Joseph Rock* (New York: Hastings House, 1974).

Tan, Chester, *The Boxer catastrophe* (New York: Columbia University Press, 1955).

Taozhou ting zhi (Taozhou subprefectural gazetteer) of 1908 (Taibei: Chengwen reprint, 1970).

Tasaka (Tazaka), Kodo, "An aspect of Islam culture introduced into China," *Memoirs of the Research Department of the Toyo Bunko* No. 16 (1957), pp. 75-160.

Tazaka Kodo, *Chugoku ni okeru Kaikyo no denrai to sono guzu* (The transmission and diffusion of Islam in China)(Tokyo: Toyo Bunko, 1964).

Tazaka Kodo, "Mindai goki no Kaikyoto ryuzoku" (The roving Muslim bandits of the late Ming) *Toyo gakuho* (Oriental journal) 37:1 (June 1954), pp. 46-68.

Teichman, Eric,*Travels of a consular officer in northwest China* (Cambridge; Cambridge University Press, 1921).

Tian Tongjin, "Longshang qunhao ji Majiajun yuanliu gaishu" (The myriad rowdies of GAnsu and the origins of the Ma family armies) *Gansu wenxian* (Gansu repository) 2 (1973), pp. 3-14.

Toby, Ronald, *State and diplomacy in early modern Japan: Asia in the development of the Tokugawa Bakufu* (Stanford: Stanford University Press, 1984).

Toshihiko Izutsu, *Sufism and Daoism* (Berkeley: University of California Press, 1983).

Trippner, Joseph, "Die Salaren, ihre ersten Glaubensstreitigkeiten und ihr Aufstand 1781" (The Salars: Their initial ideological conflicts and their rebellion of 1781), *Central Asiatic survey* 9:4 (1964), pp. 241-276.

Trippner, Joseph, "Islamische Gruppen und Gräberkult in Nordwest-China" (Islamic groups and grave cuts in northwest China), *Die Welt des Islams* (The world of Islam) VII (1961), pp. 142-171.

Wakeman, Frederic, *The great enterprise: The Manchu reconstruction of imperial order in 17th century China* (Berkeley: University of California Press, 1985), in two volumes.

Wakeman, Frederic, "Rebellion and revolution: The study of popular movements in Chinese history," *Journal of Asian studies* 36:2 (1977), pp. 201-237.

Wang Daiyu (punctuated and collated by Yu Zhengui), *Zhengjiao zhenquan* (A True Interpretation of the Orthodox Teaching) (Yinchuan: Ningxia renmin, 1988).

Wang Shumin, "Qianlong sishiliu nian Hezhou shibian ge" (A song on the Hezhou incident of 1781), *Xibei tongxun* (Northwest bulletin) 3:2 (1948).

Wang Shumin, "Xidaotang--xin shehui de muoxing" (The Xidaotang: A model for a new society), in XSJ, pp. 122-124.

Wang Zhiwen, *Gansu sheng xinanbu bianqu kaocha ji* (An investigation of the frontier regions of southwestern Gansu) (Lanzhou: Gansu sheng yinhang, 1932).

Wang Zongwei, "Qingdai Shaanxi Huimin qiyi tong Taiping jun, Nian jun, Li Lan yijun de guanxi" (The relationship of the Qing period Shaanxi Hui righteous uprising with the Taiping, Nian, and Li Lan armies), in QTNSH, pp. 158-173.

Watson, James L., "Rites or beliefs? The construction of a unified culture in late imperial China," in Lowell Dittmer and Samuel Kim (eds.), *China's quest for national identity* (Ithaca: Cornell University Press, 1993), pp. 80-103.

Wen-djang Chu, *The Moslem rebellion in northwest China, 1862-1878: A study of government minority policy* (The Hague: Mouton, 1966).

Weng Dujian, "Wotuo zakao" (Various studies on the *ortaq*) *Yanjing xuebao* (Yanjing journal) 29 (1941), pp. 201-218.

Wu Wanshan, *Qingdai xibei Huimin qiyi yanjiu* (The northwestern Hui people's righteous uprising in the Qing period) (Lanzhou: Lanzhou daxue, 1991).

Xie Guozhen, *Qingchu nongmin qiyi ziliao jilu* (Historical materials on peasanut uprisings in the early Qing) (Shanghai: Xin Zhishi, 1956).

Xin Tang Shu (New official history of the Tang)(Ouyang Xiu, comp.) (Taibei: Ershiwu shi biankan guan, 1956).

Xining dengchu junwu jilue (Military activities around Xining) (Xining: n.p., 1896).

Xu Wanli, "Cong Hezhou shuoqi" (Speaking of Hezhou), *Gansu wenxian* (Gansu repository) No. 3 (1974), pp. 45-47.

Xu Yuhu, *Ming Zheng He zhi yanjiu* (On Zheng He of the Ming)(Gaoxiong: Dexin, 1980).

Xue Wenbuo, "Mingdai yu Huimin zhi guanxi" (Relations between the Ming court and the Hui people), in ZYSCZX, Vol. I, pp. 207-225.

Xue Zhengchang, "Dong Fuxiang yu Ronglu xilun" (Dong Fuxiang and Ronglu), *Xibei Daxue xuebao (zhexue shehui kexue ban)* (Northwestern University journal: Philosophy and social science) 23:4 (1993), pp. 111-116.

Xunhua ting zhi (Xunhua subprefectural gazetteer) of 1844 (Taibei: Chengwen reprint).

Yan Congjian, *Shu yu zhou ci lu* (A complete inquiry regarding strange lands) (1574).

Yang Huaizhong, "Dui *Huihui yaofang* de liangdian xiangfa" (Two points of view regarding the *Huihui yaofang* [Muslim pharmacopoeia]), in HSG, pp. 224-228.

Yang Huaizhong, "Dui xibei diqu Yisilanjiao Sufeipai de jidian renshi" (Some identifications of Islamic Sufi orders in the northwest), in HSG, pp. 278-294.

Yang Huaizhong, *Huizu shi lungao* (Essays on the history of the Hui *minzu*) (Yinchuan: Gansu renmin, 1991). **(HSG)**

Yang Huaizhong, "Lun shiba shiji Zhehelinye Musilin de qiyi" (The righteous uprising of the Jahriyya Muslims in the 18th century), in HSG, pp. 310-370.

Yang Huaizhong, "Sai Dianchi Shan Siding he tade jiazu" (Sayyid Adjall Shams ad-Din and his lineage), in HSG, pp. 177-204.

Yang Huaizhong, "Shiba shiji de Gansu maozhen an" (The 18th century relief fraud scandal in Gansu), in HSG, pp. 371-439.

Yang Huaizhong, "Songdai de Fanke" (Foreign merchants in the Song), in HSG, pp. 82-128.

Yang Huaizhong, "Tangdai de fanke" (Foreign merchants in the Tang), in HSG, pp. 50-81.

Yang Huaizhong, "Zhongguo kexue shishang de Zhamalading" (Jamal ad-Din in the history of Chinese science), in HSG, pp. 205-223.

Yang Zengxin, *Buguo zhai wendu* (Writings from the Buguo Studio), pref. dated 1921 (Taibei: Wenhai reprint, 1965).

Yang, C.K., "Some preliminary statistical patterns of mass actions in nineteenth-century China," in Frederic Wakeman and Carolyn Grant (eds.), *Conflict and control in late imperial China* (Berkeley: University of California Press, 1975), pp. 174-210.

Ye Guoqing, "Li Zhi xian shi kao" (On Li Zhi's origins), in HSJ, pp. 276-284.

Ye Zhenggang, "Ningxia Yiheiwani zhuming jingxuejia Hu Songshan" (Hu Songshan, the reknowned scripturalist of the Ningxia Ikhwan), in QZYL, pp. 308-325.

Yi Kongzhao, et al. (eds.), *Pingding Guanlong jilue* (Records of pacifying Shaanxi and Gansu), in HMCY, Vol. III, p. 241-Vol. IV, p. 209.

Yibulaheimai (Ibrahim), A., "Gansu zhangnei Tangwanghua jilue" (Tangwanghua [language] of Gansu), *Minzu yuwen* (Nationality languages) No. 6 (1985), pp. 33-47.

Yu Yao, "Bai Lang qiyi jun zai Longnan de huodong" (The activities of Bai Lang's righteous army in southern Gansu), *Gansu shida xuebao* (Gansu Normal University journal) No. 4 (1981), pp. 116-120.

Yu Yao, "Wusi yundong dui Gansu de yingxiang" (The influence of the May Fourth Movement in Gansu), *Gansu shida xuebao* (Gansu Normal University journal) No. 2 (1979), pp. 102-105.

Yu Yao, "Xinhai geming zai Gansu" (The 1911 revolution in Gansu), *Gansu shida xuebao* (Gansu Normal University journal) No. 3 (1979), pp. 96-99.

Yuan shi (Official history of the Yuan)(Song Lian, comp.) (Taibei: Ershiwu shi biankan guan, 1956).

Zeng Liren, "Xi Nian jun he xibei Huimin jun lianhe de yixie wenti" (Some problems in the connections between the western Nian army and the northwestern Muslim army), in HSJ, pp. 491-510.

Zhang Chengzhi, "Kakusareta Chugoku Isuramukyo no himitsu shiryo--*Rashufu*" (The *Rashuh*, a lost secret historical text of Chinese Islam), *Toyo gakuho* (Oriental journal) 73:1-2 (1992), pp. 77-82.

Zhang Qiyun, "Taoxi quyu diaocha jianbao" (Brief report on the Taoxi region), *Dili xuebao* (Geography journal) 2:1 (1935), sep. pag.

Zhang Qiyun, *Xiahe xian zhi* (Xiahe county gazetteer) (Taibei: Chengwen reprint, 1970).

Zhang Wei, "Gu Guomin zhengfu Meng Zang weiyuanhui weiyuanzhang Ma Yunting jinian bei" (An inscription in memory of Ma Yunting [Ma Fuxiang], former head of the Mongolia-Tibet Commission of the national government),*Guoshiguan guankan* (National history museum journal) 1:4 (1948), pp. 110-112.

Zhang Xinglang, *Zhong-Xi jiaotong shiliao huipian* (Collected historical materials on East-West relations) (Beijing, 1930).

Zhang Yangming, *Dao xibei lai* (Coming to the northwest) (Shanghai: Shangwu, 1937).

Zhao Shiying, "Gansu dizhen jianzhi" (A chronology of Gansu earthquakes), *Gansu wenshi ziliao xuanji* (Gansu historical materials) No. 20 (1984), pp. 183-296.

Zhao Songyao, "Gansu Ziyiju ji qi yanbian" (The evolution of the Gansu provincial assembly), *Gansu shida xuebao* (Gansu Normal University journal) No. 4 (1981), pp. 53-59.

Zheng Hesheng and Zheng Yijun, *Zheng He xia xiyang ziliao huibian* (*Zhong*, Part 1)(Collected materials on Zheng He's voyages, Vol. II, Part 1)(Jinan: Jilu, 1983).

Zhenyuan xian zhi (Zhenyuan county gazetteer) of 1935.

Zhongguo gongchandang xibei yanjiu she (eds.), *Kangzhanzhong de Gan-Ning-Qing* (Gansu, Ningxia, and Qinghai in the war against Japan) (n.p., 1941).

Zhongguo shihui kexue yuan minzu yanjiusuo and Zhongyang minzu xueyuan minzu yanjiusuo (eds.), *Huizu shi lunji (1949-1979 nian)* (Essays on the history of the Hui *minzu*, 1949-1979)(Yinchuan: Ningxia renmin, 1983). **(HSJ)**

Zhou Zhenhe (ed.), *Qinghai* (Taibei: Commercial Press reprint, 1970).

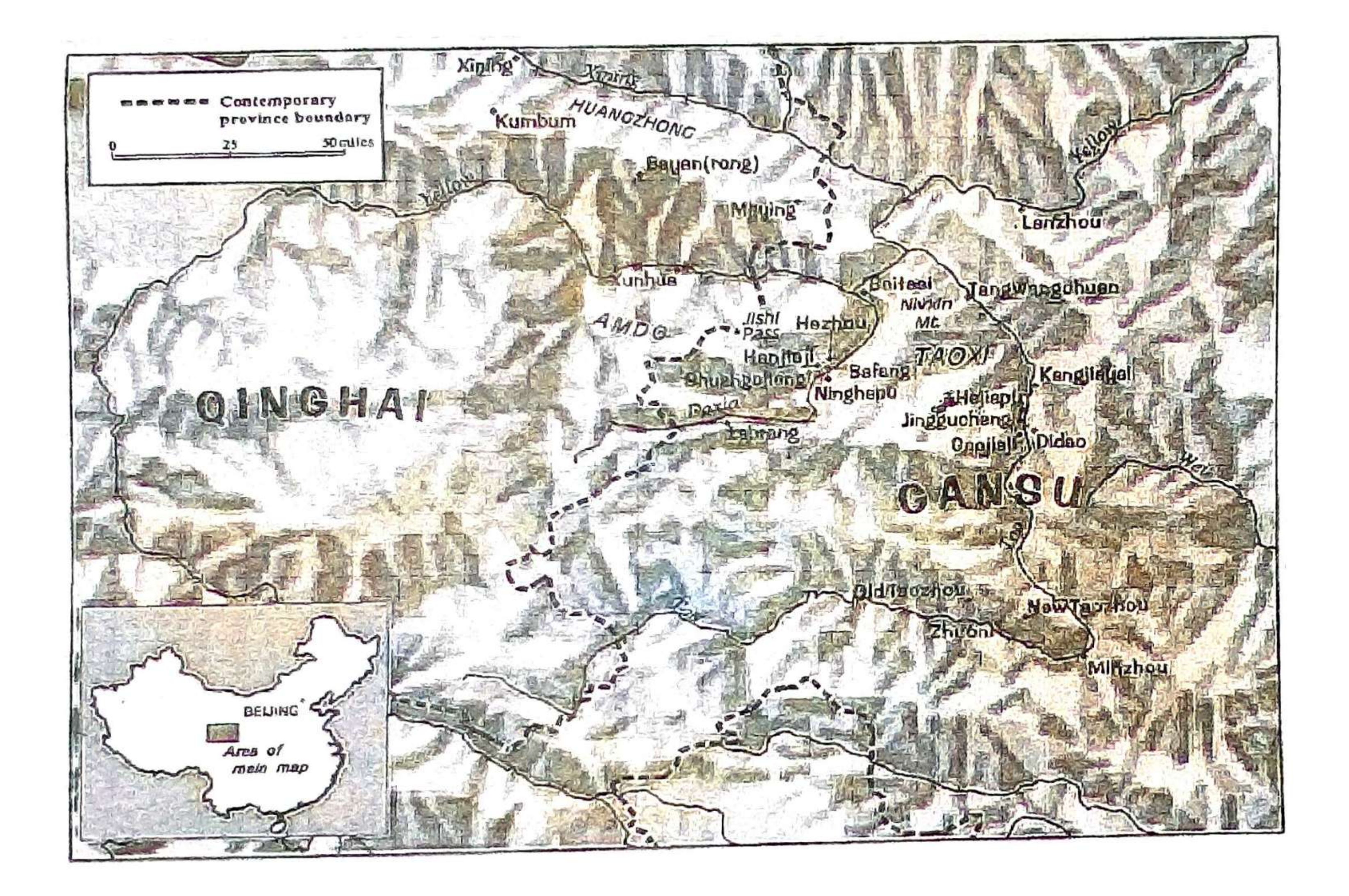
Zhu Chongli, "Tongzhi shiqi Shaanxi Huimin qiyi zhong Hui-Han renmin de lianhe douzheng" (The combined struggle of Hui and Han people during the Tongzhi period Shaanxi Hui righteous uprising), in QTNSH, pp. 187-195.

Zhu Gang, "Zhongguo Yisilanjiao Xidaotang xinyang shuping" (Evaluation of the beliefs of the Chinese Islamic Xidaotang), in XSJ, pp. 97-116.

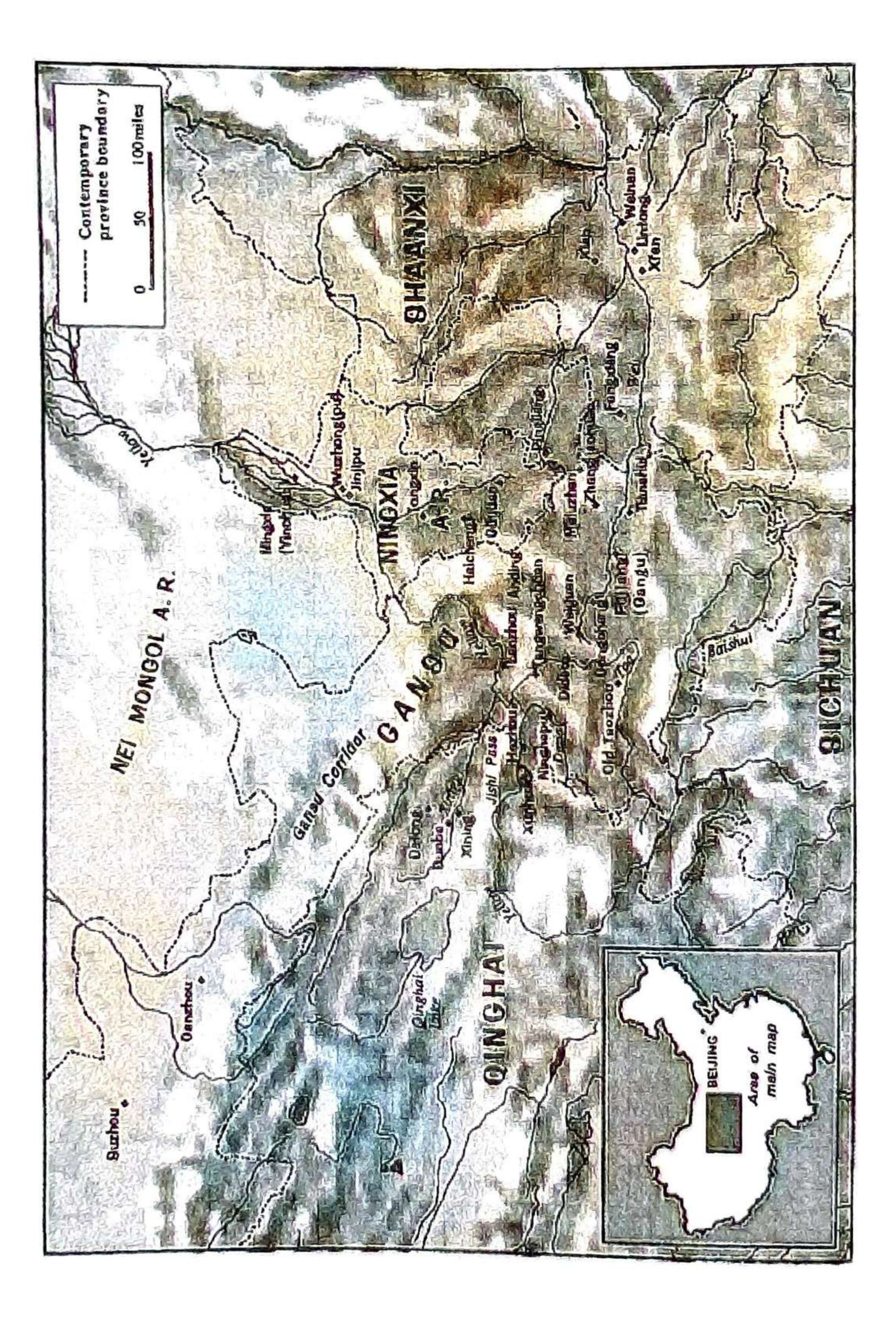
Zi Heng, "Zhongguo Yisilanjiao Xidaotang shilue" (A history of the Chinese Islamic Xidaotang), in XSJ, pp. 1-74.

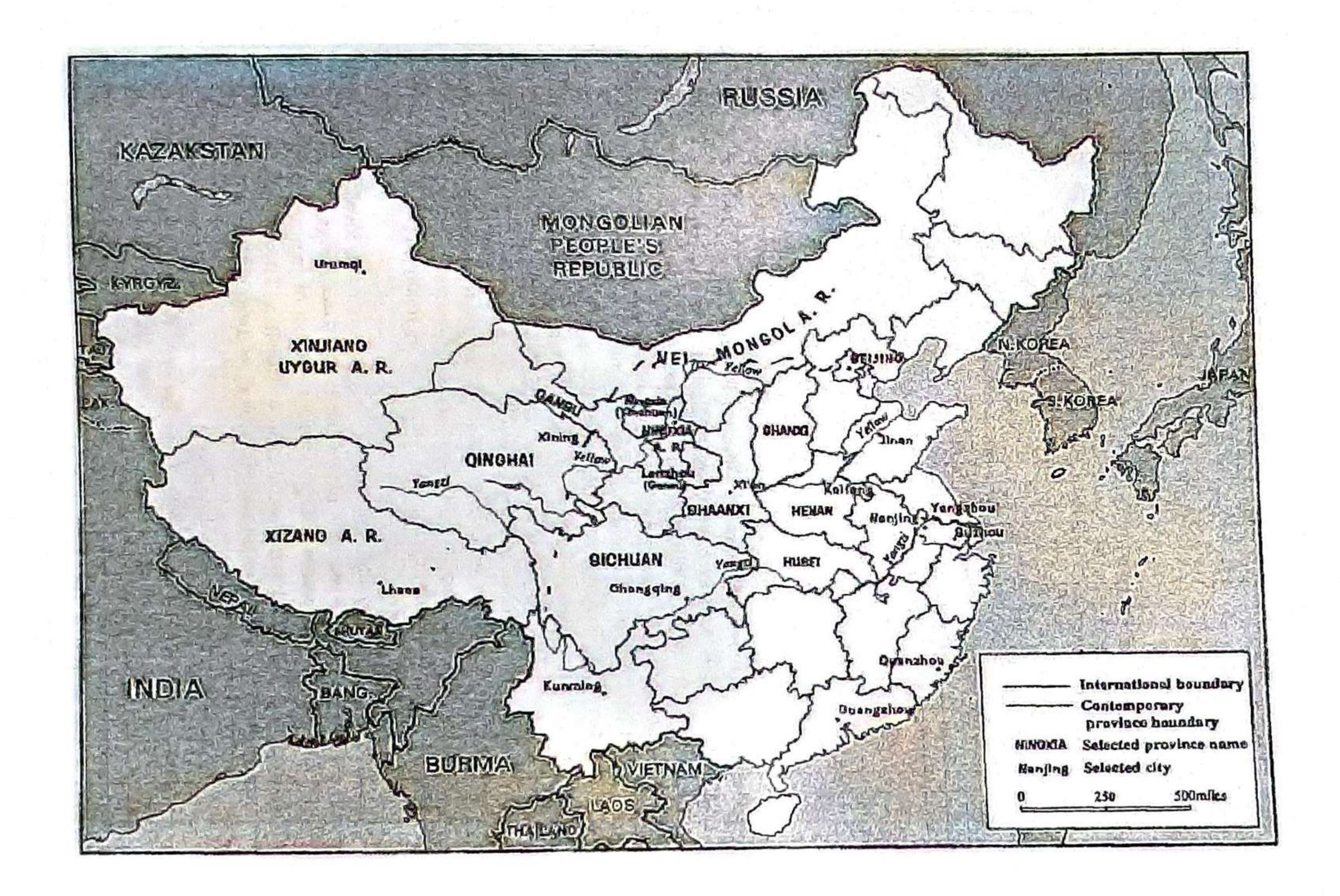
http://www.akhbaar.org/home/2013/1/140564.html1.

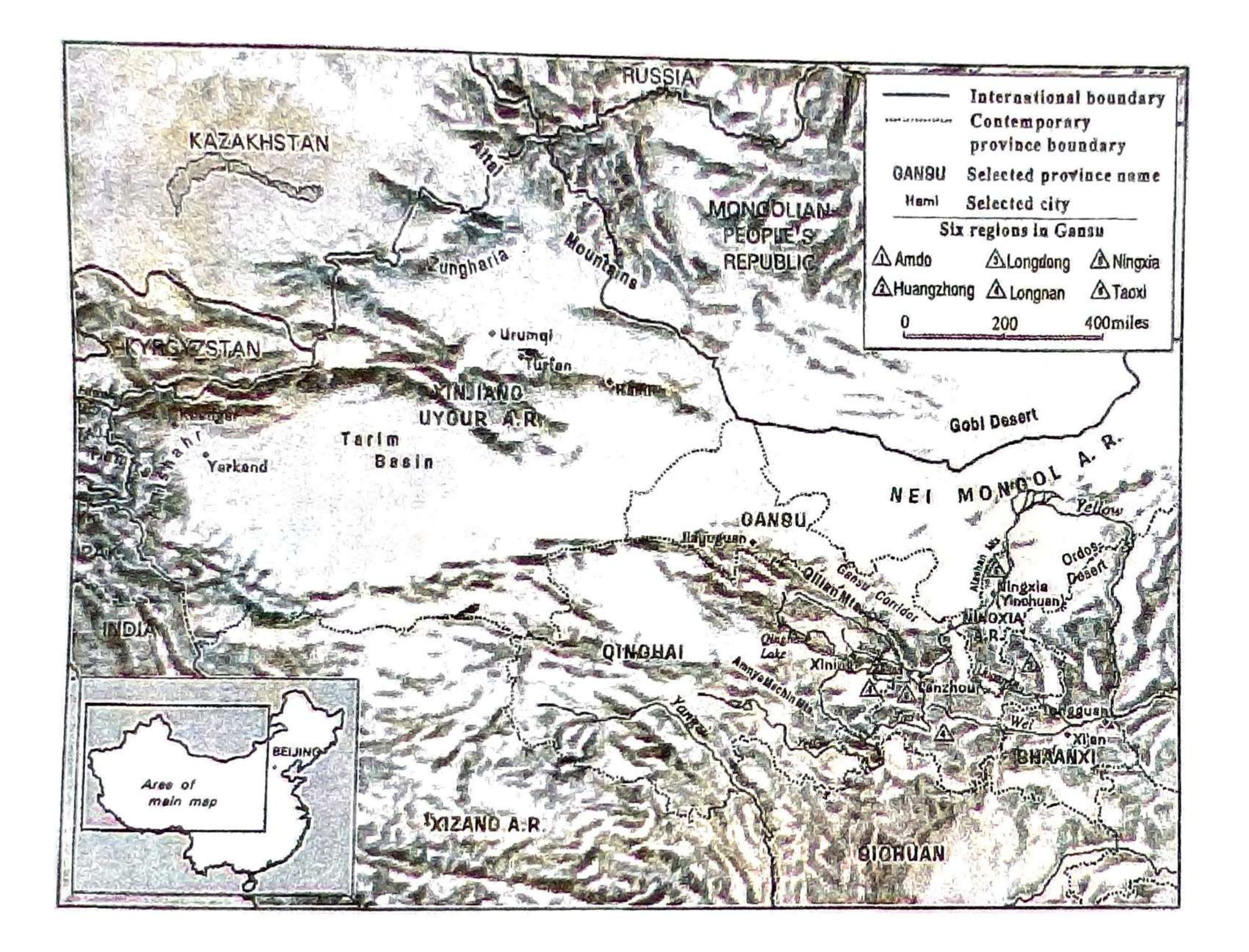
2. http://www.alarabiya.net/default.html



Contemporary province boundary
0
25
50 miles
Xining
Kumbum
HUANGZHONG
Bayan(rong)
Yellow
Lanzhou
Xunhua
AMDO
Jishi Pass
Hezhou
Baishi
Niuxin Mt.
Tangwangchuan
TAOXI
Bafang
Ninghepu
Kangjiajai
Hejiapu
Jingguchang
Didao
QINGHAI
Dexia
Labrang
GANSU
Wei
Tao
Old Taozhou
New Taozhou
Zhuoni
Minzhou
BEIJING
Area of main map


Contemporary province boundary
0 50 100 miles
Suzhou
Ganzhou
NEI MONGOL A.R.
Yellow
Gansu Corridor
GANSU
NINGXIA
A.R.
SHAANXI
Qinghai Lake
Xining
Jishi Pass
QINGHAI
Hezhou
Lanzhou
Anding
Jinjipu
Old Taozhou
(Gangu)
Fengxiang
Weinan
Baishui
SICHUAN
BEIJING
Area of main map


RUSSIA
KAZAKSTAN
MONGOLIAN
PEOPLE'S
REPUBLIC
KYRGYZ
Urumqi
XINJIANG
UYGUR A. R.
NEI MONGOL A. R.
BEIJING
Yellow
N.KOREA
JAPAN
S.KOREA
GANSU
NINGXIA
A. R.
SHANXI
Xining
Yellow
Jinan
QINGHAI
Yangzi
Lanzhou
Xi'an
Kaifeng
SHAANXI
HENAN
Nanjing
Yangzhou
Suzhou
XIZANG A. R.
SICHUAN
Yangzi
HUBEI
Lhasa
Chongqing
NEPAL
BHUTAN
Quanzhou
INDIA
BANG.
Kunming
Guangzhou
BURMA
VIETNAM
LAOS
THAILAND
International boundary
Contemporary
province boundary
NINGXIA Selected province name
Nanjing Selected city
0 250 500miles


RUSSIA
KAZAKHSTAN
Altai
Mountains
MONGOLIAN PEOPLE'S REPUBLIC
Zungharia
KYRGYZSTAN
Urumqi
Turfan
XINJIANG UYGUR A.R.
Tarim Basin
Yarkand
Gobi Desert
NEI MONGOL A.R.
Yellow
GANSU
Jiayuguan
Qilian Mts
Gansu Corridor
Ordos Desert
Alashan Mts
Ningxia (Yinchuan)
NINGXIA A.R.
INDIA
QINGHAI
Qinghai Lake
Xining
Amnye Machin Mts
Lanzhou
Wei
Tongguan
Xi'an
SHAANXI
Yangzi
XIZANG A.R.
SICHUAN
BEIJING
Area of main map
International boundary
Contemporary province boundary
GANSU Selected province name
Hami Selected city
Six regions in Gansu
1 Amdo
2 Huangzhong
3 Longdong
4 Longnan
5 Ningxia
6 Taoxi
0 200 400miles

فهرس المحتويات

الإهداء ٥

مقدمة المترجم ٧

مقدمة المؤلف: أغراض تاريخ المسلمين في الصين وإشكاله ٢٧

المنتسو ٣٠

طرق تصنيف المسلمين ٣٧

الدين ٣٧

الطائفية والطرائق والتعاليم والتضامن ٣٨

العنصر أو الإثنية ٣٩

الإمبراطورية والأمة ٤٠

المصادر التاريخية والنظرة إليها ٤٢

توضيح الاضطراب في المجتمع ٤٣

العلاقة بين السبب والمسبب ٤٦

التكيف التدريجي ٤٧

وجهة نظر من تخوم الإمبراطورية: الغرباء المألوفون ٤٩

الفصل الأول: أراضي تخوم الإمبراطورية وسكان شمال غرب الصين ٥١

أرض التخوم ٥٤

أرض تخوم محافظة گانسو ٥٦

تعدد المراكز والحدود الخارجية ٥٩

السالار في منطقة التخوم ٦٣

سكان التخوم ٦٣

مسلمو گانسو مجتمع خليط ٦٥

الفصل الثاني: التشبع الثقافي والتكيف: مسلمو الصين حتى القرن السابع عشر

الوصول إلى صين التانگ والسونگ (٦١٨-١٢٧٩) كيف جاء المسلمون إليها ... ٧١

المسلمون في فترتي التانگ والسونگ ٧٣

بدايات الانتماء ٧٧

المسلمون خلال فترة حكم اليوآن (١٢٧٩- ١٣٦٨) أربع صور لوزير المالية أحمد فنقطي ٨٠

حكم الصين: سيطرة السيمو والمغول ٨١

تغير الأدوار وتحول الصور ٨٤

تحول الموقف في فترة حكم المنگ (١٣٦٨-١٦٤٤) ٨٧

الإسلام والمسلمون ٨٨

مسلمو الصين وتقييدات المنگ على التجارة الأجنبية ٩٤

ردود الفعل على عملية التشبع الثقافي ومقاومتها ٩٥

الإنتماء: القديمو وجينگتانگ جيّاو ٩٦

غرباء وقت الشدة التحول من حكم المنگ إلى حكم التشينگ (١٦٤٤-١٦٥٠) ... ١٠١

الانحياز ١٠٢

الفصل الثالث: الارتباط بين المسلمين خلال مطلع فترة حكم التشينگ ١٦٤٤-١٧٨١ التأثير الغربي: الصوفية في الصين ١٠٩

هداية الله ودخول الصوفية إلى الصين ١١٠

القديمو والطرائق الصوفية ١١١

ما لايتشر وبروز المينخوان ١١٥

التأثير الشرقي وكتب الخان الإسلام بملامح صينية ١٢٢

الانتعاش الثقافي لمسلمي الصين: ما جو ولو جي ١٣٠

إحياء الحركة النقشبندية في الصين ١٣٦

ما منگشين والجهرية: الصلة العربية ١٣٧

الصراع بين الطرائق الصوفية ١٤٠

التغيرات في القرن الثامن عشر ١٤٤

فتح شينجيانگ ١٤٥
سوء الإدارة تحت ظل امبراطورية التشينگ ١٤٧
المسلمون في مفهوم قوانين امبراطورية التشينگ ١٤٩
عسكرة المجتمع والعنف المحلي ١٥٤
الفصل الرابع: الخطط الاستراتيجية للمقاومة: الدمج باستخدام العنف حين سالت الدماء الأولى في عام ١٧٨٠ .... ١٥٧
الخفية ضد الجهرية في شونخوا ١٥٨
من الصراع إلى "الثورة" ١٦٢
ثأر الجهرية عام ١٧٨٤ .... ١٦٧
ثورة كبيرة كل ستين سنة ١٧٢
تاريخ الثورة الكبرى ١٧٣
ثورات ذات تركيز مختلف: شانشي ١٧٥
ثورات ذات تركيز مختلف: گانسو ١٨١
ثورة أم "ثورات" إسلامية ١٨٦
ثورة صغيرة كل ثلاثين سنة ١٩٥
التعاليم الجديدة القديمة والجديدة الجديدة ١٩٦
فعل التشينگ ورد فعل المسلمين ١٩٩
حدود العنف ٢١٣
القوة الساحقة في شينينگ ٢٢١
الدروس وعبرها ٢٢٥
الفصل الخامس: استراتيجيات تكيف المسلمين اجتماعيا في الصين الجديدة أمراء الحرب في تشكيلة الشعب الصيني الجديد ٢٢٩
١. ما فوشيانگ (١٨٧٦-١٩٣٢) ٢٣٠
كيف أصبح أمير حرب ٢٣٠
صعود نجم ما فوشيانگ ليصبح شخصية وطنية ٢٣٥
٢. ما يوانجانگ (١٨٥٣-١٩٢٠) بعث الطريقة الجهرية ٢٤٢

الذي قام من الرماد ٢٤٢
تقيل فكرة الصين الجديدة ٢٤٨
٣. ما تشيشي (١٨٥٧ -١٩١٤) وحركته الصينية الإسلامية التعاونية في جنوب
گانسو ٢٥٣
قائد محلي ذو نظرة قومية وطنية ٢٥٣
ترسيخ مبدأ الفلسفة التعاونية (المبدأ الإشتراكي القائل بسيطرة الدولة على وسائل
الإنتاج) ٢٥٧
كيف تحافظ على حياتك في عشرينات القرن العشرين ٢٦٢
كيف تكون مسلما وصينيا في نفس الوقت ٢٦٥
٤. ما وانفو (١٨٥٣ – ١٩٣٤) بروز حركة "الإخوان الصينيون" ٢٦٨
الحياة المبكرة للحاج ما وانفو ٢٦٨
النص والمحتوى: انتشار الإخوان في الصين ٢٧٣
التحالف مع ما تشي ٢٧٦
الإخوان والحركة الوطنية الصينية ٢٧٨
الفصل السادس: غرباء مألوفون ٢٨٣
تعدد التكافؤ والقيم ٢٨٤
مشكلة العنف ٢٨٩
مشكلة الأسماء ٢٩٤
التناقض في مناطق الثغور ٢٩٧
تعارض الهوية ٣٠٠
غرباء مألوفون ٣٠٣
المراجع ٣٠٦
فهرس المحتويات ٣٣٣